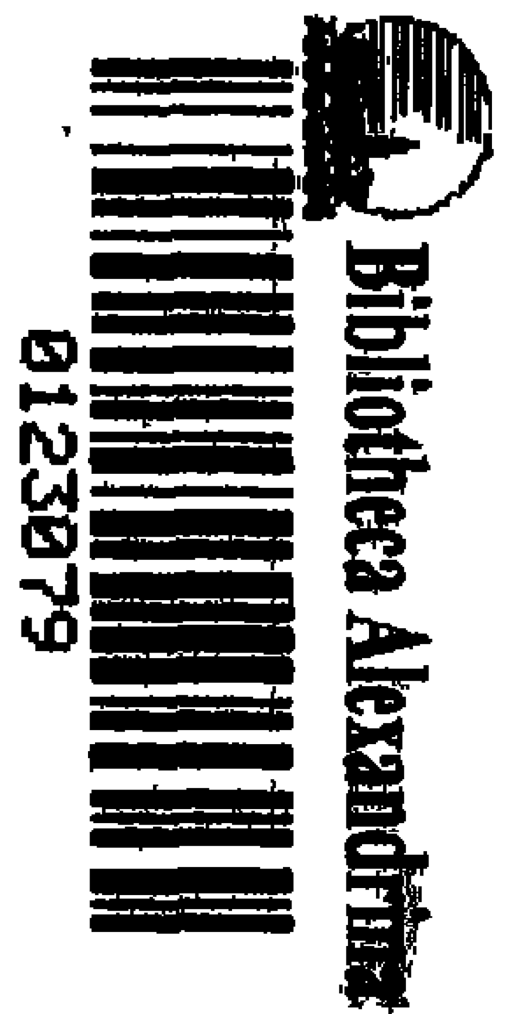
دراسات منهجية هادفة
في البناء

جند الله
ثقافة وأخلاقا

« وان جندنا لهم الغالبون »
صدق الله العظيم

سعيد حوى

طبعة منقحة ومصححة
من الأخطاء الواردة بالطبعات السابقة

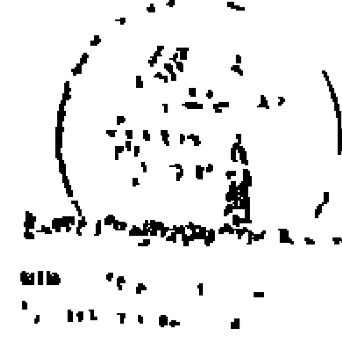


يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت ٣٩١٧٤٧٠

دراسات منهجية هادفة
فى البناء

جند الله
ثقافة وأخلاقا

« وان جندنا لهم الغالبون »
صدق الله العظيم



تأليف

سعيد حوى

طبعة منقحة ومصححة
من الأخطاء الواردة بالطبعات السابقة

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت: ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الرابعة

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف للطبعة الرابعة

إننى أشكر الذين نقدوا هذا الكتاب ، ونقدوا صاحبه .. فقد أحسنوا بذلك إلى الكتاب وإلى صاحبه .

كما أشكر الذين ساهموا فى نشر الكتاب حتى نفدت نسخه فى أقل من عام .

كما أشكر الذين عبّروا عن عواطفهم الرقيقة نحو الكتاب والمؤلف لأنهم نظروا إلى الجانب الإيمانى فى الموضوع .

وأسأل الله لى وللجميع قبولاً منه ومغفرة ورضواناً ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ (١) .

« صدق الله العظيم »

* * *

(١) آل عمران : ١٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله

● هذا الكتاب هو الكتاب الثانى بعد كتاب الأصول الثلاثة « الله ، الرسول ، الإسلام » من الدراسات الإسلامية المنهجية .

وقد كانت غايتنا من الكتاب الأول إخراج الرجل المؤمن .

وغايتنا من هذا الكتاب إخراج الرجل المجاهد فى سبيل الله .

وإنّا لنرجو أن يكون كلا من الكتابين محققاً للغرض الذى من أجله قد أُلّف ، خاصة إذا رافق الأول إقبال على الله بالذكر وقراءة القرآن ، وإذا رافق الثانى تدبر لسورتى الأنفال والتوبة . ولذلك فإننا نوصى قرّاء هذا الكتاب بهذا ، وقرّاء كتاب الأصول الثلاثة بذلك :

● والدراسات الإسلامية المنهجية قسمان ، الأول : فى الأصول الثلاثة ، والثانى : فى البناء .

والقسم المخصص للبناء منه ما له علاقة فى بناء الشخصية الإسلامية – وهو هذا الكتاب – ومنه ما له علاقة فى جوانب أخرى .

وكل من هذه الدراسات يكمل الآخر : وكلها تهدف نحو وضع المسلم كفرد ، والمسلمين كمجموع على المنهج . وترتيب الدراسة الذى نؤثره هو :

أولاً : دراسة الأصول الثلاثة .

ثانياً : دراسة جند الله ثقافة وأخلاقاً .

وإنّا لنرجو إذا ما اكتمل للمسلم هذا كله ، أن يكون عرف جواب بعض ما يشغل باله إن كان ممن يشغل باله الإسلام . أو يكون قد عثر على بداية الطريق ، إن كان ممن شُغِلوا عن الإسلام ، ونسأل الله أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه ، وأن يتقبلها ويحسن خاتمتنا فى الدنيا والآخرة .. إنه سميع مجيب .

المؤلف

* * *

تقـــديم

١ - هل فى العالَم الإسلامى رِدَّة ؟

للجواب على هذا السؤال لا بد من تأمل عميق لبعض الآيات القرآنية ، فإذا ما اتضحت لنا هذه الآيات استطعنا بعد ذلك أن نصدر حكماً فى هذا الموضوع من خلال تطبيق مضمونها على واقعنا الحالى :

(أ) قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ (١) ، وبالتأمل الصحيح لهذا النص نجد :

أنَّ الآية نص صريح فى الحكم بالرِدَّة على كل مَن أطاع الكافرين ولو فى بعض أمره . فالآية اعتبرت مرتداً مَن أعطى لمن كره ما أنزل الله الطاعة فى بعض الأمر ، والواقع الذى نرى عليه حال كثير من ذرارى المسلمين أنهم أعطوا الطاعة كاملة فى كل شىء لطبقات من الكافرين مستحلين ذلك غير شاعرين بالكفر أو شاعرين ، ومنهم مَن أعطاه لكافر صريح ، ومنهم مَن أعطاه لمنافق ... والأمثلة أكثر من أن تُحصَى .

(ب) قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

فهذه الآية صريحة فى تكفير مَن لم يحكم بما أنزل الله ، وبعض العلماء يجعلها فيمن يفضّلون على حكم الله حكماً آخر أو يستحلون الحكم بغير ما أنزل الله .

---

(١) محمد : ٢٥ - ٢٦ (٢) المائدة : ٤٤

وعلى أى وجه حملنا الآية فإن تطبيقاته فى العالَم الإسلامى كثيرة حتى أصبح الحكم بغير ما أنزل الله هو السمة الأصيلة فى كل نظام موجود فى العالَم الإسلامى تقريباً . والناس فى ذلك أقسام : فمنهم الداعى جهراً إلى تطبيق غير حكم الله كإباحة الزنا والفجور والعهر والخمر والتماثيل ونبذ الحدود والقصاص والتمسك بالقوانين الوضعية ، ومنهم الذى ينفّذ ذلك بصمت ولو ناقشته لوجدته كالآخرين ، ومنهم الذى لا يرى صلاحية الأحكام الإسلامية للتطبيق ، ومنهم الذى اعتاد على الكفر المحكوم به حتى ولو حملته على التفكير بالثورة عليه نَفَرَ .

ومنهم الذى إذا دعوته إلى العودة إلى الكتاب والسُنّة وأقوال الأئمة سخر واستهزأ . ومنهم الذى إذا دعوته إلى العمل للعودة إلى أحكام الله قال لك : قد انتهى هذا الدور .

ومنهم الذى يعتبر أحكام الله رجعية وغيرها تقدمية .

ومنهم الذى ينادى فى زعمه بدعوات إصلاحية وهو يدعو إلى ترك أحكام الله واستبدالها بغيرها كالدعوة إلى تحريم الزواج بأربع ، وغير ذلك كثير .

وقد ظهرت هذه المعانى كلها فى حكومات وأحزاب وجمعيات ومؤسسات واتجاهات وصحف ومجلات حتى أصبح الأمر لا يُطاق .

وقد تتفاوت الأقطار الإسلامية من حيث ظهور هذه المعانى فيها ، ولكن بذور هذا كله موجودة بعضها أشجر وأثمر وبعضها آخذ طريقه إلى الإشجار والإثمار الخبيث . حتى لقد وصل الأمر فى بعض البلاد أن سار بعض الحكّام فى طريق استئصال العبادات الإسلامية والعادات الإسلامية فيأمر أحدهم المسلمين بالإفطار فى رمضان وفطر أمامهم علناً ، ويحدد بعضهم عدد مَن يُسمح لهم بالذهاب إلى الحج – وهذا إذا سمح .

أما القوانين .. فحتى قانون الأحوال الشخصية لم يسلم من إدخال الشرائع الكافرة فيه فى أكثر البلدان .

إنه لا السُلطة التنفيذية ولا التشريعات ولا القضاء ولا القوانين ولا اللوائح الإسلامية ، ولا كذلك القائمون عليها ، فبماذا نحكم على أصحاب ذلك كله ؟

(جـ) قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ (١) وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ (٢) .

لقد ذكرت هاتان الآيتان أن علامة الإيمان القبول والرضا بتحكيم الله فى كتابه وتحكيم الرسول فى سُنّته ، وعلامة النفاق عدم الرضا والاحتكام إلى الله ورسوله .

وواضح أنَّ أغلب المنظمات السياسية فى العالَم الإسلامى وعامة الحكومات ليس عندهم استعداد أبداً للاحتكام إلى كتاب الله ، وإذا كانت جماهير المسلمين متأثرة بهذه المنظمات والحكومات إلى حد كبير وتشارك فى تأييدها وطاعتها فإنَّ ذلك يبيِّن بوضوح الطريق الخطر الذى سار عليه المسلمون .

(د) قال تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (٣) ، وقَال : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ (٤) .

فقد حصر الحاكمية فيه جَلَّ جلاله – فهو الحاكم المطلق – وأى خروج على هذه الحاكمية أو عدم إذعان لها أو عدم استسلام ورضا يعنى عدم الإيمان ، قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٥) .

وأى نظرة تلقيها على المسلمين تجد بوضوح تام أنَّ كتاب الله فى واد والناس فى واد آخر . وأى نقاش تدخله مع الكثير ممن هم أبناء مسلمين تجد التسليم للنصوص فيه عندهم مفقوداً .

---

(١) الطاغوت : كل متعد وكل ما عُبِد من دون الله . (٢) النساء : ٥٩ – ٦٠ .
(٣) يوسف : ٤٠ . (٤) الأعراف : ٥٤ (٥) النساء : ٦٥

(هـ) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ العَذَابِ﴾ (١) .

لقد اعتبرت هذه الآيات تطبيق بعض الكتاب إيماناً بهذا البعض ، وعدم تطبيق البعض الآخر كفراً بهذا البعض ، وإذن فعدم التطبيق العملى للكتاب على مستوى الأمة نوع من أنواع الكفر ، وما أكثر هذا النوع من الكفر الآن فى الأقطار الإسلامية . إنَّ هذا النوع من الكفر جزاؤه الذلّة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، ولعل وقوع المسلمين فى هذا النوع من الكفر التطبيقى سبب من أسباب ذلّتهم .

ولعل هذه الآية تبيِّن لنا سبب النهاية السيئة لكثير من الحاكمين فهم بين طريد وخليع وقتيل ومتهم ... وكلها أنواع من الذلّة .

على ضوء ما مَرَّ معنا نستطيع أن نقول إنَّ فى العالَم الإسلامى اليوم رِدَّة ، ومَن لم يرتد من أبنائه فإنه فى حالة ترك للإسلام ، والقليل القليل مَن بقى مستمسكاً به معتصماً بحبل الله .

ومن خلال قراءة نواقض الشهادتين التى ذكرناها فى الفصل الأول من كتاب « الإسلام » يستطيع الإنسان أن يدرك عمق ما ذكرناه إذا ما طبِّق ذلك ككل على أحوال المسلمين .

إنَّ مظهر الرِدَّة ذلك الجيل الضخم الذى يقف من الإسلام موقف الخصم ، وإنَّ مظهر الترك ذلك الجيل الضخم الذى ينطبق عليه قول الله تعالى :

---

(١) البقرة : ٨٤ - ٨٥

﴿ فَخَلَفَ من بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ (١) .

والقليل الباقى وحده الذى ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بالكتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (٢) ، وإذا أردت التأكد من هذا فتعال إلى أى جامعة أو كلية عادية فى العالم الإسلامى فإنك ستجد أن ٩٠٪ من أهلها لا يقيمون الصلاة و ١٠٪ فقط يقيمون الصلاة ، وحتى بعض الذين يقيمونها قد نجد عندهم آراء تعتبر ناقضة للشهادتين ، فإذا كانت الصلاة هى رمز الإسلام العملى تبيَّن لك صحة ما سبق .

إذن المسلمون فى العالم الإسلامى فى حالة ردَّة أو ترك قليل أو كثير لهذا الدين إلا قليلاً ، ومع وجود مسلمين لم يرتدُّوا ولم يتركوا ، ومع وجود مسلمين تركوا ولم يرتدُّوا ، فإنَّ طابع الردَّة هو الذى صبغ حياة العالم الإسلامى على اعتبار أنَّ أجهزة الحكم كلها تقريباً آلت إلى يد مرتدِّين أو منافقين أو كافرين أصليين .

وشىء عادى أن المرتد أو المنافق أو الكافر لا يلتزم بالإسلام ولا يلزم نفسه به إلا فى حدود خطة مرحلية مؤقتة ليُجهز عليه فى النهاية .

وشىء عادى فى دولة رؤوسها أمثال هؤلاء ألا تكون المناهج إسلامية وألا يكون مَن بيدهم تسيير الأمور إسلاميين .

ولما كان كل شىء بيد الدولة فى عصرنا - من التوجيه إلى التعليم إلى الصحافة إلى الإذاعة والتليفزيون إلى التخطيط السياسى والاقتصادى والداخلى والخارجى وأمور الحرب والسلم - فقد أصبح دولاب الحياة كله يدور فى غفلة عن الله وعن دين الله وأحكامه وشريعته .

وأصبح الناس أجزاء فيه يتحركون بحركته ، بل يساعدونه على الدوران والاستمرار ، شعروا أو لم يشعروا ، ويزداد البُعد عن الإسلام يوماً بعد يوم .

---

(١) غياً : اسم واد فى جهنم - والآية من سورة مريم : ٥٩ (٢) الأعراف : ١٧

ونتيجة لذلك فقد تم انحسار الإسلام عن الحياة انحساراً تاماً تقريباً ..

انحسر نظامه السياسى : انحسر مفهومه عن الأمة ليحل محله مفهوم القومية ، وانحسر مفهومه عن الوطن ليحل محله مفهوم آخر ، وانحسر مفهومه عن القضاء ليحل محله مفهوم آخر ، وانحسرت تشريعاته فحلَّ غيرها محلها ، وانحسر مفهومه عن الشورى لتحل محله مفاهيم الديمقراطية الشرقية أو الغربية ، وانحسر مفهومه عن السُلطة التنفيذية ليحل محله مفهوم جاهلى كامل ، وانحسر مفهومه عن الحزبية الربانية لتحل محلها الحزبية الجاهلية .

وانحسر نظامه الاقتصادى : انحسر مفهومه عن المِلكية وطرق التملك والحقوق فى التملك ومآل التملك ، وانحسر مفهومه عن بيت المال وواردات ونفقاته ، وانحسر مفهومه عن الطُرق التى تُحَل بها المشاكل الاجتماعية والاقتصادية ، وانحسر مفهومه عن وحدة المسلمين الاقتصادية ، وانحسر مفهومه عن الاكتفاء الذاتى ... إلى غير ذلك من الأسرة والعائلة ، وانحسر مفهومه عن التربية الأسرية ، وانحسر مفهومه عن مفاهيم الإسلام عن الاقتصاد .

وانحسر نظامه الاجتماعى : انحسر مفهومه عن العلاقات الاجتماعية التى تربط بين الناس ، وانحسر مفهومه عن الرجل والمرأة والعلاقة التى تربط بين الاثنين ووظيفة كل منهما الاجتماعية .

وانحسر نظامه العسكرى : انحسر مفهومه عن الجهاد ، وانحسر مفهومه عن الإعداد ، وانحسر مفهومه عن التدريب ، وانحسر مفهومه عن أدب المعركة .

وانحسر نظامه التعليمى : انحسر مفهومه عن فروض العين وفروض الكفاية ، وانحسر مفهومه عن العلوم المفروضة والمكروهة والمباحة ، وانحسر مفهومه عن التربية والتعليم والهدف من التربية والتعليم والشخصية التى تتخرج بالتربية والتعليم .

وانحسر نظامه الأخلاقى : انحسر مفهومه عن الإنسان ، وانحسر مفهومه عن الشخصية ، وانحسر مفهومه عن الآداب ، وانحسر مفهومه عن السلوك ، وانحسر مفهومه عن الأخلاق الأساسية .

لقد انحسرت أنظمة الإسلام وانحسرت إلى حد ما عباداته ثم انحسرت عقائده نتيجة لذلك . حتى إنك نادراً ما تجد بين مثقفى العالَم الإسلامى إنساناً صافى العقيدة سليمها ، فكانت رِدَّة هائلة .

ولو قارنا مقارنة بسيطة بين هذه الرِدَّة الحاضرة وبين الرِدَّة الأولى فإننا نجد : أنَّ الرِدَّة الأولى كانت أخطر فى بعض جوانبها ، ولكن هذه الرِدَّة أخطر فى بعض جوانب أخرى .

الرِدَّة الأولى أخطر فى بعض جوانبها على اعتبار أنها قامت والإسلام فى أول عهده لم يتمكن فى الأرض طولاً وعرضاً .

وهذه الرِدَّة أخطر فى بعض جوانبها من الأولى لأنَّ الأولى تهيأ لها ما لم يتهيأ حتى الآن لهذه . فالرِدَّة الأولى تهيأ لها وحدة تضم المسلمين جميعاً وقيادة واحدة لها ووعى كامل عند كل فرد وقوة رجال وقوة سلاح مع قوة إيمان ويقين ، أما هذه الرِدَّة فلم يتهيأ لها حتى الآن شىء من هذا .

وهذه الرِدَّة أخطر من الأولى لأن الرِدَّة الأولى كان فكرها ضحلاً بيِّنا خطؤه ، وكان الإسلام يمثل مثلاً أعلى عظيماً وجديداً ، أما الرِدَّة الحاضرة فرِدَّة مزخرفة تحت أسماء برَّاقة تحاول أن تظهر محتواها كمثل أعلى أمام فكر متخلف فهى مفلسفة وبيدها كل الوسائل للوصول إلى الأدمغة والعواطف ، بينما الإسلام والمسلمون ليس لديهم من الوسائل مثال ما هو مهيأ لأفكار الكفر والضلال .

ومع ما مَرَّ فإننا لا نحكم على أغلب المجتمعات التى تشكِّل أقطار العالَم الإسلامى بأنها مجتمعات كافرة ، لأننا إذا حكمنا عليها بذلك نكون قد اعتبرناها جميعاً دار حرب ، ونحن نؤثر أن نتريث فى هذا الحكم مع كثرة المرتدِّين ومع غلبتهم على الأمور لما يترتب على ذلك من أحكام .

وإنما نستطيع أن نحكم على المجتمعات فى أقطار العالَم الإسلامى على أنها مجتمعات فاسقة محكومة فى الغالب بمرتدِّين أو منافقين أو كافرين ، وما نظن أنَّ إنساناً يفهم الإسلام يهوله هذا الحكم .

إنَّ تقصير المسلمين فى فرض من فروض الكفاية يجعلهم آثمين ، والاستمرار عليه يجعلهم فاسقين ، والمسلمون مقصِّرون بمئات من فروض الكفاية .

وحدة الأمة الإسلامية فريضة والعمل لها فريضة ، والمسلمون مقصِّرون فيها .

أن يكون الحكم للّه فى كل أرض فريضة والمسلمون مقصِّرون فيها وفى العمل من أجلها .

أن يكون للمسلمين خليفة واحد له عليهم حق الطاعة فريضة والعمل لذلك فريضة والمسلمون مقصِّرون فيها .

أن يكون عند المسلمين اختصاصيون بكل فن وعلم يستغنون بهم عن غيرهم فريضة والمسلمون مقصِّرون فيها .

أن يكون المسلمون بيدهم كل وسائل القوة فريضة والمسلمون مقصِّرون فيها .

أن يجاهد المسلمون لتكون كلمة اللّه هى العليا فريضة والمسلمون مقصِّرون فيها ... وأمثال هذا كثير ، وهذا وحده كاف للحكم على هذه المجتمعات بالفسوق ، ولكن الأمر أكبر . إنك لا تجد فى محيط الأسرة المنتسبة للإسلام إلتزاماً به وهذا فسوق ، ولا تجد فى سلوك الفرد المسلم إلتزاماً بالإسلام ، وهذا فسوق .. وهذا هو الغالب على أوضاع المسلمين فى كل مجتمع .

وإذن .. فأقل ما نحكم به على هذه المجتمعات أنها مجتمعات فاسقة تغلَّب على أمرها مرتدُّن أو فاسقون أو كافرون أو منافقون ، يعمقون الفسوق ويسيرون بالمسلمين نحو الردَّة الشاملة .

* * *

٢ - رِدَّة ثم أوضاع شاذة حرام

(١)

فى كل قُطر إسلامى مؤسسات كافرة أو عميلة ضخمة جداً يصعب على الإنسان تصور حجمها ولا نعرف عنها إلا القليل .

نشرت الصحف - ونُشرَ هذا فى كتاب « إيلى كوهين من جديد » - وذكر هذا عبد السلام عارف - أثناء حكمه للعراق - أنَّ عدد العراقيين التابعين لجهاز

المخابرات البريطانية فى العراق يبلغ ثلاثة وثلاثين ألفاً ، وقد عُثِر على هذا أثناء احتراق السفارة البريطانية فى بغداد ، ونقل بعض مَن يتتبع مثل هذه القضايا أن قريباً من هذا الرقم يشتغل فى منطقة الشرق الأوسط تابعين للمخابرات الأمريكية .

ثم تأتيك فى كل قُطر التنظيمات الشيوعية وكلها أجهزة عميلة للشيوعية العالمية الصين أو الاتحاد السوفييتى .

ثم تأتيك المحافل الماسونية وشبيهاتها من النوادى بأعدادها الكثيرة وإمكانياتها الهائلة .

(فى سوريا البلد الصغير ثمانية وثلاثون محفلاً ماسونياً كما ذكر ذلك فهمى المعرى أمين سر المحافل الماسونية فى سوريا فى كتاب له صدر سنة ١٩٥٨) .

ثم تأتيك المدارس والمؤسسات التبشيرية وكلها مرتبطة بجهات خارجية عملياً (كان فى سوريا أكثر من مائتى مدرسة تبشيرية ، وفى طرابلس الشام وحدها أكثر من ثلاثين مدرسة تبشيرية) .

ثم تأتيك الأحزاب الوطنية والقومية والزعامات الشخصية ، وفى الغالب أنَّ وراء كل ، وعند كل ، عمالة فكرية أو سياسية للكافرين .

ثم تأتيك المؤسسات الثقافية والتوجيهية التى وراءها مَن وراءها ونادراً ما تجد مؤسسة ليس وراءها مَن يغذيها .

ثم تأتيك الأقليات فى الأقطار الإسلامية والتى يحاول كل كافر أن يسخِّرها لمآربه .

ثم يأتيك مَن يدور فى فلك واحد مما تقدم بعلم أو بدون علم .

ثم يأتيك الجيل الذى خَرَّجه هؤلاء جميعاً وأمثالهم والذى يتطوع أحياناً ليؤدى دور هؤلاء بكل حماسة حال غيابهم .

ثم يأتيك أعتى هؤلاء جميعاً وأكثرهم خبثاً : الصهيونية العالمية والقوى التى تعمل لصالح اليهودية فى كل مكان ، وأقطار المسلمين لها من ذلك الحظ الوافر .

وعلى هذا فقد وضع لنا فى أرضنا قوى عاتية فروعها على أرضنا وجذورها فى الخارج .

(٢)

أثناء سقوط العالم الإسلامى بيد الكافرين جعلوا مراكز القوة بيدهم أو بيد أتباعهم والأنصار الطبيعيين لهم - أو على الأقل - بيد المفسدين والفاسدين من المسلمين . وفى كل حالة وضعوا أجهزة القوة خاصة - وأجهزة الدولة عامة - بيد أعداء الإسلام والمسلمين ، وكان أن أصبحت جيوش الأقطار الإسلامية بعد الاستقلال امتداداً لما كانت عليه قبل ذلك بحكم أنَّ البلاد لا تستغنى عن جيشها واختصاصات الجيش بيد هؤلاء .

ولذلك إذا درستَ أوضاع أى جيش من جيوش العالم الإسلامى تجد فى القمة الطوائف غير المسلمة أو المنحرفة والخونة والسّكيرين والزناة - إلا النادر - وتجد طبقة الضباط فى الغالب أفسد طبقة ، لأن المشرفين على عملية اختيار الضباط فى الغالب عناصر سيئة فاسدة لا تقبل للكليات الحربية أى عنصر تشم منه رائحة الإسلام - ولا يخلو هذا من استثناء ولكنه قليل - لأن الموازين نفسها التى توضع عادة لاختيار أصناف الجيش إنما هى موازين مأخوذة من الجاهلية المادية وقيمها .

فشيء عادى بعد هذا كله - أى بعد كون الجيوش امتداداً لما قبل مرحلة الأستقلال وكون المختارين وطريقة الاختيار سيئة - أن تبقى مراكز القوة بيد أعداء الإسلام ، وفى الأقطار التى لم تخضع لاستعمار تمت عملية الإفساد بسبب احتياج هذه الأقطار إلى تدريب جيشها فى الخارج ، فاضطرت لإرسال عناصر للاختصاصات المختلفة دون تربية مسبّقة ودون مناعة كافية ودون رقابة دقيقة ، ففسد هؤلاء وعادوا أداة إفساد .

وفساد الجيوش يستتبع فساد الأمة ، وفساد الجيوش عقبة رئيسية دون الإسلام وأهله .

(٣)

إنَّ عملية التمزيق والتشتيت التى ورثها العالم الإسلامى عن مرحلة التجزئة والضعف وزادها الكافرون فى مرحلة الاستعمار عمقاً وبُعداً قد بلغت الآن ذروتها .

والأفظع من هذا :

أنَّ الكافرين المستعمرين راعوا خلال مرحلة الاستعمار وقبل الجلاء أن يجعلوا فى كل قُطر جيوب مشاكل سياسية تستنفد طاقة القُطر من ناحية ، ومن ناحية أخرى تؤثر على سير الإسلام سياسياً : مشاكل حدود ، مشاكل جوار ، مناطق وضعها الطبيعى أن تكون لأقطار وُضِعت بيد أقطار أخرى ، أقليات يوضع فى يدها الحكم ، إقامة دول غير عادية ، تقوية الاتجاهات الممزقة لوحدة المسلمين .

وهكذا عشرات المشاكل السياسية فى قلب العالم الإسلامى وكلها تعرقل سيراً أو تضغط على المسلمين أو تكون أداة مساومة على الإسلام أو تجعل التحرك السياسى الإسلامى السليم مستحيلاً .

(٤)

كما روعى فى عملية التمزيق وإقامة الحكومات أن يعمق فى العالم الإسلامى الصراع بين الأقطار المتجاورة والتفكير العازل بين هذه الأقطار مع ملاحظة عدم إعطاء الآمال الشعبية محتوياتها وآمادها .

صنعوا دولاً ليست لها مقومات الحياة المستقلة ، وجعلوا بين الكيانات عُقداً ، وأطلقوا قضية المصلحة من عقالها ، وعملوا على إيجاد الأنظمة المختلفة المتجاورة : نظام رأسمالى بجانبه نظام اشتراكى ، نظام ملكى بجانبه نظام جمهورى ، نظام ديمقراطى بجانبه نظام ديكتاتورى ، وأقاموا أنفسهم أو جعلونا فى وضع يكونون فيه حُرّاساً وحكّاماً ووسطاء وأوصياء .

وأصلاً : إنّ عملية استعمار العالَم الإسلامى من جهات متعددة كافية لإيجاد عوازل ما بين أقطاره ، لأن كل قُطر صبغته الدولة المستعمرة على طريقتها الخاصة وأوجدت فيه ما تريده ، فيكفى أن تستعمر بريطانيا قُطراً ، وفرنسا قطراً ، حتى يوجد بين القُطرين من العوازل الشىء الكثير : طريقة التفكير ، والجهاز الإدارى ، سلاح الجيشين ، تكوين الجيشين ، أجهزة الارتباط الخفية ، كل شىء يختلف فى أحد القُطرين عنه فى القُطر الآخر .

ورافق هذا أنه وُجِدت أقطار غنية بجانب أقطار فقيرة ، فاستفادوا من غِنى الغنى وفقر الفقير ، وأوجدوا دولاً قوية وأخرى ضعيفة ليستفيدوا من ضعف الضعيف وقوة القوى ، فالقوى طامع والضعيف خائف .

وفى النهاية .. نجد حواجز هائلة بين القُطر والقُطر ، وأوضاعها مختلفة ما بين قُطر وقُطر .

(٥)

واستطاع الكافرون أن يُطوِّقوا الأقطار الإسلامية بعدة أنواع من الأطواق ، وأهم ما استطاعوا أن يُطوِّقوه به : التطويق الاقتصادى والإنتاجى .

فقد أحكموا أمر جعل العالَم الإسلامى عالة عليهم فى كل شىء ، ومنعوا عنه بكل وسيلة أن يُحدث نهضة صناعية فى أى شىء . فالسلاح نستورده منهم ، وكل أدوات القوة نستوردها منهم ، وحتى أدوات الاستعمال اليومية نستوردها أو نستورد مصانعها منهم .. فإذا أردنا أن نقاتل يجب أن يوافقوا أولاً ، وإذا أرادوا سلاماً استطاعوا أن يفرضوا علينا ما شاءوا . وإذا أرادوا أن يُبقوا قُطراً ضعيفاً فعلوا ، وإذا أرادوا أن يُسلّطوا عليه جيرانه كان لهم ذلك .. وهذا كله يجعلهم فى وضع المتحكم فى أدق الأمور وأكبرها حتى إنّ أكثر الأقطار الإسلامية تظاهراً باستعصائها على الضغط الخارجى أكثرها تنازلات خفية .

وفى العالَم الإسلامى مناطق وأقطار تحتلها دول كبرى عالَمية ، وأنظمة تسندها قوى عالَمية ، ومناطق ضُمَّت إلى أقطار على رأسها كفر وكافرون :

أوزبكستان - تركستان - تاجكستان - أذربيجان - أجزاء من الصومال ، أرتيريا ، كشمير ...

كما أنَّ فى العالَم الإسلامى أنظمة تقوم على أجهزة تجسس رهيبة ساعدت الدول الكبرى فى التمكين لها ، كما أنَّ فى العالَم الإسلامى أحزاباً مرتدَّة سيطرت على الحكم وتمكنت فيه .

* * *

٣ - تآمر عالَمى رهيب

١ - جاء فى كلمة لأحد المسئولين فى وزارة الخارجية الفرنسية سنة ١٩٥٢ ما يلى : « ليست الشيوعية خطراً على أوروبا فيما يبدو لى ، فهى حلقة لاحقة لحلقات سابقة ، وإذا كان هناك خطر فهو خطر سَياسى عسكرى فقط ولكنه ليس خطراً حضارياً تتعرض معه مقوِّمات وجودنا الفكرى والإنسانى للزوال والفناء ، إنَّ الخطر الحقيقى الذى يهددنا تهديداً مباشراً عنيفاً هو الخطر الإسلامى ، فالمسلمون عالَم مستقل كل الاستقلال عن عالَمنا الغربى ، فهم يملكون تراثهم الروحى الخاص ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة ، فهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالَم جديد دون حاجة إلى الاستغراب - أى دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة فى الشخصية الحضارية الغربية [(١)] .

وفرصتهم فى تحقيق أحلامهم هى فى اكتساب التقدم الصناعى الذى أحرزه الغرب ، فإذا أصبح لهم علمهم ، وإذا تهيأت أسباب الإنتاج الصناعى فى نطاقه الواسع انطلقوا فى العالَم يحملون تراثهم الحضارى الغنى ، وانتشروا فى

(١) انظر رسالة « لِمَ هذا الرعب كله من الإسلام » للأستاذ جودت سعيد ، ص ٢٢ - ٢٣

الأرض يزيلون منها قواعد الروح الغربية ويقذفون رسالتها إلى متاحف التاريخ ، وقد حاولنا خلال حكمنا الطويل فى الجزائر أن نتغلب على الشخصية التاريخية لشعب هذا البلد فلم نأل جهداً فى صوغ شخصية غربية له ، فكان الإخفاق الكامل نتاج مجهودنا الضخم الكبير .

إنَّ العالَم الإسلامى يقعد اليوم فوق ثروة خيالية من الذهب الأسود والمواد الأولية الضرورية للصناعة الحديثة ، ولكنه فى حاجة إلى الاستقلال فى استغلال هذه الإمكانيات الضخمة الكامنة فى بطون سهوله وجباله وصحاريه .

إنه فى عين التاريخ عملاق مقيَّد ، عملاق لم يكتشف نفسه بعد اكتشافاً تاماً فهو حائر وهو قلق كاره لماضيه فى عصر الانحطاط ، راغب رغبة يخالطها شىء من الكسل - أو بعبارة أخرى من الفوضى - فى مستقبل أحسن وحرية أوفر .

فلنعط هذا العالَم ما يشاء ، ولنقو فى نفسه عدم الرغبة فى الإنتاج الصناعى والفنى ، فإذا عجزنا عن تحقيق هذه الخطة وتحرر العملاق من قيود جهله وعقَّده الشعور بعجزه عن مجاراة الغرب فى الإنتاج فقد بؤنا بالإخفاق الذريع ، وأصبح خطر العالَم العربى - وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة - خطراً داهماً يتعرض به التراث الحضارى الغربى لكارثة تاريخية ينتهى بها الغرب ، وتنتهى معه وظيفته القيادية » .

٢ - يقول لورنس براون : « لقد كنا نَخوَّف بشعوب مختلفة ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف . لقد كنا نخوَّف من قبل بالخطر اليهودى والخطر الأصفر - باليابان وتزعمها على الصين - وبالخطر البلشفى ، إلا أنَّ هذا التخوف كله لم نجده كما تخيلناه لأننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهِد لهم عدونا الألد ، ثم رأينا أنَّ البلاشفة حلفاء لنا أثناء الحرب العالَمية الثانية ، أما الشعوب الصفراء فإنَّ هناك دولاً ديمقراطية كبرى تتكفل بمقاومتها .

ولكن الخطر الحقيقى كامن فى المسلمين ، وفى قُدرتهم على التوسع والإخضاع ، وفى الحيوية المدهشة العنيفة التى يمتلكونها ، ألا إنهم السد الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى » (١) .

٣ - ومن تصريح لسالازار فى حديث له مع بعض الصحفيين :

« إنَّ الخطر الحقيقى إنما هو الذى يمكن أن يُحدثه المسلمون من تغيير فى نظام العالَم ، فقيل له : إنهم فى شغل عن أن يفكروا فى هذا بخلافاتهم ونزاعاتهم ، فقال : إنى أخشى أن يخرج من بينهم مَن يوجه خلافهم إلينا » (٢) .

٤ - يقول مرما ديوك باكتول : « إنَّ المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم فى الدنيا الآن بنفس السرعة التى نشروها بها سابقاً إذا رجعوا إلى الأخلاق التى كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول لأنَّ هذا العالَم الخاوى لا يستطيع أن يقف أمام روح حضارتهم » (٣) .

٥ - ويقول البرمشادور فى حديث عن المسلمين :

« إنَّ هذا المسلم الذكى الشجاع قد ترك لنا حيث حَلَّ آثار علمه وفنه ، آثار مجده وفخاره .

إنَّ هذا المسلم الذى نام نوماً عميقاً مئات السنين قد استيقظ وأخذ ينادى هاأنذا لم أمت ، إنى أعود إلى الحياة لا لأكون أداة طيِّعة أو ثقلاً من البَشر تسيِّرها العواصم الكبرى » .

ثم يقول : « ومَن يدرى ؟ قد يعود اليوم الذى تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالمسلمين فيهبطون من السماء لغزو العالَم مرة ثانية فى الوقت المناسب أو الزمن الموقوت .

---

(١) انظر رسالة « لِمَ هذا الرعب كله من الإسلام » ص ٢٠ - ٢١

(٢) المرجع السابق ص ١٩ (٣) المرجع السابق ص ١٩

لستُ أدَّعي النبوَّة ، ولكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة لا تقوى الذَرّة ولا الصواريخ على وقف تيّارها » [1] .

٦ – ويقول توينبى فى محاضرته عن الإسلام والغرب والمستقبل :

« هناك مَن يفترض مقدماً أنَّ الخليط المتنافر الذى نتج عن غزو الغرب سيتطور تدريجياً وسلمياً إلى تركيب متجانس ، وسيشكل هذا التركيب بدوره تدريجياً وسلمياً أيضاً نوعاً من الإبداع الجديد ....

قد ينتهى الخليط إلى تركيب متجانس ، وقد ينتهى بانفجار مدمر ، وفى حالة وقوع مثل هذه الكارثة سيكون للإسلام دور مختلف تماماً هو دور العنصر الفاعل فى رِدَّة فعل عنيفة تقوم بها البروليتاريا [2] العالَمية للشعوب المسحوقة ضد أسيادها الغربيين ، صحيح أنَّ هذه الإمكانية المدمرة للإسلام لا تظهر الآن حتمية الوقوع لأن الكلمة المؤثرة « الوحدة الإسلامية » والتى كانت دائماً بعبع المستعمرين الغربيين منذ استعمالها فى اللغة السياسية للسلطان عبد الحميد بدأت مؤخراً تفقد سيطرتها التى كانت لها على عقول المسلمين ، وليس من الصعب علينا أن نرى العوائق الذاتية الموجودة فى الدعوة لمثل هذه الحركة الإسلامية الشاملة ...

صحيح أنَّ الوحدة الإسلامية نائمة ، ولكن يجب أن نضع فى حسابنا أنَّ النائم قد يستيقظ إذا ثارت البروليتاريا العالَمية للعالَم المتغرب ضد السيطرة الغربية ونادت بزعامة معادية للغرب ، فقد يكون لهذا النداء نتائج نفسانية لا حصر لها فى إيقاظ الروح النضالية للإسلام حتى ولو أنها نامت نومة أهل الكهف . إذ يمكن لهذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولى للإسلام ، وهناك مناسبتان تاريخيتان كان الإسلام فيهما رمز سمو المجتمع الشرقى فى انتصاره على الدخيل الغربى .

---

(١) رسالة « لِمَ هذا الرعب كله من الإسلام » ص ١٦

(٢) البروليتاريا : تعنى الطبقة العاملة فى المعامل والمصانع أو مؤسسات الإنتاج .

ففى عهد الخلفاء الراشدين بعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) حرَّر الإسلام سوريا ومصر من السيطرة الرومانية التى أثقلت كاهليهما مدة ألف عام تقريباً ، وفى عهد نور الدين وصلاح الدين والمماليك احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصيليبين والمغول .

فإذا سبَّب الوضع الدولى الآن حرباً عنصرية يمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخى مرة أخرى » .

ثم يقول بروحه الصليبية : « وأرجو ألا يتحقق ذلك » .

٧ - ويقول لوتروب ستودارد فى كتابه « حاضر العالَم الإسلامى » : « وقد غلب على رأى الكثيرين من رجال الغرب وَهْمٌ فى هذا الموضوع فهم ما برحوا يخالفون الخلافة لا الحج العامل الأكبر والأشد الذى بسببه يتشارك المسلمون ميولاً وعواطف تشاركاً مؤدياً إلى الاعتزاز بالوحدة وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها . إنَّ هذا لمن الوهم الصرف (فى رأيه) فالأمر على الضد منه .

إنَّ محمداً (فى زعمه وليس الله) قد فرض الحج على مَن استطاعه فرضاً مقدساً ، لذلك ما زالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعاً يجتمع فيه كل عام أكثر من مائة ألف حاج وافدين من كل رقعة من رقاع العالَم الإسلامى ، وهناك أمام الكعبة المقدسة فى مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس ويتباثون العواطف الدينية ويتباحثون فى الشئون الإسلامية .

إنَّ الأغراض الإسلامية التى ينالها المسلمون على يد الحج المهد لها السبيل معلومة لا تحتاج إلى كبير إيضاح ، بل يكفى أن نقول : إنَّ الحج هو المؤتمر الإسلامى السنوى العام الذى فيه يتباحث نواب المسلمون الطارئون من أقطار المعمور الإسلامى كافة فى مصالح الإسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الإسلام والذب عن حياض المسلمين ونشر الدعوة فى سبيل الرسالة .

وفى هذا المؤتمر العظيم كانت قلوب قادة اليقظة الإسلامية وأبطالها تشعر بجلال الواجب الإسلامى المقدس ، وتتقد من خطورة المشهد وروعة المحفل غيرة على الإسلام والمسلمين ، وقد جهد السلطان عبد الحميد جهداً كبيراً لإحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلال والهيبة والخطورة فى العالم الإسلامى فنال ما ناله ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الدينى بل بسبب الشعور العام الذى ظهر واشتعل فى صدور المسلمين لإنشاء الجامعة الإسلامية الكبرى .

هذه حقيقة غابت عن عقول كثيرة من ساسة أوروبا ، حتى وجلوا من عبد الحميد فحسبوه فى الإسلام كالبابا فى النصرانية ، وما زال حتى اليوم أكثر ساسة الغرب يتوهمون فى ذلك فيخالون الجامعة الإسلامية إنما مبعثها الخلافة ، ونرى أيضاً غالب حملة الأقلام يفيضون فى الكلام فيما إذا استُبقيت الخلافة فى السلطان التركى على ظلمه (فى زعمه) أو نُقلت إلى شريف مكة أو قُضِىَ عليها القضاء الأخير ، وأى هذه الوسائل تكون خيراً لهيض جناحى الجامعة الإسلامية ؟

إنَّ هذا وإيم الحق لغاية ما يُرتكب من الخطأ .

لا يُنكر أنَّ الخلافة ما برحت رفيعة المكانة فى عيون المسلمين بلا ريب ، غير أن قادة الجامعة الإسلامية الحديثة ذوى العقول الثاقبة والذكاء المتوقد ما فتئوا منذ عهد بعيد يجدُّون فى سبيل الجامعة الإسلامية فى نطاق أوسع وأفق أبعد ، وقد أيقنوا كل الإيقان أنَّ القوة الكبرى التى تستمدها الجامعة الإسلامية اليوم ليست من مركز الخلافة ولكن من بيت الله الحرام حيث الحجيج إذ يأتمرون كل عام مؤتمراً عظيماً ، ومن إنشاء الطرق الدينية المؤدية إلى الجامعة الإسلامية كالطريقة التى أنشأها السنوسى »(١) .

---

(١) انظر رسالة « لِمَ هذا الرعب كله من الإسلام » ص ٩ - ١٣

(لذلك نلاحظ أنَّ غالب حكومات المسلمين تحاول أن تضرب الحج والحركات الإسلامية) ..

٨ - يقول لورنس فى كتاب « الثورة العربية » [١] :

« وأخذتُ طول الطريق أفكر فى سوريا وفى الحج ، وأتساءل هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية ؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطنى الاعتقاد الدينى ؟ وبمعنى أوضح : هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحى والإلهام وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الدينى بمثلها الأعلى الوطنى ؟ هذا ما كان يجول بخاطرى طول الطريق » .

* * *

هذه نقول منها القديم ومنها الجديد ، صادرة من غربيين أصحاب اختصاصات مختلفة ، منهم المؤرخ ومنهم المستشرق ومنهم السياسى ومنهم غير ذلك [٢] ، ترى من خلالها مشاعر الغربيين - والشيوعيون من الغربيين وهم أشدهم فى هذا الشأن - نحو ما له علاقة بالإسلام والمسلمين .

إنَّ الغربى لا يمكن أن يهضم فكرة دولة تقوم على أساس إسلامى ، ولا يمكن أن يهضم فكرة حزب سياسى على أساس الإسلام ، فضلاً عن أن يهضم فكرة دولة إسلامية واحدة تضم العالَم الإسلامى كله .

إنَّ حسه ومشاعره وعواطفه وعقله وتركيبه الثقافى والتاريخى وكل شىء فيه يكره ما له علاقة بهذا الموضوع فالمسألة بالنسبة له ليست قابلة للأخذ والرد .

إنَّ الغربى الرأسمالى يستطيع أن يهضم سيطرة الشيوعية على قُطر إسلامى ولا يمكن أن يهضم قيام حكومة إسلامية فيه .

---

(١) انظر كتاب « الثورة العربية » ص ١٤

(٢) بعض النقول كانت عن غربيين أسلموا وإنما ذكرناها لما فيها من استشعار إمكانية التهديد للغرب من قِبَل المسلمين . وقد نقله عنه فى كتاب « الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر » جـ ٢ ص ٩٤ - المطبعة النموذجية .

والشيوعي الغربي قد يكون راغباً في تحرير قُطر إسلامي من براثن الاستعمار الغربي ولكن ليقع في أحضانه ، أما أن يتحرر بالإسلام وللإسلام فهذا لا .

إنه يفضّل ألف مرة أن تبقى أقطار العالم الإسلامي مستعَمرة على أن يتحرر العالم الإسلامي ويبني كيانه على أساس الإسلام الخالص ، إنّ هذه قضايا لا يجوز أن تغيب عن أذهاننا لأن غيابها عن أذهاننا يؤدي إلى كوارث رهيبة ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (١) ، فالكافرون كلهم علينا في الأوضاع العادية وهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (٣) .

ولا تحتاج هذه القضية إلى شواهد من الواقع عليها ، فكل ما يجري في العالم الآن شاهد على ذلك .

* * *

ويعطي المسألة طابعاً أعنف جوانب كثيرة منها :

١ - كون العالم الإسلامي يملك أكبر كمية من المواد الخام ومن البترول في العالم .

٨٥٪ من احتياطي البترول في العالم يقع في الأرض الإسلامية .

٧٥٪ من المواد الخام في العالم موجودة على الأرض الإسلامية ، فلو أنّ العالم الإسلامي توحّد وصنع نفسه وعبأ اقتصاده فسيتغير ميزان العالم الاقتصادي لصالحه .

---

(١) الأنفال : ٧٣ (٢) البقرة : ٢١٧ (٣) البقرة : ١٢٠.

إنّ المغرب العربى لو قطع المواد الخام عن فرنسا تتعطل كثير من المصانع فى اليوم التالى . إنّ قيام دولة واحدة فى العالم الإسلامى على أساس الإسلام يجعل العالم الإسلامى متحكماً فى مصير العالم كله .

٢ - كون الإسلام فيه مفاهيم حضارية وثقافية وسياسية وعسكرية تُغيّر على المدى البعيد تركيب العالم كله .

* * *

فهل من المعقول بالنسبة لهم مع هذا وغيره أن يرضوا أو يسكتوا عن قيام أحزاب إسلامية سياسية فى العالم الإسلامى تصل بهذا إلى وحدة إسلامية ذات مضمون إسلامى صحيح ، إنّ هذا لا يمكن أن يجعلوه يمر مهما كلّفهم ذلك .

ولكن الله أقوى ..

يذكر عبد الرحمن عزّام أنه دخل مرة فى نقاش مع السفير الإنجليزى فى دمشق حول : أيهما أخطر فى منطقة الشرق الأوسط : الشيوعيون أو الإخوان المسلمون ؟ فكان رأى السفير الإنجليزى : أنّ الإخوان هم الأخطر .

وفى كتاب « لعبة الأمم » يذكر مؤلفه ما فعلته أمريكا لتقطع الطريق على الإخوان المسلمين ، ويلاحَظ بشكل واضح أنّ خطة أمريكا فى العالم الإسلامى استبعاد الديموقراطية إلى أقصى حد ، لأنّ الديموقراطية لصالح الإسلام . مع كونها ليست من الإسلام .

يقول : « و . ك . اسمث » المستشرق الأمريكى الخبير بشئون باكستان :

« إنه من الممكن أن تصبح مثل هذه البلاد - يعنى باكستان وغيرها - لا دينية ولكن من المحال أن تكون ديموقراطية ، كما أنها من الممكن أن تكون ديموقراطية ولكن من المحال أن تكون مع ذلك لا دينية » (١) .

لذلك ينصح رئيس تحرير مجلة تايم فى كتابه « سفر آسيا » الحكومة الأمريكية أن تنشىء فى البلاد الآسيوية ديكتاتوريات عسكرية .

---

(١) من كتاب « المأساة الكبرى » .

ومن هذا وغيره ندرك خطأ المؤمنين بالديموقراطية فى منطقتنا عندما يتصورون أنَّ أمريكا تتعاطف معهم وهى وراء اغتيال الديموقراطية فى آسيا وأمريكا اللاتينية وغيرها من العالم .

وإذن فالدول العالمية والكتل العالمية والقوى العالمية كلها ضد الإسلام فى هذا العصر الذى تشابكت فيه المصالح وتقاربت فيه المسافات وازدادت فيه الوسائل وتعاظمت فيه القوى ، بحيث تستطيع القوى الضخمة أن تدرس وتراقب وتتجسس وتتآمر وتضرب وتتفاهم فيما بينها بحيث يصعب أن يحدث شىء فى خارطة العالم السياسية إلا إذا كانوا يريدونه أو يريده بعضهم .

والإسلام لا يريدونه ولا يريده بعضهم .

هذا هو المناخ العالمى المتآمر وغير المواتى الذى يعيش فيه الإسلام . فما هو الحل لإنهاء الردَّة وتجاوز الأوضاع الشاذة وتحطيم هذا التآمر الرهيب ؟

إنَّ الحل هو قيام حزب الله قياماً سليماً فى كل قُطر . هذا هو الحل الذى لا حل غيره .

إنَّ قيام حزب الله الموعود من الله بالغلبة والنصر هو الكفيل بتحطيم هذه الردَّة وإنهاء هذه الأوضاع الشاذة وتحطيم هذا التآمر الرهيب بإذن الله .

* * *

٤ - حزب الله

تحدَّث القرآن عن الردَّة فى أكثر من مكان ، مرة فى سورة البقرة قال تعالى :

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) ، فهذه الآية تبيِّن حقيقةَ الحال بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، وأن أهلَ الكفر لن يتركوا أهل الإيمان

---

(١) البقرة : ٢١٧

حتى يرتدّ أهل الإيمان عن إيمانهم ، وقد رأينا هذا خلال العصور الماضية ، وفي عصرنا هذا رأينا كم تبذل دول الكفر وأتباعهم من أجل أن يرتدّ أهل الإيمان .

ثم تذكر الآية بعد ذلك جزاء مَن يرتدّ عن دينه .

وذكر القرآن الردّة مرة أخرى في سورة محمد حيث قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ (١) .

فقد بيّنت هذه الآية حال صنف من المرتدّين وعِلّة رِدّته .

وفي سورة المائدة ذكر الله الرِدّة وذكر صفات القوم المرشحين لإنهائها ووصف هؤلاء بأنهم حزبه ووعدهم الغلبة . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢) .

نفهم من هذه الآيات أنّ الرِدّة إذا كانت فإن الله سيقيِّض لها قوماً متصفين بصفات معيَّنة أولئك حزبه الموعود بالنصر .

وهو نصر لا يخضع للأسباب المادية ، وإنما هو نصر خاص ينصر الله به أولياءه على أعدائه على خلاف القوانين المادية للنصر ، وهذا النصر يعطى لمن استجمع الشروط والصفات التي حددها الله وذكرها .

ومن هذه .. تلك الصفات المذكورة في الآية السابقة .

---

(١) محمد : ٢٥ - ٢٦ (٢) المائدة : ٥٤ - ٥٦

ومنها ما ذكره اللّه عَزَّ وجَلَّ بقوله :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَواْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَواْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (١) .

فإذا ما قامت فئة فى كل قُطر مستجمعة للصفات المذكورة فى سورة المائدة مستهدفة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حال تمكين اللّه إياها فإنَّ اللّه عَزَّ وجَلَّ سيمنحها نصره .

وهذا هو الحل الوحيد الآن : أن تقوم جماعة ، لأنَّ اللّه قال : بـ « قوم » ولم يقل : بـ « فرد » ، ولا جماعة إلا بنظام وقيادة - هذه الجماعة مستجمعة الصفات التى ذكرها اللّه جميعاً وهذا لا يتم بلا منهاج ثقافى وتربوى .

ويوم يحدث هذا يكون حزب اللّه قد قام ، وقيام حزب اللّه فى كل قُطر بداية الطريق لحل مشاكل المسلمين .

الحل إذن أن يقوم حزب اللّه فى كل قُطر .

بنظام ربانى دقيق .

بمنهاج ثقافى وتربوى سليم .

بسير بعد ذلك حكيم نحو تحقيق الأهداف الإسلامية . لا بد من نظام ، لأنه بلا نظام لا تنبثق القيادة ولا تسير الأمور ، ولا بد من منهاج ثقافى تربوى ، لأنه بدون ذلك لا يوجد جند اللّه .

ولا بد من سير ضمن مخطط سليم على هَدى سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبمقدار نجاحنا فى هذا كله تحققاً فيه بأنفسنا وحملاً للآخرين عليه نكون سائرين فى الطريق السليم .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) الحج : ٤٠ - ٤١ (٢) الأنفال : ٥٩

٥ - حزب الله أولاً وقبل كل شيء : اتجاه

وردت كلمة حزب الله فى القرآن الكريم مرتين ، مرة فى سورة المجادلة فى معرض الحديث عن ألا مودة بين المؤمنين والكافرين ، ومرة فى سورة المائدة فى معرض الحديث عن تولى الله والرسول ﷺ والمؤمنين .

قال تعالى فى سورة المجادلة :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ (١) اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى فى سورة المائدة :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٣) .

وعلى هذا فحزب الله اتجاه مظهره :

١ - البراءة من أعداء الله ورسوله ظاهراً فى الولاء وباطناً فى المودّة .

٢ - إعطاء المؤمنين الولاء فى الظاهر والمودّة فى الباطن ، والمؤمنون الذين يُعطَون هذا الولاء هم الذين جمعوا بين صفة الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (٤) .

فإذا كان هناك ناقض من نواقض الإيمان ، أو لم تكن صلاة ، أو لم تكن زكاة ، فلا يجوز الولاء ولا تجوز المودّة .

---

(١) حاد : عادى وشاق وخالف .

(٢) المجادلة : ٢٢

(٣) المائدة : ٥٦

(٤) المائدة : ٥٥

فالذين يعطون مودّتهم لأحد من الناس ذى سلطان أو غيره غير مؤمن أو لا يصلى أو لا يزكّى ليسوا من حزب الله .

والذين يعطون ولاءهم حزباً أو جماعة أو زعيماً أو قوماً أو عشيرة على أساس غير أساس الإيمان والصلاة والزكاة ، أو يعطونهم مودّتهم الخفية ليسوا من حزب الله .

إنّ أول مظهر من مظاهر كون الإنسان من حزب الله هو : أنه لا ولاء ولا مودّة عنده إلا للمؤمنين الملتزمين بالإسلام .

وبلا هذا لا يحصل الإنسان فلاحاً ولا نجاحاً .

« المرء مع مَن أحب » (١) ، « مَن فارق الجماعة قيد شبْرٍ فقد خلع رِبقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومَن ادّعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم » فقال رجل : يا رسول الله ، وإن صلّى وصام ؟ قال : « وإن صلّى وصام ، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله » (٢) .

ويلاحَظ أنّ الآية التى ذكرت حزب الله فى سورة المائدة وردت بعد آيتين هما اللتان ذكرناهما فى الموضوع السابق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ ... ﴾ (٣) .

---

(١) متفق عليه من حديث شعبة عن قتادة عن أنس ، قال العسقلانى : الحديث مشهور أو متواتر لكثرة طُرقه ، وقال بعض العلماء : هذا الحديث مشروط بشرط أنه إذا أحبهم عمل بمثل أعمالهم .

(٢) قطعة من حديث رواه الترمذى واللفظ له عن الحارث الأشعرى فى كتاب « الأمثال » . باب « ما جاء فى مثل الصلاة والصيام والصدقة » ، قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب ، ورواه النسائى ببعضه ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما - والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ومسلم .

(٣) المائدة : ٥٤ - ٥٦

والسياق والخطاب يدلان على أنَّ المقطع كله يكمل بعضه بعضاً ، فما قبل الآية الأخيرة إذن إنما هو نص فى بيان صفات حزب الله .

وعلى هذا .. فمن مظاهر كون الإنسان من حزب الله أن تجتمع فيه صفات معيَّنة : المحبة لله ، واستجماع الصفات التى يحب الله أهلها : الرحمة بالمؤمنين ، والشدة على الكافرين ، والجهاد دون خوف من لوم اللائمين .. مع ما مَرَّ معنا سابقاً من تحرير الولاء ..

وللمحبة طُرق لا بد من سلوكها .

والذِلَّة على المؤمنين ذات مضامين لا بد من التحقق بها .

والشدة على الكافرين ذات مضامين لا بد من تمثلها .

والجهاد أنواع .. وقد فصَّلنا هذا كله فى هذا الكتاب ، وعلى هذا فإنَّ حزب اللّه إذن اتجاه مظهره - زيادة على ما مَرَّ - استجماع أخلاق بعينها .

* * *

والجهاد الذى هو خُلُق رئيسى من أخلاق حزب الله بأنواعه كلها يجب أن يكون من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا سواء أكان جهاداً سياسياً أو مالياً أو عسكرياً أو تعليمياً أو لسانياً .

وكلمة الله لا تكون عليا فى القطر إذا لم يكن محكوماً بالإسلام ، ولا فى العالم الإسلامى إذا لم يكن محكوماً بالإسلام ، ولا فى العالم إذا لم يكن خاضعاً لكلمة الله .

فالإنسان الذى ليست لديه الرغبة أو النيَّة ، ثم المشاركة فى العمل من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا فى قُطره بإقامة دولة الله ، وفى العالم الإسلامى بتوحيد أمة الله ، وفى العالم بإخضاعه لكلمة الله - لا يمكن أن يمثل حزب الله حق التمثيل .

ونتيجة لكل ما تقدم فى هذه الفقرة نقول :

إنَّ حزب الله اتجاه مظهره ثلاثة أمور :

١ - الرغبة فى العمل من أجل إقامة دولة الله ، ونُصرة شريعة الله ، وتوحيد أمة الله ، وإحياء سُنّة رسول الله ﷺ ، وإخضاع العالَم كله لكلمة الله .

٢ - استجماع أخلاق بعينها .

٣ - قطع الصلة القلبية والظاهرية بأعداء الله وتمتين الصلة القلبية والظاهرية بأولياء الله .

وأى إخلال بواحدة من هذه لا يكون الإنسان ماشياً فى اتجاه حزب الله على الكمال والتمام ، والله أعلم بماذا يختم له .

* * *

وبهذا الميزان القرآنى نستطيع أن نحكم على الأفراد والجماعات فيما إذا كانوا سائرين فى اتجاه حزب الله أو لا .

وسيسقط نتيجة لذلك كثير ، وينجح فى ذلك كثير أو قليل ، ولم تكن كثرة الخطأ فى يوم من الأيام دليلاً على صحته .

إنَّ حزب الله هو المسلمون الحقيقيّون سواء أكانوا علماء أم ربانيين أم عامة ، وسواء أقام الواحد منهم بدور كبير أو صغير بالاشتراك مع الآخرين أو منفرداً ، ومظهر الإسلام الحقيقى ما ذكرناه من موازين قرآنية ، وما سوى ذلك نقص أو قصور أو ضلال أو نفاق أو رِدّة أو كفر ... ونعوذ بالله من ذلك كله .

* * *

وقد حمَّل هذه المعانى كلها حسن البنا رحمه الله عبارات خمساً هى : « الله غايتنا ، والرسول قدوتنا ، والقرآن إمامنا ، والجهاد سبيلنا ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » .

فهذه الشعارات تضمنت كل مظاهر حزب الله كاتجاه ، والحقيقة أنه ما من حركة أو جماعة إسلامية قامت فى الأقطار العربية خاصة مستجمعة الأخلاق الأساسية والمظاهر الحقيقية لاتجاه حزب الله كالجماعات التى أقامها الأستاذ البنا .

فغيرها من الجماعات قد تفطن إلى خُلُق من الأخلاق الرئيسية لحزب الله ، وتنسى غيره .

أو تفطن لمظهر وتنسى غيره .

ونادراً ما اجتمعت الرغبة لإعلاء كلمة الله مع العمل وتحرير الولاء مع الأخلاق الأساسية إلا عند هذه الجماعة .

* * *

٦ - أركان الحركة فى حزب الله

إن أركان الحركة فى حزب الله أربعة :

١ - نظرية متكاملة فى الثقافة والتربية .

٢ - نظرية سليمة فى النظام والتنظيم .

٣ - خطة جيدة للعمل وتخطيط مناسب .

٤ - نظرية صالحة فى التنفيذ .

فبدون نظرية متكاملة فى الثقافة والتربية لا يتم شىء ، إذ أن بداية التغيير تغيير الأنفس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

وبدون نظرية سليمة فى النظام والتنظيم لا تستطيع الحركة أن تسير سيراً مطرداً متناسقاً غير معرّض للاضطراب ولا للشقاق .

إذ أن الحركة ينبغى أن يخضع أفرادها لقواعد متفق عليها ، وهذا لا يكون بلا نظام متفق عليه عند أبناء الحركة .

وبدون خطة جيدة للعمل وتخطيط مناسب تتحطم الحركة على صخرة الواقع ، فإن الحركات السياسية قد يقضى عليها تصرف أرعن غير مدروس ولا حكيم .

وبدون نظرية صالحة فى التنفيذ تكون الحركة خابطة فى التيه بلا دليل .

---

(١) الرعد : ١١

(٣ - جند الله)

إنّه من الابتداء ما لم تنتقل بالعضو من طور إلى طور وتشبع تطلعاته وتجيب على تساؤلاته وتسبق خطرات نفسه وتعطيه دائماً المزيد وترفع من مستواه إلى أعلى وتجعله يسير ضمن خط واضح المعالم لديه ، فإنّ هذا الإنسان إما أن يستشعر الفراغ أو تنشأ عنده التساؤلات فيطرحها على غيره فتتشكل طبقاً للجواب عليها مدارس وتنتقل الجماعة من طور الدعوة إلى طور الجدل الداخلي وذلك بداية الضلال : « ما ضَلَّ قوم بعد هدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » (١).

ولكن عندما يكون لكل سؤال جواب رصين رزين مفهوم لدى الجميع فإن الفرد داخل الحركة يتساءل ليعرف ولا يكون تساؤله أثراً عن الشك .

وفى ابتداء السير لا يفكر الإنسان إلا فى كمال المنهج التربوى والثقافى، ولكنه فيما بعد يتساءل عن النظام ثم عن الخطة ثم عن الوصول إلى الهدف والطريق إليه ، فلا بد أن يقدَّم له ذلك قبل أن يخطر على باله أصلاً لتكون الثقة فى نمو متصاعد .

* * *

وحركة تريد الإنقاذ لن تفلح إذا لم تكن عارفة طريقه . وحركة تريد التحرير لن تفلح إذا لم تعرف طريقه ، وحركة تريد إنهاء الردَّة وتجاوز الأوضاع الشاذة وتحطيم التآمر الرهيب لن تفلح إذا لم تكن عارفة طريق ذلك .

وإلا فبماذا تقنع الشاردين واليائسين والشاكين والتائهين والراغبين فى العمل دون أن يعرفوا سبيله ؟

وما ميزتها فى هذه الحال عن بقية الناس إذا كان كل شىء غامضاً عليها ولا تعرف جوابه كما هو غامض على الناس ؟

* * *

وهناك ناس يقولون : نحن نبدأ السير وما يجابهنا نحله أثناء المجابهة ، وهذا صحيح إذا كان المجابهون مربين تربية عالية ومثقفين ثقافة عالية ومتفقين على قواعد يخضعون لها جميعاً ، وهذا لا يكون بلا منهاج ثقافى وتربوى سليم وبلا نظام واضح سليم .

---

(١) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه .

عندئذ يمكن فعلاً تدارك أمر الخطة ونظرية التنفيذ ولكن على ألا يطول أمد ذلك لتلتقى ثقة الجديد بوضوح الرؤية عند القديم .

* * *

لهذا كله نقول :

إنَّ جهد العاملين للإسلام ينبغى أن يكون منصباً على :

١ - الارتفاع بمستوى الفرد المسلم الثقافى والأخلاقى حتى يكون جنديا لله .

٢ - إيجاد النظام الصالح الذى يضم هؤلاء جميعاً فى إطار واحد تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّه جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٢) .

٣ - إيجاد الخطة المناسبة فى إطار القُطر والمرحلة التى يمر بها ملاحَظاً فى ذلك ما يجرى حول هذا القُطر بشكل عام .

٤ - السير فى خطوات تنفيذية نحو تحقيق الأهداف الإسلامية واحداً مع واحد - أو بعد واحد - فإذا نجح العاملون فى هذا فإنه وقتذاك نكون قد بدأنا السير السليم على الأرض الصلبة والطريق المستقيم .

* * *

إن الحركة التى لا تعرف ما تريد ولا تعرف أن تسير إلى ما تريد حركة مقضى عليها بالفشل فى عالم الأسباب .

إن كل الحركات التى استطاعت أن تفعل شيئاً كان على رأسها قيادات عارفة ماذا تريد وكيف تحقق ما تريد .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) تذهب ريحكم : تتلاشى قوتكم أو دولتكم - والآية من سورة الأنفال : ٤٦

وقد درج بعض المسلمين على الخوف من كل ما له علاقة بالتنظيم ، وبعضهم يعتبر التنظيم متنافياً مع روح الإسلام ، أو هَدى النبوّة ، وبعضهم يعتبر النظام والتنظيم والقواعد فى ذلك أثراً من آثار تسرب الروح الغربية إلى عقول المسلمين .

وكل ذلك أوهام .

فالرسول عليه السلام فى بيعة العقبة الثانية أمر الأنصار أن يختاروا له من بينهم اثنى عشر نقيباً يكونون مسئولين عن أقوامهم ، وترك لمن بايعوه أن يختاروا من بينهم .

ويوم حُنين تفيد النصوص أنّ كل مجموعة من المسلمين كان عليهم عرِّيف ، وأمرنا عليه السلام إذا كنا فى سفر أن نؤمِّر علينا . وكل آداب الإسلام تعويد للمسلم على النظام والترتيب والخضوع للقواعد ، وفى الشئون الإدارية البحتة جعل المسلمون فى سعة .

وهذا عمر رضى الله عنه أخذ نظام الدواوين عن الفُرس .

والأمر بعد ذلك كله وقبله على الشكل التالى :

هل يمكن وقد كثر المسلمون وامتدت أقطارهم وتشعبت شئون العمل الإسلامى ، وقامت فى العالم الإسلامى تنظيمات سياسية مرتّدة أو كافرة ، هل يمكن مع هذا كله أن تحل مشاكل المسلمين أو يستطيع المسلمون السير بلا نظام وتنظيم ؟ إنّ هذا محض الوهم .

* * *

٧ – الأهداف الرئيسية لحزب الله

إنّ الأهداف الرئيسية لحزب الله هى التى يفرض الله على المسلمين أن يحققوها ، إذ لا يمكن أن يكون للمسلم أهداف غير ما حدده الله له ، ولا يمكن أن يتنازل المسلم عن شىء من هذا أبداً إلا إذا قرر ألا يكون مسلماً حقاً .

ولو أننا استقرأنا الأهداف العامة التى يجب أن نعمل لها فى عصرنا كمسلمين ، فإننا نجدها خمسة ، كل منها يدخل فيه أهداف فرعية :

هذه الأهداف الرئيسية الخمسة هى :

١ - صياغة الشخصية الإنسانية صياغة إسلامية .

٢ - إقامة الدولة الإسلامية فى كل قُطر .

٣ - توحيد الأمة الإسلامية .

٤ - إحياء منصب الخلافة .

٥ - إقامة دولة الإسلام العالمية .

ويتوقف عملياً تحقيق بعض هذه الأهداف على بعضها الآخر فلا تقوم الدولة الإسلامية فى كل قُطر قبل وجود الشخصية الإسلامية ، ولا تتحقق وحدة الأقطار الإسلامية قبل قيام الحكم الإسلامى ، ومنصب الخلافة معلّق على وجود غيره ولا يمكن إخضاع العالم لكلمة « الله » قبل وجود كل ما سبق .

والملاحَظ أنَّ هذه الأهداف لم تأخذ مكانها فى تفكير المسلم المعاصر ، كما أنَّ كثيراً من المسلمين لا يحسون أنها فريضة ، وكثيرون آخرون يقفون عند هدف منها فلا يفكرون فى غيره . وغالبية المسلمين تقف عند الهدف الأول فلا تتجاوزه بل تأخذه كذلك على ضعف ، فاقتضى ذلك أن نقف وقفة قصيرة عند كل هدف من هذه الأهداف .

١ - صياغة الشخصية الإنسانية صياغة إسلامية :

ويدخل فى ذلك أن يصوغ الإنسان نفسه ، وأن يصوغ أسرته ، وأن يدعو الناس لذلك ولا يُكلّف الله نفساً إلا وسعها ، ولا بد من بذل الوسع فى هذا السبيل .. قال تعالى : ﴿ قُوآ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [١] ، وقال : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [٢] ، وقال : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [٣] .

ونقصد بصياغة الشخصية الإنسانية صياغة إسلامية أن تكون مستجمعة للأخلاق الأساسية والثقافة الإسلامية ، والكتاب المعتمد فى بيان هذا هو

---

(١) التحريم : ٦ (٢) الشعراء : ٢١٤ (٣) النحل : ١٢٥

« جند الله ثقافة وأخلاقاً » حيث ركّز فى القسم الثانى على الأخلاق الأساسية الخمسة التى لا يصح أن يسمى الإنسان عضواً كاملاً فى حزب الله إلا بها : « محبة الله ، الرحمة بالمؤمنين ، الشدة على الكافرين ، الجهاد ، تحرير الولاء »، وحيث تبين فى القسم الأول أنّ الثقافة الإسلامية الكاملة هى التى يأخذ الإنسان حظه الأدنى فيها من العلوم التالية : الكتاب والسُّنّة ، الفقه والعقائد والأخلاق ، أصول الفقه ، السيرة والتاريخ الإسلامى ، حاضر العالَم الإسلامى ، المؤامرات على الإسلام ، الدراسات الإسلامية الحديثة ، فقه الدعوة ، علوم العربية .

وهذا الهدف أول ما يجب التركيز عليه فى أنفسنا وفى حوارنا مع الناس وفى حوارنا مع الإسلاميين وعامة المسلمين ، وقد يكون محور حديثنا وخطابنا فترة طويلة من الزمن فى كثير من الظروف والأحوال ، لأنّ نقطة البداية لكل شىء عندنا هى إحياء المسلم بالعلم والتربية ، وبدون ذلك لا يكون شىء ولا نحقق شيئاً .

* * *

٢ - إقامة دولة الله فى كل قُطر :

وهى الفريضة التى يغفل عنها الكثير من أبناء الأقطار الإسلامية فى أقطارهم ، مع أن المسألة فى أبسط صورها كما يلى :

لقد فرض الله على المؤمنين إقامة أحكامه : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾(١)، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى ﴾ (٢) ، ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (٣) ، ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٤) . وهذا كله وغيره من الواجبات كوحدة المسلمين ، والجهاد لا يتم بلا حكومة إسلامية تؤمن بالإسلام فى كل قُطر . وما لا يتم الواجب إلا به فهو

---

(١) النور : ١ — (٢) البقرة : ١٧٨

(٣) النور : ٢ — (٤) المائدة : ٣٨

واجب . فإذا كان هذا لا يتم بلا إعداد فعلينا أن نعد ، وإذا كان هذا لا يتم بلا جهاد فعلينا أن نجاهد .

إنّ هذه المسألة ليست من المسائل التى تحتمل أخذاً ورداً . إنّ على المسلمين فى كل قُطرا أن يقيموا حكومة إسلامية منهم ولهم فى قُطرهم كمرحلة أولى نحو غيرها من المراحل .

وهذه فى عصرنا ليست فرض كفاية - كما يحلو لبعض الناس أن يصوروها - بل هى فرض عين الآن لآن فرض الكفاية يبقى فرض عين حين يقوم ، وما دامت دولة الإسلام فى القُطر لم تقم فعلى المسلمين جميعاً واجب إقامتها ودون ذلك دمار المسلمين والإسلام .

وقد تختلف خطة العاملين من أجل هذا ، ولكن الهدف يجب أن يبقى واضحاً .

* * *

٣ - وحدة الأقطار الإسلامية فى دولة واحدة :

لو كان العالَم الإسلامى هو العالَم كله لوجب أن تقوم دولة واحدة فيه . وإذا كان العالَم الإسلامى الآن من المحيط إلى المحيط فقد وجب أن تقوم دولة واحدة فيه وذلك كذلك فريضة من أجلها قاتل علىّ معاوية رضى الله عنهما ، ومن أجلها أمرنا رسول ﷺ :« إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » (١) .

والذين يستغربون هذا الكلام فى عصر المواصلات السريعة والإدارة المتقنة لماذا لا يستغربون دولة واحدة للولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفييتى أو الصين ، لقد كانت الدولة الإسلامية الواحدة ممتدة من المحيط إلى الصين ولم تكن وسائل الاتصال كما هى الآن .

---

(١) رواه مسلم وأحمد عن أبى سعيد الخدري فى كتاب « الإمارة » .

إنّ الكافرين إذا لم يروا هذا ويريدوه فلأنهم لا يؤمنون ، وليس فى مصلحتهم ، أما المسلمون فما بالهم يستغربون هذا وهو فريضة اللّه عليهم ، وسلاحهم الوحيد ليشكلوا قوة ذات وزن دولى يستطيعون بها أن يحرروا إخوانهم المستعبَدين من قبَل القوى العالَمية الضخمة : روسيا - الصين - الهند - الحبشة - الصهيونية العالَمية - الاستعمار الغربى - الدول الشيوعية الأخرى .

إن المسلم لا يسعه أن يعرف حكم اللّه فى قضية إلا أن يسلم ويعمل ، وكل صعب يصبح سهلاً إذا توفر الجد والإخلاص والمثابرة ، وكان قبل هذا ومعه وبعده اعتماد على اللّه وتوكل عليه فى تحقيق ما أمر ، وما لا يكون فى عام يمكن أن يكون فى أكثر من عام .

* * *

٤ - إحياء منصب الخلافة :

إنّ إحياء الخلافة الإسلامية يجب أن يكون له الجانب الأكبر من الأهمية ، وهى بديهية البديهيات عند كل مسلم ، وعلى فرضية إقامتها إجماع المسلمين ، ومع ذلك فلا يبذل إلا القليل جهداً من أجلها ، وهذا القليل قد لا يكون سائراً فى الطريق المعقول لإحيائها .

إن نظام الخلافة هو النظام الشرعى الوحيد للحكم الإسلامى ، فلا بد للمسلمين من وجود خليفة واحد قائم بأمر اللّه ، غير آت موجباً من موجبات الخلع .

وإعلان الخلافة لا يتوقف على وحدة الأقطار الإسلامية - فقد يكون هذا السبيل لإحيائها - ولكنه يتوقف على وجود الدولة النواة القادرة على فرض الوحدة على المسلمين أو القادرة على العمل من أجلها .

والمهم أن نعرف أن مَن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية ، فعلينا أن نجتهد من أجل تحقيق هذا الأمر بكل ما أوتينا من قوة .

* * *

٥ - إخضاع العالم لكلمة الله (إقامة دولة الإسلام العالمية) :

كخطوة أخيرة مفروضة على المسلمين : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (١) ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٢) . ويهول بعض الناس هذا الكلام ولا يهولهم إذا تحدثت الأحزاب الشيوعية عن الثورة العالمية والدولة العالمية وتحدثت بروتوكولات حكماء صهيون عن ملك إسرائيل الذى سوف يملك العالم بزعمهم .

لقد أمرنا الله أن نجاهد حتى لا يبقى شبر فى الأرض لم يخضع لكلمته لأنّ ذلك هو السبيل الوحيد لإنهاء فتنة المسلم عن دينه بأى شكل من أشكال الفتنة، الضغوط أو العروض أو الإغراءات أو منازعة النظام ، وليست هذه المسألة كذلك مما يجوز فيه الأخذ والرد . فهو أمر محتم علينا ، وعلينا أن نحقق وسائله .

هذه هى أهداف حزب الله ، وهى أهداف يُفترض على المسلم أن يسعى لتحقيقها بما أوتى من طاقة ، وهو آثم بالقدر الذى يملك من طاقة للعمل لها ثم يفرّط . وعجيب كيف يغيب هذا عنا والله يقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ (٤) حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٥) ، ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ (٦) ، ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٧) ، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٨) ،

---

(١) الأنفال : ٣٩ (٢) التوبة : ٣٣ (٣) آل عمران : ١٤٢

(٤) لنبلونكم : لنختبركم بالتكاليف الشاقة .

(٥) نبلوا أخباركم : نظهرها ونكشفها - والآية من سورة محمد : ٣١

(٦) قضى نحبه : وفى نذوره . أو مات شهيداً - والآية من سورة الأحزاب : ٢٣

(٧) محمد : ٧

(٨) تعزروه : تنصروه تعالى بنصر دينه . أى بإقامة شرعه - والآيتان من سورة الفتح : ٨ -٩

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (١) .

ولكن كثيرين من الناس يقولون بلسان الحال : ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ (٢) .

وتحت كل هدف من هذه الأهداف الكبيرة أهداف فرعية كثيرة سواء فى ذلك الأول أو الثانى أو الثالث أو الرابع أو الخامس .

وكتاب « الأصول الثلاثة » وكتاب « جند الله ثقافة وأخلاقاً » قد وضّحا مضمونات هذه الأهداف كلها .

* * *

٦ - واقع العمل الإسلامى الحالى :

لا زال بين الإسلاميين وبين القمة الرفيعة التى ينبغى أن يكونوا عليها فراغ .

فالإسلاميون يجاهدون ، ولكن الشىء الضخم الذى يريدونه وتختلج من أجله ضمائرهم ويقدمون من أجله شهداءهم فى سبيل الله لم يتبلور بشكل واضح وكامل على تفاوت فى درجات الكمال والوضوح ، فهناك رغبة بإقامة الدول الإسلامية وتحرير المسلمين وحل مشاكلهم ، ولكن ما هى الخطوات التنفيذية لهذا كله ؟ ما هى نقطة البداية فيه ؟

هناك شعور عام بضرورة التنظيم .. ولكن ما هو التنظيم الصالح وكيف يتم ؟

هناك شعور عام بضرورة المنهاج التربوى الثقافى .. ولكن ما هو المنهاج الصالح لهذا وكيف يتم تطبيقه ؟

هناك رغبة مُلّحة بضرورة التخطيط .. ولكن ما هو التخطيط الصالح ؟ ومَن يُخطِّط ؟ ومَن ينفِّذ ؟

---

(١) الحج : ٤٠ - ٤١ (٢) الفتح : ١١

إنّ جواباً على هذا كله لم يأخذ طريقه المقنع إلى قلوب الإسلاميين عامة ، وهذه نقطة من نقاط الضعف كانت وليدة عادية لأحوالنا نحن المسلمين .

ونتج عن عدم استطاعة العاملين أن يطرحوا الجواب الذى يرضى الضمير المسلم نظرياً وعملياً وسلوكيا أنه :

لم تستطع حركة إسلامية ولا جماعة إسلامية ولا حزب إسلامى - إلا نادراً وفى أمكنة دون أمكنة - أن يصل إلى قلوب المسلمين جميعاً بعمق وإقناع وإيمان حتى يشعر كل مسلم أنه جزء منه ارتباطاً وعاطفة ومشاعر وعملاً ومواقف دفاعية أو هجومية بحيث يشعر المسلم العادى أن الاعتداء عليه اعتداء على شخصه ، ولم تستطع جماعة إسلامية أن تستقطب عامة المسلمين فيحسوا أنها لهم وهم لها إلا فترات لم تكن دائمة وكانت قابلة للتحطيم . ولم تستطع جماعة إسلامية أن تستوعب الصيغة الملائمة للعمل الإسلامى فى كل جوانبه إلا أفراداً لم يأخذ فكرهم طابع التعميم العملى فتوزعت الصيغة الملائمة للعمل بين طبقات المسلمين وجماعاتهم ، فالعلم عند فئة ، والذكر عند فئة ، والدعوة عند فئة ، والوعى عند القليل ، والمجابهة الفكرية عند فئة دون أن يكون هناك رباط جامع للجميع .

ونظرت كل فئة إلى ما عندها باعتزاز وإلى ما عند غيرها بشىء من الانتقاص ، وكلٌ دعا إلى ما عنده رافضاً أن يأخذ شيئاً ، وغفلت كل فئة عما ينبغى أن يكون قاسماً مشتركاً بين الجميع .

ولم تستطع فئة - إلا قليلاً - أن تتحرر من أمراض الأمة الإسلامية لترفع غيرها إلى مستواها .

ولم تستطع فئة - إلا قليلاً - أن تصوغ المسلم صياغة قادرة على الحركة العريضة تتلازم فيها إرادة الموت مع إرادة النصر ، والقُدرة على الحركة السياسية مع القُدرة على الجهاد ، والذِلّة على المؤمنين مع الشدّة على الكافرين ، ومحبة الله مع تحرير الولاء له .

ولم تستطع فئة أن تطرح نظرية متكاملة مستوعبة مناخ العالَم المعاصر فى الثقافة والتربية والتخطيط والتنظيم والتنفيذ .

ولم تستطع فئة أن تطير بجناحى المثقفين والعامة وأن تبقى دائمة الطيران بهما .

ولم تستطع فئة إسلامية أن تستكشف مخططات العدو وتفوِّت عليه أمر تنفيذها ، بل لم تستطع أن تستكشف أعداءها كلهم على اختلاف تشكيلاتهم ، ورغم هذا كله فالمسلمون بخير ، وفى الحديث الصحيح : « مَن قال : هلك المسلمون ، فهو أهلكهم » .

فقبل فترة من الزمان كان كل شىء يعمل لإخراج المسلم عن إسلامه : مؤسسات - مدارس - أحزاب ... ولم تكن فى المقابل مؤسسات تثبِّت المسلم على إسلامه أو تجعله يعتز به ، أما الآن فقد وُجِدَت بفضل الله فى كل قُطر عشرات المؤسسات التى تعمل من أجل الإسلام والمسلمين ، فإذا مرت فترة لم يبق فيها مثقف مسلماً فقد وُجِدَت فترات كان الإسلام هو الأقوى فى صفوف المثقفين ، وهذا طيب ، ولكن لا بد من إدراك لهاتين الحقيقتين التاليتين والتحرك على ضوئهما :

١ - أنَّ المسلمين فى كل قُطر بعيدون عن أن يشكِّلوا حزب الله على الكمال والتمام حتى الآن لعدم ارتفاعهم إلى مستوى الأخلاق الأساسية لحزب الله ، ولعدم وحدتهم وكونهم فى تنظيم واحد يحقق أهدافهم ولانعدام التخطيط والتنفيذ الصالحين اللذين يكونان كأثرين عن التنظيم الصالح .

٢ - وأنَّ المسلمين فى كل قُطر لن يحققوا نصراً أو خلاصاً حتى يرتفعوا إلى المستوى الذى يكونون فيه جنداً لله على الحقيقة لأنَّ الله وعد جنده وحزبه بالغلبة : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢) ،

---

(١) يوسف ٢١ (٢) الصافات : ١٧٣

﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) ، ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

والناظر إلى الأمور بمنظار الأسباب لا يستطيع أن يتصور نصراً حقيقياً للإسلام والمسلمين أمام هذه القوى العاتية التى تواجههم إلا إذا كانت المسألة ربانية المصدر بتحقيق شروط النصر الربانى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٤) .

لهذا كله فإنه لا بد من دعوة حارة لكل طبقات المسلمين وحوار من أجل ترك السلبيات والتحقق بالإيجابيات ، ليرتفع المسلم إلى الحزبية الربانية فيكون جندياً لله ، إنه لا بد من حوار دائم مع كل المسلمين لتذكير كل فئة منهم بما غاب عنها من أمر الإسلام لتكمل شأنها وتكون من حزب الله حقاً .

إنه لا بد من دعوة حارة للناس جميعاً سواء أكانوا فُسّاقاً أو مرتدّين منحرفين أو خاطئين ، إسلاميين أو غير إسلاميين ، ليكونوا من حزب الله حقاً .

وإذا كانت الدعوة لغير الإسلاميين أمراً ضرورياً ، فإنّ فتح حوار مع طبقات المسلمين - كما ذكرنا - أمر ضرورى كذلك ، فهناك وجهات نظر كثيرة عند الإسلاميين لا بد من دراستها وتمحيصها ، وهناك أنواع من النقد توجّه من طبقة إلى طبقة لا بد من تقييمها .

وعلى الذين أخذ الله بيدهم حتى أدركوا - علماً وعملاً - صفات حزب الله وتحققوا بها أن يقوموا بواجب الدعوة لغير الإسلاميين وبواجب التذكير لكل طبقة المسلمين بما غفلت عنه من أمر الإسلام ، فالطبقات التى غفلت عن الحكم

---

(١) المائدة : ٥٦ (٢) المجادلة : ٢٢

(٣) الأنفال : ١٠ (٤) الحج : ٤٠ - ٤١

الإسلامى والتشريع الإسلامى وتطبيق الإسلام على مستوى الدولة يدخل معها فى حوار هادىء مذكرا لها بأمثال قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ ﴾ (١) ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ ﴾ (٢) ، ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ (٣) .

وإن هذه الفرائض وأمثالها يكلف المسلمون بإقامتها ولا تقوم إلا بدولة إسلامية، فيجب العمل لها لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ (٤) .

والطبقات التى غفلت عن الردّة والمرتدّين وواجبها تجاه ذلك ، يدخل معها فى حوار مذكّراً لها بأمثال قوله تعالى : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ ... ﴾ (٥) .

والطبقات التى تحارب كفراً دون كفر ، وتساير كفراً دون كفر ، يدخل معها فى حوار مذكّراً بمثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (٦) .

والطبقات التى تفهم أنّه يمكن أن يكون مع الإسلام نظام آخر ولا يتناقض ذلك مع الإسلام يدخل معها فى حوار مذكّراً بمثل قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٧) .

والطبقات التى غرقت فى جانب من الإسلام ونسيت غيره تُذكّر بمثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ وَالمُتَصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالحَافِظِينَ

(١) البقرة : ١٧٨ (٢) البقرة : ٢١٦ (٣) النور : ١
(٤) النساء : ١٠٥ (٥) المائدة : ٥٤ (٦) الأنفال : ٧٣
(٧) النحل : ٨٩

فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (١) .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٣) .

والطبقات التى تفر من الامتحان والإيذاء وتعتبره علامة خطأ تُذكَّر بأنها تفر من تحقيق الإيمان وطريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٤) ، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٥) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦) .

والطبقات التى تعتقد أنَّ هذا الدين دين اللّه وعلى اللّه نصره ولا تبذل جهداً تُذكَّر بمثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (٧) . ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٨) .

---

(١) الأحزاب : ٣٥ (٢) الأحزاب : ٢٣ (٣) الحجرات : ١٥
(٤) محمد : ٣١ (٥) آل عمران : ١٤٢ (٦) العنكبوت : ١٠
(٧) محمد : ٤ (٨) التوبة : ١٤

والطبقات التى تختار لنفسها طريق الحياد تُذكّر بأنّ الحياد هو النفاق وذلك مقتضى قوله تعالى : ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لاَ إِلَى هَٰؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَٰؤُلاَءِ ﴾ (١) .

والطبقات التى تئن من غلبة الأشرار على الأخيار ولا تبذل لذلك جهداً تُذكّر بأنّ طريق غلبة الأخيار على الأشرار هو كما قال عليه الصلاة والسلام : « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليُسلِّطنّ الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يُستجاب لهم » (٢) .

والطبقات التى تشكو ذلة المؤمنين ولا تعرف طريق الخلاص منها ، تُذكّر بأنّ الذلة ستبقى بضرورة علينا ما دامت أسبابها قائمة : « إذا تبايعتم بالعيِّنة (٣) وتبعتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم جهادكم ، سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تعودوا إلى دينكم » (٤) . ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ (٥) .

والطبقات التى تفر من عمل إسلامى موحّد تُذكّر بمثل قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ (٦) ، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (٧) .

---

(١) النساء : ١٤٣ .

(٢) رواه البزار والطبرانى فى « الأوسط » عن أبى هريرة » ورمز السيوطى لحسنه .

(٣) بيع فى الصورة ربا فى الحقيقة .

(٤) رواه أحمد وأبو داود عن ابن عمر ، وأخرجه الطبرانى وابن القطان وصححه .

(٥) البقرة : ٨٥

(٦) معنى الآية : أى فما لكم افترقتم فى أمر المنافقين إلى فرقتين ولم تتفقوا على تكفيرهم والله قد ردهم إلى حكم الكفرة – والآية من سورة النساء : ٨٨

(٧) آل عمران : ١٠٣

والطبقات التى تقوم بشأن من شئون الإسلام وتعزل نفسها عن كل شىء تُذكَّر بمثل قوله عليه الصلاة والسلام : « مَن أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » (١) .

والطبقات التى يئست من الإسلام وانتصاره تُذكَّر ببشارات رسول الله ﷺ بفتح القسطنطينية وروما وعودة الخلافة الراشدة .. وسيأتى ذكر الحديث فى هذا الموضوع .

والطبقات التى تعطى ولاءها على أساس غير أساس الإسلام تُذكَّر بمثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (٢) .

وهكذا حتى لا تبقى فئة من المسلمين إلا وقد أخذ بيدها باتجاه أن تكون من حزب الله على الحقيقة وكل ذلك بأدب ولطف وخفض جناح .

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

* * *

٧ - الواجب الدائم « تعميق الاتجاه » :

لئن فشلنا فى مرحلة من المراحل فى تحقيق أى هدف عام من أهداف حزب الله ، وربحنا فى إيجاد الرجل الذى يمثل حزب الله ، فإن ذلك كبير وعظيم فى ميزان الله جَلَّ جلاله . إن هناك أنبياء يُحشَرون ومعهم الرجل والرجلان ، ونوح عليه السلام بعد تسعمائة وخمسين عاماً ما آمن معه إلا قليل وكان هذا القليل هو

---

(١) رواه البيهقى فى « الشُعب » عن أنس مرفوعاً ، وهو عند الطبرانى وأبى نعيم فى «الحلية» بلفظ : « مَن أصبح لا يهتم للمسلمين فليس منهم » .

(٢) المائدة : ٥٥ (٣) الشعراء : ٢١٥ - ٢١٦

حزب الله ، ولأن يهدى الله بكَ رجلاً واحداً خير لك من حُمر النعَم . كل هذا يجعلنا نستشعر قيمة نجاحنا في إيجاد الرجل الذى يتمثل به حزب الله .

إنَّه قد تمر ظروف قاسية وغير مواتية تجعلنا عاجزين عن الحركة الشاملة سواء أكانت هذه شخصية أو غيرية - داخلية أو خارجية - لا نستطيع معها التحرك الكامل .

فمهما تخلينا عن شىء فى مثل هذه الظروف فلا يجوز أن يتخلى كل فرد من حزب الله عن العمل لإيجاد عضو جديد فى حزب الله أو الارتفاع بمهتد قديم إلى حالة أطيب وأكرم .

* * *

وعلينا أن نفرح بفضل الله علينا إذا هدى الله على يدنا إلى طريقه إنساناً ، وعلينا أن نفرح إذا وجدنا مَن يدعو إلى طريق الله مثلنا ، كما أن علينا أن ننظر بعين الرضا والمودّة إلى كل جهد يُقرِّب الإنسان من اتجاه حزب الله حتى ولو كان قاصراً أو محدوداً أو سطحياً ، فشىء خير من لا شىء ، وعلينا أن نكون حكماء فى تكميل النقص ، وحكماء فى النصح ، وحكماء فى العمل .

إنّ كل جهد يبذله مسلم مستقيم فى الدعوة إلى الله يصب فى النهاية فى بحر الإسلام العظيم ويمده ويرفده وكل ذلك يعود بالخير والبركة .

والطريق الطويل يبدأ بخطوة واحدة ، وعلينا أن نستجر مَن وضع رجله فى بداية الطريق إلى الله إلى نهاية الطريق ، ولنحذر من ضيق الأفق ومن قصر النظر ومن طلب الكمال طفرة واحدة ومن عداء من لا يوافقنا على كل شىء بعد تحققه بصفات حزب الله ومن الإساءة إلى المبتدئين لأن ذلك كله يسىء إلى الاتجاه . إن على أفراد حزب الله أن يكونوا أداة تدفع نحو الأمام ، لا أداة ترجع إلى الوراء أو توقف فى حالة جمود .

إن الدعوة إلى الإسلام الصحيح - أياً كانت - جسر من الجسور التى يعبر بها الإنسان من الجاهلية إلى الإسلام ، وعلينا ألا نحطم الجسور إذا كنا عاقلين

حقاً ومخلصين حقاً ، وإنما نحاول ألا نُبقى أحداً على الجسر إلا وقد عبر إلى حقائق الإسلام وأخلاقه ليكون من حزب الله حقاً فذلك هو الهدف العظيم الذى به يتحقق كل شىء وبدونه لا يكون شىء .

إنَّ اتجاه حزب الله هو الذى ينبغى أن تنصب جهودنا على تعميقه وترسيخه ونشره وتعميقه بالحوار والكتاب والمحاضرة والاتصال الفردى والتربية العامة لاستئصال كل ما عداه وتبيان بطلانه ، وبدون تحقيق هذا الاتجاه فلا أمل بتغيير أوضاع المسلمين: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1]، وكيف يكون أمل إذا كان عامة المسلمين يوالون أعداء اللّه أو لا يلتزمون بشريعته أو لا يبالون بإقامة أحكامه ودولته .

إنَّ نقطة البداية هى وجود الرجل الذى يتمثل أخلاق حزب الله ثم وجود الرأى العام الذى لا يرضى عن اتجاه حزب الله بديلاً .

إنَّ اتجاه حزب الله هو الذى يلائم الفطرة البَشرية لأنه يخاطب الذات البَشرية كلها ، ولذلك فإنَّ هذا الاتجاه هو الاتجاه الوحيد الذى سيفرض نفسه على المسلمين إذا أتقنوا العمل - بإذن الله .

أما الدعوات الإسلامية الجانبية فإنها تخاطب جزءاً من الذات فقط ، ولذلك فإنها غير مرشحة للدوام .

إنَّ مخاطبة الإنسان أن يُزكى نفسه ثم لا يفكر فى أمته ، أو خطاب الإنسان أن يُثقِّف نفسه ثم لا ينطلق فى تحقيق هدف ، أو خطاب الإنسان فى أن يحقق هدفاً وينسى ذاته ، كل هذه الدعوات وأمثالها دعوات تجانب الوضع السوى للحياة ولذلك فإنها لا تستطيع الصمود أمام الدعوة المتكاملة إلا إذا فرّطت هذه الدعوة فى نفسها .

أما إذا حملنا الاتجاه حق الحمل وكنا جديرين بهذا الحمل عندئذ يكون الطريق مفتوحاً وإن كان شاقاً .

* * *

---

(١) الرعد : ١١

٨ - موضوع مرفوض :

إنّ حزب الله يرفض فكرة تبعيض الإسلام ، أياً كان مظهر هذا التبعيض ، لأنّ التبعيض سبب من أسباب الذلة والخسران فى الدنيا والآخرة ، ولا يستمد حزب الله قوّته إلا من الله الذى لا يعطى القوة لمن يتخلى عن جزء من دينه بل يذيقه ضعف الحياة وضعف الممات .

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ العَذَابِ ﴾ (١) .

﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ﴾ (٢) .

إنّ تبعيض الإسلام سواء ظهر بشكل إسلام بلا سياسة أو ظهر بفكرة العهد المكى ثم المدنى ، أو ظهر بفكرة التعاون مع الآخرين على أساس اسم الإسلام لا حقيقته أو ربُع الإسلام أو خمسه كل ذلك مرفوض .

إنّه فى اللحظة التى نقبل فيها مختارين - أو مضطرين - مساومة على دين الله أو تنازلات عنه إرضاءً لأعداء الله لم نعد من حزب الله الذى من صفات أهله : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ (٣) .

إنّ الذين ينادون بإسلام لا علاقة له بالحكم إنما يساعدون حكم الكفر على الاستمرار والاستقرار ، ويؤكدون قضية استعباد المسلمين وذلّتهم ، إنّ هؤلاء يقولون بلسان الحال للكافرين : استمروا فى تسلطكم على المسلمين ، كما أنهم

---

(١) البقرة : ٨٥

(٢) تركن إليهم : تميل إليهم أدنى ميل ، وضعف الحياة وضعف الممات : أى ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة - والآيتين من سورة الإسراء : ٧٤ - ٧٥

(٣) المائدة : ٥٤

يميتون روح الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند المسلمين ، وبدون جهاد وأمر بمعروف ونهى عن منكر فإن الإيمان يكون مفقوداً أو ضعيفاً .

قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ (١) .

إن حزب الله مكلّف بإنهاء الردّة والمرتدّين مهما كان نوع الردّة والمرتدّين .

هذا شأنه .. لا يمكن أن يضع يده بيدهم مهما كان نوع المصلحة التى يتوهمها الناس الآخرون فى ذلك ، إنّ الأصل فى علاقاتنا مع هؤلاء جميعاً الحرب الشاملة ، وبدون ذلك لا نكون حزبا لله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢) .

فلا لقاء مع أحد من المرتدّين إلا بتوبته الكاملة لله ، وعندئذ فلن يُقبل إلا تابعاً وحزب الله يضعه حيث يشاء .

---

(١) فثبطهم : عوّقهم عن الخروج معكم - والآيات من سورة التوبة : ٤٤ - ٤٦

(٢) المائدة : ٥٤ - ٥٦

وفارق بين التعاقد وتشابه المواقف ، فقد يخطو حزب الله خطوة ويخطو الآخرون خطوة مشابهة بلا عقد ولا عهد ، فهذا لا يدخل فيما أشرنا إليه .

وفارق بين التنازل الذى يأخذ طابع عهد وبين التدرج فى النصيحة والتربية ، فإن التدرج سُنَّة الإسلام .

وأخيراً .. إنَّ فكرة تبعيض الإسلام دمار ، ولا يمكن أن تتحد قلوب المسلمين على إسلام منقوص ﴿ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ ﴾ (١) .

وحزب الله لن يدخل فى صراع مع الإسلاميين بل سيخدمهم ، ولكنه لا يعتبر إسلامياً إلا مَن آمن بشمول الإسلام وحرَّر ولاءه لأهله وعمل للإسلام كما هو ، وسواء أكان عملة كلياً أو جزئياً فإنه لا يعارض الذين يريدون إقامة الإسلام كله .

* * *

٩ - قيام حزب الله يعنى ابتداء الثورة الثانية :

الثورة الأولى تكاد تكون انتهت .. وهى الثورة على الاستعمار .

والثورة الثانية يجب أن تبدأ .. وهى الثورة على التبعية الاقتصادية والسياسية والفكرية للاستعمار . وقد كان المسلمون وقود الثورة الأولى وسيكون الإسلاميون وقود الثورة الثانية .

الثورة الأولى كانت بحاجة إلى عواطف كاللهيب ، والثورة الثانية تحتاج مع هذه العواطف إلى علم غزير ووعى رفيع .

الثورة الأولى كان أمام المسلمين فى أوطانهم هدف حسى ، أما الثورة الثانية فإن أمام المسلمين فيها ألغازاً وخططاً وأسراراً ومعميات وفنوناً .

---

(١) فأغرينا : هيّجنا وحرّشنا ، أو ألصقنا - والآية من سورة المائدة : ١٤

كان أمام المسلمين فى الثورة الأولى كافرون أجانب من السهل عليهم أن يحاربوهم ، ولكن أمام المسلمين اليوم مرتدِّين من أبنائهم وإخوانهم لا يستطيعون أن يحكموا عليهم بسهولة لتلبس هؤلاء المرتدِّين بأثواب النفاق .

كانت الثورة الأولى تيَّاراً وطنياً لا يسع أحداً من أبناء الوطن أن يعاكسه ، ولكن الثورة الثانية ضد تيَّار داخل الوطن تغذيه تيَّارات عالَمية جارفة .

الثورة الأولى احتاجت إلى جهد وجهاد ، والثورة الثانية تحتاج إلى جهد أكبر وجهاد أعظم .

إن على الذين ألقوا السلاح من المسلمين بعد انتهاء الثورة الأولى أن يحملوه مع أسلحة أخرى من أجل الثورة الثانية لأنَّ الثورة الثانية أعنف وأشد وأكثر آلاماً وأنيناً .

ولئن استمرت الثورة الأولى سنين طويلة ، فإنَّ الثورة الثانية تحتاج إلى زمن أكبر إذ أنَّ أعداءنا فى الثورة الأولى دول ، وأعداؤنا فى الثورة الثانية مؤسسات وأجهزة ومرتكزات وحواجز وأوضاع محلية وأوضاع عالمية وجيوب ومشاكل وفساد وكتل ودول .

إنَّه لا بد من الثورة الثانية لإنهاء المؤسسات الكافرة والعميلة التى يغذى جذورها على أرضنا ماء غريب .

ولا بد من الثورة الثانية لإنهاء المشاكل السياسية التى وضعها الاستعمار أو رعاها ليعيش المسلمون فى دوامة .

ولا بد من الثورة الثانية لإزالة الحواجز والعوازل ما بين الأقطار الإسلامية .

ولا بد من الثورة الثانية لتحطيم الأغلال والأطواق السياسية والاقتصادية التى تخنق المسلمين .

ولا بد من الثورة الثانية كمنطلق لتحرير الأقطار الإسلامية التى تحتلها دول كبرى عالَمية أو تسند أنظمتها الكافرة قوى عالمية .

* * *

١ - قيام حزب الله وانتصاره حل للمشاكل كلها :

لهذا كله كان لا بد من الثورة الثانية ، ولهذا كله لا بد من قيام حزب الله .

إن للثورة الثانية مبررات هى فى حجم مبررات الثورة الأولى ، فإذا كانت الثورة الأولى احتاجت إلى مليون قتيل ليتحرر قُطر إسلامى - كالجزائر - فإن الثورة الثانية تحتاج إلى دماء كثيرة كذلك .

إننا عندما ننجح فى قيام حزب الله فإننا وقتذاك نكون قد بدأنا السير فى حل كل مشكلة متصورة أو واقعة للمسلمين أو لجزء من أرض الإسلام ، كما نكون بدأنا السير الصحيح لحل مشكلة الإنسان كإنسان أصلاً ومشاكل البشرية جميعها وذلك هو الحل الوحيد لكل شيء ، وذلك أن كون الإنسان من حزب الله هو الحل الوحيد لمشاكله النفسية والعقلية والروحية والسلوكية ، وخضوع البَشرية لحزب الله هو الحل الوحيد لخلاصها من سيطرة القوة الظالمة وطغيانها على الحق والعدل والرحمة ، وانتصار حزب الله فى الأقطار الإسلامية حل لمشاكلنا المحلية والعالَمية سواء أكانت مشكلة احتلال أرض أو مشكلة ضعف أو مشكلة سياسية أو اقتصادية معقّدة أو بسيطة .

وانتصار حزب الله فى الأقطار الإسلامية هو الحل الوحيد فى عملية تحرير الوطن التى تحتلها قوى عالَمية أو تسند الاحتلال فيها قوى عالَمية .

إنَّ كل شعب إسلامى ستكون له حكومته المحلية ضمن الكيان الإسلامى الكبير .

وإنَّ كل منطقة متكاملة الوضع ستكون ولاية ضمن الولايات الإسلامية المتحدة . وسيعطى كل مسلم فى هذه الدولة حرية الرأى وحق اختيار حكّامه وممثليه ضمن حدود الإسلام .

ولن يُظلم نتيجة لانتصار حزب اللّه أحد من غير المسلمين بل ستُعطى له حقوقه المتفق عليها كاملة .

وإنَّ كل مسلم فى العالَم ستؤمَّن له الحماية الكاملة من أى اعتداء .

إنَّ التعبئة الكاملة ستجعلنا خلال سنين من أقوى دول العالَم لأن العالَم الإسلامى أغنى مناطق العالَم .

وإننا وقتذاك سنستطيع - بإذن اللّه - أن نحرر بقوى قليلة مناطق كبيرة وستكون كلمتنا ميزان الوفاء الكامل .

وستجد كثير من الشعوب أمنها فى أن تعقد معاهدات معنا .

وسيدخل الناس وقتذاك فى دين اللّه أفواجاً .

وساعتئذ يبدأ العمل الجدِّى لإخضاع العالَم كله لسلطان اللّه لنحقق نبوءات رسولنا عليه السلام .

وسيجد العالَم كله وقتذاك نفسه سعيداً لأنه عثر على الحق وحكم بالحق الذى أنزله اللّه تعالى .

إنَّ الذين يريدون أن تتحرر فلسطين وكشمير والهند وتركستان وأرتيريا وغيرها من أرض الإسلام ، عليهم أن يعملوا من أجل إقامة حزب اللّه إقامة سليمة ، وإنَّ الذين يحلمون أن تكون لهم دولة واحدة تضم شعبهم الواحد ذا اللسان الواحد عليهم أن يعملوا من أجل إقامة حزب اللّه إقامة كاملة ، وإنَّ الذين تنفطر قلوبهم لسيطرة الكافرين على المسلمين وتأخر المسلمين ، عليهم أن يعملوا من أجل إقامة حزب اللّه إقامة كاملة ، وإنَّ الذين يرغبون فى أن يدخلوا الجنة عليهم أن يعملوا من أجل إقامة حزب اللّه .

وكل عمل إسلامى ينزل عن هذا المستوى الرفيع عمل ناقص وجزئى يؤجَر صاحبه فيه على قدر إخلاصه لله ، ولكنه إن صَدَّ عن صراط الله المستقيم فإنه آثم بمقدار صده .

إنَّ الحل الوحيد لكل مشاكلنا هو : أن يوجد جند الله على الحقيقة ، وأن يضم هؤلاء فى القُطر الواحد تنظيم واحد وخطة صلبة واحدة وتنفيذ جيد ، فإذا ما كان ذلك فى كل قُطر فستنحل مشاكل الأقطار الإسلامية واحداً فواحداً وتتحقق بذلك الأهداف كلها بإذن الله ..

وبدون أن يقوم حزب الله فى كل قطر قياماً سليماً وصحيحاً فإننا لا نكون سائرين فى الطريق الصحيح نحو أهدافنا وحل مشاكلنا كمسلمين ولا فى طريق إنهاء هذه الرِدّة المستشرية .

ومن أجل وجود الإنسان الذى تتمثل فيه أخلاق حزب الله كان هذا الكتاب... والله ولى التوفيق ..

* * *

القسم الأول

جند الله .. ثقافةً

• المقدمة – واقع المسلمين الثقافى والتربوى :

(١)

أنزل الله إسلاماً مبيناً فى كتابه عَزَّ وجَلَّ وسُنَّة رسوله ﷺ ، وقد وصف الله كتابه بقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (١) ، ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (٢) .

وقد فهم المسلمون من هاتين الآيتين ومن أمثالهما وما فى معناهما من سُنَّة رسول الله ﷺ ، أنه ما من قضية من قضايا الوجود . إلا ولله فيها حكم يُعرف من كتاب الله أو سُنَّة رسوله ﷺ صراحة أو استنباطاً ، ومجموع أحكام الله هذه هى الإسلام . والمسلم هو الذى استسلم لأحكام الله كلها ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ ﴾ (٣) .

ولم يفهم الكثير من المسلمين هذا المعنى عن شمول أحكام الإسلام لكل قضايا البَشر ، حتى إن الأكثرية المطلقة من المسلمين باتت تفهم أنَّ الإسلام هو الشهادتان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج فقط ، مع أن الحديث الوارد فى ذلك عن ابن عمر رضى الله عنه يدل دلالة قطعية على أنَّ هذه أركان الإسلام ، أى ركائزه ، وليست كل الإسلام . بل الإسلام زيادة على ذلك بناء يقوم على هذه الأركان . إذ نص الحديث مبدوء بقوله عليه الصلاة والسلام : « بُنِىَ الإسلام على خمس .. » (٤) ، وعندما يقال : إن البيت بُنِىَ على دعائم أربع فهذا يعنى

---

(١) النحل : ٨٩

(٢) يوسف : ١١١

(٣) النساء : ١٢٥

(٤) متفق عليه عن ابن عمر مرفوعاً .

أنَّ هناك دعائم فوقها بيت ، ولو فهم إنسان من هذه الكلمة أنَّ البيت هو الدعائم الأربع فقط ، لكان ذلك خطأ ، فكذلك فى الحديث ، هناك إسلام وأركان له ، ولا يعنى هذا طبعاً أن الأركان غير الإسلام ، فأركان البيت جزء منه ، وكذلك أركان الإسلام جزء من الإسلام ، وإن كانت أساساً فيه ، والبناء الذى هو فوق الأركان يشمل أحكام اللّه فى قضايا الاجتماع ، والأخلاق ، والسياسة ، والسلم ، والحرب ، والثقافة ، والعلم ، وغيرها - علمه مَن علمه ، وجهله مَن جهله - ولا عذر فى الجهل بعد أن تقوم الحُجَّة . وهذا مكمن الفرق بين مفهوم المسلمين الحقيقيين - قديماً وحديثاً - عن الإسلام ، وبين مفهوم غيرهم .

لقد كان مفهوم المسلمين عن الإسلام مفهوماً شاملاً كاملاً سليماً ، بحيث ما كان يخطر ببال المسلم أو بخلده أن تكون هناك قضية يحتكم فيها لغير اللّه ، أو أن هناك قضية ليس للّه فيها حكم . وكان ذلك بديهياً عند المسلم كيف لا وآيات اللّه تملأ أذنيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللّه وَرَسُوله ﴾ (١) ، ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّه وَالرَّسُولَ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (٢) ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ ﴾ (٣) .

لكنك لو سألتَ الملايين الكثيرة من ذرارى المسلمين اليوم عن الإسلام فماذا تجد ؟ لقد جرَّبنا كثيراً أن نسأل ناساً من المسلمين من مختلف المستويات عن الإسلام ، وكنا دائماً نخرج بعدد من التعاريف - أقل بقليل - من عدد المسئولين فى الجلسة الواحدة وكلها قاصر . وأمام هذه الظاهرة ، يخرج الإنسان بنتيجتين :

أولى : هى أنَّ مفهوم المسلمين اليوم عن الإسلام مفهوم مضطرب وغير موَّحد ، بدليل اختلاف التعاريف .

---

(١) لا تقدِّموا : لا تقطعوا أمراً من الأمور - والآية من سورة الحجرات : ١

(٢) النساء : ٥٩ (٣) النساء : ٦٠ .

وثانية : هى أنّ مفهومهم عن الإسلام مفهوم قاصر وجزئى ، بدليل أنّ كل واحد منهم عرَّف الإسلام ببعض أجزاء فيه ، ولم يُعرِّفه بحقيقته عداً أو حداً . .

(٢)

وكما اضطرب مفهوم المسلم عن الإسلام ، اضطرب كذلك مفهومه عمَّن يأخذ أحكام الإسلام عنه . ففى الأصل لم يكن المسلم يأخذ حكم الله إلا عن مصدر ثقة ، أهل لأن يعطى حكم الله : « إن هذا العلم دين فانظروا عمَّن تأخذون دينكم » [(١)] .

وقد قطع الله عن المسلم كل صلة أخذ فيها مظهر طاعة لغير الله ورسوله : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ [(٢)] ، ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [(٣)] ، ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ [(٤)] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [(٥)] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [(٦)] ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [(٧)] .

وحتى المسلمين ليس كل واحد منهم يؤخذ منه حكم الله ، لذلك أمر الله المسلمين أن يردوا أمورهم إلى من عنده أهلية الاستنباط فيهم : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [(٨)] . وهم الذين يُطلق عليهم فى الاصطلاح الفقهى اسم المجتهدين .

---

(١) من كلام التابعى محمد بن سيرين الأنصارى المتوفى سنة ١١٠ هـ ، ذكره مسلم فى مقدمة صحيحه .

(٢) مهين : حقير أو كاذب – والآية من سورة القلم : ١٠ .

(٣) الشعراء : ١٥١ – ١٥٢ (٤) الأحزاب : ٤٨ (٥) آل عمران : ١٠٠ .

(٦) آل عمران : ١٤٩ (٧) الأنعام : ١١٦ (٨) النساء : ٨٣

وقد تمسك المسلمون بهذا الأصل تمسكاً تاماً حتى إنهم كانوا يعتبرون مَن تصدى لإعطاء أحكام الله اجتهاداً إذا لم يملك أدوات الاجتهاد ضالاً مضلاً ، لا يجوز إتباعه ، ولو كان صالحاً وعابداً .

أما الآن فقد وصل بعامة المسلمين الأمر إلى حد أنه مَن قال لهم : هذا إسلام ، أو لا يتنافى ما أقوله مع الإسلام ، صدّقوه مهما كان . يقول لهم المستشرق المتلبس لبوس العلم والخائن له : هذا إسلام ، فيصدقونه ويتبعون رأيه . ويقول لهم الزعيم السياسى الفاسق عن أمر الله ، الجاهل بدينه ، المجاهر بمعصيته ، التارك لعبادته : هذا إسلام ، فيصَدّقونه ولو كان ما قاله من أعماق الجاهلية ، حتى صرتَ ترى كثيراً من المسلمين يعطون ولاءهم وقيادهم لزعماء من غير المسلمين ، على زعم أنّ دعوة هؤلاء ودعاواهم هى لب الإسلام ، أو لا تخالف الإسلام .

ومما زاد البلبلة أن كثيراً ممن يسمون بعلماء المسلمين مفهومهم عن الإسلام خاطئ ، وأعطوا ولاءهم لغير الإسلام والمسلمين ، وآخرين منهم ليسوا أهلاً لإعطاء حكم الله ، ولا لمعرفته ، فكانت فتاواهم فى كثير من الأحيان شراً على الإسلام وعلى أهله ، هذا مع عدم أهلية الكثيرين منهم لحمل رسالة الله والدعوة لها .

(٣)

وفى الأصل كان تفاعل المسلم مع الإسلام شاملاً ، وكان تفاعله مع كل جزء من أجزاء الإسلام كاملاً ، فكما كان المسلم يتفاعل مع « لا إله إلاَّ الله » كان يتفاعل مع الصلاة ، وكما كان يتفاعل مع الصلاة ، كان يتفاعل مع أخوة الإيمان : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [١] . وكما كان يتفاعل مع الأخوة كان يتفاعل مع الولاء ، فلا يعطى ولاءه إلا للمؤمنين : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [٢] . وكما كان يتفاعل مع معنى الولاء ، كان يتفاعل مع الجهاد ، وكما كان يتفاعل مع الجهاد ، كان يتفاعل مع أحكام الحلال والحرام

---

(١) الحجرات : ١٠ . (٢) التوبة : ٧١

فى قضايا المال .. وبشكل موجز كان يتفاعل مع أحكام الإسلام كلها ، مع القرآن كله .

وكما كان تفاعله شاملاً مع كل أحكام الإسلام ، كان تفاعله مع كل حكم كاملاً ، فعندما نرى عمر يقترح أن يُقتل الأسير الكافر بيد قريبه المسلم ، ويهم أبو بكر أن يبارز ابنه المشرك ، نعلم إلى أى مدى كان التفاعل مع الآية : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴾ (١) .

وعندما نرى خالداً ينزل من قائد جيش إلى جندى عادى ، فلا يتغير له بلاء ، ولا يرى فى ذلك تحقيراً له . ندرك إلى أى مدى تفاعل المسلم مع الآية : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (٢) .

وعندما نرى أنه لم ينزل مهاجر على أنصارى إلا بقُرعة ، ندرك مدى تفاعل المسلم مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٣) .

وعندما نرى المدينة من أولها إلى آخرها تقاطع الثلاثة الذين خُلّفوا ، ندرك إلى أى حد تفاعل المسلم مع فكرة الانضباط والطاعة : ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ (٤) .

وعندما نرى أنّ الرسول ﷺ كان يخفف من غلو بعض الصحابة فى العبادة ، ندرك إلى أى مدى تفاعل المسلم مع قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ (٥) .

لقد تفاعل الجيل الأول المثالى النموذجى مع الإسلام تفاعلاً شاملاً وكاملاً ، وكى ندرك مقدار هذا التفاعل نحب أن نقف وقفة أمام آية وصفتهم :

---

(١) المجادلة : ٢٢

(٢) أولى الأمر : هم الحكام الذين يحكمون بما أنزل الله – والآية من سورة النساء : ٥٩

(٣) الحجرات : ١٠ (٤) محمد : ٢٠ – ٢١ (٥) الحج : ٧٧

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ (١) .

وشاهدنا فى الآية : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ .. ﴾ .

الفكرة بذرة ، والإنسان محل لإلقائها ، فإن صادفت محلاً فى القلب وجواً ملائماً نبتت ، فإن كانت فاسدة أورثت فساداً ، والعكس صحيح ، فهل كان الإسلام بذرة ألقيت فى قلوب الأصحاب فنبتت ؟

إن القرآن يذكر العكس .. أنَّ الصحابة هم الزرع ، وإذن فهم البذار ، والإسلام هو محل إلقاء البذر ، ولا تنبت بذرة إلا إذا فنيت فى الأرض التى بُذرت بها وذابت ، وتفاعلت تفاعلاً كاملاً ، وكان الغذاء والمناخ وكل ما يلزم ملائماً .

لقد تفاعل الصحابة مع الإسلام تفاعلاً كاملاً شاملاً ، بحيث كانوا شجراً بذرته فِطرتهم . والأرض ، والمناخ ، والماء ، والهواء : الإسلام .

هذا ما كان ، أما الواقع الآن ، فإنَّ مَن بقى من المسلمين مسلماً ، أصبح تفاعله مع الإسلام قاصراً وجزئياً . لقد فقدنا التفاعل الشامل ، وفقدنا التفاعل الكامل ، قد نجد المسلم الذى يتفاعل مع الصلاة ، ولا يتفاعل مع الزكاة ، وإذا تفاعل مع الزكاة ، فقد لا يتفاعل مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإذا تفاعل مع هذا فقد لا يتفاعل مع مبدأ الحلال والحرام ، وإذا تفاعل مع هذا كله ، فقد لا يتفاعل مع الجهاد السياسى ، أو المالى ، أو الحربى ، أو التعليمى ،

---

(١) أخرج شطأه : فراخه المتفرعة فى جوانبه ، فاستوى على سوقه : فاستقام على قضبانه – والآية من سورة الفتح : ٢٩

وإذا تفاعل مع هذا كله ، فقد لا يعجبه الزى والهيئة المأثوران ، ومع هذا الذى ذكرناه من فقدان التفاعل الشامل نجد أن ما تفاعل معه المسلم من بعض جوانب الإسلام لم يكن تفاعله معه كاملاً ، فالصلاة التى كان المسـلمون يقيمون أركانها ، وشروطها ، وواجباتها ، وسُنَنها ، وآدابها ، والتى كانت تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، والتى كانوا يفزعون إليها إذا حزبهم أمر ، والتى كانت قُرَّة أعينهم ، وعمود إسلامهم الذى يقوم عليه كل بناء دينهم ، لم تعد عند المسلم العادى كذلك .

والإيمان أنّ الموت والحياة بيد الله ، وأنّ الأجل لا يتقدّم ولا يتأخّر ، والذى كان من آثاره أنّ المسلم سواء أكان داخل المعركة ، أو خارجها يبقى مطمئناً لا يخاف ، لم يعد عند المسلم كذلك .

والإيمان بأنّ الاستشهاد طريق الحياة ، لم يعد حقيقة تملأ قلب المؤمن ، كما كانت ، إذ تدفع شيخاً أعرج أن يخاصم أولاده حين أرادوا منعه من دخول المعركة ، بل أصبح حقيقة يتلوها لسان المسلم ، ويعتقدها قلبه ، دون أن تؤثر فى سلوكه .

إنّ الله يأمرنا أن نأخذ الإسلام كله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (١) ، ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ (٢) ، ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ (٤) .

والله يأمرنا أن نأخذ الإسلام كله بقوة : ﴿ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ (٥) ، ﴿ وَاتَّبِعُواْ أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (٦) .

والمسلم المعاصر – فى الغالب – فقد من ذاته تحقيق الأمرين معاً .

---

(١) الأنعام : ١٥٩ (٢) البقرة : ٨٥ (٣) المائدة : ٤٩

(٤) الإسراء : ٧٤ – ٧٥ (٥) البقرة : ٦٣

(٦) أى اتبعوا القرآن وهو أحسن ما أنزل إليكم – والآية من سورة الزمر : ٥٥

(٤)

وفى الأصل : المجتمع ذو العقيدة تكون عنده مناعة ولو ظاهرياً نتيجة للضغط العام . والمجتمع الإسلامى - عملياً ، ونظرياً ، وتاريخياً - أكثر المجتمعات مناعة وحصانة ضد الفكر المعادى أو الجاهلى .

إلا أنه نتيجة للمعانى السابقة التى ذكرناها فقدْ فقدَ المجتمع الإسلامى مناعته وحصانته ، ومظهر هذا الفقدان أنك لا تجد فكرة من أفكار الضلال فى العالم إلا وتجد لها حملة فى العالم الإسلامى وأنصاراً وروّاداً ، وناعقين ومدافعين عنها ، وداعين إليها ، بحيث أصبح العالم الإسلامى مستنقعاً صالحاً لكل أنواع الجراثيم الفكرية فى العالم ، فلم يعد المسلم كما كان ، بل أصبح قلبه مفتوحاً لكل تيّار ولكل أنواع الرياح .

(٥)

والمسلم ببداهته يرى أن حكم الله هو الأحسن والأحكم : ﴿ صِبْغَةَ اللَّه ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (١) ، ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (٢) . وينتج عن هذا أنه متى عرف حكم الله تمسك به ، وقد يسأل عن الدليل الذى يثبت أن هذا حكم الله من كتاب أو سُنّة ، ولكن متى وضح له الأمر أن ذلك حكم الله ، أسلم له واستسلم ، وبدون ذلك فلا إسلام : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٣) .

أما المسلم المعاصر فقدْ فقدَ هذه البداهة ، وفقد الاستسلام ، ففقد بالتالى الإسلام . فهو لم يعد الآن يسأل عن الدليل من الكتاب والسُنّة فقط حتى يقر بأن حكم الله أحسن ، بل يطالبك بالبرهان عقلياً ، وتجريبياً و ... على كل حكم بأنه أحسن ، ونحن نعتقد حتماً - سواء عرفنا البرهان أو لم نعرف - أنّ حكم الله

---

(١) البقرة : ١٣٨

(٢) أم الكتاب : اللوح المحفوظ - والآية من سورة الزخرف : ٤

(٣) النساء : ٦٥

أبداً أحسن من غيره ، من جميع الجوانب ، ولكن ماذا لو قصرت معلوماتنا عن البرهان على قضية أن المسلم الحالى يتناقش وكأن له حق القبول والرفض ؟

لِمَ كان لبس الذهب على الرجال حراماً ، أليس زينة ؟ وكذلك لبس الحرير أليس كذلك ؟ لِمَ كانت الموسيقى حراماً ، أليست لذيذة ومنعشة ومحرِّكة للمشاعر ؟ إنَّ هذا حكم الله والدليل على أنَّ حكم الله كذا لم يعد كافياً ليترك المسلم ما هو عليه من إثم ، بل حتى ولا الاقتناع العقلى والعلمى ، لقد فقد المسلم المعاصر - إلا مَن شاء الله - تلك البداهة التى كان يحسها ضميره أن حكم الله أحسن وأحكم ، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم . ونشأ هذا عن انخداع المسلم بشعار الحرية الذى طرحه اليهود وتلاميذهم وخدعوا به العالَم ، فأصبح الإنسان يتصور أنه كلما حصَّل مزيداً من الحرية كان ذلك أجود ، فتحرر الإنسان من كل مسئولية ، ومن كل خُلُق ، ومن كل التزام ، حتى أصبحتَ تجد صوراً فى الواقع من أفظع الصور ، ولا تجد لها منكِراً . من استباحة الأعراض ، والأموال ، والتضليل ، والتدجيل ... إلى غير ذلك .

والناس سائرون بسرعة بهذا المنزلق بلا تفكير - إلا مَن عصم الله .. والمسلمون الذين هم دعاة الناس إلى الحقيقة القائلة إنَّ البَشر ليسوا أحراراً ، بل هم عبيد الله عَزَّ وجَلَّ ، مسئولون أمامه ، ملتزمون بما يأمرهم به ، وكلما كانوا أكثر عبودية له ، كانوا أكثر كمالاً وإرتقاءً ، هؤلاء المسلمون أنفسهم خدعهم السراب ، فساروا وراءه ، وتركوا الحقيقة التى لا يجوز أن ينطلق من غيرها الإنسان ، وبدلاً من أن يكونوا عُصَّام البشرية عن الضلال ، سايروها فى ضلالها ، وتبنوا شعارات ضلالها كلها واحداً فواحد . ومن هنا فَقَدَ المسلم معنى الاستسلام لله الذى بدونه لا يكون إسلام ، فخرج عن الإسلام حقيقة وقولاً وعملاً ، وإن كان يأبى أحياناً أن يُطلق عليه اسم الكفر . إنك نادراً ما تجد المسلم الذى تستطيع أن تصل معه إلى قرار بمجرد المذاكرة بنصوص الكتاب وأقوال الفقهاء الواردة فى الموضوع ، بل إنك لا تستطيع أن تدخل معه فى نقاش على هذا الأساس . فما أكثر الذين يقولون : دع الإسلام جانباً ، أو فلنبدأ

التفكير منطلقين من مبدأ كذا أو .. أو .. حتى أصبح من المسلّمات البديهية ألا تناقش أمراً من وجهة النظر الإسلامية البحتة . فأى إسلام بعد ذلك .. ؟

(٦)

ورافق هذا عمليات منظّمة - صاحبَها استعداد عند ذرارى المسلمين للسماع - أريد بها تحطيم كل جوانب الثقافة الإسلامية ، حتى إنَّ الإنسان ليرى أن كل جانب من جوانب الثقافة الإسلامية يتولى أمر تحطيمه مجموعات فى قلب الأقطار الإسلامية . فالتاريخ الإسلامى تجد مَن يحاول إبرازه بصورة تخدم أعداء الإسلام المعتدين ، واللغة العربية تجد مَن يدعو إلى إحداث تطوير فيها ، أو تغيير يؤدى إلى قتل الثقافة الإسلامية ، والسُنَّة تجد مَن يتبنى تهديمها والتشكيك فيها ، والفقه الإسلامى تجد مَن يتبنى إبعاده والتشكيك فى قيمته ، والقرآن تجد مَن يطعن عليه ، وتجد مَن يدرس حاضر العالَم الإسلامى بشكل يزيد من صلابة الحواجز بين المسلمين ، وتجد الدوائر التى تحاول تشويه اسم كل مَن يعمل للإسلام ، أو إخماده وإخفات صوته ، ولما كان الإسلام يقوم على الإيمان بالله والرسول ، تجد حملات التشكيك على هذين الأصلين تظهر على أشدها ، وبصور متعددة ، كما لا تجد جانباً من الإسلام إلا وقد رُكِّز على إبراز بعض النقاط فيه ، والهجوم عليها بشكل عنيف ، كما تجد دعوات كثيرة تحاول أن تكون بديلاً عن الإسلام ، تظهر بأسماء متعددة وبحركات منظّمة .

واستطاع أعداء الإسلام هؤلاء أن يصلوا إلى مراكز التعليم الرسمية ، فصاغوا قسماً كبيراً من ما مَرَّ ببرامج ومناهج ، وكتب دراسية ، أصبحت دراستها مفروضة على كل إنسان ، مما أدى إلى تشويه صورة كل ما له علاقة بالإسلام ، وفَقَدَ المسلمون من أنفسهم جمال كل ما له علاقة بالثقافة الإسلامية ، حتى أصبحت الثقافة الإسلامية مهزومة على أرضها .

(٧)

واضطربت بعد هذا الموازين .. فأصبح بيد كل مسلم ميزان يختلف عن ميزان الآخر ، حتى عادت موازين الكتاب والسُنّة وكأنها مفقودة ، فمثلاً : ميزان الصدق مع الله عبّرت عنه الآيات التالية :

(أ) ﴿ منَ المُؤْمنينَ رجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ (١) .

فالصادق إما رجل قُتِلَ فى سبيل الله أو ينتظر ذلك .

(ب) ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذينَ آمَنُواْ بِاللّه وَرَسُوله ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللّهِ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) .

فالصادق مَن جمع بين الإيمان والجهاد .

(جـ) ﴿ لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قبَلَ المَشْرق وَالمَغْرب وَلَكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّه وَاليَوْم الآخرِ وَالمَلائكَة وَالكتَاب وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَىٰ حُبِّه ذَوِى القُرْبَىٰ وَاليَتَامَىٰ وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائلينَ وَفى الرِّقَابِ (٣) وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ ، وَالصَّابرِينَ فِى البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ (٤) ، أُوْلَئكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ، وَأُوْلَئكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ (٥) .

فالصادق مَن جمع بين هذا كله مع صدق اللسان .

ولكن مسلمى اليوم منهم مَن يعتبر الصدق هو أن يذكر الله فقط ، ومنهم مَن يعتبره صدق اللسان فقط ، ومنهم مَن يعتبره كذا ، ومنهم مَن يعتبره كذا ، والميزان الأساسى مضيع ..

---

(١) الأحزاب : ٢٣ (٢) الحجرات : ١٥

(٣) فى الرقاب : فى تحريرها من الرق أو الأسر .

(٤) حين البأس : وقت قتال العدو . (٥) البقرة : ١٧٧

ومثل آخر .. إنَّ ميزان الإيمان فى الإسلام قد عبر عنه فى الكتاب والسُنَّة بمثل ما يلى :

(أ) قال عليه السلام : « مَن رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه .. وذلك أضعف الإيمان » [1] ، فميزان الإيمان موقفك من المنكر .

(ب) وقال عليه السلام : « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُنَّته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن .. ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » [2] . فميزان الإيمان هو جهاد المنحرفين عن أمر الله .

(جـ) وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾ [3] .

هذا هو ميزان الإيمان فى الكتاب والسُنَّة . أما المسلمون اليوم فبعضهم يعتبر الإيمان مجرد التصديق ، وبعضهم يعتبره مجرد صفاء النفس ، وبعضهم ليس له منه إلا شقشقة اللسان .

(٨)

وتضخمت بعد هذا جوانب من الإسلام ، وضمرت جوانب فى حس المسلم ، فأصبح الفرض منسياً ، والنافلة كأنها فريضة ، وما عظَّمه الله هوَّنه بعضهم ، وما أعطاه الله حكماً ليِّناً جعله بعضهم غير ذلك ، وهذه أمثلة :

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) رواه مسلم فى كتاب « الإيمان » ، باب « وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » عن عبد الله بن مسعود به مرفوعاً .

(٣) الأنفال : ٢ – ٤

(أ) بناء مسجد فى حى فيه خمسون مسجداً نافلة طيبة مأجور عليها مَن فعلها ، ولكن وحدة المسلمين ، وإقامة أحكام الله فى كل قُطر ، وإقامة الدولة المُحَكِّمة لشرع الله فرائض ، هذه الفرائض أصبحت وكأنها منسية ، فإذا ما دعوتَ الناس لها لم يستجب إلا القليل ، ولم ينفق الكثير قرشاً واحداً فى هذا السبيل . أما المشروع الأول فترى الإنفاق عليه لا حد له . إذا دعونا لعمارة الصخرة المشرَّفة ، وتزيينها ، انهالت الأموال ، وإذا دعونا لحمايتها ضنُّوا بالقليل ، فتكون النتيجة أن تذهب الصخرة بزينتها لتقع فى يد اليهود .

(ب) وحدة المسلمين فريضة ، تحابهم فريضة ، أُخوتهم فريضة ، تعاونهم مع بعضهم على الخير فريضة ، ولاؤهم لبعضهم فريضة ، عدم ولائهم للكافرين فريضة ، هذه الفرائض كأنها أصبحت مباحات ، فأبغض المسلمون بعضهم من أجل نافلة خلافية ، وتفرَّقوا من أجل أمور بسيطة ، وأعطى بعضهم ولاءه للكافرين ، ومنعه المؤمنين ، وكأن هذا كله أمر عادى ، والرسول ﷺ يقول : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا » [1] ، ويقول تعالى : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] .. أفبعد هذا الخلل خلل ؟

(٩)

والذين بقوا على الإسلام من المسلمين لم يحاولوا محاولة جادة الإحاطة بالجوانب التى لا غِنى عنها للمسلم المعاصر من الثقافة الإسلامية التى تحارَب من كل جانب : تجد مسلماً يقرأ الفقه وينسى غيره ، وتجد آخر يقرأ السُّنَّة

(١) قطعة من حديث رواه الترمذى فى كتاب « صفة القيامة » عن الزبير بن العوام ، وابن ماجه فى « المقدمة » عن أبى هريرة ، ومسلم وأبو داود فى كتاب « الأدب » .

(٢) النساء : ١٣٨ - ١٣٩

وينسى غيرها ، وتجد آخر يقرأ الدراسات الإسلامية الحديثة وينسى غيرها ، وتجد مسلما يقرأ شيئاً عن التاريخ الإسلامى وينسى غيره ، وتجد مسلماً يهتم بأحوال المسلمين المعاصرة وينسى غيرها ، وتجد مسلماً يهتم بدراسة المؤامرات على الإسلام وينسى غيرها ، ونحن نُحبِّذ أن يوجد عندنا اختصاصيون فى كل جانب من هذه الجوانب وغيرها .

ولكن لا بد أن يكون عند المسلم حد أدنى من كل أصول الثقافة الإسلامية وفروعها ، فإن لم يتيسر هذا لكل مسلم ، فعلى الأقل ، ينبغى أن يتوفر هذا فى القيادات العاملة لمجد الإسلام .

(١٠)

هذا تحليل سريع للوضع الثقافى والتربوى للمسلمين ، ينتج عنه بشكل عفوى أن يكون تربية المسلم المعاصر ناقصة نقصاً مخيفاً ، وغير متوازنة ، ولا متكاملة .

وقد كان هذا الكتاب من أجل معالجة هذا الوضع ، إذ طرحنا فيه رأينا فى الثقافة الإسلامية المتكاملة وفى الأخلاق الأساسية التى ينبغى أن يتخلق بها كل مسلم .

جعلنا الكتاب قسمين : القسم الأول : جند الله ثقافة .

القسم الثانى : جند الله أخلاقاً

وأسأل الله أن يتقبل هذا الكتاب ، وأن يضع له القبول .. فإنّه حسبى ونِعْمَ الوكيل .

إنَّ بالإمكان حصر العلوم الإسلامية الضرورية للمسلم المعاصر بما يلى :

١ - علم الأصول الثلاثة . ٢ - الكتاب .

٣ - السُنَّة . ٤ - علم أصول الفقه .

٥ - علم العقائد . ٦ - علم الفقه .

٧ – علم الأخلاق . ٨ – السيرة والتاريخ الإسلامى .

٩ – علوم العربية .

١٠ – المؤامرات على الإسلام والأمة الإسلامية والتحديات التى تواجهها هذه الأمة .

١١ – الدراسات الإسلامية المعاصرة .

١٢ – فقه الدعوة .

فإذا ما أخذ المسلم المعاصر حظه من كل من هذه ، أمكن أن يعرف طريقه فى هذه الفتن المدلهمة ، وأمكنه بالتالى أن يسير على بصيرة فى عملية إنقاذ لهذه الأمة .

وها نحن نبدأ بالإشارة إلى كل علم من هذه العلوم على حدة ، مبينين ضرورته ومكانته وأهميته . ونرجو ألا يصدر القارئ حكمه على جزء من هذا البحث قبل أن يتمه ، وبعد ذلك فإننا نشكر كل مَن يلفت نظرنا إلى خير .

* * *

١ - علم الأصول الثلاثة أو الإيمان

قد يعجب إنسان لم جعلنا هذا العلم هو البداية ؟ وسبب هذا العجب الغفلة عن معانى الكتاب والسُنّة ، فالدارس للكتاب والسُنّة يرى أنّ البداية التى ينبغى أن يبتدىء بها الإنسان هى علم الإيمان ، الذى مظهره معرفة الأصول الثلاثة : الله . والرسول . والإسلام ، وتلك سُنّة رسول الله ﷺ فى تربية أصحابه كما يذكرها ابن عمر وجندب فى أثرين متقاربين نكتفى منهما بأثر ابن عمر الذى رواه الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح .. يقول ابن عمر :

« لقد عشت برهة من دهرى وإن أحدنا يؤتَى الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغى أن نقف عنده منها ... ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ، ما يدرى ما آمره ولا زاجره ، وما ينبغى أن يقف عنده ، وينثره نثر الدقل » (١) .

وآيات القرآن تنص على أنّ هذا القرآن لا يهتدى به مَن كان فى قلبه مرض الكفر والنفاق ، مما يدل على أن تحصيل الإيمان هو مقدمة الاستفادة من القرآن ، والآيات فى ذلك كثيرة منها :

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيهِمْ عَمًى ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً (٣) أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ (٤) .

---

(١) الدقل : ردئ التمر .

(٢) فصلت : ٤٤

(٣) أكنة : أغطية كثيرة مانعة .

(٤) الكهف : ٥٧

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [1] . وعلم الإيمان حقيقته معرفة الأصول الثلاثة والرضا بها .

« ذاق طعم الإيمان مَن رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - رسولاً » [2] .

ولما كان عصرنا مليئاً بالشبهات ، فلا بد أن تكون هذه المعرفة واعية متينة جيدة ، وبنفس الوقت محيطة بالجوانب التى لا ينبغى أن تغيب عن ذهن المسلم .

ولما كان المسلم فى صراع دائم مع الآخرين ، فلا بد أن تكون حُجَّته واضحة فاضحة لغيرها ، وهذا لا يتأتى له إلا بإحكام معرفة الكمال فى هذه الأصول ، ومعرفة النقص فيما سواها .

ويلاحَظ أنَّ الدراسات الإسلامية القديمة لم تحاول أن تقوم بعملية إبراز الكلام عن هذه الأصول مجتمعة بشكل واسع ، كما أنَّ الدراسات الحديثة كانت جزئية فى الغالب ، كل دراسة درست جزءاً من الإسلام ، كما كان الكثير منها - مع جزئيتها - يقوم بدور دفاعى سلبى . لذلك كتبنا كتاب « الأصول الثلاثة » فكان محاولة جديدة قد لا تكون سلمت من نقص ولكنها محاولة جامعة شملت ما يلى :

١ - البحث الأول : عن الله جَلَّ جلاله .

٢ - البحث الثانى : عن الرسول ﷺ .

٣ - البحث الثالث : عن الإسلام .

---

(١) التوبة : ١٢٤ - ١٢٥

(٢) رواه مسلم عن العباس بن عبد المطلب فى كتاب « الإيمان » ، باب « ذاق طعم الإيمان » ، ورواه الترمذى عنه وقال : هذا الحديث حسن صحيح .

وقد سرنا فى الكتاب على الشكل التالى :

بيّنا أثناء الكلام عن الله الطرق التى توصل إلى الله ، وبيّنا أنّ دراسة الكون إحدى الطُرق ، ثم درسنا تسع ظواهر كونية ، كل ظاهرة تدلنا منفردة على الله ، ثم نقلنا نقولاً فى مناقشة قضايا التوحيد ، والطبيعة ، والسببية . ثم تحدثنا عن دلالات الظواهر وكيف أنها تدلنا على الله وصفاته وأسمائه ، ثم عقدنا مقارنة بين الإسلام والديانات والأفكار التافهة القائمة الآن فى هذا الموضوع .

ثم انتقلنا للحديث عن الرسول ﷺ فقدّمنا الكلام عن الإنسان ومكانه فى الوجود ، والطرق التى يتعرف بها على الرسل ، ثم طبّقنا ذلك على رسالة رسولنا ، فكتبنا خمسة فصول عن صفاته ، ومعجزاته ، ونبوءاته ، وثمراته ، والبشارات به ، وبيّنا فى كل فصل كيف أن موضوعه يدلنا بما لا يقبل الشك على أن محمداً رسول الله .

ثم انتقلنا للحديث عن الإسلام . فكتبنا مقدمة عن تعريف الإسلام ، وأربعة فصول ، فصلاً عن أركان الإسلام ، وفصلاً عن المنهاجين الأخلاقى والاجتماعى فيه ، وفصلاً عن المناهج العامة فيه ، وفصلاً عن المؤيدات لهذا الدين .

ويبدو أنّ هذه العملية ضرورية بشكل عام كى تكون جزئيات الإسلام مرتبطة بكلّياتها ، وكى يكون الاقتناع بالإسلام ، والتصديق برسوله ، والإيمان بالله الذى أنزله عليه متيناً . وتلك سُنّة الصحابة مع ملاحظة أن التوسع فى ذلك شىء اقتضته طبيعة عصرنا هذا .

* * *

٢ - الكتاب

فى بحث « الرسول ﷺ » من كتابنا « الأصول الثلاثة » ، تحدثنا فى الفصل الثانى منه عن المعجزة القرآنية بشكل مفصل . ونحب الآن أن نستعرض جوانب سريعة وقصيرة للتذكير بالكتاب ، ثم نشير إلى بعض علوم الكتاب لنذكر ما ينبغى أن يعطيه المسلم كل أهمية فى تكوينه :

(١)

● إن هذا الكتاب من عند الله لا شك فى ذلك ولا ريب ، وتفصيل ذلك فيما أشرنا إليه آنفاً .. قال تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٢) .

● وإذا كان هذا الكتاب من عند الله .. فليس أمام الإنسان اختيار فى أن يهتدى بهديه أو يعرض ، بل الإنسان مكلف باتباعه ومحاسب على ذلك :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا ﴾ (٤) ، ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) البقرة : ٢٣ - ٢٤ (٢) الإسراء : ٨٨ (٣) الأعراف : ٣
(٤) الأنعام : ١٥٥ (٥) الأنعام : ١٠٦

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (١) .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

● ومهما اتبع الناس هذا الكتاب فإنهم وقتذاك على الطريق الأهدى والأقوم والأرحم والأحكم والأعلى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (٣) ، ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ (٤) وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٥) ، ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (٦) ، ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٧) ، ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٨) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (٩) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠) .

● وليس للإنسان إذا أراد الحق إلا هذا الطريق ، ولن يكون مستقيماً أو على صراط مستقيم إلا بهذا القرآن :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (١١).

---

(١) يونس : ١٠٩ .

(٢) شريعة من الأمر : طريقة ومنهاج من الدين – والآية من سورة الجاثية : ١٨

(٣) الإسراء : ٩ — (٤) سبل السلام : طرق السلامة — (٥) المائدة : ١٥ – ١٦

(٦) الزخرف : ٤ — (٧) الجاثية : ٢٠ — (٨) آل عمران : ١٣٨

(٩) النساء : ١٧٤ — (١٠) يونس : ٥٧ — (١١) يونس : ١٠٨

﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ من رَّبِّكَ الحَقُّ ﴾ (١) ، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ (٢) ، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِه ﴾ (٣) ، ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ (٤) .

● ولا يعرض عن القرآن ، ولا يتنكب سبيله ، ولا يجحد به إلا جاهل ، إذ هو العلم الذى لا جهل معه :

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ (٦) ، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه ﴾ (٧) ، ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨) .

● وواضح أنَّ هذا القرآن ليس لإنسان دون إنسان ، ولا لأمة دون أمة ، بل هو لكل إنسان ، لكل الشعوب ، لكل الأمم :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِه لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (٩) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِه النَّبِىِّ الأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِه وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١١) .

---

(١) الرعد : ١ — (٢) يونس : ٣٢ — (٣) الأنعام : ١٥٣

(٤) القصص : ٥٠ — (٥) العنكبوت : ٤٩ — (٦) سبأ : ٦

(٧) فصلت : ٤١ – ٤٢ — (٨) البقرة : ١٤٥ — (٩) الفرقان : ١

(١٠) الأنبياء : ١٠٧ — (١١) الأعراف : ١٥٨

● وقد وعد الله من اتبعه :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (١) ، ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً (٣) وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ (٤) أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَٰلِكَ اليَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (٥) .

● ولا لقاء بين مَن اتبع كتاب الله ومَن أعرض عنه :

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ العِلْمِ ﴾ (٦) .

● وجهد أعداء الله كله ينصَّب كفراً وحقداً وحسداً وجهلاً حول إضعاف تمسك المسلم بإسلامه وقرآنه ، وجعله ينحرف عن ذلك : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ (٧) فَيُدْهِنُونَ ﴾ (٨) ، ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ (٩) .

● لذلك كان أمر الله جازماً بالحذر من تضييع بعض القرآن أو طاعة أعداء الله فى جزء منه :

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

---

(١) طه : ١٢٣ (٢) البقرة : ٣٨ (٣) فى الدنيا
(٤) فى الآخرة (٥) طه : ١٢٤ - ١٢٦ (٦) النجم : ٢٩ - ٣٠.
(٧) تدهن : تلاين (٨) القلم : ٩ (٩) الإسراء : ٧٣ - ٧٥

أن يُصيبَهُم ببَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإنَّ كَثيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

قال عليه السلام : « إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم ولكن رَضِيَ أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروا ، إنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنة نبيه » (٢) .

﴿ وَإن تُطِعْ أكْثَرَ مَن فِي الأرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣) .

● وقد نبهّنا الله فى كتابه أنه أنزل وحياً وكتباً على أمم قبلنا ، وحذّرنا أن نقع فيما وقعوا به من إثم ، أو تقصير ، أو تحريف ، أو أنحراف ، أو تهاون ، أو تواطؤ ، أو تباطؤ ، أو كفر ، أو ضلال ، وأمرنا أن نردد فى كل صلاة ما يُذكّرنا بهذه الحقيقة : ﴿ اهْدِنَا الصِرَاطَ المُسْتَقيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ (٤) .

وبيّن لنا أنّ كتاب الله أنزل ليحكم :

﴿ وَمَا أنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) .

﴿ إنَّا أنزَلْنَا إلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أرَاكَ اللَّهُ ، وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (٦) .

﴿ إنَّا أنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا (٧) وَالرَّبَّانِيُّونَ (٨) وَالأحْبَارُ (٩) بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن

---

(١) المائدة : ٤٩ - ٥٠ .

(٢) قطعة من خطبته ﷺ فى حجة الوداع التى رواها الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله ، وفيها زيادات من « الطبقات الكبرى » لابن سعد .

(٣) الأنعام : ١١٦ (٤) الفاتحة : ٦ - ٧ (٥) النحل : ٦٤

(٦) النساء : ١٠٥ (٧) هادوا : اليهود .

(٨) الربانيون : جمع ربانى ، أى العالم الزاهد (٩) الأحبار : علماء اليهود.

كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١) .

● وقد انحرف أهل الإنجيل ، وقد انحرف أهل التوراة ، ونادانا الله : يا أهل القرآن :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢) ، فلا نكن مثلهم فيما فعلوه ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ (٣) ، ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ (٤) ، ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ (٥) ، ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً

---

(١) المائدة : ٤٤ - ٤٨ (٢) الحديد : ١٦ (٣) آل عمران : ١٨٧

(٤) البقرة : ١٠٢ (٥) الجمعة : ٥

مِّمَّا ذُكِّرُوا به ﴾ (١) ، ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢) . بأن حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فأطاعوهم .

● وقبول تحكيم كتاب الله ، ورضانا بحكمه ، والتزامنا به ، واعتصامنا به ، هو دليل الإيمان ، وإلا فهو الكفر والنفاق والوقوع فيما وقع فيه اليهود والنصارى من قبل :

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (٣) ،

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِه لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٤) .

● هذا حال المؤمنين ، وأما حال المنافقين الذين يدّعون الإيمان دعوى :

﴿ وَإِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِه لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُواْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُواْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ (٥) اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ، بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٦) ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوت وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِه وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَواْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ (٧) .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٨) .

---

(١) المائدة : ١٣ — (٢) التوبة : ٣١ — (٣) النساء : ٥٩

(٤) النور : ٥١ – ٥٢ — (٥) أن يحيف : أي يجور . — (٦) النور : ٤٨ – ٥٠

(٧) النساء : ٦٠ – ٦١ — (٨) النساء : ٦٥

● وإذا عرفنا كما مَرَّ معنا أنه ما من قضية من قضايا الوجود إلا ولله فيها حكم فلا مجال إذا عرف حكم الله ووضح ، إلا التسليم : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ (١) .

● وأصلاً لا يتخذ المسلم قراراً ، ولا يجزم رأياً ، ولا يعتقد عقيدة ، ولا يسارع إلى أمر ، ولا يستجيب لدعوة ، ولا ينفر إلى عمل ، إلا بعد معرفة حكم الله المعرفة الجازمة ، وعندئذ يحزم أمره على أساس أمر الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) .

وفي ذلك الخير كله للمسلم حتى ولو كان في ذلك قتله ، أو نفيه ، فإنَّ الاستسلام لله لا يأتي إلا بخير للفرد وللأمة :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ (٣) .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ، مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

بعد هذه المقدمة عن القرآن بشكل عام نقول : إنَّ هناك جانبين لهما علاقة بالكتاب ، أولهما : علوم الكتاب . ثانيهما : نص القرآن . والحظ الكامل أن يجمع الإنسان بين نص الكتاب وعلومه .

(١) الأحزاب : ٣٦ (٢) الحجرات : ١ (٣) النساء : ٦٦
(٤) المائدة : ٦٦ (٥) القصص : ٥٧

(٢)

أول علوم القرآن العملية : « علم التلاوة » .

ويدخل فى علم التلاوة :

(أ) علم التجويد . (ب) أدب التلاوة .

أمرنا الله بالأول بقوله : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ (١) .

وحسّن لنا الثانى بقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ (٢) .

وقد اعتبر علماء التجويد أنّ علم التجويد فرض على اعتبار أنّ الإخلال بنطق القرآن إخلال بالمعنى . فمثلا قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا ﴾ (٣) الألف الأخير تحتاج إلى مد ، فلو لم نمدها نطقنا الكلمة هكذا : « لا تؤاخذن » وعندئذ تصبح النون نون النسوة ويصبح المعنى متغيراً .

ولذلك كان أول ما ينبغى أن يعمله المسلم مما له علاقة فى الكتاب هو :

أن يتعلم تلاوة كتاب الله ، وأن يتعرف على آداب هذه التلاوة ، وقد أُلِّفت فى هذا وهذا كتب كثيرة ، ورسائل بعضها مطوّل ، وبعضها قصير ، منها فى علم التجويد : « فن الترتيل » و « فن التجويد » و « هداية المستفيد » ، ومنها فى أدب التلاوة : « التبيان » للنووى ، أو كتاب « آداب التلاوة » فى «الإحياء» للغزالى .

(٣)

ومن علوم القرآن علم القراءات ، وذلك أنّ القرآن الكريم يُقرأ على عدد من القراءات تستوعب لهجات العرب المختلفة ، وطريقتهم فى النطق ، وقد كُتبَ فى القراءات القرآنية كتب كثيرة ، ومؤلّفات ضخمة ، ونظمت منظومات طويلة

---

(١) المزمل : ٤

(٢) البقرة : ١٢١

(٣) البقرة : ٢٨٦

تتضمن جزئيات هذا العلم ، وأهم الكتب المؤلَّفة فى هذا الموضوع : « النشر فى القراءات العشر » لابن الجزرى .

غير أنَّ علم القراءات لا يجب على المسلمين عامة ، وإنما الواجب أن يختص به بعض المسلمين ، ولذلك فإنَّ العلماء يعتبرون هذا العلم من العلوم المفروضة فرض كفاية ، والذى يكفى المسلم أن يتقن قراءة من القراءات الصحيحة ، والقراءة الصحيحة هى التى توفَّرت فيها ثلاثة شروط :

١ - النقل المتواتر عن رسول الله ﷺ .

٢ - موافقة الرسم العثمانى للمصحف ولو احتمالاً .

٣ - انطباق القراءة على وجه من أوجه العربية .

فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تُقبل القراءة وكانت شاذة ، والقراءات الصحيحة المتلقاة بالقبول عشر ، وهى تمثل عدد الروايات المعتبرة للقرآن عن رسول الله ﷺ بلهجات مختلفة ، والأصل الذى يُرجع إليه هو ما ذكرناه آنفاً .

والقراءات يُوضِّح بعضها معانى القرآن ، ويُفهِم بعضها معانى جديدة ، وتحفظ بها لغات العرب ولهجاتها ، وتُرَى بها إرادة الله اليسر بهذه الأمة .

(٤)

ونشأ مع القرآن ثلاثة علوم :

١ - علم الناسخ والمنسوخ .   ٢ - علم أسباب النزول وأمكنة النزول .

٣ - علم غريب القرآن .

أما علم الناسخ والمنسوخ فسبب وجوده أنَّ هناك أحكاماً تدرَّج الأمر فيها حتى استقر ، وهناك أشياء حُرِّمت ثم أُبيحت لحكمة ، وهناك قضايا اقتضتها ظروف خاصة ، ثم استقر الحكم فيها على شيء آخر ، ولا يُفهم كتاب الله ولا سُنَّة رسوله ﷺ فهماً كاملاً إلا بمعرفة هذا العلم ، وبدون هذه المعرفة يبقى الإنسان

معرَّضاً للخطأ . مَرَّ ابن عباس بقاص فقال : تدرى ما الناسخ والمنسوخ ؟ قال : وما الناسخ والمنسوخ ؟ قال : ما تدرى ما الناسخ والمنسوخ ؟ قال : لا ، قال : هلكتَ وأهلكت ...

وأما علم أسباب النزول وأمكنة النزول :

فإنَّ القرآن قد نزل خلال فترة ثلاث وعشرين سنة تقريباً ، بعضه نزل فى مكة، وبعضه نزل فى المدينة ، وبعضه نزل فى أماكن خاصة معيَّنة ، كما أنَّ لبعض آياته أسباباً نزلت عندها ، والصحابة الذين رافقوا هذه الفترة كانوا يستوعبون هذا استيعاباً تاماً ، حتى قال ابن مسعود - كما فى صحيح البخارى : « واللّه الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب اللّه إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا نزلت آية من كتاب اللّه إلا وأعلم فيم نزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب اللّه تبلغه الإبل لركبتُ إليه » .

ومعرفة أسباب النزول تساعد على فهم الآيات المرافقة للسبب ، إذ السبب يعيِّن معنى رئيسياً من معانى الآيات التى وردت فيه مع ملاحظة أنَّ خصوص السبب لا يُقيِّد عموم اللفظ .

ومن أقرب المراجع إلينا فى هذا العلم وسابقه :

١ - « الناسخ والمنسوخ » لابن حزم .

٢ - « لباب النقول فى أسباب النزول » للسيوطى .

وأما علم غريب القرآن :

فإنَّ القرآن على سهولة أخذه ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (١) . فإنه نزل بلغة العرب ، واستعمل ألفاظاً مشهورةً عند بعض دون بعض مما جعل بعض الصحابة كعمر يسأل عن معانى بعض ألفاظه . هذا فى

---

(١) القمر : ١٧ - ومدكر : معتبر ، متعظ به .

العصر القريب لتنزل القرآن ، ثم كلما زاد اختلاط الناس بعضهم ببعض ، وابتعد الناس عن الإحاطة باللغة العربية ، استشعر بعض الناس غرابة بعض ألفاظ القرآن عليهم ، مما حمل بعض العلماء على أن يكتبوا بخصوص هذا المعنى كتباً حول غريب القرآن ، أقربها كتاب « كلمات القرآن .. تفسير وبيان » لمخلوف .

ولا شك أنَّ كل تالٍ للقرآن عليه أن يأخذ حظه من كل ما مَرَّ ما عدا علم القراءات الذى قلنا إنه فرض كفاية . وحبَّذا لو جُمِعَت هذه الأشياء اللازمة لكل مسلم فى كتاب واحد يضم :

١ - « التبيان فى آداب حملة القرآن » للنووى .

٢ - رسالة جيدة فى التجويد .
٣ - أسباب النزول .

٤ - الناسخ والمنسوخ .
٥ - غريب القرآن .

مع التعليق عليها وأصبح هذا الكتاب جزءاً من مكتبة كل مسلم . وحبَّذا لو مَرَّ كل مسلم على دورة يختم فيها كتاب الله مرة ، مع دراسة هذه كلها أثناء هذه الختمة .

(٥)

ونشأ منذ عصر الصحابة « علم تفسير القرآن » ، فقد أصبح الناس يسألون بعض الصحابة عن معانى بعض الآيات ، وبعض الصحابة كانوا على علم كامل فى معانى القرآن ، وكانوا يُفسِّرون القرآن مع إقرائه ، أو بدون إقرائه ، حتى رُوِىَ أنَّ ابن عباس فسَّر مرة سورة البقرة فى الحج ، تفسيراً لو سمعه اليهود والنصارى والمجوس لأسلموا [١] .

---

(١) وفى رواية : « سورة النور ، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا » . (ابن كثير : جـ ١ ، ص ٨ طبعة دار الأندلس) .

وبذلك بدأ علم التفسير ، ثم أخذ ينمو نمواً مطرداً ويتنوع ، ولما وُجدَت الفِرق الإسلامية أصبحت هذه الفرق تحاول أن تُفسِّر القرآن حسب آرائها ، وأصبح فى بعض الأحيان يتبع التفسير الرأى ، ولا يتبع الرأى القرآن ، وهذا الذى حذَّر منه رسول الله ﷺ حين قال : « مَن قال فى القرآن بغير علم – وفى رواية : برأيه – فليتبوأ مقعده من النار » [1] ، فالتفسير بالهوى هو الضلال ، وليس طبعاً التفسير الذى يقوم على فهم سليم للغة العربية ، وفهم دقيق للسُنَّة وأقوال الصحابة .

وتنوعت التفاسير بتنوع أغراض المفسِّرين ، فبعضهم فسَّر القرآن بلاغياً ولُغوياً ، وبعضهم كان قصده توضيح أحكام القرآن ، وأراد بعضهم فهم إشارات القرآن ، حتى أصبح بين أيدى المسلمين آلاف التفاسير .

منها المختصر ، ومنها المطوَّل ، ومنها الواضح ، ومنها الرمزى .

والملاحَظ على هذه التفاسير كلها : أنَّ أيًا من أصحابها لم يخل تفسيره للقرآن من ثقافة العصر الذى هو فيه . وكل مفسِّرٍ فسَّر القرآن بما وصل إليه علمه .

فعندما كان القول بأنَّ الأرض مسطَّحة هو السائد نجد مَن فسَّر آيات القرآن بأنها تقول بذلك ، كتفسير الجلالين مثلاً ، ونجد فى المقابل مَن فسَّر آيات القرآن بأنها تقول بالكروية ، كابن حزم .

والمشكلة أنَّ ثقافة عصر من العصور قد تكون فيها أخطاء ، فإذا ما حُمِلَ القرآن عليها وأخذ هذا الحمل طابع الاعتقاد تكون النتائج تحميل القرآن هذا الخطأ وهو لا يحتمله .

إنَّ القرآن يُفسِّر بعضه بعضاً ولا يتناقض .

وإنَّ السُنَّة الصحيحة تُفسِّر القرآن ولا تتناقض معه ولا مع بعضها .

---

(١) رواه الترمذى عن ابن عباس به مرفوعاً وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وفهم الصحابة إذا اجتمعوا حُجَّة .

وهذا كله لا يتناقض مع حقيقة – هى حقيقة – كما رأينا فى بحث المعجزة القرآنية فى كتابنا « الأصول الثلاثة » .

أما ما عدا هذا فليس حُجَّة فى فهم القرآن ، بل القرآن حُجَّة عليه ، وما عدا هذا فليس معصوماً . فإذا علمنا أنَّ ما قاله رسول الله ﷺ فى تفسير ألفاظ القرآن – لا أحكامه – قليل ، وكذلك ما أُثِرَ عن الصحابة بالنقل الصحيح إذا قيس بالنسبة لمجموع القرآن أدركنا أنَّ مجال فهم القرآن فيه متسع كثير للقول ، ومتسع كثير للخلاف ، ومتسع كثير بالتالى للفهم الخاطىء حسب ما تقدمه ثقافة العصور ، خاصة إذا علمنا أنَّ القرآن تحدَّث عن كل شىء مما يؤدى إلى أن يجعل المفسِّر يتحدث عن كل شىء .

(٦)

ومع تطور علم التفسير نشأت الدراسات القرآنية المحددة ذات الموضوع الواحد قديماً وحديثاً .

فصار بعض العلماء يفردون قصص القرآن بتأليف ، وإعراب القرآن كذلك ، وبلاغة القرآن كذلك ، وإعجاز القرآن كذلك ، وأحكام القرآن ، وأقسام القرآن ، والإيجاز فى القرآن ، ومتشابه القرآن ، والسيرة من القرآن ، والقرآن والعلم الحديث ، والقرآن والطب الحديث ، والقرآن والچيولوچيا ... والقرآن واليهود ... وجغرافية القرآن ، والأخلاق فى القرآن ، وآيات التشريع فى القرآن ، ومحكم القرآن .

كما صاروا يفردون علوم القرآن بشكل مستقل .

مما توسعت معه المكتبة القرآنية سعة هائلة ، حتى إنك لا تجد شيئاً صغيراً ولا كبيراً مما له علاقة بالقرآن إلا وقد أُلِّفت فيه الكتب المفردة المطوَّلة والمختصرة ، كما إنك تجد أى موضوع قد تناوله أكثر من مؤلف بأكثر من طريق.

(٧)

ونشأ أخيراً علم فهارس القرآن .

فجَرت محاولات من أجل جمع مواضيع القرآن بعضها إلى بعض ، بحيث قُسِّمت مواضيع القرآن وجُمِعت تحت كل موضوع الآيات الواردة فيه ككتاب «تفصيل آيات القرآن الكريم » ، كما أُلِّفت معاجم القرآن التى تساعد على معرفة الآية ومحلها من القرآن بمعرفة كلمة من كلمات الآية ، ومن المعاجم المطبوعة : « المعجم المفهرس » لمحمد فؤاد عبد الباقى ، « المرشد » لفارس بركات .

(٨)

كما نشأ كأثر عن دخول أناس غير عرب فى الإسلام ، أو كمحاولة لعرض القرآن على الأمم الأخرى علم « ترجمة معانى القرآن » ، ثم تطور هذا كأثر من آثار حركة الاستشراق ، وكأثر من آثار الدعوة إلى الإسلام إلى أن أصبحت معانى القرآن مترجمة إلى أكثر لغات العالم ، بل أصبح للقرآن فى بعض اللغات أكثر من ترجمة لمعانيه .

وإنما قلنا : ترجمة لمعانى القرآن وليست ترجمة للقرآن ذاته لأنه يستحيل ترجمة القرآن ذاته بما فيه من إعجاز ، وبما فى اللغة العربية من معان متعددة للحرف الواحد ، والكلمة الواحدة ، والجملة الواحدة ، بحيث يستحيل معه أن يجزم إنسان بأنَّ مراد الله هو كذا .

(٩)

وهناك كتب حاولت أن تجمع الحديث عن كثير مما له علاقة بالقرآن وعلومه، من تاريخ جمع القرآن ، إلى قراءاته ، إلى متشابهه ، إلى ناسخه ومنسوخه ، إلى مجمَله ومفصَّله ، إلى قضية كتابة القرآن ، إلى عمليات تسهيل القراءة ، إلى غير ذلك مما له علاقة بالقرآن ، ككتاب : « الاتقان فى علوم القرآن » للسيوطى « والبرهان فى علوم القرآن » لبدر الدين الزركشى ، وكتاب : « مناهل العرفان فى علوم القرآن » للزرقانى .

والمسلم غير المختص قد يكفيه كتاب مختصر فى هذا كله - من كتابة عالم ثقة - والمختصرات تحت هذا العنوان - علوم القرآن - كثيرة .

وبعد .. فإننا ندعو المسلم فيما له علاقة بكتاب الله زيادة على ما مَرَّ إلى ما يلى :

أولاً : أن يديم تلاوة كتاب الله ، وقد كانت تلاوة كتاب الله دأب الصحابة وعملهم الدائم .

روى أبو داود عن أوس بن حذيفة : سألتُ أصحاب النبى ﷺ كيف يُحزِّبون القرآن ؟ قال : « ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصَّل وحده » .

وفى الحديث الصحيح عن ابن عمرو بن العاص : قلت : يا رسول الله ، فى كم أقرأ القرأن ؟ قال : « اختمه فى شهر » . قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال : « اختمه فى خمسة عشر » ، قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال : « اختمه فى عشر » ، قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال : « اختمه فى خمس » ، قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك ، فما رخَّصَ لى (١) .

وفى رواية أخرى : « فإنه لا يفقه مَن قرأه فى أقل من ثلاث » .

ومن العبارة الأخيرة عنه عليه السلام نفهم أنَّ التلاوة ينبغى أن يرافقها فقه وتدبر وتذكر . قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

ولمسلم عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله ﷺ : « اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان (٣) أو كأنهما فرقان من طير

---

(١) رواه الدارمى ، ورواه أيضاً الإمام أحمد والشيخان والنسائى وأبو داود والترمذى والطيالسى من طرق بسياق فيه اختلاف يسير .

(٢) سورة ص : ٢٩

(٣) الغيابة : كل شئ أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة وغيرها .

صواف يحاجان عن صاحبهما ، اقرأوا سورة البقرة فإنَّ أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة » .

وللترمذى عن ابن عباس : قال رجل : يا رسول الله ، أى العمل أحبُّ إلى الله ؟ قال : « الحال المرتحل » قال : وما الحال المرتحل ؟ قال : « الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره ، كلما حَلَّ ارتحل » .

وللترمذى عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : « مَن قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : آلم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » .

وفى الحديث القدسى : « مَن شغلته قراءة القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » [1] .

ولمسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد ثلاث خلفات [2] عظام سمان » ؟ قلت : نعم . قال : « فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم فى صلاة خير له من ثلاث خلفات عظام سمان » .

ثانياً : أن يحفظ من كتاب الله أو يحفظ كتاب الله مع العلم والعمل .

روى البخارى وأبو داود والترمذى ومسلم والنسائى عن عثمان عن رسول الله ﷺ : « خيركم مَن تعلَّم القرآن وعَلَّمه » .

وللترمذى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ : « إنَّ الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » .

وللترمذى وأبى داود عن ابن عمرو بن العاص يرفعه : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتِّل كما كنتَ ترتِّل فى دار الدنيا ، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرأ بها » .

---

(١) رواه الترمذى وله تتمة وهى :« فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » ، قال الترمذى : هذا الحديث حسن غريب .

(٢) الخلفة : الحامل من النوق ، وتُجمع على : خلفات ، وخلائف .

وللترمذى عن علىّ عن رسول الله ﷺ : « مَن قرأ القرآن فاستظهره فأحَلَّ حلاله وحرَّم حرامه أدخله الله به الجنة وشفَّعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت له النار » .

وللترمذى عن رسول الله ﷺ : « تعلّموا القرآن واقرأوه وقوموا به ، فإنَّ مثل القرآن لمن تعلّمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح بريحه كل مكان ، ومثل مَن تعلّمه ويرقد وهو فى جوفه كمثل جراب أُوكِيَ على مسك » (١) .

وروى الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن السلمى : « حدثنا مَن كان يُقرِئنا من أصحاب النبى ﷺ أنهم كانوا يأخذون منه صلى الله عليه وسلم عشر آيات ، فلا يأخذون فى العشر الآخر حتى يعلموا ما فى هذه من العلم قال : فتعلمنا العلم والعمل » .

وعن ابن عمر قال : « لقد عشتُ برهة من دهرى وإنَّ أحدنا يؤتَى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغى أن نقف عنده منها ... ثم لقد رأيتُ رجالاً يؤتَى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدرى ما آمره ولا زاجره وما ينبغى أن يقف عنده ، ينثره نثر الدقل » (٢) .

ثالثاً : أن يعتاد المسلم على الرجوع إلى كلام المفسِّرين .

والمفسِّرون والتفاسير أنواع : فمنهم المذهبى ، ومنهم الجامع ، ومنهم المفسِّر بالمأثور ، ومنهم مَن اعتنى بالنحو والبلاغة ، ومنهم ... ومنهم .

ولا ننسى ما ذكرناه من أنَّ كل مفسِّر فسَّر القرآن بثقافة عصره أو بثقافة من ثقافة عصره ، فاحتمال الخطأ وارد ، والذى يبدو أنَّ المسلم بحاجة إلى تفسير مختصر يتعرف به على غريب القرآن ، وتفسير مذهبى يساعده علي فهم أدلة إمامه فى الفقه ، وتفسير المأثور ليبقى على صلة بأقوال السّلَف . وتفسير حديث لثقة يتعرف به على نص القرآن من خلال ثقافة العصر الذى يعيش فيه .

(١) الوكاء : ما يُشَد به رأس القربة ، وأوكى : شد بالوكاء .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح ، والدقل : أردأ التمر .

مثال الأول « تفسير الجلالين » ... ومثال الثانى : « تفسير أبى السعود » فى مذهب الحنفية ... ومثال الثالث « تفسير ابن كثير » ... ومثال الرابع « فى ظلال القرآن » لسيد قطب ...

ولا ننسى دائماً فكرة احتمال الخطأ ، والعودة فى كل نص ندرسه إلى مجموعة هذه الكتب تعرفنا على مظنة الخطأ لنحقق فيه ونسأل عنه العلماء .

لقد كانت محاولة سيد قطب فى « ظلاله » محاولة جديدة لإعطاء النصوص مدلولاتها التربوية والحركية وربطها بواقع الحياة المعاصرة ، وإبراز جمالها وجلالها ، واستعلائها وكمالها ، فكان كتابه أداة تربية قرآنية لا مثيل لها .

فلا يضيع الإنسان بوقوفه عند الوسائل ، بل يجعله دائماً على صلة بالغايات التى أرادها النص ، ولا شك أنه ليس معصوماً ، ولكن عمله كان عملاً فذاً فى تاريخ المكتبة القرآنية ، فلا يستطيع مسلم حريص على فهم القرآن والتأثر به والتفاعل معه أن يتغافل أو يستغنى عن هذا الكتاب .

وفى الختام نحب أن نشير إلى بعض القضايا :

أولاً : من الناس مَن يهجر كتاب الله بُحجَّة اشتغاله بغيره من ذِكر أو علوم شرعية ، وذلك عذر قبيح ، ومن الناس مَن يهجر الذِكر والعلوم الأخرى الضرورية بحجة كتاب الله ، وذلك جاهل بعصره ، ومقصِّر فى فَهم كتاب الله .

فكتاب الله يأمرنا أن نفهمه ، وهذا لا يتأتى بدون دراسة للغة العربية والسُنَّة والسيرة وعلوم القرآن ، وكتاب الله يأمرنا بالعلم والتعلم وسؤال أهل العلم ، والرجوع إلى أهل الاستنباط لفهم المشاكل ، وكتاب الله ذكر أنَّ من المؤمنين سمَّاعين للمنافقين ، وهذا يقتضى من المؤمنين وعياً لا يتم إلا بمعرفة أحوال العصر ، والكافرين ومؤامرتهم ... وهكذا .

إنَّ الناس فى إفراط أو تفريط ، والسُنَّة الوسط ، فكتاب الله لا تعدل به شيئاً آخر ، ولكن لا تنس تنفيذ أوامره فى العلم والعبادة والوعى والجهاد وغير ذلك .

لقد رأينا أناساً يقرأون القرآن في الشهر مرات ، ويوالون أعداء الله موالاة لا تشبه الموالاة ، ورأينا ناساً يحاربون أعداء الله ولا يعرفون أن يقرأوا كتاب الله ، ورأينا ناسا يقضون أوقاتهم فى ذكر الله وحظهم من كتاب الله قليل . والمراد هو أن يجمع الإنسان بين أطراف الخير ، ويبتعد عن الشرك ، وذلك لا يتم بدونه معرفة كتاب الله وطاعة أمره فى كل شىء ، بالعلم والذكر والوعى والجهاد ...

وبعض الناس يشتغلون بقراءة التفاسير عن التلاوة ، وقراءة التفاسير جيدة على شرط ألا تهمل تلاوة كتاب الله ، فالله عزَّ وجَلَّ جعل كتابه مفسَّراً واضحاً بيِّناً : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [(١)] .

إننا بدون التلاوة نفقد التذكر اللازم ، ونفقد الحالات الإيمانية العالية ، فالله عزَّ وجَلَّ وصف تأثر المؤمنين بالقرآن بقوله :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً [(٢)] مَّثَانِيَ [(٣)] تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [(٤)] ، ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ [(٥)] ، ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [(٦)] .

إنَّ هذه المعانى لا يحصِّلها الإنسان إلا بتلاوة دائمة لكتاب الله وتدبر لمعانيه، ليحيا قلبه فتجيش فيه هذه المعانى .

إنَّ قراءة النكت البلاغية ، والإعرابات النحوية ، ومعرفة القراءات والوقوف عند المعانى الدقيقة . والتوسع فى معرفة ما شملته الآية من أحكام ، كل هذا

---

(١) القمر : ١٧

(٢) كتاباً متشابهاً : فى إعجازه وهدايته وخصائصه .

(٣) مثانى : مكرراً فيه الأحكام والمواعظ وغيرهما .

(٤) الزمر : ٢٣ (٥) مريم : ٥٨ (٦) الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩

جيد ويزيد الإيمان ، ولكن لا يعطينا تذكراً شاملاً لكل ما ينبغى أن نتذكره ولا يثير إحساساتنا العالية الرقيقة كما تثيره التلاوة الدائمة ، لذلك كانت التلاوة شيئاً أساسياً فى حياة المسلم .

لقد كان القرآن بالنسبة إلى الصحابة محور كل شىء عندهم ، ثم أصبح القرآن منسياً عند مسلمى عصرنا ، فلا بد من عودة طيبة للكتاب يصلح بها آخرنا كما صلح أولنا ، وانظر هذا النص لتدرك مقدار حرص الصحابة على الاشتغال بالقرآن دون سواه :

عن جابر بن عبد الله بن يسار قال : سمعتُ علياً يقول : « أعزم على كل مَن كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه ، فإنما هلك الناس حين اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم » .

فلا بد أن يكون لنا وِردنا اليومى من كتاب الله تلاوة فى المصحف لمن لم يحفظ ، أو كان حفظه غير جيد ، وقد ذكر العلماء أنَّ القراءة فى المصحف أعظم أجراً ، والحد المعتدل أن نختم القرآن فى الشهر مرة ، وفى ذلك ضمان حياة القلب ، وضمان حياة المعانى الإسلامية فى أنفسنا . لأن القرآن ما ترك شيئاً يحتاج المسلم أن يتذكره دائماً إلا وذكره مع ذكره لكل شىء .

ولذلك كان القرآن أفضل الذكر وأعظمه ، لأنَّ الأذكار الأخرى تُذكِّر المسلم بشىء فقط . فالتسبيح مثلاً علَى فضله فى الإسلام فإنه يذكِّرنا بتنزيه الله ، وذلك أمر عظيم ، ولكن التلاوة الدائمة لكتاب الله تذكِّرنا بالتنزيه ، وبصفات الله كلها ، وبأركان الإيمان كلها ، وبالعمل و ... فلا يبقى شىء إلا وقد تذكرناه .

ولذلك فإنَّ الأصل فى حياة الصحابة هو قراءة القرآن ، ثم يأتى الذكر ، أما فى عصرنا فبعض الناس لا يقرأون ولا يذكرون ، وبعضهم يذكرون ولَيس لهم حظ من القرآن ، وهؤلاء أجود من الذين قبلهم ، ولكن أجود من الجميع مَن كان له حظه اليومى من كتاب الله وكان له مع ذلك ذِكر دائم ، فهذا الذى أخذ بعضدى الأمر إن أصاب الإخلاص .

ولا بد أن تكون تلاوتنا لكتاب الله سليمة صحيحة مركَّزة مرتَّلة .

ولا بد أن تكون لنا معرفة بمفردات القرآن .

ولا بد أن يكون لنا إلمام بناسخ القرآن ومنسوخه ، وأسباب النزول ، ولا بد أن تكون لنا همة فى حفظ بعض كتاب الله أو حفظه كله ، وأن يكون لنا قيام من الليل نقرأ فيه من هذا الحفظ ، وأن يكون لنا مع هذا كله تدبر لكتاب الله ، فإن فعلنا هذا رجونا أن نكون أخذنا حظنا من كتاب الله ، ورجونا ألا نكون من الذين هجروه :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ (١) .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ (٢) .

وقد يجد الإنسان فى قلبه غفلة عن معانى كتاب الله فيقرأ وقلبه منصرف أو غافل ، وقد عبّر عن ذلك ابن عمر بما مرّ معنا ، ووصف رسول الله ﷺ ناساً بقوله : « يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم »(٣) .

وهذا شىء سببه إما فساد العقيدة ، أو موت القلب ، أو انصرافه ، وقد أشار الله إلى هذه المعانى فقال عن الأول : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ (٤) . وقال عن الثانى والثالث : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٥) .

وقد يكون هناك سبب رابع هو الكبر فى قلب الإنسان . فقد قال الله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ (٦) .

---

(١) البقرة : ١٢١ (٢) الفرقان : ٣٠

(٣) رواه ابن ماجه فى المقدمة ، باب « ذكر الخوارج » عن جابر بن عبد الله وقال فى الزوائد : إسناده صحيح ، ورواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى فى كتاب « التوحيد » بإبدال لفظ « تراقيهم » : بحناجرهم .

(٤) الأنعام : ٢٥

(٥) وهو شهيد : حاضر بالقلب .. والآية من سورة ق : ٣٧ (٦) الأعراف : ١٤٦

فأما السبب الأول والرابع فعلاجهما تصحيح العقيدة ، فقد يجتمع النفاق وتلاوة القرآن كما فى الحديث : « .... ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل ريحانة ريحها طيب وطعمها مر » (١) .

وأما السبب الثانى والثالث فعلاجهما كثرة قراءة القرآن ، فاللّه عَزّ وجَلّ خاطَبَ المؤمنين بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) . فما من مرض من أمراض القلب المؤمن إلا وفى تلاوة القرآن شفاؤه ، أما القلب الفاسد العقيدة ، فذلك له وضع آخر كما كما ذكرنا فى أكثر من موضع : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ (٣).

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ (٤) وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٥) . لاحظ كلمة « كافرون » ، فمن كان مؤمناً وكان فى قلبه غفلة أو انصراف عن كتاب اللّه فإنه إذا داوم على التلاوة وأكثرَ منها سيزول هذا المعنى عن قلبه ، فكتاب اللّه شفاء كما ذكر اللّه عَزّ وجَلّ .

ثانياً : أنّ هناك سوراً وآيات ندبنا لقراءتها يومياً .

وهناك سور ندبنا لقراءتها أسبوعياً .

وهناك سور ندبنا لقراءتها بشكل خاص ، وهناك آيات وسور وردت فيها نصوص خاصة ، فليلاحظ المسلم ذلك :

١ – فى الحديث الصحيح : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » (٦) .

---

(١) رواه مسلم والترمذى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعاً ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) يونس : ٥٧

(٣) فصلت : ٤٤

(٤) رجساً إلى رجسهم : كفراً إلى كفرهم .

(٥) التوبة : ١٢٤ – ١٢٥

(٦) رواه الجماعة عن عبادة بن الصامت .

وللبخارى وأبى داود والنسائى عن أبى سعيد بن المعلا عن رسول الله ﷺ : « لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد » ، ثم أخذ بيدى ، فلما أراد أن يخرج قلت : ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : « الحمد لله رب العالمين ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته ».

٢ - وروى الطبرانى فى « الكبير » والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضى الله عنه : أنَّ النبى ﷺ قال : « مَن قرأ عشر آيات : أربعاً من أول البقرة وآية الكرسى وآيتين بعدها وخواتيمها ، لم يدخل ذلك البيت شيطان حتى يصبح » .

وقد ورد فى آية الكرسى فى الحديث الصحيح عن أبَىّ بن كعب أنَّ رسول الله ﷺ قال له : « يا أبا المنذر ، أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم » ؟ قلت : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (١) . فضرب فى صدرى وقال : « ليهنك (٢) العلم أبا المنذر » ..

وفى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه : أنه عندما نقل إلى رسول الله ﷺ قول شيطان سارق وهو : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٣) . وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ولن يقربك شيطان حتى تصبح ، علّق على هذا الكلام رسول الله ﷺ بقوله : « أما إنه صدقك وهو كذوب » .

وللشيخين وأبى داود والترمذى عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : « مَن قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » .

٣ - للترمذى عن معقل بن يسار عن رسول الله ﷺ : « مَن قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آيات

---

(١) البقرة ٢٥٥ — (٢) أى هنيئاً لك - والحديث لمسلم وأبى داود .

(٣) البقرة ٢٥٥

من آخر سورة الحشر وكَّلَ الله به سبعين ألف مَلَك يُصلُّون عليه حتى يمسى ، وإن مات فى يومه مات شهيداً ، ومَن قرأها حين يمسى فكذلك » .

٤ - روى النسائى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : مَن قرأ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ . كل ليلة ، منعه الله بها من عذاب القبر ، وكنا فى عهد رسول الله ﷺ نسميها المانعة وإنها فى كتاب الله عزَّ وجلَّ سورة مَن قرأ بها فى ليلة فقد أكثر وأطاب .

ولأبى داود والترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ - واللفظ للترمذى : « من القرآن سورة ، ثلاثون آية ، شفعت لرجل حتى غُفِرَ له وهى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ .

٥ - للترمذى عن جابر أنَّ النبى ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ : ﴿ آلم * تَنزِيلُ ... ﴾ ، و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ (١) ، قال طاوس : تفضلان على كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة .

ولمالك عن حميد بن عبد الرحمن : « أنَّ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثلث القرآن ، وأنَّ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ تجادل عن صاحبها فى قبره » .

٦ - عن عبد بن حبيب رضى الله عنه أنه قال : خرجنا فى ليلة مطر وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ ليصلى لنا ، فأدركناه فقال : « قل » . فلم أقل شيئاً ثم قال : « قل » . فلم أقل شيئاً ثم قال : « قل » ، فقلت : يا رسول الله ، ما أقول ؟ قال : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شىء » (٢) .

وللترمذى عن أنس أنَّ النبى ﷺ قال لرجل من أصحابه : « هل تزوجتَ يا فلان » ؟ قال : لا والله ولا عندى ما أتزوج . قال : « أليس معك : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ » ؟ قال : بلى . قال : « ثلث القرآن » . قال : « أليس معك :

---

(١) أى سورتى السجدة ، والملك .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ » ؟ قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قالَ : « أليس معكَ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ » ؟ قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : أليس معك ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ ﴾ » ؟ قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : « تزوج تزوج » .

وفى رواية : « مَن قرأ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ عدلت له بنصف القرآن » .

٧ – عن ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : « مَن قرأ كل ليلة سورة الواقعة لم تصبه فاقة ، وفي المسبحات آية كألف آية » [١] .

٨ – للدارمى بإرسال عن عطاء بن أبى رباح قال : بلغنى أنَّ رسول اللّه ﷺ قال : « مَن قرأ يس فى صدر النهار قُضِيتْ حوائجه » .

وروى أحمد والنسائى وأبو داود وغيرهم عن معقل بن يسار رضى الله عنه أنَّ رسول اللّه ﷺ قال : « قلب القرآن « يس » لا يقرأها رجل يريد اللّه والدار الآخرة إلا غفر اللّه له . أقرأوها على موتاكم » .

٩ – وروى الترمذى والأصبهانى عن أبى هريرة عن رسول اللّه ﷺ : « مَن قرأ ﴿ حَمٓ ﴾ [٢] فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف مَلَك » .

١٠ – روى النسائى والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى عن رسول اللّه ﷺ : « مَن قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين » .

١١ – وروى الطبرانى فى « الأوسط » و « الكبير » عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَن قرأ السورة التى يُذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلّى اللّه عليه وملائكته حتى تغيب الشمس » .

١٢ – لأبى داود عن ابن عمرو بن العاص : « أتى رجل إلى النبى ﷺ فقال : أقرئنى يا رسول اللّه ، فقال : « اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء » فقال : كبر سنِّى

---

(١) لرزين ، ورواه البيهقى فى « شعب الإيمان » عن ابن مسعود وفيه أبو شجاع : منكر الحديث – والعمل بالحديث الضعيف فى فضائل الأعمال مشهور عند أهل العلم .

(٢) أى سورة الدخان .

واشتد قلبى وغلظ لسانى قال : « فاقرأ ثلاثاً من ذوات حم » فقال مثل مقالته الأولى قال : « اقرأ ثلاثاً من المسبحات » فقال مثل مقالته الأولى وقال : أقرئنى سورة جامعة ، فاقرأه صلى اللّه عليه وسلم « إذا زلزلت » حتى فرغ منها فقال الرجل : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليها شيئاً أبداً ، ثم أدبر الرجل فقال ﷺ : « أفلح الرويجل » مرتين .

١٣ - للترمذى عن أبى هريرة عن رسول اللّه ﷺ : « لكل شىء سنام ، وإنَّ سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن : آية الكرسى » .

ولمسلم والترمذى عن أبى هريرة عن رسول اللّه ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إنَّ الشيطان يفر من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة » .

ولمسلم عن أبى أمامة الباهلى عن رسول اللّه ﷺ : « اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان - أو غيابتان - أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما ، اقرأوا سورة البقرة فإنَّ أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البَطَلة » .

زاد فى رواية : « ما من عبد يقرأ بها فى ركعة قبل أن يسجد ثم سأل اللّه شيئا إلا أعطاه ، إن كانت لتحصى الدين كله » .

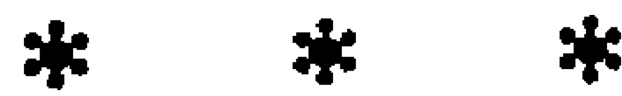
وللترمذى عن أبى هريرة : « بعث النبى ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم فقرأ كل رجل ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال : « ما معك أنت يا فلان » ؟ قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة قال : « أمعك سورة البقرة » ؟ قال : نعم . قال : « اذهب فأنت أميرهم فإنها إن كادت لتحصى الدين كله » فقال رجل من أشرافهم : واللّه ما منعنى يا رسول اللّه أن أستلمها إلا خشية أن لا أقوم بما فيها. فقال ﷺ : « تعلّموا القرآن أوه وقوموا به ، فإنَّ مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو

مسكاً يفوح بريحه كل مكان ، ومثل مَن تعلمه ويرقد وهو فى جوفه كمثل جراب أُوكِيَ على مسك » .

١٤ - « مَن سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ ، و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ [1] .

ومَن أراد الحفظ فهو بالخيار فى أن يبدأ بالسور التى ورد فيها آثار أو يبدأ بالمفصَّل : فعن ابن عباس قال : جمعتُ المحكم فى عهد النبى ﷺ . فقال ابن جبير : وما المحكم ؟ قال : « المفصَّل » [2] .

وكانت أكثر قراءة رسول الله ﷺ فى صلاة الفريضة من المفصَّل ، روى مالك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « ما من المفصَّل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعتُ رسول الله ﷺ يؤم بها الناس فى الصلاة المكتوبة » .



(١) وهى سور : التكوير ، والانفطار ، والانشقاق .

(٢) قصار سور القرآن والتى تبدأ من سورة « الحجرات » إلى « الناس » فى الأصح - والحديث رواه البخارى .

٣ - السُّنة

(١)

١ - إنَّ كتاب الله لا يُفهم فهماً تطبيقياً بدون السُّنَّة . فمثلاً القرآن أمر بالصلاة ، والسُّنَّة هى التى أرشدتنا إلى كيفية هذا الأمر ، وكذلك الزكاة هى التى حددت نسبتها ، وهكذا بقية الإسلام . لذلك كان من اتباع كتاب الله اتباع سُنَّة رسوله ﷺ : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [1] ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [2] ، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [3] ، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [4] ، ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [5] ، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [6] .

وعدا على ذلك فإنَّ الرسول ﷺ هو المظهر العملى للقرآن من الناحية التطبيقية .

« كان خُلُقه القرآن » [7] فكان أسوة لكل إنسان : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [8] ولذلك كانت السُّنَّة هى الأصل الثانى .

(*) توسعنا فى النقول والحديث عن هذا الجانب بسبب عملية التشكيك الجاهلية التى يثيرها أعداء الله حول السُّنَّة .

(١) النساء : ٨٠ . (٢) آل عمران : ٣١ (٣) النساء : ١٠٥

(٤) النحل : ٤٤ (٥) النحل : ٦٤ (٦) النجم : ٣

(٧) رواه أحمد وأبو داود عن عائشة ومسلم عن حكيم بن حزام بلفظ مشابه .

(٨) الأحزاب : ٢١

٢ - ولما تقدَّم فإنه لا فرق بين طاعة اللَّه تعالى فى كتابه وطاعة رسوله فى سُنَّته من حيث المعنى ، فطاعة اللَّه طاعة لرسوله ، وطاعة رسوله طاعة له ، إذ لا يأمر الرسول إلا بما أمر اللَّه عَزَّ وجَلَّ به : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (١) ، وقد انصبت أوامر القرآن مبينة هذا المعنى حتى لا يبقى فيه لبس : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ (٢) ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ ﴾ (٤) ، ﴿ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (٦) .

وحيث وردت طاعة اللَّه فذلك طاعة كتابه ، وحيثما وردت طاعة الرسول ﷺ فتلك طاعة سُنَّته ، فهما متلازمان : « تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب اللَّه تعالى وسُنَّة رسوله » (ﷺ) (٧) ، « ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهو متكىء على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب اللَّه تعالى ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه ، وإنَّ ما حرَّم رسول اللَّه (ﷺ) كما حرَّمه اللَّه » (٨) ، « ألا وإنى أوتيتُ الكتاب ومثله معه » (٩) ، « مهما أوتيتم من كتاب اللَّه فلا عذر لأحد فى تركه ، فإن لم يكن فى كتاب

---

(١) النساء : ٨٠ . (٢) المائدة : ٩٢ (٣) النور : ٦٣
(٤) الحشر : ٧ (٥) آل عمران : ١٣٢ (٦) الأنفال : ٢٤
(٧) قطعة من خطبته صلى اللَّه عليه وسلم فى حجة الوداع فى العام العاشر للهجرة (ابن كثير فى السيرة) .
(٨) رواه الترمذى عن المقدام بن معد يكرب الكندى ، وابن ماجه وأبو داود بألفاظ متقاربة وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .
(٩) قطعة من الحديث السابق من رواية أبى داود عن المقدام بن معد يكرب .

الله فسُنَّة نبى ماضية » (١) ، « .... فعليكم بسُنَّتى وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين عَضُّوا عليها بالنواجذ » (٢) .

وحيثما وردت الحكمة ممتنا بها علينا بجانب الكتاب فإنما هى السُنَّة لا غير :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ (٦) . وما كن يسمعن إلا حديث النبى ﷺ .

٣ - وحيثما كانت السُنَّة فلا يسع مسلماً أن يتجاوزها :

« جاء ثلاثة رهط إلى بيوت رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها قالوا : أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلّى الليل أبداً ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أُفطر ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله إنى أخشاكم لله

---

(١) رواه مسلم عن ابن عباس كما فى كتاب « السُنَّة ومكانتها فى التشريع الإسلامى » للعلامة الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله فى ص (٦٠) بلفظ : « وما أوتيتم من كتاب الله فالعمل به لا عذر لأحد فى تركه ، فإن لم يكن فى كتاب الله فسُنَّة نبى ماضية » .

(٢) رواه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود ، وأبو داود والترمذى من رواية العرباض بن سارية ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) آل عمران : ١٦٤ — (٤) الجمعة : ٢

(٥) البقرة : ١٥١ — (٦) الأحزاب : ٣٤

وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأُفطر وأُصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سُنَّتى فليس منى »[1] .

وروى مالك : « أنَّ رجلاً من الصحابة أرسل امرأته تسأل رسول الله ﷺ عن حكم تقبيل الصائم لزوجته ، فأخبرتها أم سلمة رضى الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان يُقَبِّل وهو صائم ، فرجعت إلى زوجها فأخبرته فقال : لست مثل رسول الله ﷺ ، يُحلُّ الله لرسوله ما يشاء ، فبلغ قوله ذلك رسول الله ﷺ فغضب وقال : « إنى أتقاكم لله وأعلمكم بحدوده » .

وأخرج الشيخان : « صنع رسول الله ﷺ شيئاً ترخَّص فيه ، فتنزَّه عنه قوم ، فبلغه ذلك فخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

وحين بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن قال : « كيف تقضى إذا عرض لك قضاء » ؟ قال : أقضى بكتاب الله . قال : « فإن لم يكن فى كتاب الله » ؟ قال: فبسُنَّة رسول الله ﷺ ، قال : « فإن لم يكن فى سُنَّة رسول الله ﷺ » ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يُرضى رسول الله » - صلى الله عليه وسلم[2] .

ولم يزل سَلَف الأمة على هذا :

(أ) كان عمر رضى الله عنه يقول : الدية للعاقلة ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً . حتى أخبره الضحاك بن سفيان أنَّ رسول الله ﷺ كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابى من ديته فرجع إليه عمر .

(ب) قال عمر : أذكِّر الله امرءاً سمع من النبى ﷺ فى الجنين شيئاً ، فقام حمل بن مالك بن النابغة فقال : كنت بين جاريتين لى - يعنى ضرتين - فضربت

---

(١) رواه الشيخان والنسائى عن أنس مرفوعاً .

(٢) رواه أبو داود والترمذى ، وقال الترمذى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده عندى بمتصل .

إحداهما الأخرى بمسطح فألقت جنيناً ميتاً فقضى رسول الله ﷺ بغرة ، فقال عمر : « لو لم أسمع به لقضينا غيره » .

(جـ) باع معاوية بن أبى سفيان سقاية من ذهب - أو وَرِق - بأكثر من وزنها ، فقال له أبو الدرداء : سمعتُ رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا . فقال معاوية : ما أرى بهذا بأساً . فقال أبو الدرداء : « مَن يعذرنى من معاوية ؟ أخبره عن رسول الله ﷺ ويخبرنى عن رأيه ، لا أساكنك بأرض » .

وقال أبو سعيد الخدرى فى حادثة أخرى من هذا القبيل لرجل : « والله لا آوانى وإياك سقف بيت أبداً » .

(د) عن ابن أبى ذئب عن مخلد بن خفاف قال : « ابتعتُ غلاماً فاستغللته، ثم ظهرتُ منه على عيب فخاصمتُ فيه إلى عمر بن عبد العزيز فقضى لى برده وقضى علىَّ برد غلته ، فأتيتُ عروة فأخبرته فقال : أروح إليه العشية فأخبره أنَّ عائشة أخبرتنى أنَّ رسول الله ﷺ قضى فى مثل هذا : « أن الخراج بالضمان »، فعجلت إلى عمر فأخبرته ما أخبرنى عروة عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ فقال عمر رضى الله عنه : ما أيسر علىَّ من قضاء قضيته ، الله يعلم أنى لم أرد فيه إلا الحق فبلغتنى فيه سُنَّة عن رسول الله ﷺ فأرد قضاء عمر وأنفذ سُنَّة رسول الله ﷺ . فراح إليه عروة فقضى لى أن آخذ الخراج من الذى قضى به علىَّ له » .

(هـ) وروى ابن أبى ذئب قال : قضى سعد بن إبراهيم على رجل بقضية برأى ربيعة بن أبى عبد الرحمن ، فأخبرته عن النبى ﷺ بخلاف ما قضى به فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبى ذئب - وهو عندى ثقة - يخبرنى عن النبى ﷺ بخلاف ما قضيتُ به فقال له ربيعة : قد اجتهدتَ ومضى حكمك ، فقال سعد : واعجبا ، أنفذ قضاء سعد ابن أم سعد وأرد قضاء رسول الله ﷺ ؟ بل أرد قضاء سعد ابن أُم سعد وأنفذ قضاء رسول الله ﷺ ، فدعا سعد بكتاب القضية فشقه وقضى للذى قضى عليه .

وقال أبو حنيفة : « إذا صَحَّ الحديث فهو مذهبى » . وقال : « إذا قلتُ قولاً يخالف كتاب الله وخبر الرسول ﷺ فاتركوا قولى » .

وقال الإمام مالك : « إنما أنا بشر أخطىء وأصيب ، فانظروا فى رأيى فكل ما وافق الكتاب والسُنّة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسُنّة فاتركوه » .

وقال : « ليس أحد بعد النبى ﷺ إلا ويُؤخذ من قوله ويُترك إلا النبى ﷺ » .

وقال الشافعى : « ما من أحد إلا وتذهب عليه سُنّة لرسول الله ﷺ وتغرب عنه ، فمهما قلتُ من قول أو أصّلتُ من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولى » .

وقال : « أجمع المسلمون على أنّ مَن استبان له سُنّة عن رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد » .

وقال : « إذا وجدتم فى كتابى خلاف سُنّة رسول الله ﷺ فقولوا بسُنّة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت » .

وقال : « إذا صَحَّ الحديث فهو مذهبى » .

وقال : « أنتم أعلم بالحديث والرجال منى ، فإذا كان الحديث الصحيح فأعلمونى به أى شىء يكون : كوفياً أو بصرياً أو شامياً حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً » .

وقال الإمام أحمد : « مَن رَدَّ حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة » .

وقال : « وإنما الحُجّة فى الآثار » .

٤ - ونعنى هنا بالسُنّة ما يعنيه الأصولويون بها وهى :

« ما نُقِلَ عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير » ، وذلك لأنّ علماء الأصول هم الذين بحثوا عن رسول الله ﷺ المشرع الذى يضع القواعد ويبيّن للناس دستور الحياة .

وأما المحدثون فمفهومهم عن السُنَّة أوسع ، إذ هي في اصطلاحهم : ما أُثِرَ عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقية (بكسر الخاء) أو خُلُقية (بضمها) ، أو سيرة سواء أكان قبل البعثة أو بعدها ، فهي عندهم أوسع منها في إصطلاح الأصوليين .

هذه السُنَّة لا يتجاوزها إلى غيرها بعد ثبوتها إلا متهَم ، وتلك كانت سُنَّة الخلفاء الراشدين ، التثبت من السُنَّة حتى إذا ثبت لم يلتفتوا عنها .

روى ابن شهاب عن قبيصة أنَّ الجدة جاءت إلى أبي بكر رضي الله عنه تلتمس أن تُورَّث فقال : ما أجد لكِ في كتاب الله شيئاً ، ثم سأل الناس ، فقام المغيرة فقال : كان رسول الله ﷺ يعطيها السدس . فقال له : هل معك أحد ؟ فشهد محمد بن مسلمة بذلك فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه ..

وروى الجريزي عن أبي نضرة عن أبي سعيد أنَّ أبا موسى رضي الله عنه سلَّم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه من وراء الباب ثلاث مرات فلم يؤذن له فرجع . فأرسل عمر رضي الله عنه في أثره فقال : لِمَ رجعتَ ؟ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إذا استأذن أحدكم فلم يؤذن له فليرجع » قال : لتأتيني على ذلك ببيِّنة أو لأفعلن بك . فجاء أبو موسى رضي الله عنه منتقعاً لونه ونحن جلوس فقلنا : ما شأنك ؟ فأخبرنا وقال : فهل سمع أحد منكم ؟ فقلنا : نعم ، كلنا سمعه ، فأرسلوا رجلاً منهم حتى أتى عمر فأخبره .

(٢)

لما كان للسُنَّة ما رأينا من المكانة .

ولما كان المسلم أول ما يفعل أثناء البحث عن حكم الله أن يرجع إلى الكتاب ، ثم إلى السُنَّة كما روى أبو داود والترمذي : أنَّ النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : « بِمَ تقضي » ؟ قال : بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد » ؟

قال : فبسُنَّة رسول الله ﷺ . قال : « فإن لم تجد » ؟ . قال : أجتهد رأيى ولا آلو ..

وكتب عمر بن الخطاب إلى شريح : انظر ما تبيَّن لك فى كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً ، وما لم يتبيَّن لك فى كتاب الله فاتبع فيه سُنَّة رسول الله ﷺ .

لهذا كله فإنَّ العلم بالسُنَّة ومعرفة مظانها لا بد منه للمسلمين . ولذلك فسنحاول فى هذه الفقرة أن نتعرف بسرعة على كتب السُنَّة وما له علاقة بذلك (١) .

لا شك أنَّ الصحابة الذين سمعوا رسول ﷺ وعاشوا معه ، وأخذوا منه وعنه، وعرفوا كل شىء عن رسول الله ﷺ هم معدن هذا العلم ، ولا تستطيع الأمة بعدهم أن تأخذه إلا عنهم .

فكيف كان حمل الصحابة للسُنَّة ؟

المعروف أنَّ الرسول ﷺ نهى أول الأمر الصحابة أن يكتبوا حديثه ليكون الأثر الوحيد المكتوب هو القرآن ، ثم بعد ذلك أذِنَ إذناً خاصاً ، ثم أمر أمراً عاماً . فقال أولاً : « لا تكتبوا عنى ، ومَن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدِّثوا عنى ولا حَرَج ، ومَن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (٢) .

وكتب عبد الله بن عمرو الحديث فى حياة رسول الله ﷺ ولم ينهه بل قال له : « اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه - وأشار إلى فمه - إلا حقاً ».
ثم قال عام الفتح : « اكتبوا لأبى شاة » ، فكان أمراً عاماً للأمة الإسلامية أن تكتب وإذناً .

ولكن الواقع أنَّ السُنَّة فى عصر رسول الله ﷺ كانت محفوظة أكثر منها مكتوبة ، ولكنه حفظ متين لا يرقى إليك شك للأسباب التالية :

---

(١) هذا البحث من الآن فصاعداً أكثره منقول نقلاً حرفياً من بعض المراجع كـ « المدخل إلى علوم السُنَّة » و « الباعث الحثيث » .

(٢) رواه مسلم .

١ - أنَّ الرسول ﷺ كان يعيد الكلمة ثلاثاً لتُعقل عنه .

٢ - تربية أصحابه على الصدق ، وحرص الصحابة وخوفهم من الكذب عليه .

٣ - سهولة افتضاح أمر مَن كذب عليه وقتذاك لكثرة المراقبين أحواله والمرافقين له .

٤ - قوة حافظة عجيبة عند العربى وهو فيها مضرب المثل . كل هذا يجعلنا على ثقة أنَّ حفظ الصحابة للسُنَّة لا يرقى إليه شك .

ولما قُبِضَ رسول الله ﷺ كان الأمر على ما ذكرنا ، إلا أنه بعد وفاته عليه السلام بدأ الناس يكتبون ما يعلمون أو ما يسمعون ، ومَن يتتبع النصوص التى تدل على هذا يجدها كثيرة .

فعلىٌّ يذكر أنَّ معه صحيفة مكتوبة عن رسول الله ﷺ ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يخرج كتاباً ويحلف أنه خط أبيه بيده ، وعن سعيد بن جبير أنه كان يكون مع ابن عباس فيسمع منه الحديث فيكتبه فى واسطة الرَحل ، فإذا نزل نسخه ، وعن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : كنا نكتب الحلال والحرام ، وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع ، فلما احتيج إليه علمتُ أنه أعلم الناس ، وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه احترقت كتبه يوم الحرة فى خلافة يزيد .

وبقى الأمر على ذلك حتى جاء عمرُ بن عبد العزيز على رأس المائة للهجرة فأصدر أمره إلى عُمَّاله أمراء الأمصار وإلى علماء الأمة الإسلامية أن يُدوِّنوا السُنَّة تدويناً عاماً تاماً ، وكان من كتابه إلى عامله وقاضيه على المدينة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : « انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإنى خفتُ دروس العلم وذهاب العلماء » .

والحقيقة أنَّ القرن الثالث هو العصر الذهبى لخدمة الحديث بما حفل من مدققين وممحصين وجامعين ومؤلفين .

(٣)

ونتيجة لهذا الجهد المضنى استطاع العلماء أن يصدروا حكمهم فى كل حديث مروى عن رسول الله ﷺ .

فحكموا على حديث أنه صحيح ، وعلى آخر أنه حسن ، على آخر بأنه ضعيف ، وعلى بعضها بأنه مكذوب على رسول الله ﷺ ، وعلى بعضها أنه منكر ، وعلى بعضها أنه شاذ ، وعلى بعضها أنه منقطع ، وعلى بعضها أنه مرسل ، وعلى بعضها أنه مُعَل ... وهكذا .

وكان حكمهم من الدقة بحيث لا يسع إنساناً أوتى شيئاً من العلم أن يقدح فى هذا الحكم ، أو فى طريقة الوصول إلى هذا الحكم .

وهذه صورة عن تقسيمهم للحديث :

(أ) الصحيح : هو الحديث المسند الذى يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العَدل الضباط إلى منتهاه ، ولا يكون شاذاً ولا معللاً ، ويخرج من ذلك المرسل ، والمنقطع ، والمعضل ، والشاذ ، وما فيه علة قادحة ، وما فى راويه نوع جرح .

ويقصدون بالمرسل ما لم يذكر فيه الصحابى ، والمنقطع ما سقط من سنده واحد فى موضع أو مواضع ، والمعضل ما سقط منه إثنان فأكثر فى موضع أو مواضع ، والشاذ ما خالف فيه الثقة لمن هو أوثق منه ، وما كان فيه علة قادحة هو الحديث الذى اطُّلِعَ فيه على علة تقدح فى صحته مع أن الظاهر سلامته منها ، ويتطرق ذلك إلى الإسناد الذى رجاله ثقات ، الجامع شروط الصحة من حيث الظاهر ، وعلى هذا فعِلّة الحديث سبب غامض خفى قادح فى الحديث ، مع أنَّ الظاهر السلامة منه ، ويَعرفون علّة الحديث بجمع طرقه والنظر فى اختلاف رواته وفى ضبطهم وإتقانهم ، فيقع فى نفس العالِم العارف بهذا الشأن أنَّ الحديث معلول ، ويغلب على ظنه ، فيحكم بعدم صحته أو يتردد فيتوقف فيه .

وأما ما فى راويه نوع جرح فهم الكذّابون والوضّاعون والمشتبَه بكذبهم ، ومَن كان ضعيف الحفظ ، أو غير ثقة ، ومَن لم يرو عنه إلا واحد ولم يوثَّق فكان

بذلك مجهولاً ، ومَن لم يوجد في توثيقه معتبر أو جاء فيه تضعيف ما ، ومَن كان مستور الحال أو مجهوله ، ومَن ليس له من الحديث إلا القليل ، ومُن كان سيء الحفظ ، أو يهم أو يخطيء ، أو خرف وإن كان صادقاً ، ومَن كان ذا بدعة تجعله يستبيح الكذب .

وقد حدد علماء الحديث مَن تُقبل روايته بقولهم في وصف الثقة الضابط : « هو المسلم العاقل البالغ سالماً من أسباب الفسق وخوارم المروءة [١] ، وأن يكون مع ذلك متيقظاً غير مغفل ، حافظاً إن حدَّث من حفظه ، فاهماً إن حدَّث على المعنى ، فإن اختل شرط مما ذكرنا ردت روايته » .

(ب) الحديث الحسن : وهو كما قال ابن الصلاح ، نوعان :

أحدهما : الحديث الذى لا يخلو رجال إسناده من مستور لم تتحقق أهليته ، غير أنه ليس مغفلاً كثير الخطأ ، ولا هو متهم بالكذب ، ويكون متن الحديث قد روى مثله ، أو نحوه من وجه آخر فيخرج بذلك من كونه شاذاً أو منكراً .

القسم الثانى : أن يكون راويه من المشهورين بالصدق والأمانة ، ولم يبلغ درجة رجال الصحيح فى الحفظ والإتقان ، ولا يُعَد ما ينفرد به منكراً ، ولا يكون المتن شاذاً ولا معللاً .

وهو فى الاحتجاج فيه كالصحيح عند الجمهور ، ومما قال فيه الخطابى : ويستعمله عامة الفقهاء ...

(جـ) الضعيف : وهو ما لم تجتمع فيه صفات الصحيح ، ولا صفات الحسن المذكورة فيما تقدم ، فيدخل فيه المقلوب [٢] ، والشاذ والمعلل ، والمضطرب [٣] ، والمنقطع ، والمعضل ، وغير ذلك ...

(١) كمن يركض بالأسواق أو يصرخ من غير حاجة .

(٢) وهو ما وقع فيه تقديم أو تأخير وهماً ، أو تغيير وتبديل كذلك ، أما فى الإسناد بجعل اسم الراوى لأبيه أو اسم أبيه له كمرة بن كعب ، وكعب بن مرة وهو الأكثر ، أو بإبدال راو اشتهر الحديث بروايته براوٍ آخر فى طبقته .

(٣) وهو : أن يختلف الرواة فيه على شيخ بعينه ، أو من وجوه أخر متعادلة لا يترجح بعضها على بعض . وقد يكون تارة فى الإسناد ، وقد يكون فى المتن .

(د) الموضوع : هو المختلَق المصنوع وهو الذى نسبه الكذَّابون المفترون إلى رسول الله ﷺ وهو شر أنواع الرواية .

وقد جزم الشيخ أبو محمد الجوينى - والد إمام الحرمين - بتكفير مَن وضع حديثاً على رسول الله ﷺ قاصداً إلى ذلك عالماً بافترائه ، وقد قال عليه السلام فى الحديث المتواتر : « مَن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

ومن أفظع ما أتى به بعض هؤلاء الوضّاعين من حجج لتجويز ما فعلوه قولهم : إنهم يكذبون لرسول الله ﷺ لا عليه ، فهؤلاء لم يكتفوا بالكذب بل استحلوه واستحبوه ، وذلك أعظم الكفر وأكبر هادم للشريعة ، عليهم لعنة الله وملائكته والناس أجمعين .

ومَن علم أنَّ حديثاً من الأحاديث موضوعاً فلا يحل له أن يرويه منسوباً إلى رسول الله ﷺ إلا مقروناً ببيان وضعه ، وهذا الحظر عام فى جميع المعانى . سواء الأحكام ، والقصص ، والترغيب والترهيب وغيرها ، لحديث سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « مَن حدَّث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » (١) .

وقوله : « يرى » فيه روايتان : بضم الياء وبفتحها - أى بالبناء للمجهول وبالبناء للمعلوم ، وقوله : « الكاذبين » فيه روايتان أيضاً : بكسر الباء وبفتحها - أى بلفظ الجمع ولفظ المثنى ، والمعنى على الروايتين فى اللفظين صحيح ، فسواء علم الشخص أنَّ الحديث الذى يرويه مكذوب أم لم يعلم إن كان من غير أهلها وأخبره العالِم الثقة بها ، فإنه يحرم عليه أن يحدِّث بحديث مفترى على رسول الله ﷺ ، وأما مع بيان حاله فلا بأس ، لأن البيان يزيل من ذهن السامع أو القارىء ما يخشى من اعتقاد نسبته إلى الرسول ﷺ .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، ورواه أحمد وابن ماجه عن سمرة رضى الله عنه .

ويُعرف وضع الحديث بأمور كثيرة يعرفها الجهابذة النُقّاد من أئمة هذا العلم . منها : إقرار واضعه بذلك ، كما روى البخارى فى التاريخ الأوسط عن عمر بن صبح بن عمران التميمى أنه قال : أنا وضعتُ خطبة النبى ﷺ ، وكما أقر ميسرة بن عبد ربه الفارسى أنه وضع أحاديث فى فضائل القرآن ، وأنه وضع فى فضل علىّ سبعين حديثاً ، وكما أقر أبو عصمة نوح بن أبى مريم الملقب بنوح الجامع أنه وضع على ابن عباس أحاديث فى فضائل القرآن سورة سورة .

ومنها ما ينزل منزلة إقراره ، كأن يحدِّث عن شيخ بحديث لا يُعرف إلا عنده ، ثم يُسئل عن مولده ، فيذكر تاريخاً معيَّناً ، ثم يتبين من مقارنة تاريخ ولادة الراوى بتاريخ وفاة الشيخ المروى عنه أنَّ الراوى وُلِدَ بعد وفاة شيخه ، أو أنَّ الشيخ توفى والراوى طفل لا يدرك الرواية ، أو غير ذلك . كما ادعى مأمون ابن أحمد الهروى أنه سمع من هشام بن عمار ، فسأله الحافظ بن حبان : متى دخلتَ الشام ؟ قال : سنة خمسين ومائتين ، فقال له : فإنَّ هشاماً الذى تروى عنه مات سنة (٢٤٥) فقال : هذا هشام بن عمار آخر .

وقد يُعرف الوضع أيضاً بقرائن فى الراوى ، أو المروى عنه ، أو فيهما معاً . فمن أمثلة ذلك : ما أسنده الحاكم عن سيف بن عمر التميمى قال : « كُنت عند سعد بن طريف ، فجاء ابنه من الكُتَّاب يبكى ، فقال : مالك ؟ قال : ضربنى المعلم ، قال : لأخذينهم اليوم ، حدَّثنى عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً : « معلمو صبيانكم شراركم ، أقلهم رحمة لليتيم وأغلظهم على المسكين » ، وسعد بن طريف هذا قال فيه ابن معين : « لا يحل لأحد أن يروى عنه » : وقال ابن حبان : « كان يضع الحديث » . وراوى القصة عنه ، سيف بن عمر ، قال فيه الحاكم : « أتهم بالزندقة وهو فى الرواية ساقط » .

وقيل لمأمون بن أحمد الهروى : « ألا ترى إلى الشافعى ومَن تبعه بخراسان؟ فقال : حدَّثنا أحمد بن عبد الله [1] ، حدَّثنا عبد الله بن سعدان الأزدى عن أنس

---

(١) كذا فى لسان الميزان جـ ٥ ص ٧ ، ٨ ، وفى التدريب ص ١٠٠ : أحمد بن عبد البر .

مرفوعاً : « يكون فى أمتى رجل يقال له « محمد بن إدريس » أضر على أمتى من إبليس ، ويكون فى أمتى رجل يقال له « أبو حنيفة » هو سراج أمتى » .

وكما فعل محمد بن عكاشة الكرمانى الكذّاب . قال الحاكم : « بلغنى أنه كان ممن يضع الحديث حسْبة ، فقيل له : إنّ قوماً يرفعون أيديهم فى الركوع وعند الرفع منه ؟ فقال : حدّثنا المسيب بن واضح ، حدّثنا عبد الله المبارك عن يونس بن يزيد عن الزهرى عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن رفع يديه فى الركوع فلا صلاة له » .. فهذا مع كونه كذباً من أخس الكذب ، فإنّ الراوية عن الزهرى بهذا السند بالغة مبلغ القطع وبإثبات الرفع عند الركوع وعند الاعتدال ، وهى فى « الموطأ » وسائر كتب الحديث ». انتهى(١) .

ومن القرائن فى المروى : أن يكون ركيكاً لا يعقل أن يصدر عن النبى ﷺ ، فقد وُضِعَت أحاديث طويلة ، يشهد لوضعها ركاكة لفظها ومعانيها .

قال الحافظ ابن حجر : « المدار فى الركة على ركة المعنى ، فحيثما وُجِدَت دلت على الوضع ، وإن لم ينضم إليها ركة اللفظ ، لأن هذا الدين كله محاسن . والركة ترجع إلى الرداءة ، أما ركاكة اللفظ فقط فلا تدل على ذلك ، لاحتمال أن يكون رواه بالمعنى فغيّر ألفاظه بغير فصيح . نعم إن صرح بأنه من لفظ النبى ﷺ فكاذب » .

وقال الربيع بن خثيم : « إنّ للحديث ضوءاً كضوء النهار تعرفه ، وظلمة كظلمة الليل تنكره » .

وقال ابن الجوزى : « الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينفر منه قلبه فى الغالب » . قال البلقينى : « وشاهد هذا : أنّ إنساناً لو خدم إنساناً سنين ، وعرف ما يحب وما يكره فادعى إنسان أنه كان يكره شيئاً يعلم ذلك أنه يحبه ، فبمجرد سماعه يبادر إلى تكذيبه » .

---

(١) من لسان الميزان جـ ٥ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩

وقال الحافظ ابن حجر : ومما يدخل فى قرينة حال المروى ما نقل عن الخطيب عن أبى بكر بن الطيب : أنَّ من جملة دلائل الوضع أن يكون مخالفاً للعقل ، بحيث لا يقبل التأويل ، ويلتحق به ما يدفعه الحس والمشاهدة ، أو يكون منافياً لدلالة الكتاب القطعية ، أو السُنَّة المتواترة ، أو الإجماع القطعى ، أما المعارضة مع إمكان الجمع فلا ، ومنها ما يصرح بتكذيب رواة جميع المتواتر ، أو يكون خبراً عن أمر جسيم تتوفر الدواعى على نقله بمحضر الجميع ، ثم لا ينقله إلا واحد ، ومنها الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير أو الوعد العظيم على الفعل الحقير . وهذا كثير فى حديث القُصَّاص ، والأخير راجع إلى الركة .

قال السيوطى : ومن القرائن كون الراوى رافضياً والحديث فى فضائل أهل البيت .

ومن المخالف للعقل ما رواه ابن الجوزى من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده مرفوعاً : أنَّ سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً ، وصلَّت عند المقام ركعتين ، فهذا من سخافات عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقد ثبت عنه من طريق أخرى نقلها فى التهذيب [١] عن الساجى عن الربيع عن الشافعى قال : « قيل لعبد الرحمن بن زيد : حدَّثك أبوك عن جدك أنَّ رسول الله ﷺ قال : «إنَّ سفينة نوح طافت بالبيت وصلَّت خلف المقام ركعتين » ؟ قال : نعم » ، وقد عُرِفَ عبد الرحمن بمثل هذه الغرائب حتى قال الشافعى فيما نُقِلَ فى التهذيب : « ذكر رجل لمالك حديثاً منقطعاً ، فقال : أذهب إلى عبد الرحمن ابن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح » .

روى ابن الجوزى أيضاً من طريق محمد بن شجاع الثلجى عن حبان بن هلال عن حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة مرفوعاً : « إنَّ الله خلق الفرس فأجراها ، فعرقت ، فخلق نفسه منها » . قال السيوطى فى التدريب : « هذا لا يضعه مسلم ، والمتهم به - محمد بن شجاع - كان زائغاً فى دينه وفيه أبو المهزم ، قال شعبة : رأيته لو أعطى درهماً وضع خمسين حديثاً » .

---

(١) جـ ٦ ص ١٧٩

والأسباب التى دعت الكذّابين الوضّاعين إلى الافتراء ووضع الحديث كثيرة ، فمنهم الزنادقة ، والذين أرادوا أن يفسدوا على الناس دينهم ، لما وقر فى نفوسهم من الحقد على الإسلام وأهله ، يظهرون بين الناس بمظهر المسلمين وهم المنافقون حقاً .

قال حماد بن زيد : « وضعت الزنادقة على رسول الله ﷺ أربعة عشر ألف حديث » كعبد الكريم بن أبى العوجاء قتله محمد بن سليمان العباس الأمير بالبصرة على الزندقة بعد سنة (١٦٠) فى خلافة المهدى . ولما أُخذَ لتُضرب عنقه قال: « لقد وضعتُ فيكم أربعة آلاف حديث ، أُحرِّم فيها الحلال وأُحلِّل الحرام».

وكبيان بن سمعان النهدى من بنى تميم ، ظهر بالعراق بعد المئة وادعى - لعنه الله - ألوهية علىّ كرم الله وجهه ، وزعم مزاعم فاسدة . ثم قتله خالد بن عبد الله القسرى ، وأحرقه بالنار .

وكمحمد بن سعيد بن حسان الأسدى الشامى المصلوب ، قال أحمد بن حنبل : « قتله أبو جعفر المنصور فى الزندقة ، حديثه حديث موضوع » .

وقال أحمد بن صالح المصرى : « زنديق ضُرِبَت عنقه ، وضع أربعة آلاف حديث عند هؤلاء الحمقى ، فاحذروها » .

وقال الحاكم أبو أحمد : « كان يضع الحديث ، صُلِبَ على الزندقة » .

وحكى عنه الحاكم أبو عبد الله : أنه روى عن حميد عن أنس مرفوعاً : « أنا خاتم النبيين ، لا نبى بعدى ، إلا أن يشاء الله » . وقال : « وضع هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة والدعوة إلى التنبى » .

ومنهم أصحاب الأهواء والآراء التى لا دليل لها من الكتاب والسُنّة ، وضعوا أحاديث نُصرة لأهوائهم وآرائهم كالخطابية والرافضة وغيرهم . قال عبد الله بن يزيد المقرئ : « إنَّ رجلاً من أهل البدع رجع عن بدعته ، فجعل يقول : « انظروا هذا الحديث عمَّن تأخذونه ، فإنَّا كنا إذا رأينا رأياً جعلنا له حديثاً » .

وقال حماد بن سلمة : « أخبرنى شيخ من الرافضة أنهم كانوا يجتمعون على وضع الأحاديث » .

ومنهم القُصَّاص يضعون الأحاديث فى قصصهم ، قصداً للتكسب والارتزاق ، وتقريباً للعامة بغرائب الروايات ، ولهم فى هذا غرائب وعجائب ، وصفاقة وجه لا توصف .

كما حكى أبو حاتم البستى : أنه دخل مسجداً فقام بعد الصلاة شاب فقال : « حدَّثنا أبو خليفة ، حدَّثنا أبو الوليد عن شعبة عن قتادة عن أنس » ... وذكر حديثاً ، قال أبو حاتم : « فلما فرغ دعوته فقلت : رأيتَ أبا خليفة ؟ قال : لا . قلت : كيف تروى عنه ولم تره ؟ قال : إنَّ المناقشة معنا من قلة المروءة ، أنا أحفظ هذا الإسناد . فكلما سمعتُ حديثاً ضممته إلى هذا الإسناد » .

وأغرب منه ما روى ابن الجوزى بإسناده إلى أبى جعفر بن محمد الطيالسى قال : « صلَّى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فى مسجد الرصافة . فقام بين أيديهم قاص ، فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا : حدَّثنا عبد الرزاق ، عن معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً منقاره من ذهب ، وريشه من مرجان ... وأخذ فى قصة نحواً من عشرين ورقة . فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى ابن معين وجعل يحيى بن معين ينظر إلى أحمد ، فقال له : حدَّثته بهذا ؟ فيقول : والله ما سمعتُ هذا إلا الساعة ، فلما فرغ من قَصصه وأخذ العطيات ، ثم قعد ينتظر بقيتها ، قال له يحيى بن معين بيده : تعال ، فجاء متوهماً لنوال ، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، فقال : أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل ، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله ﷺ . فقال : لم أزل أسمع أنَّ يحيى بن معين أحمق ، وما تحققتُ هذا إلا الساعة ، كأن ليس فيها يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما ، وقد كتبتُ عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، فوضع أحمد كمه على وجهه وقال : دعه يقوم . فقام كالمستهزئ بهما » .

وأكثر هؤلاء القُصّاص جُهّال تشبهوا بأهل العلم ، واندسوا بينهم . فأفسدوا كثيراً من عقول العامة .

ويشبههم بعض علماء السوء الذين اشتروا الدنيا بالآخرة ، وتقرّبوا إلى الملوك والأمراء والخلفاء بالفتاوى الكاذبة ، والأقوال المخدوعة التى نسبوها إلى الشريعة البريئة ، واجترأوا على الكذب على رسول الله ﷺ إرضاءً للأهواء الشخصية ، ونصراً للأغراض السياسية ، فاستحبوا العمى على الهدى .

كما فعل غياث بن إبراهيم النخعى الكوفى الكذّاب الخبيث - كما وصفه إمام أهل الجرح والتعديل « يحيى بن معين » : فإنه دخل على أمير المؤمنين المهدى ، وكان المهدى يحب الحمام ويلعبُ به ، فإذا قدامه حمام ، فقيل له : حدِّث أمير المؤمنين فقال : حدثنا فلان عن فلان أنّ النبى ﷺ قال : « لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر أو جناح » ، فأمر له المهدى ببدرة ، فلما قام قال: أشهد على قفاك أنه قفا كذّاب على رسول الله ﷺ . ثم قال المهدى : أنا حملته على ذلك ، ثم أمر بذبح الحمام ورفض ما كان فيه .

وفعل نحواً من ذلك مع أمير المؤمنين الرشيد فوضع له حديثاً : أنّ رسول الله ﷺ كان يُطيِّر الحمام ، فلما عرضه على الرشيد قال : اخرج عنى ، فطرده عن بابه .

وكما فعل مقاتل بن سليمان البلخى من كبار العلماء بالتفسير ، فإنه كان يتقرب إلى الخلفاء بنحو هذا .

حكى أبو عبيد الله وزير المهدى قال : « قال لى المهدى : ألا ترى إلى ما يقول لى هذا - يعنى مقاتلاً - ؟ قال : إذا شئت وضعتُ لك أحاديث فى العباس . قلت : لا حاجة لى فيها » .

وشر أصناف الوضّاعين وأعظمهم ضرراً قوم ينسبون أنفسهم إلى الزهد والتصوف ، لم يتحرجوا عن وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب إحتساباً للأجر عند الله ، ورغبة فى حض الناس على عمل الخير واجتناب المعاصى - فيما زعموا - وهم بهذا العمل يُفسدون ولا يُصلحون .

وقد اغتر بهم كثير من العامة وأشباههم ، فصدَّقوهم ، ووثقوا بهم ، لما نسبوا إليهم من الزهد والصلاح ، وليسوا موضعاً للصدق وأهلاً للثقة .

وبعضهم دخلت عليه الأكاذيب جهلاً بالسُّنَّة لحسن ظنهم ، وسلامة صدورهم ، فيحملون ما سمعوه على الصدق ولا يهتدون لتمييز الخطأ من الصواب ، وهؤلاء أخف حالاً ، وأقل إثماً من أولئك .

ولكن الوضّاعون منهم أشد خطراً ، لخفاء حالهم على كثير من الناس ، ولولا رجال صدقوا فى الإخلاص لله ، ونصبوا أنفسهم للدفاع عن دينهم ، وتفرغوا للذب عن سُنَّة رسول الله ﷺ ، وأفنوا أعمارهم فى التمييز بين الحديث الثابت وبين الحديث المكذوب وهم أئمة السُّنَّة وأعلام الهدى . لولا هؤلاء لاختلط الأمر على العلماء والدهماء ، ولسقطت الثقة فى الأحاديث .

رسموا قواعد للنقد ، ووضعوا علم الجرح والتعديل ، فكان من عملهم علم مصطلح الحديث » ، وهو أدق الطرق التى ظهرت فى العالَم للتحقيق التاريخى، ومعرفة النقل الصحيح من الباطل .

فجزاهم الله عن الأمة والدين أحسن الجزاء ، ورفع درجاتهم فى الدنيا والآخرة ، وجعل لهم لسان صدق فى الآخرين .

وقد قيل لعبد الله بن المبارك الإمام الكبير : هذه الأحاديث الموضوعة ؟ فقال : تعيش لها الجهابذة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) صدق الله العظيم .

ومن الأحاديث الموضوعة المعروفة : الحديث المروى عن أُبَىّ بن كعب مرفوعاً فى فضائل القرآن سورة سورة وقد ذكره بعض المفسِّرين فى تفاسيرهم ، كالثعلبى والواحدى والزمخشرى والبيضاوى ، وقد اخطأوا فى ذلك خطأً شديداً .

---

(١) الحجر : ٩

قال الحافظ العراقى : « لكن مَن أبرز إسناده منهم كالأولين - يعنى الثعلبى والواحدى - فهو أبسط لعذره . إذ أحال ناظره على الكشف عن سنده ، وإن كان لا يجوز له السكوت عليه . وأما مَن لم يُبرز سنده وأورده بصيغة الجزم ، فخطؤه أفحش » .

وأكثر الأحاديث الموضوعة كلام اختلقه الواضع من عند نفسه ، وبعضهم جاء لكلام بعض الحكماء ، أو لبعض الأمثال العربية ، فركّب لها إسناداً مكذوباً ، ونسبها إلى رسول الله ﷺ على أنها من قوله .

إذا استوعبتَ ما مَرَّ تعرف كذب الذين يريدون أن يشككوا فى السُنَّة وكتبها من مرتَّدين ، وكافرين ، ومنافقين ، وجاهلين حتى فيما لا يحتمل أخذاً ورداً ، ككتاب البخارى رحمه الله ، أو الكتب الستة كلها فضلاً عن غيرها .

ولكنه الضلال الذى لا يعرف حياءاً ولا خجلاً ، والخيانة التى لا تعرف علماً ولا تحقيقاً ، والوقاحة التى لا تعرف حداً تنتهى إليه ، والجهل الذى عَمَّ حتى صار الناس يصدِّقون بسببه ما لا يُصدَّق . ويتبعون ما ينبغى أن يوضع .

وبعد ما تقدَّم نقول : إنَّ الذى يريد أن يختص بعلم الحديث - وذلك لا شك فرض كفاية - عليه أن يتقن كل ما له علاقة بهذا الموضوع إتقاناً تاماً ، وأما غير المختصين فالذى يحتاجون إليه هو الاطمئنان إلى كون السُنَّة قد مُحِّصَت وبلغتنا بلاغاً كاملاً ، وأنَّ الجهد الذى بذله علماء المسلمين فى هذا الموضوع كان بالغاً حد الإتقان ، وأنه يوجب الاطمئنان لما وصلوا إليه من نتائج . والشىء الثانى الذى يحتاجونه هو دراسة السُنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ أو المقبول العمل بها وإن لم تصل إلى درجة الصحة والحسن بالقدر الذى يستطيعه المسلم، ولكل مسلم وضعه ، وحاله وفراغه وطاقته ، فليأخذ من ذلك القدر الذى يستطيعه بالشكل الذى لا يتأثر فيه أخذه للقرآن .

فقد يكون مناسباً لمسلم أن يقرأ « الأربعين النووية » ويحفظها ، ويصعب عليه غيرها ، وقد يكون مناسباً لآخر أن يقرأ « الأذكار » للنووى ، أو « رياض الصالحين » أو هما معاً .

وقد يكون مناسباً لآخر أن يقرأ « هداية الباري فى تجريد صحيح البخارى » ، أو الصحيح نفسه أو الكتب الستة كلها ، وقد يكون مناسباً لآخر أن يقرأ « تيسير الوصول » ، أو « جمع الفوائد » ، وقد يستطيع آخر أن يقرأ « جامع الأصول لأحاديث الرسول » مع « مجمع الزوائد » ، وكلما أكثر المسلم فقد أجاد على أن لا يُضيِّع جانباً آخر أو واجباً على حساب التوسع ، فما خرَج التوسع عن كونه مندوباً ، مع وجود أهل الاختصاص .

هذا بالنسبة لنصوص السُنَّة .

أما بالنسبة لعلوم السُنَّة : فقد يكتفى المسلم بما ذكرناه ، وقد يرغب بالمزيد ، وكتب مصطلح الحديث أو كتب علوم السُنَّة والحديث كثيرة ، منه الجديد المعاصر الذى ينافح عن السُنَّة ويدفع عنها شُبَه المرتدِّين والكافرين الجدد ككتاب « السُنَّة » للدكتور السباعى ، ومنها القديم ، ومنها الجامع المنسق ككتاب الشيخ طاهر الجزائرى ، أو كتاب القاسمى ، ومنها المختصر اللطيف كمقدمة ابن الصلاح .

والحد الأدنى الذى نشير به من كل ما ذُكِر هو « رياض الصالحين » ، و « الأذكار » ، وإلا لعامل لا يجد وقتاً ، فتكفيه « الأربعون النووية » . فمن حصَّل « الرياض » و « الأذكار » فلا شك أنه حَصَّل قدراً جيداً من السُنَّة ، ثم فليحاول أن يستزيد .

ونكتفى بهذه الإلمامة السريع عن السُنَّة سرنا فيه على أساس لفت النظر إلى الحد الذى لا بد منه لمسلم يريد أن يأخذ حظه من كل أنواع الثقافة الإسلامية ليكون جديراً بكونه من حزب الله .

وتلك خطتنا التى سلكناها في هذا الكتاب أن نلفت النظر إلى الشيء الذي لا بد منه ، وقد نطيل حيث لا بد من ذلك ، ونختصر حيث يغني الاختصار .

وكل ما نرجوه أن يصبح الشيء الذى لفتنا إليه النظر حقيقة وواقعاً ، وكثير مما نلفت النظر إليه فى هذا الكتاب هو عمل كثير من المسلمين ، إلا أنهم يلتفتون إليه وينسون غيره ، لذلك كان عملنا عملية تذكير لأمثال هؤلاء بشيء قد يكونون غافلين عنه ولو إلى حد ما .

فإن نجحنا بهذا رجونا خيراً كثيراً ، وإلا فربنا عَزَّ وجَلَّ أكرم فى كل حال من أن يضيع أجر مَن عمل له .

* * *

٤- علم أصول الفقه

الكتاب والسُنَّة فيهما بيان كل شيء ، ولكن هذا البيان قد لا يكون صريحاً أحياناً بل يُتوصل إليه بنوع من النظر والتأمل . فما هى القواعد التى تضبط الفهم للوصول إلى البيان فى مسألة ؟

يجيب على هذا علم أصول التفسير ، أو كتب علوم القرآن للوصول إلى فهم سليم صحيح لكل قضايا الإنسان النظرية والعملية .

والكتاب والسُنَّة فَصَّلا للإنسان كل ما ينبغى أن يفعله الإنسان ، فما هى القواعد التى تضبط وصول الإنسان إلى أن يعرف حكم الله فيما يفعله ؟

حكم الله يُعرف بواسطة الكتاب والسُنَّة ، ولكن الكتاب فيه المجمَل ، والمفصَّل ، والعام ، والخاص ، والمحكم ، والمتشابه ، ما هى القواعد التى تحكم فى هذا الموضوع ، وكتاب الله فيه الناسخ والمنسوخ ، وفيه الأمر والنهى ، وفيه الوعد والوعيد ؟

ما هى القواعد التى تبيِّن لنا علاقة هذه القضايا بالحكم ؟

والسُنَّة منها ذو السند الصحيح ومنها غير ذلك ، ومنها المتعدد الروايات ، ومنها كذلك المجمل والمفصَّل ، والعام والخاص ، والناسخ والمنسوخ ، والآمر والناهى ، فما هى قواعد استخراج الحكم من السُنَّة ؟

والقرآن متواتر النقل لفظاً ومعنى . بينما السُنَّة منها المتواتر لفظاً ومعنى ، ومنها المتواتر معنى لا لفظاً ، ومنها الظنى الورود ، فماذا يترتب على ذلك ؟

وإذا أُطلق القرآن ، وخصصت السُنَّة ، أو أُجمل القرآن ، وبيَّنت السُنَّة ، أو سكت القرآن ، ونطقت السُنَّة ، أو تعارض الكتاب والسُنَّة فى الظاهر ، ما أحكام ذلك ؟

وما لم يرد صريحاً فى الكتاب والسُنَّة وأجمع فيه المسلمون على شىء - ما حكم هذا الإجماع وما هى شروطه ، ومتى يعتبر وما هى مكانة الإجماع بين أصول الشريعة ؟

وإذا اشترك شىء لم ينص عليه صراحة فى عِلَّة مع شىء قد نص عليه صراحة ، هل يشترك الأول مع الثانى فى الحكم ؟ وإذا اشتركتا فكيف أثبتنا ذلك ؟

يصل هذا بنا إلى البحث عن القياس ، وحكمه الشرعى ، وإثباته ، وحدوده ، ومباحثه .

وإذا كانت الشريعة قد أنزلت لحفظ مصالح الناس ، فما هى المصلحة الشرعية وما حدودها ومَن يقدِّرها ؟ وما هى ضوابطها ؟

ما حكم فتوى الصحابى ؟ ما حكم شرع مَن قبلنا إذا ورد فى شرعنا ؟ هل هناك مجال للاستحسان ؟ وإذا كان ، فما هى ضوابط ذلك ؟ هل للعُرف تأثير على الحكم ؟ وإذا كان له تأثير على بعض الأحكام فما هى قواعد ذلك ؟

وحكم الله هل يقدر كل إنسان على استخراجه ؟ وإذا كان الجواب : لا ، فمن هو الجدير باستخراج حكم الله ؟

ما تأثير الأحوال الطارئة على التطبيق الشرعى ؟

هذه المسائل وعشرات مثلها إنما يجيب عليها علم أصول الفقه .

ولما كان هذا العلم صعباً ومسائله معقدة متشابكة ، فإننا لا نطالب كل مسلم بدراسة كتبه ، أما الرجل الذى يريد أن يحمل عبء الدعوة ، فلا بد له من دراسة هذا العلم ليعرف مصادر الأمور ومواردها ، ويضع كل شىء فى محله . فإنّ هذا العلم « ميزان للفقه يضبط الفقيه ويمنعه من الخطأ فى الاستنباط » ، وبه يتبين الاستنباط الصحيح من الاستنباط الخاطىء ، وكتب هذا العلم كثيرة ، منها القديم ، ومنها الجديد ، ومن الجديد كتاب « أبى زهرة » عن أصول الفقه، أو كتاب « خلاّف » عنه على ملاحظات على ما فى الكتابين ، فمثلاً مما نلاحظه

على الكتاب الأول أنه يعتبر اللحية فيه عادة وليست سُنَّة ينبغى إتباعها مع أنه قد ورد فيها أكثر من عشرين حديثاً فيها الآمر والناهى ، والمبيِّن للحكمة ، والمنكر على المخالف . والمذاهب الأربعة على تحريم حلقها .

ومما نلاحظه على الثانى أنه أحياناً يطبق قواعد علم أصول الفقه على القوانين الوضعية دون المساس بهذه القوانين أصلاً ، أو دون النكير عليها ، ولا شك أنَّ المؤلف لا يُحبِّذ القوانين الوضعية ، ولكن عدم الإنكار عليها وتبيان حكمها غير مناسب فى كتاب إسلامى حتى لا يعتبر الناس أنَّ وجود هذه القوانين وضع عادى .

وعلى كل .. فقراءة أحد الكتابين مفيدة ، وقراءة كتاب قديم على عالِم أجود ، ومن الكتب القديمة فى هذا الشأن :

١ - « الرسالة » للإمام الشافعى .

٢ - « المستصفى » للغزالى ، والغزالى شافعى .

٣ - « أصول البزدوى » ، والبزدوى من الحنفية .

٤ - « أصول السرخسى » ، والسرخسى من الحنفية .

والكتب المدرسية فى هذا الشأن ذات شأن ، فعلى مريد استكمال الثقافة الإسلامية أن يبذل جهداً ، ولا يُطالَب بالكمال إلا أصحاب الاختصاص .

* * *

٥ - ٦ - ٧
علوم الإسلام النظرية والعملية
العقائد والأخلاق والفقه

الكتاب والسُنَّة تضمنا كل شيء كما رأينا ، ولكن المسائل فيهما لم تكن مجموعة بشكل مواضيع لمسائل محددة ، لذلك يجد الإنسان فى السورة الواحدة ما له علاقه بالعقائد ، والأخلاق ، والتشريع ، والقواعد العامة ، وكذلك فى السُنَّة ، ولذلك أسبابه وحكمته ، وفى باب « المعجزة القرآنية » من كتابنا « الأصول الثلاثة » بيان لهذا .

ومنذ عصر الرسول ﷺ اشتهر بعض الصحابة بإتقان بعض الجوانب ، ثم توسع هذا ، فاختص بعض علماء المسلمين واشتهروا بالبحث فى العقائد ، واختص بعض العلماء بالأخلاق والتربية ، واختص بعض العلماء بالفقه . وهؤلاء الاختصاصيون صارت لهم حلقاتهم وتلاميذهم ، فنشأت مدارس فى العقيدة ، ومدارس فى الأخلاق ، ومدارس فى الفقه ، وألَّفت كل مدرسة فى ذلك كتباً تعبر عن وجهة نظرها وآرائها الاجتهادية ، ولما كان الفقه هو الجانب العملى الذى يحتاجه كل إنسان فقد كانت مدرسته أوسع هذه المدارس ، وجذبت أكبر عدد من العلماء .

الاختصاصيون المهديون فى هذه العلوم صارت مهمتهم جمع مسائل كل علم إلى بعضها ، وبحث عويصات المسائل المتعلقة بها ، والجواب عن الأسئلة التى تتعلق بها ، والرد على الشُبَه الثائرة ضدها ، والدخول فى نقاش مع بعضهم حول مسائلها ، فقرّبوا البعيد ، ووضّحوا المشتبَه ، وفصّلوا المجمل ، وبيّنوا حدود

المفصَّل ، وتوسعوا واختصروا ، وكتبوا الكتب المطوَّلة والمختصرة . ذكروا فى المطوَّلة كل شيء ، وذكروا فى المختصرة أمهات المسائل ، ثم شرحوا ما اختصروه ، وعلقوا عليه حواشى ، وكتبوا لكل عصر ما يناسبه ، فخرجت فى كل عصر مئات الكتب بهذه العلوم وغيرها تتناسب مع حاجة كل عصر ، فكان تراثاً ضخماً ، وعملاً عظيماً ، مهما أُخِذَت عليه مآخذ ، فحسناته أكبر وأجل وأخطر .

وهناك شِبه إجماع من الأمة الإسلامية على اعتبار مجموعة من الأئمة مرضيين مقبولة مذاهبهم ، سواء فى العقائد ، أو الفقه ، أو الأخلاق .

أمثال هؤلاء الأئمة أعطونا زبدة الأمور ، فحَّققوا ، وفرَّعوا ، وجمعوا حتى إنَّ الإنسان عندما يقرأ مذاهبهم ، يأخذ صورة كاملة عن كليات المسائل وأمهاتها ، وفروعها ، وجزئياتها فى الجانب الذى عالجوه .

ومن ثَمَّ تُعتبر دراسة العقائد ، والفقه والأخلاق على مذاهب هؤلاء الأئمة شيئاً أساسياً جداً فى ثقافة المسلم ، لأنه لا تُعرف جزئيات مسائل العقائد والأحكام والأخلاق إلا عن هذا الطريق ، كما لا تؤخذ صورة عملية لفهم الإسلام خلال العصور إلا بذلك ، كما لا تحصل ملكة التحقيق العلمى إلا بهذا . لأن هؤلاء أشبعوا ما بحثوه درساً وتمحيصاً .

ولذلك قال الأستاذ البنا : « وأن تدرس رسالة فى أصول العقائد ورسالة فى فروع الفقه » .

وقال : « ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الشرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلة إمامه ، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صدق مَن أرشده وكفايته ، وأن يستكمل نقصه العلمى ، إن كان من أهل العلم ، حتى يبلغ درجة النظر » .

وقد جرت عادة علمائنا أن يكتبوا فى أى علم من العلوم متناً يجمعون فيه أمهات مسائله ، ثم يشرحونه ليجمعوا بين أمهات المسائل ، وبعض فروعها المهمة ، ثم يكتبون الحواشى عليه ليحيطوا بكل ما له علاقة به ، ولهذه الطريقة ميزاتها رغم النقد الذى وجهه إليها المتجددون ، ومن ميزاتها أنها تعطى القارىء فى البداية زبدة العلم فى سطور قليلة ، بحيث يدرك ماهيته ومباحثه ، وأهم المسائل فيه ، ثم بعد ذلك إن شاء أن يتوسع توسع وفى ذهنه صورة كاملة عن موضوع العلم . ومن أمثالهم : « مَن قرأ المتون حاز الفنون ، ومَن قرأ الحواشى ما حوى شىء » وهذا للمبتدىء ، لأن المبتدىء إذا غرق فى حاشية أنساه آخرها أولها مع عدم تمييزه بين الأهم والمهم ، أما المبتدىء بالمتن فبسرعة يستطيع هضمه ، والإحاطه به ، وتذكر المسائل المهمة منه ، حتى إذا استقر عنده ذلك ، قرأ الشروح والحواشى ، ومن ثَمَّ قالوا عن المنتهى : « مَن لم يقرأ الحواشى ما حوى شىء » . هذا فى النهاية ، وذاك فى البداية .

وبعض العلماء خصوا كل علم من العلوم الثلاثة الآنفة الذكر بتأليف مستقل ، وبعضهم جمع العلوم الثلاثة فى كتاب واحد . كالغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » إذ جمع فيه العقائد ، والفقه ، والأخلاق ، وجرى فى العقائد على مذهب الأشاعرة ، وفى الفقه على مذهب الشافعية ، وفى الأخلاق على مذهب الجنيد والمحاسبى .

وفى الكتاب فصول تعتبر من أروع ما كتبه المسلمون ، وقد قال العقاد فى الغزالى وهو مَن درسه دراسة طويلة : « إنه أعظم مفكرى العالَم على الإطلاق » .

ولم يسلم الكتاب من حملات عليه وعلى صاحبه خلال العصور ولكنه يبقى مدرسة جامعة .

والذى نقترحه على المسلم المعاصر ليأخذ حظه من هذه العلوم الثلاثة هو ما يلى :

١ - فى العقائد :

أن يدرس كتاب « العقائد » للإمام البنا ، أو « كبرى اليقينيات » للدكتور البوطى ، أو « الجواهر الكلامية » للجزائرى ، أو « المعرفة » للشيخ عبد الكريم الرفاعى ، أو « أصول العقائد » لعبد الله عروانى ، على أن يدرسه على مَن يثق بدينه وتقواه ، وورعه ، وعقيدته ، وعلمه ، فإنَّ العقائد مزلق قدم زَلَّ فيه كثير .

وإذا قُبِلَ الاختلاف فى الفقه ، فإنَّ الاختلاف فى العقائد مردود ، ففى الفقه حق وخطأ ، أما فى العقيدة فحق وضلال .

وما دام الأمر كذلك فينبغى أن يحتاط .

ويتساءل متسائل نتيجة لذلك : فلماذا ندرس العقائد ما دامت المسألة كذلك؟ ونقول : إنَّ المسلمين اختلفوا . وضَلَّ ناس نتيجة لذلك . وذلك مصداق قوله عليه السلام : « ... وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة » (١) . فلا بد من دراسة عقيدة أهل السُنَّة والجماعة كى لا يسير إنسان على مسار فرقة ضالة .

وصحيح أنَّ اسم أهل السُنَّة والجماعة تتنازعه الفِرق الإسلامية ، ولكن مما لا شك فيه أنَّ الحق ما خرج عن جمهرة المسلمين ، وجمهرة المسلمين على عقيدة السَلَف ، وهى وحدها التى يمكن أن يجتمع الناس عليها ، وفى كتاب « الأصول الثلاثة » فى دراساتنا ما يغنى لمن شاء أن يكتفى .

٢ - فى الأخلاق :

إنَّ مظنة علم الأخلاق هو كتب التصوف الإسلامى ، ككتاب « الرعاية » ، و « رسالة المسترشدين » ، و « الإحياء » ، و « الرسالة القشيرية » ، وأمثال ذلك ، غير أنَّ التصوف وكتبه - أو قسماً منها على الأقل - توجه عليه حملات شديدة من جهات متعددة من المسلمين ، ويبدو أنَّ التصوف فيما آل إليه أصبح

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى واللفظ له ، قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

الآن مزيجاً مما ينبغي أخذه ، وما يجب تركه ، إذ الإيحاءات التي يأخذها دارس كتبه لا تناسب الحركة التي يجب أن يتحركها المسلمون .

ولهذا فإننا لا نستطيع أن ندل على كتاب معيَّن قديم يمكن أن يأخذه المسلم في هذا الشأن على أنه معيار كامل للأخلاق الأساسية الإسلامية .

وقد حاولنا في القسم الثاني من هذا الكتاب « جند الله أخلاقاً » أن ندل المسلم على أمهات الأخلاق الأساسية في الإسلام بما يتناسب مع طبيعة عصرنا الذي استشرت فيه الردِّة ، وإننا لنأمل أن يسد هذا الكتاب ثغرة طيبة في هذا المجال .

على أننا بعد ذلك ندعو المسلم ونخصه بعد أن يستوعب العقيدة ويعرف أمهات الأخلاق الأساسية ويتحقق بها ، ويعرف الفقه ، وبعد أن يكون قد أخذ حظه من الكتاب والسُّنَّة ، أن يقرأ ما شاء من كتب الأخلاق الإسلامية ، فيكثر النظر في كتاب « الإحياء » ومختصره « موعظة المؤمنين » ، أو في كتاب « الرعاية » للمحاسبي وأمثال ذلك ، فإنَّ هناك دقائق لفتت إليها مثل هذه الكتب لا يعثر عليها الإنسان في غيرها ، والمؤمن كالنحلة يعرف كيف وماذا يشتار . ولابن تيمية في مجموعة فتاواه حوالي مجلدين في الأخلاق والتصوف ، وأكثر كتب ابن القيم لا تخلو من توجيه أخلاقي ، وهاتان المدرستان - مدرسة الغزالي ومدرسة ابن تيمية - هما أهم مدرستين أخلاقيتين في التاريخ الإسلامي .

٣ - في الفقه :

إننا نقترح على المسلم أن يقرأ في هذا :

١ - كتاباً في تاريخ التشريع الإسلامي ، ككتاب الخضري ، أو كتاب أبي زهرة ، عن المذاهب الإسلامية .

٢ - أن يقرأ متناً في الفقه مع شرحه على مذهب من المذاهب المعتمدة : الحنفي ، الشافعي ، المالكي ، الحنبلي ، ومثال ذلك « متن القدوري » في

مذهب الحنفية وشرحه للميدانى المسمى « اللباب فى شرح الكتاب » . أو ما يشبهه فى مذهب الحنفية وغيره ، وكتاب « تحفة الفقهاء » للسمرقندى مع تخريج أحاديثه من أجود ما يُقرأ .

غير أنَّ دراسة الفقه الإسلامى لا بد من حديث طويل عنها وذلك أنه أخطأ فيها أربعة : متعصب لا يرى الحق إلا فى مذهبه ، وكاره للفقه من أصله ، ورافض دراسة الكتاب والسُنَّة من أجل الفقه ، ورافض دراسة الفقه بحجة الكتاب والسُنَّة .

إنَّ بعض الناس فرَّطوا فى دراسة الكتاب والسُنَّة من أجل الفقه ، وبعض الناس طالبوا بالعودة إلىَ الكتاب والسُنَّة وترك الفقه ، وكِلاً ذلك تفريط ، فلا تعارض بين دراسة الكتاب والسُنَّة ودراسة علوم الإسلام الأخرى إذا أخذت عن أهلها ، فعلى قدر علم الإنسان بالكتاب والسُنَّة ، مع تقواه وصلاحه وعدالته تكون جودة فهمه للكتاب والسُنَّة .

ولا شك أنَّ أجود فهم للكتاب والسُنَّة هو فهم الأئمة الأعلام الذين أجمعت الأمة على توثيقهم ، ولا يمكن أن يستغنى عنهم إنسان أبداً فى فهم الكتاب والسُنَّة ، بل أى إنسان فى عصرنا لا بد أن يكون عالة على فهومهم ، وهذا شىء لا ينكره إلا جاهل ما عرف شيئاً من واقعات الشريعة .

وإذن فعندما ندرس مذهب إمام فى الفقه ، فإنما ندرس فى الواقع فهم إمام ومدرسة للكتاب والسُنَّة ، فأى حَرَج فى مثل هذه الدارسة . واللّٰه تعالى يقول : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

---

(١) النحل : ٤٣ ، وأهل الذكر : أهل العلم .

ونضيف حتى لا يبقى مجال للبس :

إنَّ الناس الذين يدعون إلى ترك كل ما قاله علماء المسلمين خلال العصور يهدمون ثقافة كاملة لأمة تعبت عليها ملايين العقول . وأنضجتها خبرة العصور، إنَّ هؤلاء الذين يشككون فى قيمة هذا التراث لا يعدلون أدنى واحد من أعلامه، أفنترك هذا التراث الضخم الذى أوجده هؤلاء العلماء الضخام لنبدأ فى إيجاد تراث تشريعى جديد ؟

أنْ نحقق فلا حَرَج ، أما أن نشكك فى قيمة تحقيق الآخرين من أهل التحقيق، فذلك الضلال بعينه الذى يدل على سوء ظن بسَلَف هذه الأمة ، وهل يبقى لإنسان دين وهو يحتقر الصالحين من علماء هذه الأمة ويرى نفسه خيراً منهم ؟ وهل من المعقول أن يطعن فى علوم أبى حنيفة وارث علوم ابن مسعود ؟ وتحقيق الشافعى وارث علوم السَلَف كلها ، وتحقيق مالك وارث علوم الصحابة ، وتحقيق أحمد عَلَم أعلام السُنَّة بحجة من الحجج وأى حُجَّة ؟

حُجَّة أنَّ كل واحد من هؤلاء فاتته أحاديث - وعلى فرض حدوث هذا - فهل يدَّعى أحد من الناس أنه أحاط علما بالأحاديث كلها ، وبالآثار كلها ؟ وعلى فرض أنه فاتهم أحاديث ، ألم تكن عندهم أحاديث بنوا عليها اجتهاداتهم ؟ ومَن ادعى أنَّ شيئاً مما ذهبوا إليه لا تسنده الآثار فقد كذب على الله ورسوله ، وأثبت جهله بكتب أدلتهم ، فمَن قرأ كتب أدلتهم المفصَّلة عرف أنَّ كلاً منهم بنى مذهبه على صخر لا يتزلزل من الكتاب والسُنَّة .

ومَن قرأ أمثال كتاب « معانى الآثار » و « كتاب الزيلعى « و « فتح القدير » فى مذهب الحنفية عرف هذا .

ومَن قرأ أمثال كتاب « المجموع » للنووى عرف هذا .

وهكذا فى كل مذهب من المذاهب .

إنَّ وجود هذه المذاهب الفقهية أمر فطرى ، فالناس يتفاوتون فى فهم الكتاب والسُنَّة ، كما أنَّ أكثر الناس لا يستطيعون أن يعرفوا حكم الله فى كل مسائل

الحياة من الكتاب والسُنّة وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، كما أنّ نصوص الكتاب والسُنّة ليست كلها بحيث يستطيع أى إنسان أن يفهمها ، كما أنّ أى إنسان ليس عنده الوقت الكافى للتفكير والبحث فى كل النصوص لاستخراج الحكم ، وما كل الناس يملك ملكة الاستنباط ، وما كل الناس عندهم إحاطة بكل النصوص ، ولرُبَّ نص منسوخ ، ولرُبَّ نص مقيَّد ، ولرُبَّ نص مجمل .

كل هذا أدَّى بشكل عادى إلى وجود طبقة من علماء الأمة الإسلامية تقوم بهذا كله هم المجتهدون ، وأدى إلى وجود إجتهاد ، وأدى إلى وجود فقه ، وأدى إلى وجود فقهاء .

والمجتهد مهمته أن يستنبط أحكام الله من الكتاب والسُنّة للحوادث المستجَدة ويبينها للناس بحيث لا تبقى قضية من قضايا الوجود إلا ويُعرف فيها حكم الله ، إذ أنّ الكتاب والسُنّة ما تركا قضية من قضايا الحياة إلا وبيَّنا حكم الله فيها ، فحكم الله فى كل القضايا سابقة ولاحقة ، وفى كل مكان ولكل مكان موجود ، ومهمة المجتهد الكشف عنه وتبيانه .

فالاجتهاد إذن هو مُحاولة المجتهد الوصول إلى حكم الله .

فالمسلمون قسمان :

قسم لا يستطيع أن يتعرف على حكم الله مباشرة من الكتاب والسُنّة ، وإن تعرف على بعض فقد لا يستطيع الكل ، وقسم يستطيع ، وقد أوجب الله على الأول أن يسأل ويأخذ عن الثانى ، وأوجب على الثانى أن يبيِّن : ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِى الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ ، [2] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [3] فسَّر ابن عباس « أُولى الأمر » بالعلماء

(١) النحل : ٤٣ (٢) النساء : ٨٣ (٣) النساء : ٥٩

والفقهاء . وهى وإن كانت تشمل الأمراء كذلك ، لكن الأمراء فى النظام الإسلامى من الفقهاء ، كما قال عمر رضى الله عنه : « تفقّهوا قبل أن تسودوا » [1] ، ومن شروط أمير المؤمنين أن يكون مجتهدا .

وقال أيضاً جل جلاله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [2] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُوْلَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [3] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ [4] .

وقال عليه السلام : « مَن سُئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » [5] .

ولكن مَن هو المجتهد ؟ قال فى مختصر شرح السُنَّة : والمجتهد مَن جمع خمسة علوم : علم كتاب الله ، وعلم سُنَّة رسول الله ﷺ ، وأقاويل علماء السلَف من إجماعهم واختلافهم ، وعلم اللغة ، وعلم القياس ، وهو طريق استنباط الحكم من الكتاب والسُنَّة إذا لم يجد صريحاً فى نص كتاب أو سُنَّة أو إجماع .

فيجب أن يعلم من علم الكتاب الناسخ والمنسوخ ، المجمل [6] والمفسر [7] ،

---

(١) قبل أن تصبحوا حكاماً .

(٢) آل عمران : ١٨٧

(٣) البقرة : ١٥٩

(٤) البقرة : ١٧٤

(٥) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة ، قال الترمذى : هذا حديث حسن .

(٦) المجمل : وهو ما خفى المراد منه لتعدد المعانى التى يُستعمل فيها .

(٧) المفسر : وهو اللفظ الذى ظهرت دلالته على معناه الوضعى مع احتمال النسخ وحده .

والخاص[1] والعام [2] والمحكم [3] والمتشابه [4] ، والكراهة والتحريم ، والإباحة ، والندب .

ويعرف من السُنَّة هذه الأشياء ، ويعرف منها الصحيح والضعيف ، والمسند والمرسل ، ويعرف ترتيب السُنَّة على الكتاب ، وبالعكس ، حتى إذا وجد حديثاً لا يوافق ظاهره الكتاب اهتدى إلى وجه محمله ، فإنَّ السُنَّة بيان للكتاب فلا تخالفه ، وإنما تجب معرفة ما ورد منها من أحكام الشرع دون ما عداها من القصص والأخبار والمواعظ .

وكذا يجب أن يعرف من علم اللغة ما أتى فى الكتاب والسُنَّة من أمور الأحكام دون الإحاطة بجميع لغات العرب .

ويعرف أقاويل الصحابة والتابعين فى الأحكام ومعظم فتاوى فقهاء الأمة ، حتى لا يقع حكمه مخالفاً لأقوالهم فيأمن فيه خرق الإجماع ، فإذا عرف كل نوع من هذه الأنواع فهو مجتهد ، وإذا لم يعرفها فسبيله التقليد . (انتهى) - أى تقليد مجتهد [5] .

وما اجتهد فيه المجتهدون نوعان :

نوع أجمعوا فيه على حكم الله ، ونوع اختلفوا فى حكم الله فيه ، فما أجمعوا عليه فهو الحق المحض الذى لا يجوز لمسلم خلافه : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [6] ، « لا تجتمع أمتى على خطأ » [7] ، « عليكم بالسواد الأعظم » [8] .

---

(١) الخاص : كل لفظ وُضِعَ بمعنى واحد على الانفراد .

(٢) العام : كل لفظ ينتظم جمعاً سواء أكان باللفظ أو بالمعنى .

(٣) المحكم : وهو اللفظ الذى له دلالة على معناه الوضعى بدون احتمال شئ .

(٤) المتشابه : ما خفى المراد منه حيث لا ترجى معرفته فى الدنيا لأحد ، أو لا ترجى إلا للراسخين فى العلم .

(٥) انظر: سبل السلام .

(٦) النساء : ١١٥

(٧) رواه أحمد فى مسنده والطبرانى فى « الكبير » وابن أبى خيثمة فى تاريخه عن أبى نضرة الغفارى رفعه ، وكذا عند الترمذى وابن ماجه عن أنس رفعه بلفظ مقارب .

(٨) هو قطعة من الحديث السابق من رواية الترمذى وابن منده .

وما اختلفوا فيه كان سعة يحق لكل مسلم أن يُقلّد مَن شاء منهم فى ما شاء [1] ، يقول الشافعى رحمه الله : « أجمع العلماء أنّ الله لا يعذب فيما اختلف فيه العلماء » على شرط ألا يخرج عن أقوالهم ما دام قد توفرت بهم صفة الاجتهاد ، وتلك من رحمة الله بهذه الأمة ، والذين يطالبون الناس بأن يقوموا بعملية مقارنه بين أقوال المجتهدين ، واختيار القول صاحب الدليل الأقوى، ليسوا عمليين ولا منطقيين ، إذ كم من الناس عندهم أهلية فهم الدليل ومناقشة الدليل الأقوى ، وكم من الزمن يحتاجه الإنسان كى يتفقه فى كل المذاهب ويعرف دليل كل ، وكم من الناس يتوفر لهم مثل هذا الوقت .

ولم يختلف المجتهدون أبداً فى حكم نص قطعى الثبوت قطعى الدلالة ، وإنما كان اختلافهم كله فيما نصه قطعى الثبوت ظنى الدلالة ، أو ظنى الثبوت ظنى الدلالة ، أو ظنى الثبوت قطعى الدلالة ، ولذلك لا تجدهم قد اختلفوا فى شئ من أصول العقيدة فإنما كان اختلافهم فى الفروع الفقهية أو فى قضايا نظرية من العقيدة إنما لا تمس جوهرها .

وقد غلط ناس تصوَّروا أنّ بالإمكان اجتماع الأمة على رأى واحد فيما اختلف فيه المجتهدون ، كما غلط ناس تصوَّروا أنّ بعض المجتهدين قالوا قولاً عن غير دليل أو لهوى فى أنفسهم . ونحن لا ننكر أنّ الحق فيما اختلفوا فيه واحد بحيث يكون أحدهم مصيباً ، ولكن ننكر دعوى مَن يقول إنهم أتوا بالحكم من عند أنفسهم متبعين أهواءهم ، وأوضح مثال يتبين فيه أن لكل دليلاً فيما ذهب إليه قضية رفع الأيدى فى الصلاة أثناء الانتقال ، فقد رواها سبعون صحابياً ، ومع ذلك لا يقول بها بعض المجتهدين ، وقد جرى نقاش بين إمامين مجتهدين حول هذا الموضوع ، منه يتبين موضوع الخلاف بين الأئمة ، وأنّ لكل دليله .

قال الأوزاعى لأبى حنيفة : لماذا لا ترفعون أيديكم عند الركوع وعند الرفع منه ؟ فقال أبو حنيفة : لأنه لم يصح فيه شئ عن النبى ﷺ ، فقال الأوزاعى :

---

(١) لكن على أن لا يلفق فى المسائل ذات الموضوع الواحد وأن لا يكون الغرض تتبع الرُخَص .

كيف وقد حدَّثنى الزهرى عن سالم عن أبيه أنَّ رسول اللّه ﷺ كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع منه ؟ فقال أبو حنيفة : حدَّثنى حماد عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن عبد اللّه بن مسعود : أنَّ رسول اللّه ﷺ كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ولا يعود إلى شئ من ذلك . فقال الأوزاعى : أحدثك عن الزهرى عن سالم عن أبى عمر وتقول : حدثنا حماد عن إبراهيم ؟ فقال أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهرى ، وكان إبراهيم أفقه من سالم ، وعلقمة ليس بدون عمر ، وإن كان لابن عمر صحبة ، فالأسود له فضل كبير .

وفى رواية أخرى : إبراهيم أفقة من سالم ، ولولا فضل الصحبة لقلت إنَّ علقمة أفقه من عبد اللّه بن عمر ، وعبد اللّه - أى ابن مسعود - هو عبد اللّه ، فسكت الأوزاعى .

وينتج عن هذا أنك تجد للقضية الواحدة مما اختلف فيه المجتهدون فيها أكثر من قول ، ولكل قول دليل ، فمن قائل بالحُرمة ، وآخر بالكراهية ، وآخر بالإباحة ، أو قائل بالفرضية ، وآخر بالوجوب ، وآخر بالسُنَّة ، وأحياناً يتراوح الحكم ما بين الفرض عند أحدهم إلى المكروه عند الآخر ، كقراءة الفاتحة وراء الإمام .. وهذا قليل .

وأجود ما يقال أمام هذا : مَن كان من الناس عنده إمكانية معرفة الدليل حقاً لا دعوى ، وتبين له الدليل الأقوى فيما اختلفوا فيه ، لا يسعة أن يكون على غيره .

أما غير هذا من عامة الناس فلهم أن يأخذوا أى حكم عرفوه لأى مجتهد فقيه ، وليس لأحد أن ينكر عليه فيما ذهب إليه من تقليد مجتهد ، وهذا معنى قولهم : « مذهب العامى مذهب مفتيه » .

غير أنَّ بعضهم علَّل اختلاف الفقهاء فى القضية الواحدة بحكمة الشارع ، حيث جعل الأدلة من المرونة بحيث تعطى أحكاماً فى بعض المسائل تتراوح ما بين الشدة والسهولة رحمة بالأمة ، وعلى هذا فالقول الأرفق بالأمة يكون من

باب الرُخصة ، والقول الأشد يكون من باب العزيمة ، وعلى هذا فالمسلمون بالخيار بين أن يأخذوا بالأدنى أو بالأعلى ، وعندئذ تدور المسألة بين حد أدنى من التقوى وحد أعلى ، فعلى قدر تقوى الإنسان يكون أخذه بالعزيمة : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (١) ، « كنا ندع ما لا بأس به مخافة مما به بأس » (٢) .

وفى الأثر عن ابن مسعود : « كانوا يدعون تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى الحرام » ، « لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس » (٣) ، « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » (٤) ، « الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشُبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه » (٥) .

فما دام الإنسان على فتوى مذهب إمام مجتهد ، فهو فى إسلام ولا يحق لأحد أن ينكر عليه ، إذ من شروط إنكار المنكر أن يكون مجمَعاً على أنه منكر .. نعم نصيحة بلين ، دعوة بلطف ، إقامة حُجَّة بأدب ، تبيان أدلة ما يعتقد أنه الصواب ، منافشة بالمعروف لإظهار الحق ، كل ذلك فى حدود المحبة والألفة وأدب الأخوة فذلك طيب لا غبار عليه .

* * *

---

(١) الزمر : ١٨

(٢) قطعة من حديث رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن عطية السعدى .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن عطية السعدى .

(٤) رواه أبو داود الطيالسى وأحمد وأبو يعلى فى مسانيدهم والدارمى والترمذى والنسائى وآخرون عن الحسن بن على ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

(٥) رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما .

ولكن اختلاف الفقهاء لا يمنع من وحدة القانون الإسلامى على مستوى الأمة الإسلامية ، أو على مستوى قطر من أقطارها ، إذ أنّ لأمير المؤمنين أو نائبه أن يختار قولاً من أقوال المجتهدين ويفرضه على الأمة من أجل وحدة القانون فيها، وذلك ناتج عن كون الأمة فوّضت إليه أمر حكمها ، وتكون أقوال المجتهدين فى هذه الحالة بمثابة فهوم يختار منها ما هو أقرب لتحقيق المصلحة بالحق .

ولكن من الخطأ الكبير فى هذه المرحلة للدعوة الإسلامية فى أى قُطر أى قبل أن تقوم دولة الإسلام فيه أن تتبنى كل جماعة إسلامية رأياً وتفرضه على أتباعها ، ولا تقبل إلا مَن التزم به ، إذ بذلك تنقلب المعركة من معركة بين الإسلام وغيره ، إلى معركة خلافية بين المسلمين أنفسهم ، وبهذا يتفرق صف حزب الله ، إذ كل مجموعة تلتزم برأى أو آراء ، وبالتالى يكون كل مسلم متقوقعاً على نفسه بآراء وأفكار هى من الإسلام وليست كل الإسلام ، مما يؤدى إلى ضعف لا يكون معه وصول إلى هدف .

وبإدراكنا لطبيعة عمل المجتهد ، وأنها إظهار حكم الله ، والتعرف إليه ، والتعريف به ، ندرك أنّ حكم الله موجود فى الكتاب والسُنّة ، ولكن قد لا يعرفه أى إنسان ، فيأتى المجتهد ويكشف عنه ، أما أن يأتى المجتهد برأى من عنده فهذا لا يجوز ، ولا يكون من مسلم تقى ، إذ لا يكون المسلم مسلماً إلا باعترافه أنّ الحاكمية لله وحده : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ (١) ، ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (٢) .

وبهذا نكون قد أدركنا كيف أنّ القرآن كان تبياناً لك شئ ، وكيف أنّ الإسلام قد كمل .

---

(١) الأنعام : ٥٧ (٢) الأعراف : ٥٤

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ (١) ، ﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (٢) وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٤) .

فما لم يعرف حكمه بالكتاب يُعرف بالسُنَّة ، وما لم يعرف بالسُنَّة يُعرف بالإجماع ، وما لم يُعرف بهذه الثلاثة يعرفه المجتهدون بواسطة القياس أو الاستحسان أو الاستصحاب أو .... وعلى هذا فكل ما تراه من واقع إنسانى قديماً وحديثاً ويمكن أن يكون فى أى أرض وفى أى زمان له فى دين الله حكم ، من عقيدة ، لعبادة ، لسياسة ، لاجتماع ، لاقتصاد ، لسلم ، لحرب ، لعلم ، لتشريع ، لقانون .. عرفه مَن عرفه وجهله من جهله .

* * *

ويقول ناس بعد كل ما تقدم : لماذا لا نعود إلى الكتاب والسُنَّة مباشرة ؟؟؟

ونقول : لو عدنا من جديد لوصلنا بعد مئات السنين إلى بعض ما وصل إليه السابقون .

ونقول كذلك : وهل هذه الاجتهادات خارجة عن الكتاب والسُنَّة حتى نلغيها ؟

ونقول كذلك : إذا أجاز الرسول ﷺ الاجتهاد ، وجعل للمجتهد المصيب أجرين، وللمخطئ أجراً ، فكيف ننكر نتيجة مقدمة أقرها رسول الله ﷺ ولم ينكر نتائجها ، فما أنكر الرسول ﷺ على الصحابة الذين قال لهم : « لا يُصلِّيَنَّ أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » (٥) لا على مَن صلَّى قبل قريظة للوقت ، ولا على مَن صلَّى فى قريظة للأمر .

---

(١) المائدة : ٣
(٢) تصديق الذى بين يديه : أى ما قبله من الكتب .
(٣) يوسف : ١١١
(٤) النحل : ٨٩
(٥) رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر ، وفى رواية مسلم : « الظهر » عوضاً عن العصر .

نحن لا نرغب عن الكتاب والسُنَّة إلى شئ آخر أبداً ، لأنَّ ذلك كفر ، ولكنَّا نرغب إلى مَن هو أعلم بالكتاب والسُنَّة ، ولا شك أنَّ أبا حنيفة والشافعى ومالكاً وأحمد أعلم بالكتاب والسُنَّة ، ودع عنك ما يقوله الجُهَّال عن أبى حنيفة، فمَن قرأ كتاب « معانى الآثار » للطحاوى الحنفى ، أو كتاب « نصب الراية » عرف كيف أنَّ مذهب أبى حنيفة يقوم على أساس صخرى من الكتاب والسُنَّة .

ونقول أخيراً لهؤلاء : لقد جمع ابن حزم ألف صفحة فى الوضوء فقط من الأحاديث ، فهل يستطيع كل إنسان أن يدرس هذا ، وأن يدخل بحار الكتاب والسُنَّة ليستخرج ما يريد من الأحكام وفيهما المنسوخ ، والمشكل (١) ، والمتشابه ، والمجمل ، والمتعارض فى الظاهر ؟

ثم كم يحتاج الإنسان من الزمن لمعرفة كافة المسائل ؟

بينما يستطيع الإنسان خلال أيام أن يدرس متن فقه على مذهب إمام ، فيعرف أمهات المسائل فى كل باب مما يلزمه بشكل عملى : من الصلاة ، إلى الحج ، إلى البيوع ، إلى الزواج ، إلى الإرث ، إلى الوديعة ... إلى غيرها .

ولا يعنى ما تقدم أننا نمنع إنساناً من التحقيق وهو يملك أهليته ، فهذا ليس لنا ولا لغيرنا ، بل إننا نود من كل قلوبنا لو أصبح كل المسلمين محققين يملكون أدوات التحقيق الكاملة ، ولكن الذى نخشاه دائماً أن نطعن فى الآخرين قبل أن نعرف أدلتهم ، وأن ننقض بناءً لنقيم خراباً ، كما نخشى أن يتصدى للتحقيق مَن ليس أهلاً له ، فيتكلم بغير علم ، وعلى غير أساس .

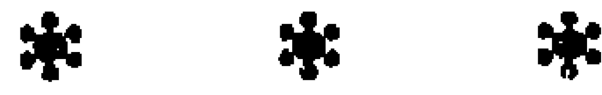
ولا ننسى مع هذا كله قضية هامة هى :

أنَّ الكتب التى بين أيدينا الآن ليست كل ما أَلَّفَهُ علماء المسلمين ، فنحن نعرف كارثة بغداد والأندلس ومكتباتهما ، إنَّ هناك أحاديث نحكم بضعفها الآن لأنَّ الكتب التى بين أيدينا ترويها عن طريق ضعيف ، بينما لو كانت كتب أخرى

---

(١) المشكل : هو ماخفى مدلوله لتعدد المعانى التى يُستعمل فيها .

موجودة لاختلف الوضع ، وأكبر مثال على ذلك أنَّ هناك أحاديث أسانيدها ضعيفة رواها الحاكم وغيره ، لم تُعرف هذه الأحاديث أنها صحيحة إلا بعد أن عُثِرَ على كتاب « صحيح ابن خزيمة » حيث ساق لها أسانيد صحيحة ، هذه النقطة الهامة تجعلنا لا نتسرع برد حكم إمام مجتهد بحُجّة أنَّ النصوص الصحيحة التى بين أيدينا تخالفه ، إذ أنَّ هذا الإمام أقرب عهدا بالرسول ﷺ وأصحابه ، وأعرف بما عليه الناس من عمل تلقنوه عن السَلَف الصالح رضوان الله عليهم .



وقد يقول قائل : إنَّ وحدة الأمة الإسلامية لا تكون مع هذه المذهبية . ونقول : لا يمكن أن تجتمع الأمة الإسلامية على فهم واحد لكل نصوص الكتاب والسُنَّة ، وهذا شئ منعقد عليه إجماع الصحابة والأمة ، فإذا كان نص شعرى يختلف الناس فى فهمه على فهوم شتَّى ، أمن الممكن أن يجتمع الناس على فهم واحد للكتاب والسُنَّة ؟ هذا مع ملاحظة أنَّ كثيراً من نصوص السُنَّة فى قبول رواتها أخذ ورَد .

ولكن هل تؤثر المذهبية على وحدة الأمة الإسلامية ؟

لقد كان بين الصحابة اختلاف فرعى ، وكانوا أمة واحدة .

والحقيقة أنَّ الذين يفرون من أربعة مذاهب يريدون أن يجعلوا الأمة ملايين المذاهب .

والواقع أنَّ المذاهب الأربعة التى استقرت عليها الأمة جمعت عشرات المذاهب الأخرى ، فهى تمثل أقصى صورة من صور التجميع والتوحيد .

ثم هى فيما بينها متفقة على حوالى سبعين بالمئة من المسائل ، وكثير من المسائل التى جرى الاختلاف فيها كان الخلاف فى : هل هى سُنَّة أو فريضة أو بينهما ؟.. وهكذا .

إنَّ الذين لا يدرسون الفقة الإسلامى وليسوا أهلاً للاجتهاد ، سيجدون أنفسهم على الشكل التالى : سيسألون عن كثير من المسائل لا يعرفون حكمها وليس جوابها صريحاً فى الكتاب والسُنَّة ، فإما أن يسكتوا ، أو يبقوا على جهل .

بينما كان فى مقدورهم لو تعلموا الرجوع إلى كتب الفقه أن يروا الجواب بكل بساطة محققاً مدعماً بالحجج فى كل مذهب من المذاهب .

إننا ضد التعصب ، ولكننا كذلك ضد رفض ما قاله العلماء ، وضد سبهم وشتمهم وإهانتهم ، والله تعالى علّمنا أن نقول : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ [1] .

إن الناس قسمان : متعلم وعامى ..

العامى يستطيع أن يسأل أى عالِم ثبت يجده ويأخذ منه بفتواه ولا حَرَج .

أما المتعلم فالطريق النظرى له :

١ - أن يقرأ متناً من متون الفقه على مذهب من المذاهب يختاره .

٢ - ثم يتوسع فى فهم المذهب وفى معرفة دليله .

حتى إذا أحاط بما يلزمه للعمل والفتوى ، وصار قادراً على مراجعة المسائل، حاول أن يتعرف ويحقق ويدقق ، فإذا انشرح صدره لترجيح فلا حَرَج عليه دون أن يدّعى ، أو يتهم ، أو ينتقص ، أو يبغض ، أو يحقد ، أو يحتد .

يقول الأستاذ الشهيد حسن البنا رحمة الله عليه :

« والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سبباً للتفرق فى الدين ، ولا يؤدى إلى خصومة أو بغضاء ، ولكل مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة ، من غير أن يجر ذلك إلى المراء والتعصب ».

فالمراحل المنطقية لهذه القضية بالنسبة للمسلم هى :

---

(١) الحشر : ١٠ .

١ - أن يقرأ كتاباً معتَمداً فى هذه العلوم ليعرف كيف يتصرف على علم ، ولأن يتصرف على رأى إمام مجتهد فى هذه المرحلة خير من أن يتصرف على هوى وجهل .

٢ - أن يتعرف إلى أدلة المسائل التى تعلّمها ولو بشكل مختصر أثناء دراسة الكتاب أو بعده .

٣ - أن يدرس ويحقق ويطلّع ويقارن إذا أصبحت لديه أهلية لذلك وإن كان فى هذه الحالة لن يأتى كذلك بجديد ، لأنَّ التحقيق والمقارنة لم يفوتا علماء المسلمين خلال العصور ، فمَن راجعَ كتب التفسير والحديث والشروح المطوَّلة ، رأى التحقيق الذى ما بعده تحقيق ، والمقارنه التى ما بعدها مقارنه .

إنَّ علمية البدء من جديد فكرة بدائية جداً ، أما إبراز القديم بتأليف جديد ، أو عرضه بأسلوب جديد فهذا الجيد الذى نحتاجه ، إلا فى مسألة حادثة فلا بد من بحث جديد .

وإنَّ الإنسان ليعجب ممن يتسرعون فى النفى والإثبات قبل أن يعرفوا ما قاله العلماء ، فمن قائل فى القضية الفلانية : الحنفية لا حُجَّة لهم أبداً ، والشافعية أهملوا النصوص الصحيحة ، فكيف يصدر هؤلاء أمثال هذه الأحكام ؟ هل أحاطوا بالموضوع وقرأوا كتب هؤلاء الذين ينفون عنهم الدليل ؟

وسنعرض هنا مسألتين يتصور بعض الناس أنَّ الأدلة الصحيحة ضد مذهب الحنفية فيهما لنرى كيف أنَّ للحنفية أدلتهم الصحيحة الثابتة لنستل بمثل هذا عملية التشكيك التى يقوم بها ناس لا يتقون الله فى سَلَف هذه الأمة ولا فى تراثها الفقهى العظيم ، وتمثيلنا بفقه الحنفية لأنه أكثر ما ينصب عليه الهجوم .

المسأله الأولى « قضية رفع الأيدى فى الصلاة عند الركوع والرفع منه » :

فهذه قضية يتصوَّر بعض الناس أنَّ الحنفية على غير ما دليل قطعاً ، والحقيقة أنَّ أدلة الحنفية فى هذا الموضوع كثيرة ، وسننقل بعضها هنا من كتاب « الفتح الرحمانى » بشئ من الحذف ولم ننقل إلا جزءاً بسيطاً من أدلته يقول :

منها : حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ألا أُصلّي بكم صلاة رسول الله ﷺ ؟ فصلّى ولم يرفع يديه إلا مرة - أخرجه الترمذى وحسّنه وأخرجه محمد فى موطئه والطحاوى وأبو داود والنسائى والدارقطنى والبيهقى وابن أبى شيبة وصححه ابن حزم فى « المحلى » ، على أنّ الحديث صححه ابن القطان والدارقطنى وأحمد بن حنبل ، إلا أنهم أنكروا فيه زيادة : « ثم لم يعد » .

وقد حقق الزيلعى هذه الزيادة ، واستدل الإمام أبو حنيفة فى المناظرة مع الأوزاعى بهذا السند : حُدثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن ابن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم كان يرفع يديه عند افتتاح الصلاة ولا يعود لشئ من ذلك . وليس فيه مَن يتكلم فيه .

وأخرج ابن عدى والدارقطنى والبيهقى من طريق حماد عن إبراهيم عن علقمجة عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : صليتُ مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وأبى بكر وعمر ، فلم يرفعوا أيديهم إلا عند استفتاح الصلاة .

ومنها : حديث البراء بن عازب رضى الله عنه أخرجه الطحاوى بعدة طُرق بلفظ : كان النبى ﷺ إذا كبّر لافتتاح الصلاة رفع يديه حتى تكون إبهاماه قريباً من شحمتى أذنيه ثم لا يعود .

وأخرجه ابن أبى شيبة وأخرجه أبو داود وتكلم فيها فى « تنسيق النظام » .

ومنها : حديث علىّ رضى الله عنه مرفوعاً وصوّب الدارقطنى وغيره وقفه . وسيأتى فى الآثار .

ومنها : حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه كان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا دخل الصلاة رفع يديه مداً - أخرجه أبو داود فى باب « مَن لم يذكر الرفع عند الركوع » ، وسكت عليه ، قال المنذرى : وأخرجه الترمذى والنسائى .

قلت : وسيأتى فى الآثار أنَّ مذهب أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يرفع يديه حين يُكبِّر لفتح الصلاة ، ومنها حديث ابن عباس ، وروى عن ابن عمر أيضاً رضى الله تعالى عنهم قال النبى ﷺ : « لا تُرفع الأيدى إلا فى سبع مواطن » ... الحديث - أخرجه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مرفوعاً وابن شيبة موقوفاً ، وذكره البخارى فى جزء رفع اليدين تعليقاً عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهما مرفوعاً ، وأخرجه البزار عنهما مرفوعاً وموقوفاً ، وكذا البيهقى والحاكم عنهما مرفوعاً . كذا فى الزيلعى .

ومنها : حديث جابر بن سمرة رضى الله تعالى عنه : قال النبى ﷺ : « ما لى أراكم رافعى أيديكم كأنها أذناب خيل شُمُس ؟ اسكنوا فى الصلاة » - رواه مسلم وأبو داود والنسائى ، وما توهم منه أنَّ المراد منه رفع اليدين عند السلام مردود على قائله ، ووهم نشأ عن قلة التدبر فى سياق الروايتين ، ولو سلم وروده على سبب فقصر العام على السبب الخاص مذهب مرجوح .

ومنها : حديث عبد بن الزبير رضى الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا افتتح الصلاة رفع يديه فى أول الصلاة ثم لم يرفعهما فى شئ حتى يفرغ - وأخرجه البيهقى فى الخلافيات . وعباد تابعى ، فالحديث مرسل ولكن المرسل حُجَّة عند الجمهور سيما إذا توبع بحديث آخر - كذا فى « البذل » ، والكلام على ما أوردوه على هذه الروايات بسطه الشيخ فى « البذل » ، والزيلعى فى تخريجه فارجع إليهما إن شئت .

والآثار فى ذلك كثيرة نلخصها لك على نهج الروايات المرفوعة . فمنها ما رواه الطحاوى والبيهقى عن إبراهيم عن الأسود قال : رأيتُ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يرفع يديه فى أول تكبيرة ثم لا يعود . قال : ورأيتُ إبراهيم والشعبى يفعلان ذلك ، قال الطحاوى : فهذا عمر رضى الله عنه لم يكن يرفع يديه أيضاً إلا فى التكبيرة الأولى ، والحديث صحيح قاله الزيلعى والطحاوى ، وقال النيموى : رواه الطحاوى وأبو بكر بن أبى شيبة وهو أثر صحيح ، وقال

ابن التركمانى فى « الجوهر النقى » : وهذا السُنَّة على شرط مسلم ، وقال الحافظ ابن حجر : رجاله ثقات ، كذا فى « تعليق آثار السُنَن » .

ومنها : ما أخرجه الطحاوى ومحمد فى موطئه عن عاصم بن كليب عن أبيه أنّ علياً رضى اللّه تعالى عنه كان يرفع يديه فى أول تكبيرة من الصلاة ثم لا يعود يرفع ، وهو أثر صحيح اختلف فى رفعه ووقفه ، وصوّب الدارقطنى فى « العلل » وقفه . قال النيموى : رواه الطحاوى وأبو بكر بن أبى شيبة والبيهقى وإسناده صحيح ، قال الحافظ ابن حجر : رجاله ثقات . وقال الزيلعى : أثر صحيح . وقال العينى : إسناده على شرط مسلم ، قلت : وأخرجه محمد فى كتاب « الحجج » و « الموطأ » .

ومنها : ما أخرجه البيهقى عن عطية العوفى أنّ أبا سعيد الخدرى وابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما كانا يرفعان أيديهما أول ما يُكبّران ، ثم لا يعودان .

ومنها : ما أخرجه الطحاوى والإمام محمد فى موطئه عن إبراهيم النخعى قال : كان عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه تعالى عنه لا يرفع يديه فى شئ من الصلاة إلا فى الافتتاح . قال النيموى : رواه الطحاوى وابن أبى شيبة ، وإسناده مرسل جيد ، رواته كلهم ثقات لكن النخعى لم يدرك عبد اللّه بن مسعود وكان لا يرسل عن عبد اللّه إلا بعد تواتر الرواية عنه . وقد أسند الطحاوى عن الأعمش أنه قال لإبراهيم النخعى : إذا حدثتنى فأسْنِد . قال : إذا قلتُ لك : قال عبد اللّه فلم أقل ذلك حتى حدثنيه جماعة عن عبدِ اللّه ، وإذا قلتُ : حدثنى فلان عن عبد اللّه فهو الذى حدثنى (انتهى) ..

وقد استدل الدارقطنى بقول إبراهيم هذا فى الديات .

ومنها : ما أخرجه أبو بكر بن أبى شيبة فى مصنفه عن أبى إسحاق ، قال : كان أصحاب عبد اللّه وأصحاب علىّ رضى اللّه تعالى عنهما لا يرفعون أيديهم إلا فى افتتاح الصلاة ، قال وكيع : ثم لا يعود . قال النيموى تبعاً لابن التركمانى : إسناده صحيح .

ومنها : ما أخرجه الطحاوى عن أبى بكر بن عياش قال : ما رأيتُ فقيهاً قَطْ يفعله - يعنى يرفع يديه فى غير التكبيرة الأولى - وأبو بكر هذا من رواة البخارى ومن مشايخ الثورى وابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهم ، قال ابن المبارك : ما رأيتُ أحداً أسرع إلى السُنَّة من أبى بكر بن عياش .

ومنها : ابن أبى شيبة عن الشعبى وقيس وابن أبى ليلى والأسود وعلقمة وأبى إسحاق أنهم لا يرفعون أيديهم إلا فى الافتتاح .

ومنها : ما أخرجه الإمام محمد فى كتاب « الحُجَج » من طريق مالك بسنده أنَّ أبا هريرة رضى الله تعالى عنه كان يُصلِّى بهم فيُكبِّر كلما خفض ورفع ، وكان يرفع حين يُكبِّر لفتح الصلاة ... وسيأتى فى كلامه .

ومنها : محمد فى موطئه عن عبد العزيز بن الحكيم قال : رأيتُ ابن عمر يرفع يديه حذاء أذنيه فى أول تكبيرة افتتاح الصلاة ، ولم يرفع فيما سوى ذلك .

وروى الطحاوى عن مجاهد قال : صليتُ خلف ابن عمر رضى الله تعالى عنهما فلم يكن يرفع يديه إلا عند التكبيرة الأولى ، قال النيموى : رواه الطحاوى وأبو بكر بن أبى شيبة والبيهقى فى « المعرفة » وسنده صحيح (انتهى) .

قلت : فهذا مجاهد وعبد العزيز توافقا على روايتهما أنَّ ابن عمر ترك الرفع ووافقهما عطية العوفى كما تقدم . وفى كتاب « الحجج » للإمام محمد بن الحسن الشيبانى قال محمد : وجاء الثبت عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وعبد الله بن مسعود انهما كانا لا يرفعان فى شئ من ذلك إلا فى تكبيرة الافتتاح . فعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنهما أعلم برسول الله ﷺ لأنه قد بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إذا قامت الصلاة فليلنى منكم أولوا الأحلام والنُهَى ، ثم الذين يلونهم » ، فلا نرى أنَّ أحداً كان يتقدم على أهل بدر مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم إذا صلى . فنرى أنَّ أصحاب الصف الأول والثانى أهل بدر ومَن أشبههم فى مسجد المسلمين ، وأنَّ عبد الله ودونه من فتيانهم خلف ذلك ، فنرى

أنَّ علياً وابن مسعود رضى الله عنهما ومَن أشبههما من أهل بدر أعلم بصلاة رسول الله صلى عليه وعلى آله وصحبه وسلم لأنهم كانوا أقرب ..

أخبرنا محمد بن أبى أبان بن صالح عن عاصم بن كليب الجرمى عن أبيه قال : رأيتُ عليَّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه رفع يديه فى التكبيرة الأولى من الصلاة المكتوبة ، ولم يرفعهما فيما سوى ذلك .

أخبرنا يعقوب بن إبراهيم قال : أخبرنا حصين بن عبد الرحمن قال : دخلتُ أنا وعمرو بن مرة على إبراهيم النخعى ، قال عمرو حدّثنى علقمة بن وائل عن أبيه أنه صلّى مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلّم فرآه يرفع إذا كبَّر وإذا كبَّر للركوع . قال إبراهيم : لا أدرى لعله لم ير النبى ﷺ إلا ذاك اليوم ، أيحفظ هذا منه ولم يحفظه ابن مسعود وأصحابه ؟ ما حفظته وما سمعته من أحد منهم ، إنما كانوا يرفعون أيديهم فى بدء الصلاة حين يُكبِّرون (انتهى) .

وهكذا أخرج هذا الأثر الإمام محمد فى موطئه ، قال النيموى : الصحابة رضى الله تعالى عنهم ومَن بعدهم مختلفون فى هذا الباب . أما الخلفاء الراشدون الأربعة رضى الله تعالى عنهم فلم يثبت عنهم رفع الأيدى فى غير تكبيرة الإحرام (انتهى) .

قال العينى : وفى « البدائع » روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ما كانوا يرفعون أيديهم إلا فى افتتاح الصلاة .

المسألة الثانية « قضية صلاة الوتر ثلاثاً لا تسليم بينها » :

قال صاحب « الفتح الرحمانى » :

مسألة : اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فى عدد ركعات الوتر ، فقال الأئمة وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بإيتار الركعة الواحدة . وقال إمام الأئمة أبو حنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد رحمهم الله تعالى بإيتار ثلاث ركعات . قال ابن العربى : واختار سفيان الثورى الإيتار بثلاث ركعات وهو قول

مالك فى الصيام . قلت : وهو مذهب جمهور السّلَف . قال العينى : روى ابن أبى شيبة عن الحسن قال : أجمع المسلمون على أنَّ الوتر ثلاثة لا يُسلِّم إلا فى آخرهن ، وقال الكرخى : أجمع المسلمون .. إلخ

وروى الطحاوى عن عمر بن عبد العزيز أنه أثبت الوتر بالمدينة بقول الفقهاء ثلاثاً لا يُسلِّم إلا فى آخرهن ، واتفاق الفقهاء بالمدينة على اشتراط الثلاث بتسليمة واحدة يبيِّن لك خطأ نقل الناقل اختصاص ذلك بأبى حنيفة والثورى وأصحابهما ، وممن قال : « يوتر بثلاث لا يفصل بينهن » عمر رضى اللّه تعالى عنه ، وعلىٌ ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وأُبَىٌّ بن كعب ، وابن عباس ، وأنس ، وأبو أمامة ، وعمر بن عبد العزيز رضى اللّه تعالى عنهم ، والفقهاء السبعة وأهل الكوفة كلهم قالوا : إنَّ الوتر ثلاث لا يُسلِّم إلا فى آخرها .

قال النيموى : وعن أبى خالد قال : سألتُ أبا العالية عن الوتر فقال : علَّمنا أصحاب محمد صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم - أو علَّمونا - أنَّ الوتر مثل صلاة المغرب غير أنَّا نقرأ فى الثالثة ، فهذا وتر الليل وهذا وتر النهار [1].

وعن القاسم قال : رأينا أناساً منذ أدركنا يوترون بثلاث ، وإنَّ كلاً لواسع ، وأرجو ألا يكون بشئ منه بأس .. (انتهى) [2] .

وأخرج محمد بن نصر فى قيام الليل عن عبيد بن السباق أنَّ عمر رضى اللّه عنه لما دفن أبا بكر رضى اللّه تعالى عنه بعد العشاء الآخرة أوتر بثلاث ركعات وأوتر معه ناس من المسلمين ، وفى رواية : لم يُسلِّم إلا فى آخرهن .

وقيل للحسن : إنَّ ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما ، كان يُسلِّم فى الركعتين من الوتر فقال : كان عمر أفقه من ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما ، كان ينهض فى الثالثة بالتكبير ..

وعن عبد اللّه : صلاة المغرب وتر صلاة النهار ، وعن أنس أنه أوتر بثلاث مثل المغرب لم يسلم بينهن ، وعن أبى العالية : لليل وتر وللنهار وتر، فوتر

---

(١) رواه الطحاوى وإسناده صحيح .   (٢) رواه البخارى .

النهار صلاة المغرب ، ووتر الليل مثله ، وعن خلاس بن عمرو بمعناه ، وعن بكر ابن رستم : سمعتُ الحسن ومحمداً وقتادة وبكر بن عبد الله المزنى ومعاوية بن قرة وإياس بن معاوية يقولون : الوتر ثلاث ، وعن أبى إسحاق : كان أصحاب علىٍّ وعبد الله لا يُسلّمون فى الوتر بعد الركعتين ، وأخرج محمد فى موطئه عن ابن مسعود قال : الوتر ثلاث كثلاث المغرب ، وقال ابن عباس : الوتر كصلاة المغرب ، وأخرج النيموى عن المسور بن مخرمة قال : دفنا أبا بكر ليلاً فقال عمر : إنى لم أوتر ، فقلم فصففنا وراءه فصلّى بنا ثلاث ركعتا لم يُسلّم إلا فى آخرهن[1] ، والآثار فيها كثيرة بسطها الطحاوى وغيره ، وهذه حُجَّة لمن قال إنَّ الوتر ثلاث . قال القارى : ولا يوجد حديث يدل على ثبوت وكعة مفردة فى حديث صحيح ولا ضعيف ، وقد ورد النهى عن البتيراء ولو كان مرسلاً ، والمرسل حُجَّة عند الجمهور (انتهى) .

واستدل الحنفية على ذلك بما فى مسند الإمام أبى حنيفة عن أبى سفيان عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم : « لا فصل فى الوتر » .

وروى النسائى وابن السنى عن ابن إبزى مرفوعاً : كان صلى الله تعالى عليه وسلم يوتر بثلاث ولا يُسلّم إلا فى آخرهن ، ورواه الحاكم وقال : على شرطهما .

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها وأرضاها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوتر بثلاث ولا يُسلّم إلا فى آخرهن ، وهكذا روى النسائى عنها مرفوعاً : « لا يُسلّم فى ركعتى الوتر » .

وقد بسط الكلام على المسألة الطحاوى فى « شرح معانى الآثار » بما لا يسعه هذا الموجز ، وما أطنبنا فى ذكر الآثار وبيان مذهب جمهور السَلَف إلا لما قيل إنَّ أبا حنيفة رضى الله تعالى عنه متفرد فى ذلك ، والجمهور بخلافه ، وقد ثبت بالروايات الشهيرة الكثيرة حتى أطلق عليه الإجماع إيتار السَلَف بثلاث ركعات ، حتى ينكر على مَن أوتر بركعة .

---

(١) أخرجه الطحاوى وإسناده صحيح

قيل لابن عباس : هل لك فى أمير المؤمنين معاوية ؟ ما أوتر إلا بواحدة قال: أصاب ، إنه فقيه . وفى رواية : فإنه قد صحب النبى ﷺ (١) .

فهذا صريح فى كون معاوية شاذاً منفرداً فى ذلك الفعل ، ولو كان الإيتار بواحدة أيضاً شائعاً بينهم لما أنكر عليه مولى لابن عباس .

وروى الطبرانى فى معجمه بسنده عن إبراهيم قال : بلغ ابن مسعود أنَّ سعداً يوتر بركعة فقال : ما أجزات ركعة قط .

وسئل أبو العالية عن الوتر فقال : علّمنا أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ الوتر مثل صلاة المغرب ، هذا وتر الليل وهذا وتر النهار .

قلت : وستأتى الآثار الواردة في ذلك وأنت خبير بأن الروايات الواردة فى الإيتار بركعة بلفظ : « فليوتر بركعة توتر له ما قد صَلّى » صريحة فى تقديم شفع قبل ذلك وإلا فلأى شئ توتر هذه الركعة ، لذا استدل به ابن رشد وغيره على إيجاب الشفعة قبل ركعة الوتر فهى حُجّة للحنفية أيضاً لما أنه ليس فى واحد منها الفصل بالسلام (٢) .

* * *

إننا مع التحقيق إذا أتى من أهله ، ومع الترجيح إذا أتى من أهله ، ومع الدليل إذا أحيط بمجموع الأدله ، ولكن هذا لا يتأتى لإنسان ما لم يبدأ البداءة المعقولة ، فيدرس الأحكام التى استقر عليها أئمة الاجتهاد ، ويدرس أدلتهم دراسة إتقان ، مع إتقانه لكل العلوم اللازمه للمقارنة والترجيح ، من علم كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ومعرفة بالعربية ووجوهها .... إلى غير ذلك .

ولكن هل يتأتى هذا لإنسان ؟ إنه إذا وُجدَ فى الجيل واحد من هذا النوع يكون عظيماً لأن فقه الحنفية - حتى يُهضم - يحتاجُ إلى أربعين سنة ، فضلاً عن غيره.

أما التحقيق فى المسألة الواحدة من أهلها فهذا لا حَرَج فيه بشروطه .

* * *

---

(١) رواه البخارى .

(٢) انظر: أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك جـ ١ ص ٣٨

وأخيراً فهناك فكرة قد يحملها الناس على غير محمل هى :

إنّه ليس من اللائق فى عصرنا - وقد تحكمت الجاهلية وكان كل شئ من ثمارها- أن نقضى أوقاتنا فى دراسة الحلال والحرام والفقه الذى له علاقة بهذه الثمار المرة ، فالجاهلية مرفوضة من أساسها ، وعلينا ألا نشغل أنفسنا فى رد تفصيلاتها بل بردها جملة .

والفكرة من حيث العمل والدعوة وجهة نظر تحتاج إلى تأمل عميق .

ولكن هناك جانب آخر لا بد من إخراجه من هذا الإطار هو :

إننى كإنسان مسلم أعيش فى مجتمع تنطبق علىّ أحكامه ، وتسرى علىّ قوانينه ، وقد ابتُلِيَ بشئ من هذه القوانين ، فلا بد أن أعرف حكم الله فيه لأعرف كيف أتصرف التصرف السليم ، فقد تصدر حكومة كافرة قانوناً يقضى بتخفيض الأجور ، وأكون مستأجراً فهل أستطيع الاستفادة من هذا القانون أم لا ؟

الدولة فيها وظائف ، هل هناك وظائف لا يجوز لى استلامها والعمل فيها ؟

وهكذا أمور كثيرة تعرض المسلم يومياً ، والعلماء قالوا : الفتوى تقدَّر زماناً ومكاناً وشخصاً ، ولا بد للمسلم أن يعرف حكم الله فى قضيته بملابساتها الحاضرة.

وهذا يقتضى من المسلم أن يسأل ، ومن العلماء أن يبحثوا ويفتوا ، ولا نقصد طبعاً البحث من أجل تبرير ما فعلته الدولة للدولة ، ولا البحث من أجل التقرب لذوى السلطان ، وإنما نقصد البحث الفقهى المجرد الذى غايته تعريف المسلم على حكم الله فى القضية المبتلى بها غير المتخيلة ، إنَّ من المسلمين تجاراً يتاجرون مع دار الحرب ، ويؤمَّن على بضائعهم هناك ، فهل يحق لهم حال تلفها أن يأخذوا التعويض أو لا ؟

مسلم كان يضع أمواله فى بنك بالربا ثم تاب ، ماذا يفعل فى المال الحرام ؟

عشرات القضايا لا بد من إصدار الفتوى فيها ، ولا بد من اختصاص وتتبع للوصول إلى ذلك .

مثل هذه الجوانب لا بد من إخراجها من عموم الفكرة السابقة التى أشرنا إليها ، إنَّ مجال تلك الفكرة هى طريقة الدعوة والعمل والمجابهة والمناقشة ، وليس مجالها هذا الذى أشرنا إليه آنفاً .

* * *

لا بد من دراسة العقيدة كما استقر عليها ضمير علماء أهل السُنَّة وسجَّلوه فى كتبهم ، ولا بد من دراسة الفقه كما استقر عليه ضمير هذه الأمة وسجَّلوه فى كتبهم ، ولا بد من دراسة الأخلاق الإسلامية ، وعلينا أن ندرس هذا كله مع الدليل إذا استطعنا ، وإذا لم نستطع فالثقة فى الأئمة موجودة بفضل اللّه .

وعلينا أن نقرأ كل شئ كُتِبَ عن الإسلام ، وأن نقارن ونحقق ونرجِّح إن ملكنا أهلية ذلك .

ونبقى بعد هذا كله على كمال الأدب مع السابقين لنا بإحسان .

هذا إذا أردنا أن نكون طُلاَّب آخرة .

أما الذين يريدون الطريق الآخر ، فلا نقول لهم إلا : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

قال رجل عند وكيع : أخطأ أبو حنيفة ، فزجره وكيع وقال : ما هذا إلا كالأنعام بل هو أضل سبيلاً ، كيف يخطئ وعنده أئمة الفقة ، كأبى يوسف ، ومحمد ، وأئمة الحديث وعدَّدهم ، وأئمة اللغة العربية وعدَّدهم ، وأئمة الزهد والورع كالفضيل وداود والطائى ، ومَن كان أصحابه هؤلاء لم يكن ليخطئ لأنه إن أخطأ ردوه إلى الحق .

---

(١) القصص : ٥٥

ونحن لا نقول : إنَّ أئمة الاجتهاد معصومون ، ولكن نقول : إنهم أولى بالحق من مدَّعى الاجتهاد فى زماننا ، فهم أكثر علماً وتقوى وقُرباً من عصر الصحابة ، وأدق فى فهم العرب ، وأعرف بمناحي الخلاف وأسبابه ، فإذا قال قائل : نحن لا نخرج من أقوالهم ، ولكن نرجِّح بينها . نقول له : لقد جعلتَ نفسك أعلم الجميع إذ نصبتَ نفسك قاضياً بينهم وأميراً عليهم ، إنَّ الذى يستطيع الترجيح هو الذى يستطيع أن يدرك المدارك الخفية والظاهرة لكل منهم ، وعنده قُدرة على إصابة الحق فيما اختلفوا فيه ، ويبدو أنَّ مثل هذا نادر الوجود .

* * *

قال أحد هؤلاء الذين لا يرون مجتهدى الأمة الإسلامية شيئاً : إنَّ اللَّه قال : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ [1] ، قال هذا الرجل هذه الآية مستشهداً على أنَّ القضايا التى اختلف فيها علماء الاجتهاد يصل إلى حكم اللَّه فيها أهل الإيمان .

فقلت له بعد : إذن بهذا تكون الأمة كلها ضالة .

فأبو بكر وعمر اختلفا فى بعض الأحكام الاجتهادية ، فإذن بمقتضى الاستشهاد بالآية أحدهما يكون مهتدياً ، والآخر ليس كذلك ، وهكذا الصحابة مع بعضهم ، وهكذا الأئمة مع بعضهم .

أحد الأقوال هدًى والأخرى ماذا ؟

إذا اختلف أحمد ، والشافعى ، ومالك ، وأبو حنيفة فى مسألة ، وقال كل منهم قولاً يختلف عن الآخر ، فأحدهم إذن يكون على هدًى إذا وافق الحق ، والثلاثة على ضلال .

* * *

(١) البقرة : ٢١٣

إنَّ هؤلاء الذين يتجهون مثل هذه الاتجاهات نجدهم أحياناً يخالفون البديهيات ، ويخالفون إجماع الأمة ، ويخالفون الفِطرة بغلوهم فى قضية الاختلافات فى الفروع .

* * *

وقال أحدهم : إنَّ علينا أن نلغي كل الفهوم السابقة ، والاجتهادات السابقة ، ونستأنف فهم الكتاب والسُنَّة من جديد ، وقد يصوغ بعضهم هذا المعنى بشكل أكثر زخرفة فينادى بالعودة إلى الكتاب والسُنَّة وإهمال ما عداهما .

والأسئلة التى يمكن أن تطرح على أمثال هؤلاء هى :

مَن هذا الذى يملك قدرات الأخذ من الكتاب والسُنَّة فى كل شئ دون الاستعانة بأقوال العلماء السابقين ؟ وهل قول هذا الإنسان أولى بالاتباع أو الأئمة ؟ وهل هذا الذى يريد استئناف الفهم سيفهم على ضوء قواعد جديدة يضعها ؟ وما هى هذه القواعد ؟

إننا نقول بصراحة ووضوح إنَّ فهماً للكتاب والسُنَّة ، يختلف عن مفهوم سَلَف الأمة وعلمائها خلال العصور لا يمكن أن يكون أقرب للحق ، وكلامنا كله إنما هو بمناسبة الحديث عن الأحكام والحلال والحرام .

هل تغيَّرت السُنَّة حتى نستطيع أن نفهمها فهماً جديداً يختلف عن فهم السابقين ؟ هل تغيَّرت اللغة حتى نرفض فهم السابقين ؟

إنَّ الكتاب والسُنَّة هما هما ، واللغة العربية هى هى ، والسابقون أحاطوا وتفرغوا واتقوا .

لو قال هذا القائل : إنَّ هناك أحكاماً فقهية ينبغى أن يُعاد النظر فيها لقلنا له : ذلك صحيح ، لأنَّ ما بُنِيَ على العُرف لا بد أن يتغير بتغير العرف ، وما بُنِيَ على معنى لا بد أن يتغير بتغير المعنى ، وما بُنِيَ على زمان لا بد أن يتغير بتغير الزمان ، وقد قال علماؤنا قديماً : « الفتوى تُقدَّر زماناً ومكاناً وشخصاً » .

ولكن كم هى هذه المسائل بالنسبة لكل كلام الفقهاء حتىٰ تكون حُجَّة لنبذ كلام العلماء فى كل شئ .

تعالوا نستعرض أبواب الفقه باباً باباً ، ثم أرونا ما هو الذى ينبغى أن يُنبذ ، وما الذى تريدون أن تضعوه بدله : الصلاة ، الصوم ، الزكاة ، الحج ، النكاح ، الطلاق ، المعاملات ، الحدود ؟!

فليتق اللّه امرؤ يقول هذا الكلام .

إنَّ علينا أن ندرس الكتاب والسُنَّة ، وأن نفهم الكتاب والسُنَّة ، وأن نعرف ما قاله علماء الأمة المعتمدون فى فهمهم للكتاب والسُنَّة ، وأن ندرس ما استنبطوه بناءً على الكتاب والسُنَّة ، دون أن نتعصب إلا للحق الذى قام عليه الدليل ، والحق الذى قام عليه الدليل لا يكون أبداً بنبذ أقوالهم واستئناف فهم جديد ، فما خرج الحق عن أقوالهم ، وإلا فإنَّ الأمة تكون ضالة خلال العصور .. وهذا كذب .

* * *

إنَّ أصحاب هذه الدعوات إنما يؤمِّنون أنفسهم فقط ، وتبقى الأمة عارفة بعد ذلك وقبله من هم أئمة الهدى الذين يُهتدى بهديهم .

إنَّ لسان حال الواحد من هؤلاء يقول : اقتدوا أيها الناس بفهمى للكتاب والسُنَّة ، ودعوا فهوم مالك وأحمد والشافعى وإمام الأئمة أبى حنيفة ... وهيهات .

* * *

إننا ندعو إلى قراءة الفقه الإسلامى ، كما دعونا إلى دراسة الكتاب والسُنَّة ، لأنَّ ذلك ضرورى ، ولا يعنى هذا أننا ندعو إلى التعصب المذهبى ، فنحن ضده ، ولا إلى عدم التحقيق إذا وُجِدَ أهله ، ولكن بداية التحقيق دراسة الفقه وأقوال الفقهاء .

ولكن كم من الناس عندهم مَلَكة التحقيق ؟

وهل نقول للعامى : حقق أولا ثم صَلّ ، أو نقول : له تعلم فقه الصلاة على أى مذهب معتمد ثم حقق ، وهل أهل الفقه الآن محققون ؟

ولو أننا قلنا لعامى : ادرس فقه الصلاة فى كتاب حديث ، ألا يحتمل أن يعتمد المنسوخ ويترك الناسخ ؟

ولو أننا قلنا له : ادرس فقه الصلاة على رأى محقق جديد ، ألا يحجنا بقوله: إن تحقيق أحمد أحب إلىّ لأن أحمد أعلم من هذا الرجل ؟

إنّ الشئ الذى قبله ضمير الأمة الإسلامية كلها لن يستطيع أحد أن يخدع عنه هذا الضمير .

* * *

٨ - تاريخ الأمة الإسلامية وحاضرها

١ - إنّ قراءة التاريخ من أهم عوامل تكوين الشخصية ، ومن أهم عوامل شهور الأمة بذاتها ، ولا يحس الإنسان بارتباطه العضوى بأُمة إلا بعد انصهاره فى تاريخها ، وكلما كانت معرفته أجود ، كانت أحاسيسه أدق وكان وعيه على واقعه المؤلم أكبر .

٢ - وحياة رسول اللّه ﷺ وحياة الصحابة ، ودراسة أحوال الخلفاء الراشدين وأقوالهم وأعمالهم ، تعتبر شيئاً أساسياً بالنسبة للمسلم لأنّ اللّه عزّ وجَلّ جعل قدوة الأمة الإسلامية رسولها ﷺ وصحابته والخلفاء الراشدين ، ولا اقتداء إلا بمعرفة : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (١) .

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ (٢) .

« عليكم بسُنّتى وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين ، عُضُّوا عليها بالنواجذ » (٣) .

٣ - وتاريخ المسلمين لا يعنى الإسلام . فتاريخنا فيه مآس من الخروج على الإسلام ، وفيه مآس سببها الانحراف عن الإسلام ، وفيه دروس ضخمة وتجارب رائعة كلها وراءها الإسلام ، وفى تاريخنا مفاهيم خاطئة روّجها ناس ، وأهم من هذا كله أن هناك صفحات من تاريخنا كلها خيانة تولى كبرها الكافرون والخائنون ، ثم نُظِرَ إليها على أنها أشياء عظيمة جداً ، وخاصة ما له علاقة بتاريخنا الحديث ، وهناك فى تاريخنا مجرمون يُصوّرون اليوم كأبطال ، وهناك

---

(١) الأحزاب : ٢١ — (٢) التوبة : ١٠٠ .

(٣) رواه ابن ماجه عن عبد اللّه بن مسعود ، وأبو داود والترمذى من رواية العرباض بن سارية ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

قضايا أساسية كجزء من الإسلام العظيم تُصوِّر اليوم بشكل بشع مستهجَن كقضية الخلافة ، كما أنَّ هناك محاولات لتضخيم بعض الأخطاء وربطها بالإسلام ، كما أنَّ هناك محاولات لدراسات تاريخية يُقصد بها التأكيد على توسيع الهوة بين المسلمين ، وإبراز الفُرقة ، كما أنَّ هناك محاولات لجعل جزء من تاريخنا يخدم اتجاهات كافرة ، كل هذا يجعلنا بحاجة إلى دراسة تاريخنا والإلحاح على بعض فقرات منه وإبرازها بصورة جيدة ، ولا يحل مشاكلنا المشار إليها إلا العلم .

٤ - يقول عليه السلام : « مَن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » (١) .

والاهتمام بأمر المسلمين يشمل معرفة بلدانهم ، وأحوالهم فى بلدانهم ، والمؤمرات عليهم ، والدوائر التى تكيد لهم ، والمصائب التى تنزل بهم ، وهذا كله لا يتم بلا معرفة مباشرة ، وتحسس مباشر ، وتألم مباشر ، وتجاوب دائم ، وإلا فكيف نتحقق بالحديث : « مثَلُ المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ؟ (٢) .

لذلك كانت معرفة توزع المسلمين فى العالَم ، ومعرفة أوضاعهم السياسية والاقتصادية ، ومعرفة الحركات الإسلامية وحال الإسلام ومدى الرِدَّة فى كل قُطر جزءاً أساسياً فى الثقافة الإسلامية .

ولذلك كان وجود وكالة أنباء إسلامية ضرورة ، ووجود مجلات تتتبع حال المسلمين ضرورياً .

٥ - إنَّ دراسة التاريخ الإسلامى ، وحاضر المسلمين ، وربط ذلك بالإسلام كله ، أخذاً ورداً ، تعليلاً وتبياناً ، بحيث يفهم موقف الإسلام من كل قضية

(١) رواه البيهقى عن أنس رفعه بلفظ : « ومن أصبح لا يهتم للمسلمين فليس منهم » وله تتمة ، وهو عند الطبرانى وأبى نعيم .

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير .

وقعت أو تقع شئ مهم جداً ، خاصة فيما حدث بين أفراد الجيل الأول ، حتى لا نقع فى ورطات عقيدية خطرة ، أو نتخذ مواقف يلعننا بها اللّٰه عَزَّ وجَلَّ .

٦ - وهناك جانب آخر لا بد أن نعرفه بارزاً ، هذا الجانب هو الحضارة الإسلامية العظيمة وآثارها على الفكر العالمى ، وتبيان أنَّ أديان العالَم كلها سبب التخلف المدنى ، إلا الإسلام فإنه طريق التقدم الحضارى أبداً ، ولولاه ما كانت هذه المدنية الأوروبية القائمة الآن . ثم ماذا خسر العالَم بضعفنا الحالى .

ولتحقيق هذه الجوانب كلها نقترح قراءة ما يلى :

١ - كتاب « تهذيب سيرة ابن هشام » أو « نور اليقين » ، ونفضل قراءة « فقه السيرة » للدكتور البوطى .

٢ - « حياة الصحابة » .

٣ - « العواصم من القواصم » .

لمعرفة أحوال أعظم جيل شهدته الإنسانية ، الجيل الذى لم يرتق أحد إلى مثل ما ارتقى إليه أخلاقاً وسلوكاً ، وأدباً ووعياً ، وخيراً وعدلاً ، ورحمة وشجاعة ، ومعرفة باللّٰه واتقاءً لغضبه ، وطلباً لمرضاته ، وتجرداً للآخرة ، وزهداً فى الدنيا .

ولمعرفة الموقف السليم من قضايا الخلاف التى وقعت بين الصحابة :

٤ - « الدعوة إلى الإسلام » لأرنولد - على أخطاء ناتجة عن كفره لنأخذ به صورة عن انتشار الإسلام خلال العصور .

٥ - « ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين » كدراسة تحليلية تاريخية للحاضر والماضى .

٦ - « من روائع حضارتنا » للدكتور السباعى ، لنرى مقدار الإشراق فى تاريخنا العظيم .

٧ - « تقويم العالَم الإسلامى » لمعرفة توزع المسلمين فى العالَم وأوضاع العالَم الإسلامى .

٨ - سلسلة « مواطن الشعوب الإسلامية » ، وكتاب « العالَم الإسلامى ومحاولة السيطرة عليه » للأستاذ محمود شاكر .

ويبقى هنالك كتابان لا بد من إيجادهما :

١ - تاريخ الأمة الإسلامية .

٢ - حاضر العالَم الإسلامى .

فنحن نحتاج إلى كتابة تاريخ مختصر للأمة الإسلامية من يوم الإسلام الأول إلى عصرنا هذا ، على ألا يتجاوز ألف صفحة يستطيع المسلم إذا درسه أن يعرف كل شئ عن تاريخه ، فمن المؤسف أننا الآن نعرف تسلسل حوادث التاريخ الإسلامى ، فضلاً عن أن نعرف تفصيلاتها ، فضلا عن معرفة تعليلاتها الإسلامية ، ومن المؤسف أنّ المحاولات التى جرت لمثل هذا كانت إما بيد كافرة أو أنها لم تتم ، أو أنها بيد ناس لم تصف مفاهيمهم الإسلامية إلا إذا كان هناك شئ كامل لم نسمع به .

ونحن نحتاج كذلك إلى كتاب يتحدث عن حاضر العالَم الإسلامى من حيث الحركات الإسلامية فيه ، ونوعها وصراعها ، والدوائر الكافرة والفاسدة فى كل قُطر ، وطبيعة الصراع ما بين الإسلام وغيره فى كل قُطر .. وهكذا .

ونرجو أن يخرج هذان الكتابان بسرعة بجهود المسلمين المخلصين إن شاء اللّه تعالى .

* * *

٩ - علوم اللغة العربية

إنَّ علوم اللغة العربية أجزاء أصيلة فى الثقافة الإسلامية من جوانب عدة ، وكى يكون هذا واضحاً فلنضرب أمثلة :

تصور أنَّ دعاة كتابة اللغة العربية بالخط اللاتينى أفلحوا فى دعوتهم ، فماذا يكون ؟

أول شئ يحدث أنَّ الجيل الجديد لا يستطيع أن يقرأ كل ما كُتِبَ بالحرف العربى خلال العصور ، ومعنى هذا أنه بضربة واحدة قُضِيَ على الثقافة العربية الإسلامية جملة .

وتصور أنَّ الدعاة إلى اعتماد اللغة العامية المحلية لكل قُطر قد أفلحوا فى دعوتهم ، فماذا يكون ؟

أول شئ يكون هو أن تموت اللغة العربية الفصحى ، ثم تنشأ لغات محلية وليدة تبلغ المئات . كما حدث بالنسبة للغة السنسكريتية واللغة اللاتينية ، وينتج عن ذلك ألا يفهم العرب بعضهم بعضاً ، ثم ألا يفهم الناس ما كُتِبَ بالفصحى قديماً كما يحدث الآن فى بريطانيا وفرنسا وغيرهما ، حيث لا يفهم الرجل المعاصر نصوص لغته قبل مئتى سنة أو أقل أو أكثر ، وبذلك تُضرب الثقافة العربية الإسلامية ضربة واحدة .

وتصور الآن أنَّ الدعاة إلى تطوير الإملاء والصرف العربيين بحيث تتغير قواعد النحو والكتابة أفلحوا فى دعوتهم ، فماذا يجرى ؟

أقل ما يحدث أنَّ الصعوبات تبدأ تواجه قراءة الكتب العربية المكتوبة بالطرق الأولى ، وإذا ما ضُرِبَ النحو العربى فإن الفصحى كلها تسقط ، وإذا ما ضُرِبَت علوم البلاغة فإن أساليب العرب تسقط ، وبالتالى لا تُفهم ، وإذا ما ضُرِبَ علم العروض سقط ديوان العربية كله .

لذلك كله كانت علوم اللغة العربية من أهم أسس الثقافة الإسلامية التى ينبغى أن يحافظ عليها بالسهر والجد والكفاح العنيف .

ومن أجل أن تكون عندنا ثقافة عربية جيدة فلا بد من :

١ - قراءة كتاب فى الخط العربى

٢ - قراءة كتاب فى الإملاء العربى

٣ - قراءة كتاب فى النحو والصرف .

٤ - قراءة كتاب فى علوم البلاغة .

٥ - قراءة كتاب فى علم العروض .

٦ - الاطلاع على قواميس اللغة العربية القديمة .

ونحب أن نذكر ملاحظتين :

الأولى : أنَّ الكتب التى لم تُكتب بيد مسلمين ملتزمين بالإسلام فيها دس كثير، ولها أغراض خبيثة إلا النادر ، والنادر لا حكم له ، خذ مثلاً « قاموس المنجد - قسم الأعلام » : تراه مثلاً عندما يُعرِّف مصطفى كمال أتاتورك يذكر بأنَّ من أعظم إصلاحاته أنه كتب اللغة التركية بالحرف اللاتينى بدل الحرف العربى ، فأى فظاعة أكبر أن يُعتَبر أعظم الإصلاحات استبدال الحرف اللاتينى بالعربى فى قاموس للعرب والعربية .

الثانية : أنَّ من أهم ما تقرؤه - زيادة على ما مَرَّ - ما له علاقة بفقه اللغة العربية وميزاتها ، إنَّ اللغة العربية هى أعظم اللغات على الإطلاق ، وهذا لا شك فيه عند العلماء المطلعين فلا أخصر ولا أنضج ولا أدق فى التعبير منها .

ويوم قامت بعض الجامعات العربية بالدعوة إلى جعل اللغات الأجنبية لغات العلوم - للأسف - استطاع محاضر واسع الاطلاع على اللغات أن يبرهن أنَّ اللغة العربية لا يعجزها التعبير عن شئ وبشكل أجود وأمتن وأخصر من غيرها .

وعلى كل حال ففى هذا العصر الذى كثرت فيه الغارة على اللغة العربية . لا بد أن يكون جزءاً من ثقافتنا دراسة فقه هذه اللغة وميزاتها ، ولعل كتاباً يخرج فى الموضوع ، ولو أنه كتاب يجمع المقالات القصاو المبعثرة للكتاب الثقات المجيدين فى الموضوع ، كالعقاد ، والمبارك والطنطاوى والرافعى ومحمد محمد حسين وأضرابهم من المنافحين عن هذه اللغة يحل المشكلة ، وقد طُرِحَ فى الأسواق كتاب للأستاذ المبارك فى هذا الموضوع .

نتوصل إننا لا نستطيع أن نفهم النصوص ، ولا أن نرى بلاغتها ، ولا أن نتوصل إلى دقائقها ، ولا أن نعثر على الإعجاز فى القرآن . كما لا نستطيع أن نفهم الاستنباطات الدقيقة لعلماء المسلمين . كما لا نستطيع أن نعرف أوجه القراءات القرآنية ... إلى أشياء كثيرة جداً . إلا بلوم هذه اللغة كما وضعها علماؤنا الأقدمون . وليست هذه دعوة ضد التبسيط والتسهيل ، فهذا لا خلاف فيه ، ولا حَرَج ، ومكتبة اللغة العربية مليئة بالمبسَّط والسهل ولكنَّا ضد التطوير الخبيث ، وضد التغيير الهادف للإضلال ، وضد التحريف المهدم ، وضد الدعوات المائعة الكافرة التى تستهدف هذه اللغة .

وهذا كله لن يتحقق لنا إلا إذا كان كل مسلم واعياً هذه اللغة ، مدركاً إياها ، مستوعباً علومها ، مقتنعاً باتجاهات علمائها ، رابطاً بين هذه الاتجاهات وخدمة نصوص الإسلام .

أما الكتب التى يمكن أن تُقرأ تحقيقاً لهذه الغاية فكثيرة ، وهذه قائمة بأسماء بعض هذه الكتب التى يمكن الاستفادة منها ، وإنما أردنا التمثيل ، وإلا فما تيسر للإنسان من كتب الأعلام الثقات المعتمدة يستطيع أن يقرأه بعد استشارة مَن يثق بعلمه ودينه ، وقد يتوفر فى قُطر ما لا يتوفر فى آخر .

١ - فى النحو : شذور الذهب ، أو قطر الندى ، أو شرح ابن عقيل ، ومغنى اللبيب فى النهاية .

٢ - فى البلاغة : البلاغة الواضحة .

٣ - فى المفردات : القاموس المحيط ، أو مختار الصحاح ، أو الصحاح للجوهرى .

٤ - في الإملاء : المفرد العلم في رسم القلم .

وأخيراً .. إنَّ اللغة العربية ضرورية لنا ، كي نقرأ ونفهم ويبقى الإسلام ، ولكنها ضرورية لنا كذلك كي نكتب ونتكلم ، فلا بد للمسلم أن يدعو ، وأهم وسائل الدعوة : الخطابة ، والمحاضر ، والكتابة ، والتدريس ، ولن يؤدي الإنسان دوره في هذا إلا إذا أتقن اللغة العربية إتقاناً جيداً ، والذين يحتقرون هذه الجوانب في الدعوة ، ناس جهلة بقيمة الكلمة ، إنَّ واعظاً واحداً قد يقلب بلداً كاملة ، ومحاضرة جيدة قد تهدم كثيراً من الفكر المنحرف ، ولا نعني طبعاً أن نترك الشئ الآخر ، ولكن هذا لا بد منه ، فكلما كانت وسائل الدعاة أكثر كلما كانوا أقدر على الحركة ، والرسول ﷺ كان يرد بخطيب على خطيب ، وبشاعر على شاعر ، كما هو المعلوم من سُنَنه ، ونحن علينا أن ننازل الخصم بأسلحة مكافئة إن استطعنا .

ونحب في هذه الفقرة أن نُذكِّر بقضية هي :

إنَّ بلاد الإسلام عامرة بالمكتبات ولله الحمد . وهذه المكتبات فيها الكثير مما ألَّفه المسلمون في كل علم ، وفيها كذلك الكتب التي تعطينا صورة عن العلوم كلها ، وما ألَّفه المسلمون في كل علم منها خلال العصور ، وتاريخ هذه العلوم .

ويبدو أنَّ الاطلاع العام على المكتبة الإسلامية ولو بتصفح ما فيها ، جزء أساسي ، ولئن كنا في هذا البحث الموجز أردنا أن نذكر للمسلم ما يلزمه عملياً في عصرنا هذا ، فلا ينبغي أن يقف المسلم عند هذا الحد ، بل لا بد له أن تكون عنده إلمامة عامة ببعض ما أنتجه المسلمون خلال حياتهم العملية الطويلة في فروع الثقافة .

إنَّ مثل هذه النظرة ، بعد أن يُحصِّل المسلم العلوم الضرورية له ، تُوسع آفاقه في كل موضوع ، وتجعله قادراً بإذن الله أن يتابع بحثاً رأى أن يختص به ، أو على الأقل يستطيع أن يراجع مسألة أراد أن يتوسع فيها ، أو يرد على منحرفين في موضوعها .

* * *

١ - التحديات والمؤامرات

معرفة العدو ، ومعرفة تحدياته ، ومعرفة مؤامراته ومخططاته ، شئ أساسى فى حياة المسلم المعاصر ، فالله عزَّ وجلَّ قال :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (١) .

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (٢) .

وقد نجح الكافرون اليوم فى جعل جيل كامل منا يرتد عن دينه ، ومظهر ذلك هذا الجيل الذى لا يعتبر صراع الإسلام صراعاً له ، ولا الكيد للإسلام كيداً له ، ولا التآمر على الإسلام تآمراً عليه ، بل أخذ يشارك فى حرب إسلامنا والكيد له والتآمر عليه .

وعملياً فإن المتآمرين على الإسلام هم الاستعمار بدوله الاستعمارية كلها : بريطانيا وفرنسا وأمريكا و ... وكذلك الشيوعية بفروعها كلها ، وكذلك الصليبية بأجهزتها جميعاً ، وكذلك اليهودية وبنتها الماسونية ، أو شبيهتها كنوادى الروتارى والليونز ، هذا عدا عن تآمر الكافرين أنَّى كان جنسهم وعلى أى أرض .

ولا تجد نوعاً من أنواع المتآمرين إلا وتجد له أذناباً من أبناء المسلمين ، لهم أسماء إسلامية ، وهم منافقون ، أو كافرون بصراحة ، ينفذون ما يريد أسيادهم . لذلك كان لا بد للمسلم أن يعرف عدوه ، ويعرف تحدياته ومؤامراته ومخططاته ، ويعد لذلك كله عُدَّته لمن ظهر أو خفى من أعداء الله عزَّ وجلَّ .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ١٢٠ .　　(٢) البقرة : ٢١٧　　(٣) الأنفال : ٦٠ .

ومبدئياً نقترح دراسة ما يلي لتأمين ثقافة سريعة حول هذه الجوانب :

١ - دراسة كتاب « التبشير والاستعمار » ، وكتاب « الغارة على العالَم الإسلامي » لمعرفة شئ عن التخطيط الصليبي في العالَم الإسلامي ، وعلاقته بالدول الاستعمارية التابع لها .

٢ - دراسة « الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر » ، « حصوننا مهددة من داخلها » ، « الغزو الفكري والدعوة القومية » ، لورنس في « أعمدة الحكمة السبعة » ، « كيف هُدِمت الخلافة » لمعرفة شئ عن التخطيط الاستعماري في العالَم الإسلامي .

٣ - دراسة « التضليل الاشتراكي » ، « بلشفة الإسلام » ، « أعمدة النكبة » ، « موسكو وإسرائيل » ، « الهلال الشهيد » لمعرفة التخطيط الشيوعي ضد الإسلام في المنطقة .

٤ - دراسة « بروتوكولات حكماء صهيون » ، « أوقفوا هذا السرطان » لمعرفة جزء من المخططات اليهودية العالَمية وأجهزتها كالماسونية .

٥ - دراسة « الثقافة الإسلامية .. خصائصها ، تاريخها ، مستقبلها » للدكتور عبد الكريم عثمان رحمه الله ، وهو كتاب صغير لكنه يجعل يدك على لُباب من الأمر في جوانب كثيرة من هذا الموضوع .

ولكن المسألة أكبر من ذلك ، فلا بد من ملاحقة المخططات ومعرفتها ، وفضحها والبحث عنها في ثنايا ما يُكتب وما يُخفى ، وفي الهمسات والاقتراحات والمؤتمرات ، وما ذكرناه من دراسات إنما هو لإيجاد وعي مبدئي على هذه الأمور مع ملاحظة أنَّ هذه الكتب إنما تمثل وجهة نظر مَن كتبها وإطلاعاته ، نقول هذا حتى لا يتحمل المسلم مسئولية رأي خاطئ ذُكِرَ فيها ، إذ لا يخلو بعضها من خطأ ولا يخلو بعضها من جهل بالإسلام وتحامل عليه ، ولكن قراءتها ضرورية لاستكمال الصورة ووضوح الإبصار .

إنّ المتتبع لما يجرى فى العالم الإسلامى يجد فى كل قُطر آلافاً من الجواسيس ، وآلافاً من الدوائر المرتبطة بالكافرين ، ويجد الكافرين وراء ثورات وانقلابات ، ووراء أحزاب ومؤسسات ، ووراء مدارس ومجلات وصحف .

كما يجد الكافرين وراء التقسيم الفظيع ، والجزئية المستمرة ، ووراء الواقع المتعفن غير المنطقى لكثير من الأقطار والأوضاع .

كما يجدهم وراء المناهج الثقافية ، والدراسات القائمة ، ووراء بعض دور النشر ووراء آلاف من الكتب .

وهذا كله يحتاج إلى معرفة وتجاوز .

أن أعرف عدوى ومخططاته وكيف أضربه معها شئ بديهى فى عملية الصراع ضد الكفر

* * *

وما لم يعرف المسلم هذا يبقى فى غفلة ، فلا يبعد أن يسوقه الكافرون لما يريدون وهو لا يشعر ، بل يكون متحمساً لما يريده الكافرون بطيب قلب . وقد أشار القرآن إلى نوع من المؤمنين يسمعون للمنافقين فقال : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ (١) .

وما لم يعرف المسلم هذا تبقى أمامه ألغار لا حل لها ، كيف يجتمع الشرق والغرب على تأييد بعض الأنظمة ولماذا ؟ كيف يتفق الشرق والغرب على بعض الأفكار ولماذا ؟

إنّ الكافرين قد تلتقى مخططاتهم ، وقد تتعارض ، وقد تسير أحياناً جنباً إلى جنب ، فالدعوة القومية مثلاً تتبناها الدوائر الاستعمارية كما رأينا فى مقدمة هذا الكتاب ، وتتبناها الشيوعية كما يذكر لينين ، كمقدمة للشيوعية

(١) التوبة : ٤٧

ومرحلة لها ، وتتبناها الصليبية كبديل عن الإسلام ، ومرحلة لهدف عندها ، وتتبناها اليهودية لتضرب الخلافة ثم لتحطم قوة المسلمين فيسهل عليها التمكن في فلسطين .

والمسلم عليه أن يدرك هذا كله .

إنّ معرفة الأعداء وإحصاءهم ومراقبتهم وإنهاءهم بالتالي عملية لا بد منها .

١ - الماسون - الروتاري - الليونز .

٢ - دوائر المخابرات - جواسيس أمريكا وبريطانيا وفرنسا ...

٣ - الأحزاب القائمة باتجاهاتها المتعددة : الرأسمالية ، أو الديمقراطية ، أو الشيوعية ، أو الاشتراكية ، أو القومية .

٤ - المدارس التابعة لمؤسسات أجنبية سواء أكانت تبشيرية أو علمانية .

٥ - دور النشر التابعة لأمثال هذه المؤسسات ، وكذلك الصحف والمجلات التي تدعو إلى شئ مما يريده هؤلاء .

٦ - دعاة الإباحية والفوضوية من كُتّاب وقصّاصين وأفلام سينما وتليفزيون .

٧ - الدعاة إلى الآراء الكافرة ، سواء أكانت تابعة لمدارس أجنبية ، أو كانت وليدة مدرسة محلية متأثرة بالكفر والكافرين .

وينبغي أن نلاحظ ملاحظة مهمة هي : أنّ الكافرين بأنواعهم يتعمدون دائماً في ابتداء مخططاتهم على الأقليات الكافرة في الأقطار الإسلامية ، لذلك ترى دعاة القومية والشيوعية والماسونية وأكثرية الجواسيس أول ما يكونون من هؤلاء .

وخذ هذين المثالين :

(أ) ميشيل عفلق - جورج حبش - أنطون سعادة - العازوري .. هؤلاء زعماء الدعوات القومية في منطقتنا وكلهم نصارى .

(ب) بقى اليهود فى العراق ومصر سنوات طويلة هم الذين بيدهم كل أجهزة الحزب الشيوعى ، وكان مؤسس الحزب الشيوعى السورى أرمنياً .

فمراقبة هذه الأقليات وعدم الاطمئنان لها مما ينبغى أن يبقى حياً فى ذهن المسلم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ ﴾ (١) .

ومع أنَّ هناك تآمراً ومتآمرين ، وحرباً مستمرة مستعرة ، فهناك الأخطر من هذا : التحدى الحضارى الذى تواجهه أمتنا ، والمتمثل فى الحضارة الغربية بشقيها الرأسمالى والشيوعى ، وسبب الخطر أنَّ هؤلاء الآن متفوقون عسكرياً ومادياً ، ونحن ضعفاء عسكريا وماديا ، ومن عادة الأمم أن الأمة الضعيفة تشعر بعقدة النقص ، وتحب أن تقلد الأمة القوية ، والأمة القوية تحاول أن تذيب شخصيات الأمم الضعيفة فيها ، كما تحاول الأمم القوية أن تنسب سبب قوتها إلى عقيدتها ، وثقافتها ، وسلوكها فى الحياة ، وفى غالب الأحيان تصدق الأمم الضعيفة ذلك ، فتحاول أن تعتقد عقائد الآخرين ، وأمتنا الآن تعانى من هذه الأزمة ، ولذلك فلا بد من عملية توعية تعيد الأمور إلى نصابها ، وتبيِّن ما ينبغى أن تفعله أمتنا ، وكيف تستطيع أن تتجاوز عملية التحدى الحضارى القائم ، ولعل الكتب التالية تحل مشكلة المسلم المعاصر فى مواجهة هذا التحدى :

١ - « نحو مجتمع إسلامى » للشهيد سيد قطب .

٢ - « الإسلام ومشكلات الحضارة » للشهيد سيد قطب .

٣ - « نحن والحضارة الغربية » لأبى الأعلى المودودى .

٤ - « حركات ومذاهب » لفتحى يكن .

٥ - « الثقافة الإسلامية » للدكتور عبد الكريم عثمان .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٩

١١ - الدراسات الإسلامية المعاصرة

إنَّ ميزة الدراسات الحديثة كونها وليدة البيئة ، ووليدة الكفاح الفكرى المعاصر الذى جابه به المسلمون الفكر الكافر والفاسق ، فهو زاد المسلم المعاصر فى حربه الفكرية المعاصرة ، والمكتبة الإسلامية أصبحت مليئة بالكتب التى هى من هذا القبيل ، ونحن نحتاج إلى مزيد .

غير أنَّ كتباً تبقى أساسية ، وكتباً يكمل بعضها بعضاً ، أمثال هذه فقط سنشير إليها .

إنَّ هناك كتباً أُلِّفت فى شرح الإسلام ككل ، وفى شرح خصائصه . وهناك كتب أُلِّفت فى عقائد الإسلام وفى أركانه ، وهناك كتب أُلِّفت فى شرح أنظمة الإسلام ، وهناك كتب أُلِّفت فى دفع الشُبهات عن الإسلام ، وهناك كتب أُلِّفت فى الجاهلية المقابلة للإسلام ، وهناك كتب أُلِّفت فى أمهات المسائل المعاصرة .

وحتى تكتمل ثقافة المسلم المعاصر لا بد له من استكمال هذه الدراسات كلها ، وهذه صورة عن بعض هذه الكتب ، وعلى المسلم أن يتتبع :

١ - « مبادئ الإسلام » لأبى الأعلى المودودى .

٢ - « خصائص التصور الإسلامى » لسيد قطب .

٣ - « هذا الدين » لسيد قطب .

٤ - « المستقبل لهذا الدين » لسيد قطب .

هذه الكتب تعطينا صورة عن الإسلام بشكل عام ، وعن ميزاته وخصائصه ، وحاجة الإنسانية إليه .



١ - « الرسالة المحمدية » لسليمان الندوى .

٢ - « الحضارة الإسلامية .. أسسها ومبادئها » لأبى الأعلى المودودى .

٣ - « الأركان الأربعة » لأبى الحسن الندوى .

هذه الكتب تعطينا صورة عن أركان الإسلام .

* *

١ - « اشتراكية الإسلام ونظرات فى اشتراكية الإسلام » للسباعى والحامد .

٢ - « ملكية الأرض فى الإسلام » لأبى الأعلى المودودى .

٣ - « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » لسيد قطب .

٤ - « أسس الاقتصاد الإسلامى » لأبى الأعلى المودودى .

٥ - « الربا » لأبى الأعلى المودودى .

٦ - « التكافل الاجتماعى فى الإسلام » لعبد الله علوان .

هذه الكتب تعطينا صورة عن النظام الاقتصادى الإسلامى .

* *

١ - « المرأة بين الفقه والقانون » للدكتور مصطفى السباعى .

٢ - « الحجاب » لأبى الأعلى المودودى .

٣ - « تفسير سورة النور » لأبى الأعلى المودوى .

هذه الكتب تعطينا صورة عن النظام الاجتماعى فى الإسلام .

* *

١ - « السلم والحرب » للدكتور مصطفى السباعى .

٢ - « الجهاد » لأبى الأعلى المودودى .

٣ - « نظرية الإسلام وهديه فى الدستور والقانون » ، و « نحو دستور إسلامى » للمودودى .

٤ - « رسالة الجهاد » للشهيد حسن البنا .

لأخذ صورة عن النظام العسكرى والسياسى .

* *

١ - « منهج التربية الإسلامية » لمحمد قطب .

لأخذ صورة عن طرق التربية الإسلامية .

* *

١ - « شُبهات حول الإسلام » لمحمد قطب .

٢ - « جاهلية القرن العشرين » لمحمد قطب

٣ - « الثقافة الإسلامية » للدكتور عبد الكريم عثمان .

لمعرفة الفكر المقابل للإسلام وتحطيمه وتبيان تفاهته .

* * *

بهذه الكتب وأمثالها يُحصِّل المسلم الفكر الإسلامى المعاصر ليستطيع الثبات أمام المجتمع المتخلف العاهر الفوضوى الذى يجابة الأمة الإسلامية الآن .

ويُخرج الكُتَّاب الإسلاميون عادة كتباً ، بعض هذه الكتب تعالج مشكلة قائمة وتعطى الرأى فيها ككتاب « حركة تحديد النسل » للمودودى ، أو تعالج مرحلة ما ككتاب « ما بعد النكبتين » ، أو تعالج جزءاً من الإسلام ككتاب « الشورى » للدكتور محمود بابلى .

والمسلم المعاصر عليه أن يبقى دائماً على صلة بالفكر الإسلامى فى كتبه ، أو صحفه ، أو مجلاته ، على أن يبقى واعياً ، وعلى ألا تشغله قضية على حساب قضية أخرى ، ونحب أن نؤكد على ناحية هى : أنَّ احتمال الخطأ قائم فى كل ما نقرأ إلا ما كان آية من كتاب أو نصاً نطق به رسول الله ﷺ .

كما يبقى دائماً احتمال خطأ الفهم عن الله ورسوله قائماً ، لذلك فعلى المسلم دائماً أن يبقى محققاً .

* * *

١٢ - فقه الدعوة والعمل

المسلم داعية إلى ما عنده بالفطرة ، والله عزّ وجلّ عندما خاطب المؤمنين بقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (١) كأنه حمّل كل مسلم أمانة البلاغ ، لأنّ الرسول ﷺ من مهماته الأساسية البلاغ ، وعندما قال الرسول ﷺ : « بلّغوا عنى ولو آية » (٢) كأنه يطلب من الذى يعرف آية أن يُبلّغها ، ومَن لا يعرف آية من كتاب الله ؟ وقد قال الفقهاء : « إنّ مَن تعلم مسألة عليه تبليغها لأنه صار فقيهاً فيها » .

وعملية الدعوة والتبليغ عملية كبيرة واسعة فى عصرنا وهى شاقة بنفس الوقت ، لأنه لا يوجد المكان الذى يستطيع فيه المسلم أن يدعو إلى الإسلام كله بصراحة ، ومن ثَمّ أخذت الدعوة طابع الجزئية ، فقام يدعو إلى جزء من الإسلام مجموعة ، وتخصص فى جزء آخر جماعة ، وتفرغ آخرون لمعان أخرى وكبرى ... وهكذا ، وكل مجموعة من هؤلاء صار عندهم تجربة وفقه ، ولا شك أنّ كل مجموعة تؤدى خدمة لله ودينه على طريقتها الخاصة ، وبهذا لا يبقى جزء من الإسلام إلا ويوجد مَن يقيم على الناس الحُجّة به ، ولعل هذا معنى قولة علىّ رضى الله عنه : « ولا تخلو الأرض من ولى قائم لله بحُجّة » .

ولا شك أنّ المسلمين لا يتكامل أمرهم إلا إذا عرف كل واحد منهم أنه جزء من كل ، وأنه يقوم بما يقوم به مكملاً عمل الآخر .

كما لا يتكامل أمرهم إلا إذا وُجِدَ تنسيق تام بين هؤلاء جميعاً ، بحيث يصبح الجميع أجهزة فى جسم واحد ، كل يؤدى دوره ضمن جسد ، وهذا مقتضى تشبيه

---

(١) الأحزاب : ٢١

(٢) رواه أحمد والبخارى عن عبد الله بن عمرو ، ورواه الترمذى أيضاً فى كتاب « العلم » عن عبد الله بن عمر ، وللحديث تتمة .

الرسول ﷺ المؤمنين بالجسد الواحد ، ولكن هذا لن يتم إلا إذا استطاع قسم من المسلمين أن يستوعبوا استيعاباً تاماً فقه الدعوة عند كل المسلمين ، وكانوا فى نفس الوقت قادرين على تأليف القلوب على الخير ، واستطاعوا أن يزيلوا ما بين المسلمين من حُجُب ، واستطاعوا أخيراً أن يوحِّدوا طرق التربية بعد توحيد المفاهيم .

عندئذ يستطيعون أن يوجدوا نوعاً من التنسيق بين المسلمين فى القُطر الواحد ، والمسلمين فى العالَم كله .

وأخشى ما يُخشى أن يترك المسلمين بعض الخير نفاسة لآخرين موجود عندهم هذا الخير ، وأن ينسى الذين يفكرون تفكيراً واسعاً ما عند الحركات الصغيرة من جوانب طيبة ، وأن يستغنى أفراد الجماعات القليلة كتلاميذ العلماء بما حصَّلوه من فوائد مما ينبغى أن يشاركوا فيه المسلمين كلهم من عمل ، لذلك كله كان على المسلم أن يدرس كل ما أمامه من عمل فى الدعوة إلى الله ، وأن يدرس كل اقتراح .

من طريقة العلماء إلى طريقة مشايخ الصوفية ، إلى طريقة الجمعيات الخيرية ، إلى طريقة الأحزاب الإسلامية ، إلى طريقة الجماعات القائمة ، إلى الاقتراحات المطروحة على بساط البحث فى قضية الدعوة ... وهكذا .

على ألا يشغلنا هذا عن الدعوة ....

وعلى أن نحاول دائماً الاستفادة من كل تجربة ملاحظين دائماً عملية الاتفاق بين الدعاة جميعاً ، فمن وصايا رسول الله ﷺ لداعيتين من أصحابه أرسلهما إلى اليمن : « تطاوعا ولا تختلفا » [(١)] .

---

(١) قطعة من حديث رواه البخارى ومسلم فى كتاب « الجهاد » باب » تأمير الأمراء على البعوث » ، ولفظ الحديث : « يسِّرا ولا تعسِّرا ، وبشِّرا ولا تنفِّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » .

وحبَّذا لو حلَّ الدعاة مشاكلهم بصراحة ، وطرح كلٌّ مأخذه على الآخر بصراحة ، وحكَّموا إذا لم يتفقوا ، وتنازلوا لبعضهم فى اللّه ، تحقيقاً لمعنى الذلة على المؤمنين ، إلا إذا كان التنازل على حساب سلامة السير ، وليس كلامنا إلا عن الدعاة إلى اللّه ، أما طلأب الدنيا والخائنون للّه ورسوله ﷺ والمؤمنين فهؤلاء ينصحون فقط .

وأخيراً .. من أجل ما مَرَّ آنفاً نقول مؤكدين :

فى فقه الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامى فى هذا العصر ، لا بد من دراسة لفكر الحركات الإسلامية الأصيلة ، وطرق عملها وتكوينها وخططها ، لمجابهة الردَّة والكفر على كل المستويات ، ولتأمين هذه النواحى نقترح دراسة ما يلى :

١ - « منهاج الانقلاب الإسلامى » للمودودى .

٢ - « معالِم فى الطريق » لسيد قطب .

٣ - « واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم » للمودودى .

٤ - رسائل الأستاذ الشهيد البنا التالية : « المؤتمر الخامس » ، « رسالة التعاليم » ، « بين أمس واليوم » ، « الرسائل الثلاث » ، « دعوتنا فى طور جديد » .. وكل رسائل الأستاذ البنا ومذكراته وخاصة القسم الأخير منها .

٥ - سلسلة رسائل قسم الأسر « آداب الأسرة والكتيبة » ، « نظام الأُسر.. نشأته وأهدافه » ، « نحو جيل مسلم » .

٦ - « مشكلات الدعوة والداعية » لفتحى يكن ... (وعامة ما يكتب الأستاذ فتحى يدور حول فقه الدعوة) .

٧ - « تذكرة الدعاة » للبهى الخولى .

٨ - « نحو حكم إسلامى » لمحمد على الضناوى .

٩ - « الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين » .

١٠ - « المقاومة السرية فى قناة السويس » .

كما نقترح أن يلامس الإنسان عن قُرب جماعة الدعوة والتبليغ ، ويدرس طُرقهم وأساليبهم ، كما نقترح أن يدرس المسلم عن قُرب طريقة عمل العلماء فى العمل الإسلامى ، ففى كل عمل إسلامى جوانب إيجابية لو أخذت مكانها ، وتخلت عن جوانب سلبية فيها ، والحكمة ضالة المؤمن .

ويبدو لى أنه فى اللحظة التى تحاول فيه كل مجموعة مخلصة من المسلمين أن تسير فى طريق تكميل ذاتها من الناحية الأخلاقية والثقافية ، فتسير فى طريق الكمال والتكامل ، تكون كل مجموعة خطت فى طريق توحيد المسلمين خطوتها الأولى .

ودون أن يخطو المسلمون هذه الخطوة - خطوة توحيد الثقافة والتربية - فإنَّ كل مجموعة منهم تبقى فى عُزلة عن الأخرى ، ولعلها مع هذا لا تحس بالإثم لاقتناعها بصحة ما عندها .

وإننا لنرجو أن يكون هذا الكتاب أداة لفت نظر إلى جزء من هذا الموضوع ، فلعل اللّه عَزّ وجَلّ يمن على الأمة الاسامية بخلاص ، ووضوح طريق ، وسير سليم .

فالخطوة الأولى إذن فى طريق جمع الشمل وتأليف القلب ، أن يُتَفق على خطوط عريضة لا بد منها فى عملية التثقيف والتربية ، بحيث لا يبقى جزء إلا وقد أخذ المسلم فى أى حلقة حظه منه ، ثم يبقى لكل مجموعة ما تحرص عليه من أمرها خاصة .

فإذا ما تم هذا ، تمت الخطوات التالية بشكل عادى وعفوى .

ونسأل اللّه أن يتقبل ...

* * *

ملاحظات واقتراحات

يقول عليه السلام : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، أو عالماً ومتعلماً » (١) .

وروى عنه عليه السلام : « إنَّ لهذا الدين إقبالاً وإدباراً ، ومن إقباله أن تتفقه القبيلة بأسرها ، ومن إدباره أن يتفقه الرجل والرجلان » (٢) .

وقال عليه السلام : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » (٣) .

إنَّ العودة إلى المسجد ، وإحياءه بالعلم والذكر ، وربط المسلمين بحلقات العلم فيه ، هي بداية البدايات لإحياء الإسلام .

فمتى قامت في المسجد حلقات العلم التي تستوعب كل جوانب الثقافة الإسلامية ، وصار المسلم ينتقل من حلقة إلى حلقة ليكمل ثقافته الإسلامية ، وقام هو بدوره في تعليم ما تعلم . عندئذ نكون قد بدأنا البداءة الصحيحة .

إنَّ مسجداً واحداً في البلد الواحد من هذا النوع ، إذا قامت به مثل هذه الحلقات ، ونظم أهله رحلات العلم ، والدعوة إلى العلم داخل الحلقات ، يمكن أن تحيا به هذه البلد .

إنَّ مسجداً يقوم على أمره عالم صالح من علماء المسلمين ، هذا العالِم يجهد من أجل إيجاد مجموعة يختص كل فرد من أفرادها بجانب من جوانب الثقافة الإسلامية ، ثم يبدأ بالدعوة إلى العلم والتعلم ، ويجلس من استجاب له إلى

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، ورواه الطبراني في « الأوسط » عن عبد الله بن مسعود ، ورمز السيوطي لحسنه ، ورواه الترمذي وحسَّنه .

(٢) رواه الطبراني عن أبي أمامة ، وفيه يزيد بن علي : متروك .

(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والدارمي وابن منيع وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، وقال الترمذي : حسن غريب ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم .

حلقة تنسجم مع حاله : حلقة القرآن ، أو السُنَّة ، أو تاريخ ، أو أصول ثلاثة ، أو أصول فقه ، أو عربية ، أو حلقه درس التآمر على الإسلام ، أو حلقة الدراسات الإسلامية الحديثة ، أو حلقة فقه الدعوة ، أو حلقة الأخلاق الأساسية .

ثم إذا أتقن المستجيب جانباً نقله إلى حلقة أخرى ، وهكذا يتقلب المسلم من حلقة إلى حلقة ، حتى يستكمل ثقافته الإسلامية ، ثم من تعلم شيئاً كلَّفه أن يُعلِّمه فى نفس المسجد أو فى مكان آخر .

إنَّ شيئاً مثل هذا لو حدث فى مسجد فى البلد الواحد دليل على سير صحيح فى طريق التغيير نحو الأحسن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .. وهذا طريق التغيير .

إنَّ هناك عوازل بين الدعاة إلى الإسلام وبين الناس ، لا يحله إلا عودة إلى المسجد ، وهناك ضلال كثير وجهل كثير ، وانحراف خطير ، وأجهزة تعمل ليل نهار من أجل التضليل ، لا يقف أمام هذا إلا علم يُنشئ وعياً واستقامة ، وهذا لا يتيسر إلا بالنزول إلى المسجد وإحيائه .

(١)

إنَّ هناك ناساً لا يوصل إليهم إلا بالحلقات الخاصة ، وهناك ناس لا يوصل إليهم إلا بالحلقات العامة ، هؤلاء طريق إيصال الإسلام إليهم هو المسجد ، هذا عدا عن كون تربية المسجد أقوم وأعدل ، وأكثر استقامة .

هذا عدا كون حلقات المسجد وحدها هى التى يمكن أن تأخذ فيها العلم اليومى الكثير .

لهذا كله فإنَّ واجب طُلَّاب العلم الذين أخذوا حظهم من كل فروع الثقافة الإسلامية فى المعاهد والكليات والجامعات ، أن ينقلوا ما أخذوه إلى المسجد

---

(١) الرعد : ١١

ليعطوه للعامة بشكل منظم ، كما أخذوه بشكل منظم ، ولكن مع التبسيط والتسهيل .

وإنَّ أحداً ما لا يستطيع أن يحول بيننا وبين العلم والتعليم ، ولو أراد أن يحول فعلينا أن نصبر ونتحمل والله معنا والحُجَّة واضحة .

إننا نقترح أن تنشأ في مسجد واحد ، في البلد الواحد - أو في أكثر من مسجد - الحلقات التالية :

١ - حلقة لتدريس الأصول الثلاثة . ٢ - حلقة الكتاب .

٣ - حلقة السُنَّة . ٤ - حلقة أصول الفقه .

٥ - حلقة العقائد . ٦ - حلقة الفقه .

٧ - حلقة الأخلاق الأساسية . ٨ - حلقة العربية .

٩ - حلقة معرفة التآمر على الإسلام . ١٠ - حلقة التاريخ الإسلامي .

١١ - حلقة حاضر العالَم الإسلامي .

١٢ - حلقة الدراسات الإسلامية الحديثة . ١٣ - حلقة فقه الدعوة .

وأن يكون لكل حلقة مسئول عنها ومختصون فيها .

وكل حلقة يتفرع عنها حلقات ، هذه الحلقات مهمتها إيصال هذا الجانب من الثقافة الإسلامية إلى الناس كل بحسبه ، وعلى قدر استيعابه وطاقته .

فإذا ما انتهى إنسان من حلقة انتقل إلى حلقة أخرى فأُعطي فيها ما يناسبه ، حتى يتمم المرور على كل الحلقات ، وبعد ذلك يمكن أن يدخل في حلقات المختصين ليكون جزءاً من لجنة حلقة من حلقات الاختصاص . ويكون ذلك كله بإدارة شيخ المسجد .

ولا شك أنَّ عملية التأسيس عملية شاقة ، لأن المستجيبين في الابتداء قليلون ، والثابتون منهم أقل ، والأكفاء للمشاركة في العمل أقل هذا الأقل .

وما بين الابتداء وبين أن توجد لجان اختصاص فى المسجد لكل جانب من جوانب الثقافة الإسلامية أمد بعيد ، ولا يصبر على ذلك إلا الصادقون المخلصون .

(٢)

كل جوانب الثقافة الإسلامية التى ذكرناها ضرورية للمسلم ، وأى تفريط فى أى جانب إنما يكون على حساب العمل أو الوعى أو سلامة العقيدة ، أو سلامة السير أو حسن الحركة .

ولكن الحظ الذى ينبغى أن يأخذه كل مسلم من هذه الجوانب يختلف باختلاف حال هذا المسلم من حيث الفراغ ، والنشاط ، والذكاء ، وجودة الفهم ، والإيمان، والقرب أو البعد من مراكز التلقى ، والمربى حكيم يعطى كل إنسان ما يناسبه ، ثم يدرجه باستمرار ولا يقطعه ، ويعطى كل إنسان بحسبه ، ويخاطب كل إنسان بقدر ما يسعه ، فمنهم مَن يؤمر بقراءة كتب ، ومنهم مَن يتدارس معه ، ومنهم مَن تكفيه جلسة لكل جانب .

ومَن درس حال الصحابة مع رسول الله ﷺ عرف كيف تكون التربية ويكون التعليم ، فمن الناس مَن تحمل عن رسول الله ﷺ حديثاً واحداً ، ومنهم مَن تحمل عنه القرآن كله وحظاً كبيراً من السُنَّة .

فما لا يُدرك كله لا يُترك جله .

ولكن لا بد من السعى من أجل الكمال والتكميل ، ولو لأعداد قليلة ، مع ملاحظة الابتداء مع كل إنسان بالأهم فالمهم ، فليس من المعقول أن تبدأ مع إنسان مبتدئ مدارسة كتاب طويل عن النظام الاقتصادى فى الإسلام وهو لا يعرف الصلاة وقراءة القرآن ، وليس من المعقول أن تبدأ مع إنسان غير مؤمن بغير الدعوة إلى الإيمان وإزالة الشُبهات .

إنَّ حسن الابتداء مع كل إنسان بحسبه من الحكمة .

(٣)

إنّ درساً فى الأسبوع أو جلسة علمية فى الأسبوع لا تكفى لأخذ ثقافة اسلامية مركّزة ، لذلك لا بد من المطالعة الشخصية لمن يستطيعها ، ولا بد من المدارسة فى علوم معيّنة لا تؤخذ إلا بواسطة التلقى كالفقه والتجويد .

ونحن ندعو أن يُخصص وقت معين كل يوم للعلم ، إما بعد الفجر ، أو بين المغرب والعشاء ، يذهب فيه المسلم إلى المسجد لتلقى علم من العلوم فى حلقة من الحلقات ، إنّ هذين الوقتين ينبغى أن يملأ بالعلم ، كما ينبغى أن تمتلئ المساجد فيهما على الأخص بحلقات جوانب العلم فى الإسلام .

كما ندعو إلى اللجوء إلى طريقه الدورات العلمية اليومية القصيرة التى يأخذ المسلم فيها علماً من العلوم الإسلامية ، أو مجموعة علوم بسرعة .

ماذا على المسلم لو خصص كل يوم ما بين العشائين للعلم والتعليم أو أى وقت آخر إن لم يتيسر ذلك ، وإنّ فى البكور لبركة : « بورك لأمتى فى بكورها » [١] .

(٤)

بعض الناس يفر من الحلقات والمدارسة لأنه يرى أنه يستطيع أن يحصّل أكثر منفرداً ، وبعض الناس يفر من كل ما هو عام إلى ما هو خاص . وبعض الناس لا يحب أن يربط نفسه بقيود أو مواعيد أو حدود .

والذى نقوله فى هذا : إنّ ما يُحصّله الإنسان فى الحلقات والمدارسة أكثر بركة وثباتاً مما يُحصّله منفرداً ، وللحلقات العامة بركتها ، وإلزام الإنسان نفسه بالخير أجدى عليه دنيا وأخرى .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة .

إنَّ المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

والمؤمن يحرص على الاجتماع بإخوانه على الخير لأن لذلك آثاراً طيبة ، والعلم فى المسجد له نوره الخاص ، وإنَّ مَن يتخرج من مدرسة المسجد ، غير الذى يتخرج من مدرسة أخرى .

(٥)

إننا نوصى أى مسلم يبدأ السير فى طريق استكمال ثقافته الإسلامية ، أن يخصص له ورداً من الذكر المأثور ، كما نوصى أى مسلم له دور توجيهى أن يعلق من يوجههم بالذكر اليومى من استغفار ، لصلاة على النبى ﷺ ، لتهليل ، أو تسبيح ، أو تحميد ، لقراءة قرآن ، فإنَّ ذلك لا بد منه لإحياء القلب ، وتمتين الإيمن فيه . قال تعالى : ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١) ، وقال عليه السلام فى الحديث الصحيح : « مَثَل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كمثل الحى والميت » (٢) .

إنَّ تعلق قلب الإنسان ولسانه بالذكر حتى يكون الشغل الشاغل له ، مع العلم ، هو الطريق إلى الكمال .. واللّه هو الهادى .

* * *

---

(١) الرعد : ٢٨

(٢) رواه البخارى عن أبى موسى الأشعرى فى كتاب « الدعوات » . باب « فضل ذكر اللّه عزَّ وجَلَّ » ، وورواه مسلم بمعناه .

القسم الثانى

جند الله .. أخلاقاً

المقدمة : فى الأخلاق الأساسية

(١)

من أهم ما ينبغى أن يعرفه المسلم : الأخلاق الإسلامية الجامعة التى لا يُستكمل بناءه الأخلاقى إذا فقد واحداً منها ، ولعل من أهم ما وقع التفريط فيه من قبَل المسلمين هو هذا ، فقد ضخّم بعضهم خُلُقاً من أخلاق الإسلام ، وصغّروا خُلُقاً آخر ، مع أنهما قد يكونان فى ميزان الإسلام سواء ، مما أدى إلى ضياع كثير من أمهات الأخلاق الإسلامية ، ونسيان المسلمين لها ، ونتج عن ذلك أن فقدت الشخصية الإسلامية جمالها وكمالها وتناسق سلوكها وتكامله .

فمثلاً : من السور التى يحفظها كل مسلم قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ (١) .

فأنت ترى أنَّ هذه السورة قد جمعت أربعة أخلاق لو نقص خُلق منها لوقع الإنسان فى الخسران ، بينما نجد عملياً أنَّ الخُلُقين الأولين قد سُلّطت عليهما أضواء التطبيق ، بينما أهمل الخُلُقان الآخران إلا فى النادر .

وزاد الطين بلّة ، أنَّ كثيراً من الأخلاق التى سُلّطت عليها الأضواء أكثر من غيرها ، لم تُفهم الفهم الصحيح المستوعب لكل جوانبها ، وأبرز مثال على ذلك ، وعلى ما قبله ، موقف كثير من المسلمين من أمثال هذه الآية :

---

(١) سورة العصر .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١)

فههنا عُلّق الفلاح على أخلاق ثلاثة : التقوى ، وابتغاء الوسيلة ، والجهاد . والملاحَظ أنّ الجهاد لم يأخذ من عناية المسلمين ما أخذته التقوى ، ولكن التقوى نفسها لم تُفهم فهماً شاملاً صحيحاً كما وضّحها القرآن ، وقُلْ مثل هذا كثير فى كثير من الأخلاق الإسلامية الأساسية .

(٢)

وهذا مكمن الفَرق بين شخصية المسلم الأول فى القرون الأولى ، وبين شخصية المسلم فى العصور التى تلت : المسلم الأول لا تشاء أن ترى خُلقاً من أخلاق الإسلام إلا وجدته فيه ، أما المسلم الآخر فصرتَ ترى جوانب من الإسلام متضخمة عنده ، وأخرى قد فُرّطَ فيها .

المسلم الأول كان عالماً ، وزاهداً ، وعابداً ، ومقاتلاً ، وداعياً ، وجريئاً ، وصريحاً ، وحكيماً ، ولسناً ، وسياسياً ، وإدارياً ، وكيّساً ، وفَطناً ... والمسلم الآخر لم يعد كذلك ، صرتَ تجد عالماً لا يعرف القتال ، ومقاتلاً لا يعرف الله ، وسياسياً ليس عليماً ولا حكيماً ، وهكذا ضاعت الشخصية الإسلامية النموذجية التى يُفترض أن يكون عليها كل مسلم فلم نرها إلا بأفراد .

(٣)

لذلك وجدنا أنه لا بد من أن تُعاد إلى الأذهان الصورة الصحيحة للأخلاق الأساسية فى الإسلام ، التى إذا فقد المسلم خُلقاً منها كان على شفة هلكة ، وأردنا كذلك أن نعطى لك خُلُق من هذه الأخلاق مدلوله الصحيح ومضمونه

---

(١) المائدة : ٣٥

الواسع المستمَد من الكتاب والسُنَّة ، وحاولنا ألا ننسى تبيان الطريق الذى يتحقق به المسلم بهذه الأخلاق ، والأمل بفضل الله كبير ، أن تعود الأخلاق الإسلامية إلى الظهور مرة ثانية ليحيا بها الإسلام من جديد ، ولتحيا بعد ذلك الأرض بالإسلام من جديد وتتطهر .

(٤)

ولا شك أنَّ الأخلاق الأساسية فى الإسلام كثيرة ، ولكن عند التتبع يجد الإنسان أنَّ كثيراً من الأخلاق التى ذُكِرت فى الكتاب والسُنَّة تتفرع عن أصل جامع ، ولما كانت غايتنا هى الوصول إلى هذه الأصول الجامعة التى تتفرع عنها كل الأخلاق الأخرى . ولا يصح التفريط فى واحد منها ، اتجه البحث عن هذه الأخلاق ، وبعد التتبع وُجِدَ أنَّ أمهات الأخلاق التى تتفرع عنها كل الأخلاق الإسلامية هى التى وصف الله عَزَّ وجَلَّ بها حزبه فى القرآن ، إذ وجدنا أنه ما من خُلُق فى الإسلام إلا ويرجع إلى صفة من هذه الصفات .

ولكى نرى المسألة بوضوح نعيد بعض ما ذكرناه فى المقدمة ..

إنَّ كلمة حزب الله ذُكِرت مرتين فى القرآن : مرة فى سورة المائدة ، ومرة فى سورة المجادلة .

أما فى سورة المائدة فقد ذُكِرَت بعد هذه الآيات :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) .

---

(١) المائدة : ٥٤ - ٥٦

والملاحَظ أنَّ هذه الآيات كلها تصف حزب الله ، بدليل ذكر الغَلَبة فى الأخير، والردة فى الأول . والقوم الذين يقفون فى وجه الرِدَّة فى الوسط . فلا بد أنَّ الذين يستحقون الغَلَبة هم هؤلاء القوم الذين يجابهون المرتدين ، وبالتالى فهم حزب الله .

وأما فى سورة المجادلة فقد ذُكرت كلمة « حزب الله » بعد ما يلى :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وبعد التحقيق نجد أنَّ ما من صفة ولا خُلُق ذُكر فى القرآن إلا ويمكن إرجاعه إلى واحد من الأخلاق المذكورة فى هذين النصين . فمثلاً التقوى مرجعها إلى الصفة الأولى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (٢) لأنَّ الله يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) ، والصلاة مرجعها إلى التقوى لأن الله يقول : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ (٤) ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مرجعه إلى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (٥) ... وعلى هذا قِسْ .

(٥)

ولا بد هنا من الإشارة إلى شئ هو : أنَّ إحياء هذه الأخلاق مجتمعة هو الطريق الوحيد للقضاء على الرِدَّة أو شبه الرِدَّة الحالية المنتشرة فى العالَم الإسلامى .

---

(١) المجادلة : ٢٢ (٢) المائدة : ٥٤ (٣) التوبة : ٤

(٤) البقرة : ٢ - ٣ (٥) المائدة : ٥٤

لأنّ آيات المائدة تذكر أنّ الردّة - حال وقوعها - لا يقف لها ولا يصمد لها ولا يقضى عليها إلا قوم اصطفاهم الله لذلك ، وهم المتصفون بالصفات التى أشارت إليها الآيات ، فلا يمكن إذن أن يكون غيرهم ممن فقد صفة من هذه الصفات مرشحاً للقيام بمثل هذا العبء الجليل الخطير .

وعلى هذا فدراستنا لهذه الأخلاق ينبغى أن تكون عملية ، القصد منها التطبيق والتحقق قبل أى شئ آخر .

مثل هذه الدراسة تحتمها مسئوليتنا أمام الله ، وقد وُجدنا فى مثل هذا العصر :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٢) .

(٦)

وقد ذكرت الآيات التى ذكرناها خمسة أخلاق هى :

١ - ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ..

٢ - ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ..

٣ - ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ..

٤ - ﴿ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (٣) .

٥ - ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (٤) .

والملاحَظ أنّ آيات المجادلة أشارت إلى الصفة الخامسة فقط على اعتبار أنها ذروة صفات حزب الله ، ولا يكون الإنسان مستجمعاً صفات حزب الله ،

---

(١) آل عمران : ١٤٢   (٢) محمد : ٣١

(٣) المائدة : ٥٤   (٤) المائدة : ٥٥

حتى يجمع الصفات الخمس كلها ، فمَن لم يكن ذليلاً على المؤمنين فليس من أهل هذا المقام ، ومَن لم يجاهد فليس من أهل هذا المقام ، ومَن لم يحب الله ويحبه الله ، فليس من أهل هذا المقام ، ومَن والى غير المؤمنين فليس من أهل هذا المقام ، ومَن والى غير الله والرسول ﷺ فليس من أهل هذا المقام .

(٧)

وعلى هذا فسنكتب خمس فقرات عن هذه الخمس صفات ، نرى فيها ما تغذيه كل صفة ، وما يدخل فيها من أخلاق ، ونرى فيها أنَّ كل الأخلاق الإسلامية ترجع إلى هذه الصفات الخمس ، والفقرات الخمس هى :

الفقرة الأولى : الولاء .

الفقرة الثانية : المحبة

الفقرة الثالثة : الذلّة على المؤمنين .

الفقرة الرابعة : العزّة على الكافرين .

الفقرة الخامسة : الجهاد .

فتتضح معنا صفات حزب الله ، وصفات الجماعة التى تستأهل نصر الله، وصفات الإنسان المرشّح لحمل رسالة الله ، ونعرف بداية الطريق لإنهاء هذه الردّة الحاضرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[1] .

فإلى الفقرة الأولى ...

* * *

---

(١) المائدة : ٥٤ - ٥٦

الفقرة الأولى – فى الصّفة الأولى
تحرير الولاء : للّه والرسول والمؤمنين

(١)

ليس هناك شئ يُعيِّن كون الإنسان من حزب اللّه ، أو حزب الشيطان كالولاء ، فلا الصلاة ، ولا الزكاة ، ولا الحج ، ولا الصوم ، ولا غير ذلك من أعمال الإسلام يجعله من حزب اللّه إذا خُدِش ولاؤه ، وإذا صَحّ ولاءه فإنه يكون من حزب اللّه على تقصير فى العمل ، وفى الحديث : « مَن فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وإن صلّى وصام وزعم أنه مسلم » . ويؤكد هذا المعنى الذى ذكرناه كثير من آيات القرآن . فقد قال اللّه عَزّ وجَلّ فى وصف المنافقين : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

(٢)

لذلك فإننا نلاحظ كل مرة ذُكِرت فيها كلمة « حزب اللّه » فى القرآن إنما ذُكِرت بجانب الولاء مقيّدة فيه ، مما يدل على أنّ الولاء هو الميزان الذى يوزن إيمان الإنسان به .. قال تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الغَالِبُونَ ﴾ (٢) .

﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِىَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ، أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) النساء : ١٣٨ – ١٣٩ (٢) المائدة : ٥٦ (٣) المجادلة : ٢٢

فهاتان الآيتان بيّنتا أنه لا يكون الإنسان من حزب الله إلا إذا حرّر ولاءه ومّودته ، فلم يعطهما لعدو لله مهما كان نوعه ، بل يعطيهما لله ورسوله والمؤمنين ، وهذه هي الصفة الأولى للمؤمنين : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ (١) .

(٣)

فلا ولاء في الإسلام إلا على أساسه النظرى والعملى ، وكل آصرة أخرى يعطى الناس ولاءهم على أساسها آصرة باطلة ، والولاء على أساسها باطل ، ولا يكون الإنسان معها من المؤمنين .

فآصرة العمل الذى يتلاحم عليها الشيوعيون ويتآخون غير معتبرة شرعاً وباطلة . وآصرة القومية التى يتآخى عليها القوميون غير معتبرة شرعاً وباطلة . وآصرة الوطن التى يلتقى عليها الوطنيون غير معتبرة وباطلة . وآصرة الإنسانية التى يلتقى عليها الماسون غير معتبرة شرعاً وباطلة .

فالمسلم الذى يعطى ولاءه للشيوعيين بجامع العقيدة الشيوعية والعمل المشترك لم يعد مسلماً .

والمسلم الذى يعطى ولاءه للقوميين على كفرهم بجامع مصلحة القوم المتوهّمة لم يعد مسلماً .

والمسلم الذى يعطى ولاءه للوطنيين مع عدم اعتصامهم بحبل الإسلام بجامع مصلحة الوطن المتوهمة لم يعد مسلما .

والمسلم الذى يعطى ولاءه لكل ماسون العالم من كفرة وملحدين ومرتدّين بجامع الإنسانية لم يعد مسلماً .

---

(١) التوبة : ٧١

إنَّ اللّه يأبى علينا أن نعطى ولاءنا إلا بجامع الإيمان والإسلام :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (١) .

وما ذكرناه من الأواصر إنما هو تمثيل لا إحاطة . وإلا فكل أنواع الموالاة على أى آصرة من الأواصر غير آصرة الإسلام باطلة ومخرجة لصاحبها عن الإسلام . كآصرة دين غير دين الإسلام ، أو آصرة الأخوة ، أو البنوة ، أو الزوجية ، أو العشيرة ، أو القبيلة ، أو المهنة ، أو البلد ، أو اللون ، أو القارة ، أو النادى .

إنَّ اللّه حرَّم على المسلم أن يعطى ولاءه على أى أساس غير أساس العقيدة السليمة الصحيحة ، وما قدَّمناه من نصوص لا يدع مجالاً للشك فى هذا الأمر . والنصوص فى هذا كثيرة ، قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاءَ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾ (٢) .. أى إنَّ هذا غير ممكن لأن عباد اللّه لا يوالون أحداً من دون اللّه فكيف يوالون أعداء اللّه . وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

والوليجة فى اللغة : البطانة ، والخاصة ... واللّه أعلم .

(٤)

وإذا أردنا أن نصوغ المسألة بشكل آخر نقول :

إنَّ اللّه عَزَّ وجَلَّ حرَّم على المؤمن أن يعطى ولاءه للكافرين على اختلاف أنواعهم ، كما حرَّم عليه أن يعطى ولاءه للمنافقين على اختلاف أنواعهم . ومتى أعطى المؤمن ولاءه للكافرين فقد صار منهم ، ومتى أعطى ولاءه للمنافقين

---

(١) الممتحنة : ٤ (٢) الكهف : ١٠٢ (٣) : التوبة : ١٦

صار منهم ، وإذا أعطى ولاءه للمؤمنين صار منهم إذا أدى حق الإيمان ، وهذه نصوص قطعية فى الموضوع لا تحتمل جدلاً :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٥) .

﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (٦) .

ومعنى ﴿ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ : أى إلاَّ أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه ، فالله عزَّ وجلَّ منع من موالاتهم ظاهراً وباطناً إلا وقت المخافة، أما فى حالة الاختيار فلا يجوز بشكل من الأشكال .

---

(١) التوبة : ٦٧ (٢) الأنفال : ٧٣ (٣) المائدة : ٥١

(٤) المائدة : ٥٧ - ٥٨ (٥) التوبة : ٢٣ (٦)آل عمران : ٢٨

وإذا وضح أنه لا يجوز موالاة الكافر أو المنافق فهل يجوز موالاة المؤمن الفاسق ؟ لقد حدَّد اللّٰه صفات مَن يجوز لنا موالاته بقوله :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (١) .

فقد استعمل أداة الحصر « إنما » التى تحصر الحكم فيما بعدها مما يفيد أنَّ المؤمنين المتصفين بهذه الصفات هم وحدهم الذين تجوز موالاتهم ، أما إنسان يدَّعى الإيمان ولا يُصلِّى ولا يُزكِّى فلا يعطى الولاء ، وكذلك إذا كان فاسقاً بالمفسقات الأخرى ، وكلامنا هذا كله فى حالة الاختيار أما فى حالة الإكراه فالأمر له أحكامه الخاصة .

(٥)

وإذا كان الولاء لا يُعطَى لكافر أو منافق فلا بد من معرفة الكافرين والمنافقين ، ونخص هذا المقطع بالكافرين .

لقد مَرَّ معنا فى مبحث الشهادتين فى كتابنا عن الإسلام كثير من النواقض لهما ، التى يكون بها الإنسان كافراً . وفى هذا المقطع نشير إشارة إلى بعض مظاهر الكفر .

كل مَن لم يدخل فى الإسلام فهو كافر سواء أكان نصرانياً أو يهودياً أو بوذياً أو مجوسياً أو هندوسياً أو وثنياً أو لا دينياً ملحداً ، سواء أكان شيوعياً أو وجودياً أو غير ذلك ، والأصل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (٣) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ (٤) ، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ

---

(١) المائدة : ٥٥

(٢) آل عمران : ١٩

(٣) آل عمران : ٨٥

(٤) البينة : ٦ ، والبرية : الخلائق أو البشر .

اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (١) ، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقاً ﴾ (٣) .

ومَن دخل فى الإسلام ثم عمل عملاً أو اعتقد اعتقاداً ينقض الشهادتين فقد كفر وارتد واستحق القتل ، ولكن لا نقتله بردّته ندباً إلا بعد البيان له وإصراره ، ومن أمثلة ما ينقض الشهادتين كما مرّ : أن يسجد لصنم ، أو يُصلّى صلاة الكافرين ، أو يعبد غير اللّه ، أو يستهزئ بشئ من نصوص الكتاب والسُنّة ، أو يُكذّب به ، أو يستهزئ بشعيرة من شعائر الإسلام ، أو يحل ما حرّم اللّه ، أو يحرِّم ما أحلّ اللّه ، أو ينكر شيئاً معلوماً من الإسلام بالضرورة ، ككون الأمة الإسلامية أمة واحدة ، أو ينفى وجود هداية اللّه فى جانب من جوانب الحياة كالحياة الاقتصادية ، أو يعتمد على الأسباب ناسياً السبب ، أو يحكم بغير ما أنزل اللّه مفضّلاً إياه على حكم اللّه ، أو أن يرد شيئاً من دين اللّه ، أو ألا يُكفِّر من حكم اللّه بكفره ، وأشياء كثيرة مما مرّ معنا ويمر ، ويجد تفصيلاتها الإنسان فى كتب الفقه .. كل ذلك يجعل الإنسان كافراً تجب محاربته وتحرم موالاته .

(٦)

وأما النفاق فإنه شر من الكفر لضرر أصحابة بالمسلمين لعدم وضوحهم ولخداعهم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ المُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) المائدة : ٧٢ (٢) المائدة : ٧٣ (٣) النساء ١٥٠ - ١٥١

(٤) النساء : ١٤٥ (٥) البقرة : ٨ - ١٠ .

ولما كان المنافقون بهذه المثابة فإنهم خطرون ، لذلك كانت معرفتهم من أهم ما ينبغى آن يُحصِّله المسلم حتى لا يعطيهم ولاءه فيضلوه عن صراط اللّه ويفصلوه عن جسم المسلمين .

وقد حدَّد اللّه عَزَّ وجَلَّ طريقة معرفة المنافقين بقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القَوْلِ ﴾ (١) .. علّق معرفتهم بسيماهم على مشيئته وأكد معرفتهم بواسطة لحن القولَ .

فأقوالهم وأفعالهم هى التى تحدد لنا هويتهم ، وقد أكثر اللّه عَزَّ وجَلَّ من وصف أقوالهم وأفعالهم كثرة تدعو إلى التأمل الكبير ، وبنفس الوقت تدلنا عليهم دلالة لا يبقى معها شك ، ومن رحمة اللّه بنا أنَّ هؤلاء المنافقين لا يتركهم اللّه عَزَّ وجَلَّ دون فضح أمرهم . قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ (٢) .

بعد هذه المقدمة عن المنافقين نبدأ باستعراض الآيات والآثار التى دلتنا على صفاتهم :

(أ) قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٣)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) محمد : ٣٠ . (٢) محمد : ٢٩ (٣) البقرة : ١١ - ١٢

(٤) البقرة : ١٣ (٥) البقرة : ١٤ - ١٦

قَصَّ اللّه علينا فى هذه الآيات نمطاً من أقوالهم وسلوكهم وأخلاقهم ، فهم لا يمسكون بكتاب اللّه حتى يكونوا مصلحين ، بل يفسدون فى الأرض بتهديم شريعة اللّه ويظنون أنفسهم أنهم مصلحون ، كواقع الملايين من الناس الآن، الذين يطلقون على أنفسهم اسم التقدميين والأحرار المصلحين والمتنورين ، وهم إنما يدعون للفساد فى الأرض .

ثم هم رأيهم فى المؤمنين سئ ، يتهمونهم ويسفهون آراءهم ويرفضون اتباعهم والسير معهم كواقع الملايين من أبناء المسلمين اليوم ، إذ يحتقرون أهل الإيمان ويتهمونهم بأبشع التهم : كالرجعية ، والجمود ، وعدم العقل والفهم ..

ثم هم مع أهل الإيمان يظهرون الإيمان ، بل يحلفون أنهم مؤمنون باللّه والإسلام ، ولكنهم عندما يجتمعون مع رؤساء الضلالة والكافرين يقولون لهم : إننا نضحك على أولئك بكلامنا ذاك لهم ، كواقع كثير من أبناء المسلمين ، تراه مع أهل الدين على نوع من الأدب ، فإذا اجتمع إلى سادته فى الحزب أو فى المحفل ممن كفر باللّه كالشيوعيين وأمثالهم يقول : إنما نفعل هذا سياسة لخداعهم .

وقد تجد هذه المعانى فى الزعماء الذين يتظاهرون بالإسلام ، كما نجدها فى الأتباع ، ولكن فى الغالب تجد الزعماء يجهرون بشئ من الكفر الذى ينقض دعوى الشهادتين عندهم .

(ب) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ (١) .

هذه الآيات أبرزت سمة جديدة من سمات المنافقين : فالطاغوت كل متعد ، وكل رأس ضلال ، وكل معبود من دون اللّه ، وكل صارف عن طريق الخير .

---

(١) النساء : ٦٠ - ٦١

فهؤلاء المنافقون يأبون أن يُحكِّموا الله ورسوله ويصدون عن ذلك ، ويعرضون إذا دُعوا إليه مع رضاهم بتحكيم الطاغوت .

وهذا مظهره فى الأفراد العاديين واضح ، كأن يرفضوا القضاء الإسلامى، أو الحكم الشرعى رغبة عنه إلى قانون جائر غير إسلامى .

وأما مظهره فى الزعماء فكأن يدعو إلى غير الكتاب والسنّة ، أى إلى غير الإسلام ، ويريدون أن يستبدلوا بالإسلام شيئاً آخر ، وإذا ذُكِّروا بالله وشريعته غضبوا وانتقموا وأعرضوا ، فهؤلاء أفظع من أن يكونوا منافقين بل هم طواغيت بلا تردد .

وشبيه بهذه الآيات آيات سورة النور:

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ، وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ، بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

(جـ) ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

فمن صفات المنافق أنه يأمر بالمنكر : كعقوق الوالدين والزنا والخمر والتبرج وترك دين الله وشريعته .

وينهى عن المعروف : فإذا رأى إنساناً ذاكراً لله عنفه ، وإذا رأى انساناً صائماً سفهه ، وإذا رأى إنساناً ماشياً فى طريق الخير دعاه إلى تركه ، وإذا رأى إنساناً أعفى لحيته سخر منه ونهاه عن ذلك ...

---

(١) النور : ٤٧ – ٥٠ .

(٢) التوبة : ٦٧

ويقبض يده : فلا يُطعم مسكيناً ولا يعطف على يتيم ولا يُخرج صدقة لله .

وينسى الله : فلا يذكره ولا يعبده ، وإذا ذكره أو عبده فرياءً وسمعة وبثقل .

وشبيه ببعض ما فى هذا النص قوله تعالى - على رأى مَن فسَّر السورة كلها بأنها فى المنافقين : ﴿ أرَأَيْتَ الَّذى يُكَذِّبُ بالدِّين (١) * فَذَلكَ الَّذى يَدُعُّ اليَتيمَ * ولَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المسْكين * فَوَيْلٌ لِّلمُصَلِّينَ * الَّذينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ ﴾ (٢) .

(د) ﴿ بَشِّرِ المُنَافقِينَ بأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أليماً * الَّذينَ يَتَّخذُونَ الكَافرينَ أَوْليَاءَ مِن دُونِ المُؤْمنينَ ، أَيَبْتَغُونَ عندَهُمُ العزَّةَ فَإنَّ العزَّةَ للَّه جَميعاً ﴾ (٣) .

فهذه صفة أولى فى هذه الآيات : أنهم يوالون الكافرين ابتغاء العزَّة عندهم .

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الكتَابِ أَنْ إذَا سَمعْتُمْ آيَاتِ اللَّه يُكْفَرُ بهَا وَيُسْتَهْزَأُ بهَا فَلَا تَقْعدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَديثٍ غَيْره ، إنَّكُمْ إذاً مِّثْلُهُمْ ، إنَّ اللَّهَ جَامعُ المُنَافقِينَ وَالكَافرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَميعاً ﴾ (٤) .

وهذه صفة ثانية : أنَّ المنافقين يبقون جالسين مع الكافرين ولو كانوا يكفرون بآيات الله أو يستهزءون بها .

﴿ الَّذينَ يَتَرَبَّصُونَ بكُمْ فَإن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّه قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإن كَانَ للْكَافرِينَ نَصيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ المُؤْمنينَ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ للْكَافرِينَ عَلَى المُؤْمنِينَ سَبيلاً ﴾ (٥) .

---

(١) يُكذِّب بالدين : يجحد الجزاء لإنكاره يوم البعث ، والماعون : إما الزكاة ، وإما ما يُستعار فى العادة فيتعاور .
(٢) سورة الماعون كاملة .

(٣) النساء : ١٣٨ - ١٣٩ (٤) النساء : ١٤٠ . (٥) النساء : ١٤١

وهذه صفة ثالثة : أنّ المنافقين يقفون على الحياد ظاهرياً فى الصراع ما بين المؤمنين والكافرين ، فإن انتصر المؤمنون ادّعوا أنهم كانوا معهم ، وإن انتصر الكافرون ادّعوا أنهم كانوا معهم بدليل أنهم لم يقاتلوا مع المؤمنين ، فكأن عدم قتالهم مع المؤمنين منع للمشركين من المسلمين واستيلاء عليهم ، والاستحواذ هو الاستيلاء . وشبيه بهذه الآية :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [1] ..

فالمؤمن يتحمل لظى المعركة مع إخوانه المؤمنين مهما كانت ألوانها ، أما الحياد خوف الأذى فتلك طبيعة المنافقين .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ [2] .

أكدت هذه الآيات صفة الحياد الظاهرى للمنافقين فى المعركة الدائرة الدائمة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، وأكدت مراءاة المنافقين فى صلاتهم ، وقلة ذكرهم لله ، وكسلهم فى عبادة الله ، ولعل ما يوضح هذا الجانب ما ورد فى الحديث : « تلك صلاة المنافق : يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » [3] .

(١) العنكبوت : ١٠ - ١١   (٢) النساء : ١٤٢ - ١٤٣

(٣) رواه الترمذى عن العلاء بن عبد الرحمن وقال : حسن صحيح ، وهو عند مسلم والنسائى ومالك وأبو داود .

(هـ) وقال عليه السلام : « أربع مَن كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومَن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خُصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أوتمنَ خان ، وإذا حدَّثَ كَذَب ، وإذا عاهدَ غَدَرَ ، وإذا خاصَمَ فَجَر » [1] .

والآيات التى وصفت المنافقين فى القرآن كثيرة ، بحيث دلت المسلم على كل صغيرة وكبيرة من أمرهم ، ولعل فى سورة « براءة » وسورة « المنافقون » بياناً كافيا لما قلناه ، أما فى هذا البحث فنجتزئ بما قدمناه من صفاتهم الأساسية لكفايتها فى الإشارة عليهم . وإنما سقنا هذا الكلام كله ليعرف المسلم المنافقين فيمنعهم ولاءه ، وكيف يعطى المسـلم ولاءه لهم والله يصفهم بقوله : ﴿ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [2] .

ونهانا عن مجرد الركون إلى الظالمين فقال : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [3] .

(٧)

الآن وقد علمنا أنَّ المسلم لا يكون مسلماً ما لم يحرِّر ولاءه لله والرسول والمؤمنين ، وأنه لا يجوز للمسلم أن يعطى ولاءه لأى آصره مهما كان نوعها إلا آصرة الإسلام ، وأنه لا يجوز أن يعطى ولاءه للكافرين والمنافقين .

بقى أن نعرف : ما هو هذا الولاء ؟ وما هى مظاهره النظرية والعملية ؟

أما الولى فى اللغة فيطلق على المحب والصديق والنصير والحليف والتابع وأشياء أخرى على حسب الاستعمال ، ولا يبعد الولاء بالاصطلاح القرآنى عن هذه المعانى ، غير أننا نؤثر استخراج مظاهر الولاء ومعانيه من خلال النصوص القرآنية والحديثية فهى أعمق فى الدلالة على ذوات الأشياء ومواصفاتها ، وهذه بعض نصوص الكتاب والسُنَّة التى تحدد مظاهر هذا الولاء المحرَّم الذى يصير به المؤمنون منافقين والذى يخرج به المسلم عن صفة الإسلام .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى كلهم فى كتاب « الإيمان » عن عبد الله بن عمرو .

(٢) النور : ٥٠ .   (٣) هود : ١١٣

(أ) من أول مظاهر الولاء :

١ - النُصرة .

٢ - عدم طاعة الله فى الكافرين .

٣ - ربط المصير بالمصير .

نأخذ هذا من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ (١) .

ويدخل فى هذا النوع من الولاء أعمال كثير من السياسيين الذين يدافعون عن الكافرين والملحدين ، سواء أكانوا أفراداً أو جماعات أو أحزاباً . ويدخل فى ذلك أعمال كل مَن انتسب لحزب ضال يقوم على غير آصرة الإسلام .

(ب) ومن مظاهر الولاء إعطاء الكافرين أسرار المؤمنين ، نأخذ هذا من سبب نزول الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ (٢) .. قال ابن كثير : كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة - أى سورة المنافقين التى صدرها هذه الآية - قصة حاطب بن أبى بلتعة (٣) ، وذلك أنَّ حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفاً لعثمان ، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد أمر النبى ﷺ المسلمين بالتجهز لغزوهم وقال : « اللهم عَمِّ عليهم خبرنا » فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله ﷺ استجابة لدعائه ، فبعث فى أثر المرأة فأخذ الكتاب منها .

---

(١) الحشر : ١١ (٢) الممتحنة : ١

(٣) حاطب رجل صالح زلّت به القدم ، وتاب توبة نصوحاً ، وكان ممن شهد بدراً فعفا عنه رسول الله ﷺ .

فإخبار الكافرين بأسرار المؤمنين لدفع خطط المؤمنين ، أو لتوقى الكافرين من المؤمنين ولاء يخرج من الإيمان : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ (١) .

(جـ) ومن مظاهر الولاء « المحبة والمودّة » :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٢) ، « المرءُ مع مَن أحبَّ » (٣) .

وقال ابن مسعود : « لو صلّى عبد الله بين الحجر والمقام سبعين عاماً لم يحشره الله إلا مع مَن أحب » ، فكونك تجد إنساناً عواطفه مع الكافرين والمنافقين يميل إليهم ويحبهم ، ويتمنى انتصارهم ، فذلك ولاء من أعظم الولاء ، فمَن مال بقلبه إلى قوم يعملون المعاصى ورضى أعمالهم كان منهم وعليه مثل وزرهم وإن كان بعيداً عنهم ، وفى الحديث : « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان مَن شهدها فكرهها - وقال مرة : « أنكرها » - كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » (٤) .

(د) ومن مظاهر الولاء المجالسة للكافرين والمنافقين اختياراً ، وسماع كلامهم القبيح مع الاستمرار فى الجلسة دون الرد أو الغضب أو الخروج قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ (٥) .

---

(١) النساء : ١٤٦ (٢) المجادلة : ٢٢

(٣) متفق عليه من حديث شعبة عن قتادة عن أنس ، قال العسقلانى : الحديث مشهور أو متواتر لكثرة طرقه ، وقال بعض العلماء : هذا الحديث مشروط بشرط أنه إذا أحبهم عمل بمثل أعمالهم .

(٤) رواه أبو داود فى كتاب « الملاحم » باب « فى الأمر والنهى » تحت رقم (٤٣٤٥) عن محمد بن العلاء بسنده إلى العرس بن عميرة الكندى ، والعرس بن عميرة الكندى - بضم أوله وسكون الراء بعدها مهملة - قال فى التقريب : « قيل صحابى » ، ورمز السيوطى لصحته .

(٥) النساء : ١٤٠ .

هكذا : ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ﴾ ، والأحاديث عن الرسول ﷺ تفيد أنَّ مجرد تكثيرُ السواد كائناً ما كان يجعل الإنسان مع القوم ، فمَن كثَّر سواد الكافرين فهو منهم ، ومَن كثَّر سواد المنافقين فهو منهم ، وفى الحديث : « مَن كثَّر سواد قوم فهو منهم » (١) .

ويدخل فى ذلك مظاهر كثيرة منها : أن ينتسب الإنسان إلى نادٍ للكافرين ، أو الملحدين ، أو الإباحيين ، أو الشهوانيين ، أو يشارك الإنسان فى مظاهرة لأمثال هؤلاء ، أو يحضر ناديهم أو منتداهم ، أو مراكز دعوتهم ، أو يحضر احتفالاتهم ، أو يسمع لخطبهم إلا إذا كان مكلَّفاً ...

ويدخل فى ذلك : الانتساب إلى حزب ضال كافر ، وتأييد مرشحيه وانتخابهم ، فذلك أعظم أنواع الولاء فى عصرنا ، ولا شك ولا ريب أنَّ مَن يفعل ذلك قد خرج من دائرة الإيمان إلى دائرة النفاق ، ومن الجماعة إلى الفُرقة ، وقد قال عليه السلامُ : « مَن فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم » .

(هـ) ومن مظاهر الولاء : الطاعة ، فمن أطعته فقد توليته ، ومن كلام إبراهيم لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ (٢) .

وولاية الشيطان طاعته والاستجابة له : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ (٣) .

---

(١) رواه أبو يعلى وعلى بن معبد عن عبد الله بن مسعود فى كتاب « الطاعة » وله تتمة ، وكذا الديلمى وابن المبارك عن أبى ذر موقوفاً .

(٢) مريم : ٤٥ — (٣) إبراهيم : ٢٢

وقد حرّم اللّه عزّ وجلّ علينا طاعة أصناف الكافرين والمنافقين حتى لا نكون منهم ، وجعل طاعتهم ردّة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ ﴾ (١) .

وقد فصّل القرآن فى أصناف مَن لا تجوز لنا طاعته تفصيلاً كثيراً حتى لا نهلك :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ (٣) .

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ (٤) مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (٥) * مَّنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ (٦) بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (٧) * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ (٨) الأَوَّلِينَ ﴾ (٩) .

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ (١٠) .. أى وكان أمره تقدماً على الحق ونبذا له وراء ظهره .

﴿ وَلَا تُطِيعُواْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (١١) ، وكل من لم يمسك بكتاب اللّه فهو مسرف مفسد كما سنرى :

---

(١) محمد : ٢٥ - ٢٦ (٢) الأنعام : ١١٦ (٣) الأحزاب : ٤٨

(٤) همّاز : عيّاب ، أو مغتاب للناس .

(٥) مشّاء بنميم : بالسعاية والإفساد بين الناس .

(٦) عُتُل : فاحش لئيم ، أو غليظ جاف .

(٧) زنيم : دعى مُلصَق بقومه . (٨) أساطير : أباطيل . (٩) القلم : ٨ - ١٥

(١٠) الكهف : ٢٨ (١١) الشعراء : ١٥١ - ١٥٢

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ (١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (٢) .

(و) ومن مظاهر الولاء : التشبه ، قال عليه السلام : « مَن تشبَّه بقوم فهو منهم » (٣) .

فمن تشبَّه برسول الله وصُحبه فقد والاهم وهو منهم ، ومَن تشبَّه بالكافرين فهو منهم ، كأولئكم الذين يقلدون شوارب ستالين . أو شوارب الممثلين ، أو يقلّدون الخنافس . أو يضعون شارة الشيوعيين ، أو صليب النصارى . وكل ما هو خاص بالكافرين وشعار عليهم من عادات وتقاليد إذا تشبَّه به الإنسان كان ذلك نوعاً من الولاء لأهله ، وهو بالتالى نفاق . ولا يدخل فى ذلك الأشياء المشتركة بين الناس ، فكل الناس يأكلون ويشربون ويلبسون ، ولكن الكلام على ما هو شعار خاص بالكافرين ، إذا تشبَّه بهم الإنسان فهو نفاق وصار به منهم .

وللولاء مظاهر أخرى يجدها الإنسان إذا تتبع آيات الله الواردة فى الموضوع واقتصرنا نحن على أمهات مظاهره .

ولعل أعظم مظهر عملى للولاء المحرَّم الذى يخرج به صاحبه من الإسلام فى عصرنا : هو الولاء لحزب غير حزب الله مهما كان نوع الحزب والأسس التى قام عليها ، ما دام لا تتمثل فيه صفات حزب الله وأخلاقه وأهدافه . وذلك أنَّ نظام الحزبية الحاضرة يقوم على إعطاء الولاء الكامل فى فروعه كلها للحزب ولقياداته ، دون تردد مهما كان نوع هذه القيادات وطبيعة أفرادها ومبادئها ، وهناك وهم سائد عند طبقات الناس الذين أعطوا ولاءهم لحزب سياسى أو زعيم ، هذا الوهم

---

(١) آل عمران : ١٤٩ - ١٥٠ .   (٢) آل عمران : ١٠٠ .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والطبرانى فى « الكبير » عن أبى عمر رفعه ، قال العراقى : سنده صحيح .

هو أنهم يكتفون أن تكون شعارات هذا الحزب لا تعارض الإسلام ، ولو سلّمنا جدلاً بأنّ هناك حزباً غير إسلامى لا تتعارض شعاواته مع الإسلام - وهذا غير صحيح واقعياً - فهل هذا كاف ؟ إنّ العمل السياسى الإسلامى الصحيح هو الذى لا يعارض الإسلام وبنفس الوقت يتبنى أهدافه وطريقه ، مثل هذا يمكن أن يُعطى الولاء ، أما الاكتفاء بالأول فإنه نوع من التضليل الذى يرافقه عادة هدم للإسلام .

(٨)

رأينا فيما مَرّ أنّ المؤمن لا يجوز أن يعطى ولاءه للكافرين والمنافقين ، ورأينا مظاهر من الولاء لا يجوز أن تعطى لهؤلاء وهؤلاء . والسؤال الآن : هل يكفى المسلم ألا يعطى ولاءه لكافر أو منافق ؟ فيكون سلبياً فقط ، أو لا بد أن يعطى ولاءه الإيجابى ؟

والجواب : أنّ اللّه كما حرّم علينا أن نعطى ولاءنا للكافرين والمنافقين ، قد فرض علينا أن نعطى ولاءنا للّه والرسول والمؤمنين : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) .

فالمؤمنون المسلمون فيما بينهم يشكّلون بشكل عفوى حزب اللّه الذى يعطى أفراده جميعاً ولاءهم لبعضهم بعضاً ، وبدون إعطاء هذا الولاء لا يستحقون رحمة اللّه ، قال تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

---

(١) المائدة : ٥٦ — (٢) التوبة : ٧١

هذا الحزب الربانى العظيم ، يحل مشاكله وما يعترضه بالشورى بين أفراده الذين تحققوا بأخلاقه : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

(٩)

ولو أنَّ المسلمين وعوا هذه الحقيقة فأدركوا حقيقة ذاتهم ، وعرفوا ما هى صفات حزب الله ، ثم تعاونوا فيما بينهم على التحقق بها علماً وعملاً وحالاً ، ثم والى بعضهم بعضاً على أساسها ، وكان مَن لم يكن كذلك لم يوالوه بل حاربوه وأبعدوه . لو فعل المسلمون ذلك لم يستطع أن يخدعهم أحد ، ولغلبوا كل أخصامهم فى بلادهم ، ولم تستطع حكومة فاجرة أن تحكمهم ، ولا استطاع ظالم أن يتسلط عليهم ، وكان أمراؤهم منهم ، ولم يحكموا إلا بشريعة ربهم .

ولكنهم جهلوا إسلامهم ، وجهلوا أخلاقهم وفقدوها فتشتتوا ، وسهل بعد ذلك أن يتسلط عليهم عدوهم .

ولا يصلح أمر المسلمين اليوم إلا إذا أعيد تثقيفهم إسلامياً ، وربُّوا على الأخلاق الأساسية للإسلام ووالى بعضهم بعضاً . عندئذ يقوم حزب الله الذى لا يُغلب : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

(١٠)

قلنا : إنَّ الله حرَّم على المسلم أن يعطل ولاءه ، بل لا بد أن يعطيه لله ورسوله والمؤمنين ، والولاء لله الآن مظهره عبادته ، والولاء لكتابه والولاء

---

(١) الشورى : ٣٦ - ٤٠ .
(٢) المجادلة : ٢٢

لرسوله ﷺ مظهره الولاء لسُنّته ودعوته ، والولاء للمؤمنين مظهره كل ما مَرَّ معنا من مظاهر الولاء . فالشئ الذى لا يجوز أن نعطيه للكافرين والمنافقين يجب أن نعطيه للمؤمنين وخاصة العلماء العاملون ، والصالحون من عباد الله ، والدعاة إلى الله لأنهم خواص المؤمنين ، إنَّ علينا أن :

١ - ننصر المؤمنين ولا نخذلهم : « المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله » (١) .

٢ - ونربط مصيرنا بمصيرهم .

٣ - ولا نطيع الكافرين فيهم .

٤ - ولا نتورع عن إعطاء أسرار الكافرين ومخططاتهم إليهم .

٥ - ونحبهم ونودهم ونؤيدهم أينما كانوا أو حيثما كانوا .

٦ - ولنجالسهم ونجعلهم خاصتنا ونُكثِّر سوادهم إلا لضرورة وحكمة .

٧ - ونطيع قياداتهم السياسية والعلمية . وخاصة خليفة المسلمين إن كان ، إذ جعل الله عَزَّ وجَلَّ طاعته بالمعروف فريضة .

٨ - ونتشبَّه بهم ، والتشبه بهم يعنى الاقتداء برسول الله ﷺ إذ هو قدوتهم فنتشبَّه بهم بلباسهم وطعامهم وشرابهم وزيهم وهيئتهم . ومن العجيب أن نرى مؤمناً يستحى أن يعفى لحيته هرباً من انتقادات الكافرين والمنافقين ، فى الوقت الذى يدَّعى فيه أنه يريد إنقاذ الإسلام والمسلمين ، وليس كلامنا فيمن لا يسمح له وضع أو وقت أو مكان بإظهار أمثال هذا فيتركه مضطراً (ونقصد بالاضطرار معناه الشرعى المبيح لترك بعض الواجبات) .

* * *

---

(١) قطعة من حديث رواه الترمذى عن أبى هريرة فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم » ، قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

إنه ما لم نعط المؤمنين ولاءنا نأثم . وإعطاؤنا الولاء لغيرهم ضلال ، وليس عندنا فى الإسلام حياد مقبول عند الله : فمَن لم يكن مع المسلمين فليس منهم ، ولكن لا يعتبرونه ضدهم حتى يُقاتِل أو يظهر العداء ، قال تعالى :

﴿ إلا الَّذينَ يَصلُونَ إلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنَ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ، فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ (١) .

ولكن إذا لم نعتبرهم ضدنا فكذلك لا نعتبرهم منا ، وليس هذا بنافعهم شيئاً عند الله يوم القيامة ما لم يسلموا فيكونوا منا .

* *

هذه هى الصفة الأساسية الأولى للمسلم التى بدونها لا يكون مسلماً ، بدأنا بها لأنها أساس الأساس ، ولننتقل الآن إلى الصفة الثانية : صفة تحقيق محبة الله والمحبة لله .

* * *

---

(١) النساء : ٩٠ .

الفقرة الثانية - فى الصفة الثانية

المحبة

إنّ محبة العبد لله أثر فطرى عن الشعور بنعمة الله على العبد ، ولذلك قال عليه السلام : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه ، وأحبونى لحب الله إياى ، وأحبوا آل بيتى لحبى » (١) .

محبة الله للعبد إنما تكون إذا سار العبد فى الطريق الذى شرعه الله للإنسان ، وترك ما سواه .

وعندما ندرس كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ ، نجد أنّ الله والرسول ﷺ قد بيّنا مَن الذى يحبه الله ، ومَن الذى لا يحبه ، ولن يصل الإنسان إلى محبة الله له إلا إذا انخلع عن كل صفة تُبَغِّضه إلى الله ، ثم تحقق بالصفات التى تُحَبِّبه إلى الله ، ولذلك فإننا فى هذه الفقرة سنستعرض الآيات والسُّنَن التى وصفت ناساً لا يحبهم الله ، وسنستعرض بعد ذلك الآيات والسُّنَن التى وصفت ناساً يحبهم الله ، ونأمل أن نعطى صورة كاملة بهذا لمن أحب أن يسير فى طريق محبة الله جَلّ جلاله ، وعلى هذا فسنكتب فى هذه الفقرة ثلاثة أبحاث :

١ - مَن يبغضه الله .

٢ - مَن يحبه الله .

٣ - حب الإنسان لله .

والسبب فى هذا الترتيب أنّ التخلية عادة مُقدَّمة على التحلية ، ألا ترى أنك لا تستطيع ملء الكأس إلا بعد تفريغها ، ثم إنّ الله عزّ وجَلّ قد قدَّم فى آية

---

(١) رواه الترمذى فى « المناقب » ، والحاكم فى « فضائل أهل البيت » عن ابن عباس ، ورمز السيوطى لصحته .

المائدة محبته لعبيده المذكورين على محبتهم له جَلَّ جلاله فقال : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (١) ، ومن ثَمَّ بدأنا بالصفات التى يبغض اللّه أهلها لنتجنبها ، وثنينا بالصفات التى يحب اللّه أهلها لتحققهم بها ، وعندئذ سنجد محبة اللّه فى قلوبنا بشكل عفوى بإذن اللّه . نقدم نتيجة لذلك الأول على الثانى والثانى على الثالث .

* * *

(١) المائدة : ٥٤

(أ) مَنْ يبغضهم الله

سنمر على معانى هذه الفقرة مراً سريعاً على اعتبار أنَّ الفقرة الثانية - وهى الجانب الإيجابى من الموضوع - سنفصِّل فى فقراتها كثيراً ، وكل ما سنفعله هنا أننا سنختار النصوص الجامعة التى ذكرت ناساً لا يحبهم الله عَزَّ وجَلَّ لصفات فيهم ، ثم نُعقِّب عليهم بشئ من التعليق البسيط .. والله يتولى أمرنا جميعاً .

١ - روى البخارى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ : « أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد فى الحرم ، ومبتغ فى الإسلام سُنَّة الجاهلية ، وطالب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه ».

الإلحاد : الزيغ ، والزيغ : منه الكبير ، ومنه الصغير ، والزيغ فى غير الحرم شديد ، ولكنه فى الحرم أعظم حُرمة ، فلا يطمع انسان فى محبة الله وقد زاغ عن أمر الله بالكفر أر بالنفاق أو بالضلال أو بالفسوق وهو فى حرم الله . وسُنَّة الجاهلية يدخل فيها كل ما خالف سُنَن الإسلام ، كالدعوة إلى العصبية القومية ، أو الجنسية ، أو الوطنية ، أو الشرك أو النياحة أو التماثيل أو ... فالإنسان الذى يريد أن يقوِّى عادات الجاهلية أو يُحسِّنها أو يحييها مهما كان نوعها فذلك بغيض إلى الله .

« ولا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيِّب [١] الزانى ، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارِق للجماعة » [٢] .

فمَن أراد قتل امرئ لم يدخل فى هؤلاء الثلاثة ، أو مَن أراد قتل امرئ لا يستحق القتل - ولا يعرف استحقاق إنسان للقتل إلا بفتوى العلماء العاملين ،

---

(١) الثيِّب : يُطلق على الذكر والأنثى بقيد الاقتران والدخول .

(٢) رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود ، وأبو داود والترمذى والنسائى .

الفقهاء الأتقياء الورعين ، فمَن أراد قتل امرئ بلا شئ مما ذُكِر فذلك بغيض إلى الله .

٢ - روى الترمذى عن جابر عن رسول الله ﷺ : « وإنَّ أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » . قالوا : يا رسول الله ، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون » .

ورسول الله ﷺ لا يبغض إلا من يبغضه الله عزَّ وجَلَّ .

والثرثرة والتشدق لا يُصاب بهما الإنسان إلا إذا ابتعد عن أدب الحديث الذى علّمنا الله إياه - يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ (٣) .

فإذا ما تركنا ما نهى الله عنه وكنا فيما أمر الله بلا لغو ولا تكلف نرجو أن نتخلص من الثرثرة والتشدق .

وأما الكِبْر فقد عرفه رسول الله ﷺ فى الحديث ، روى مسلم والترمذى عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة مَن كان فى قبله مثقال حبة من كِبْر » . فقال رجل : إنَّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، قال : « إنَّ الله جميل يحب الجمال ، الكِبْر بطر الحق وغمط الناس » (٤) .

---

(١) النساء : ١١٤

(٢) المجادلة : ٩

(٣) التوبة : ٦٥ - ٦٦

(٤) الغمط : الاستهانة والاستحقار .

فإذا رأى الإنسان الحق ولم يتبعه يكون متكبراً ، وإذا تبيَّنت له الحُجَّة ولم يُسلِّم فيها يكون متكبراً ، ويكون بالتالي بغيضا إلى الله .

ومَن احتقر الناس وازدراهم كما يفعل الحمقى المغرورين إذ يحتقرون طبقات من الناس هي عند الله في المحل الأعلى : « رُبَّ أشعث أغبر ذي طِمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرَّه ... » (١) فذلك متكبر وهو بغيض إلى الله . إنَّ أدب الإسلام ألا تزدرى أحداً من خلق الله إلا لصفة يبغضها الله ، أما أن نزدرى خلق الله للباس أو لمظهر أو لعدم علم بأمور الدنيا ، أو لعدم وجاهة ومكانة ، فتلك هي الطامة التي لا يكون معها قُرب من الله .

٣ - ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) ، فأعظم أنواع الظلم الشرك لأنه ظلم للذات الإلهية ، وعدم الاستجابة للرسل والدعاة إلى الله ، وحربهم ومناصبتهم العداء ظلم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ (٤) .

وطاعة الشيطان في الكبيرة والصغيرة ظلم : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ، مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ (٥) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦) .

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة ، والبزار عن ابن مسعود بألفاظ متقاربة .

(٢) آل عمران : ٥٧ (٣) لقمان : ١٣ (٤) إبراهيم : ١٣ - ١٤

(٥) بمصرخكم : بمغيثكم من العذاب . (٦) إبراهيم : ٢٢

ومن الظلم - بل من أعظمه - التكذيب بآيات الله والإعراض عنها ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ (١) ، وآيات الله تشمل الكتاب والمعجزات والكون والانتقام الإلهي .

ومن الظلم : الحكم بغير ما أنزل الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

ومن الظلم : الكذب على الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ (٣) .

ويدخل في الكذب على الله : تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحلّ : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ (٤) .

ومن الكذب على الله : تفسير كتابه بغير معناه .

ومن الكذب على الله : ادعاء دعوى مع الله ليست صحيحة .

ومن الكذب على الله : الكذب على رسوله ﷺ .

ومن الكذب على الله : إدخال شئ في دين الله وليس منه .

ومن الظلم : كتمان الحق عند وجود الحاجة إليه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (٥) .

ومن الظلم : تجاوز الحدود التي حدّها الله لنا ، فقد حدّ الله لنا في أمور العقيدة والعبادة والتشريع والأخلاق حدوداً لا يجوز لنا أن نتجاوزها ، فمَن تجاوزها فقد ظلم : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا

---

(١) الأنعام : ١٥٧ (٢) المائدة : ٤٥ (٣) الأنعام : ٢١

(٤) النحل : ١١٦ (٥) البقرة : ١٤٠

حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

ومن الظلم : اتباع الهوى وترك شريعة الله : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

ومن الظلم : أن يُذكَّر الإنسان بآيات الله ثم لا يتذكر : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ (٣) ، فهذه كلها أنواع من الظلم لا يحب الله أهلها ، ولا طريق إلى محبة الله إلا بعد الخلاص منها .

ومن الظلم العريض : همز المسلم ولمزه والسخرية منه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ (٤) وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٥) .

والتجسس على المسلم وغيبته من الظلم : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (٦) .

٤ - ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (٧) . ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨) .

---

(١) البقرة : ٢٢٩ (٢) القصص : ٥٠ (٣) الكهف : ٥٧

(٤) لا تلمزوا أنفسكم : لا يعيب بعضكم بعضاً . (٥) الحجرات : ١١

(٦) الحجرات : ١٢ (٧) البقرة : ٢٧٦ (٨) آل عمران : ٣٢

الكفر عقيدة ينبع عنها سلوك آثم ، واللّه عزّ وجلّ لا يحب الكفر والكافرين ، والإثم والآثمين ، وقد ذكرنا فى غير هذا الكتاب فى مبحث « نواقض الشهادتين » ما يتردى به الإنسان إلى الكفر ، ولذلك لا نعيده ، غير أنّ هناك جانباً مهما ًجداً وُصِفَ أهله بالكفر نريد أن نشير إليه هنا خوفا من الوقوع فيه ، وبالتالى أن نقع فى كراهية اللّه لنا . هذا الجانب هو الفرقة والاختلاف بين المسلمين ..

قال عليه السلام : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ من بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٢) ويلاحَظ كيف عبَّر القرآن والسُّنّة عن الفرقة والاختلاف بلفظ « الكفر » .

أما والحالة هذه فإننا نحب هنا أن نذكر أسباب الفُرقة التى تجعل أهلها ممقوتين عند اللّه .

عندما نستعرض القرآن نجد أنّ الأسباب التى تؤدى إلى الفُرقة هى :

(أ) قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

وإذن فهناك سبيل اللّه ، وهناك سُبل الشيطان ، ومتى ترك الناس سبيل اللّه واتبعوا سُبل الشيطان تفرّقوا واختلفوا كما هو واقع أمتنا اليوم ، تركت الحق الذى يجمعها ثم لم تلتق على سبيل واحد من سُبل الباطل ، لأنّ الناس إذا لم يجمعهم الحق فلا بد أن يُفرِّقهم الباطل ، والحل هو الرجوع إلى صراط اللّه عزّ وجلّ .

---

(١) رواه البخارى عن جرير بن عبد اللّه فى كتاب « العلم » باب « الإنصات للعلماء » .
(٢) آل عمران : ١٠٥ - ١٠٦ (٣) الأنعام : ١٥٣

(ب) قال تعالى : ﴿ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ ﴾ (١) .

هذه الآية تشير إلى نسيان جزء من دين الله يؤدى إلى الفُرقة والعداوة ، كما هو واقع أمتنا اليوم ، وحتى واقع مَن لا زال مسلماً ، إذ نجد أنّ كل مجموعة من المسلمين قد فهمت الإسلام فهماً ناقصاً . فهذه طائفة قد نسيت جزءاً ، وهذه أخرى قد نسيت جزءاً آخر ، وهذه أخرى قد نسيت جزءاً مختلفاً ، مما أدّى إلى اختلاف مَن بقى مؤمناً بالإسلام نتيجة لهذا النسيان ، فجمعت كل طائفة إلى نسيانها الفُرقة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (٢) .. والحل هو أنْ نعيد فهمنا لدين الله عزّ وجَلّ .

(جـ) ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ (٣) .

والبغى قد فسَّره رسول الله ﷺ : « دَبَّ بينكم داء الأمم قبلكم : الحسد ، والبغضاء هى الحالقة ، لا أقول الحالقة التى تحلق الشعر ، وإنما الحالقة التى تحلق الدين » (٤) ... أو كما قال عليه السلام .

أن يحسد كل من المسلمين الآخر على ما آتاه الله عزّ وجَلّ ، ذلك أصل من أصول الكفر والفُرقة ، وقد أقسم رسول الله ﷺ أنّ الإيمان والحسد لا يجتمعان فى قلب أبداً .

إنّ المسلمين كالجسد - كما شبَّههم بذلك رسول الله ﷺ - والجسد عادة لا يحسد بعضه بعضاً بل يكمل بعضه بعضاً ، ولا يتمنى جزء منه أن يكون بدلاً عن الجزء الآخر ، والمسلمون ما لم يصلوا إلى هذه الحالة الطيبة من تربية النفس فإنهم لا شك يتفرقون .

(د) ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) المائدة : ١٤ (٢) الأنعام : ١٥٩ (٣) الشورى : ١٤

(٤) رواه أحمد والترمذى عن الزبير بن العوام ، ورمز السيوطى لصحته .

(٥) الحشر : ١٤

إنَّ من أسباب التفرق والتشتت عدم العقل ، والعقل - بالنسبة لنا نحن المسلمين - حمل النفس على كتاب الله . فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) ، وكلما ازداد المسلمون إقبالاً على كتاب الله ، فهماً وتطبيقاً وتلاوة ، ازداد عقلهم ، وازدادوا وحدة واتحاد قلوب .

(هـ) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ، مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (٢) .

من أسباب فُرقة المسلمين واختلاف مواقفهم عدم توحيد قلوبهم على الآخرة وعدم زهدهم فى الدنيا ، ولذلك فقد حذَّر الرسول ﷺ المؤمنين من الوقوع فى هذا الداء الذى يؤدى إلى تفرقتهم وهلاكهم ، عن رسول الله ﷺ : « لا تُفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » (٣) .. ولا خلاص لنا من هذا الداء إلا إذا سرنا فى طريق الله .

(و) ﴿ وَلَا يَزَالُوا مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ (٤) .

فاختلاف الناس أثر عن عدم رحمته إياهم ، وقد بيَّن الله عزَّ وجَلَّ مَن يستحق رحمته فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ (٥) ، فمَن استجمعوا هذه الصفات استحقوا رحمة الله ، واستحقوا بالتالى تأليف القلوب : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٦) .

فإذا لم يعط المؤمنون ولاءهم لبعضهم بعضا لا يستحقون رحمة الله ولا الاتحاد .

---

(١) يوسف : ٢ (٢) آل عمران : ١٥٢ (٣) رواه أحمد والبزار .
(٤) هود : ١١٨ - ١١٩ (٥) التوبة : ٧١ (٦) الأنفال : ٦٣

وإذا لم يتناصحوا بينهم ولم يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر لا يستحقون رحمة الله ولا الاتحاد : « إنَّ أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا ، اتقِّ الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم على بعض » ، ثم قال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ ... إلى : ﴿ فَاسِقُونَ ﴾ (١) ، ثم قال : « والله لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم » (٢) .

وإذا لم يقيمّوا الصلاة ويؤتوا الزكاة لا يستحقون رحمة الله ولا الاجتماع .

وإذا لم يطيعوا الله ورسوله دون سواهما فى معصيتهما فلا يستحقون رحمة الله ولا الاجتماع .

إنَّ التفريط فى صفة من هذه الصفات يعنى التفريط فى وحدة المسلمين .

(ز) روى أبو داود والترمذى عن أبى ثعلبة الخشنى : أنه سأل النبى ﷺ عن هذه الآية : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (٣) فقال : « ائتمروا بالمعروف ، وانتهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شُحّاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام ، فإنَّ من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم » ، قيل : يا رسول الله ، أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال : « بل أجر خمسين منكم » .

---

(١) المائدة : ٧٨ - ٨١ (٢) رواه أبو داود والترمذى . (٣) المائدة : ١٠٥

فهذا الحديث أشار إلى أنّ الشُّح المطاع ، والهوى المتبع ، والدنيا المؤثرة ، والإعجاب بالرأى ، لا يقابله إلا أن يعتزل الصالحون ، وبالتالى فلا عملاً جماعياً يمكن أن يكون .

* * *

وهناك نوع آخر من الكفر هو عدم الشكر على النعَم ، يقول تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (١) .

كل نعمة تقتضى ذكراً وتذكراً وشكراً : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (٢) ، والشكر الذى يُخرج صاحبه من الكفر شكران : شكر عام وشكر خاص ، فأما الشكر العام فهو استعمال كل ما آتاك الله فيما أمر وطاعته فيه ، فمَن آتاه الله المُلك فليحكم فيه بما أنزل الله ، ومَن آتاه المال فليؤدِّ فيه حقه ، ومَن آتاه ذكاءً فليستعمله فى الخير ، ومَن آتاه قوة فليستعملها فى الجهاد ... وهكذا ، وأما الشكر الخاص فبأن تحمد الله بلسانك وقلبك على كل ما آتاك .

* * *

وقد ذكرنا كما قلنا فى باب « نواقض الشهادتين » من كتابنا عن « الإسلام » ما يوصلنا إلى الكفر ، فمَن سلك تلك الطُرق أو سار فيما ذكرناه هنا من طُرق الغواية فلا يطمع أن يكون من المحبوبين لله ، ولا بد هنا من الإشارة إلى أنّ غير المسلم كافر ، فمهما فعل من خيرات فإنّ الله لا يقبل منه ، وهو عند الله من المبعدين .

٥ – ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ :

وصور العدوان التى لا يحب الله أهلها كثيرة منها :

(أ) الاعتداء بالقتال على ناس لم يسمح لنا الله أن نقاتلهم ، كأن كانوا معاهدين أو لم يُبَلَّغوا الدعوة ، أو نقاتل غير متقيدين بالآداب التى شُرِعَت لنا

---

(١) إبراهيم : ٧ (٢) الضحى : ١١

فى القتال ، قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُواْ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) .

وبعض الناس فهم من أمثال هذه الآية أنه لا يجوز لنا أن نقاتل إلا من قاتلنا ، فقتالنا دفاعى ، وهذا ضلال فى الفهم ، فنحن مأمورون أن نقاتل الكافرين حتى نخضعهم لدين الله ولو لم يقاتلونا ، وهذا هو الجهاد .

(ب) ومن الاعتداء : التجاوز بالمشروع إلى غير حده ، وقد ذكر رسول الله ﷺ قوماً يعتدون بالدعاء والطهور ، قال الله تعالى : ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢) .

ومن الأمثلة على هذا النوع من الاعتداء : أن يغسل الإنسان يده فى الوضوء أربع مرات والمشروع ثلاث ، وكأن يدعو الإنسان الله أن يُسَهِّل له ما حَرَّم ، وبشكل موجز : كل شئ شُرِعَ لنا على وجه معين إذا تجاوزناه إلى غير ذلك الوجه، فذلك اعتداء .

ومن الاعتداء : تحريم ما أحَلَّ الله عزَّ وجَلَّ ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُواْ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٣) .

وفارِقٌ كبير بين تحريم ما أحَلَّ الله ، والرضا من طيبات الدنيا بالقليل ، فالأول كفر وضلال ، والثانى زهد وكمال .

٦ - « إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » :

﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ ، إِنَّه لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ١٩٠ .

(٢) الأعراف : ٥٥

(٣) المائدة : ٨٧

(٤) الأعراف : ٣١

كلمة الإسراف تساوى فى الاصطلاح القرآنى كلمة « الإفساد » ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعُواْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (١) ... وسيأتى هذا المعنى بعد .

وتأتى كلمة « الإسراف » بمعنى التبذير ويبدو – والله أعلم – أنها هى المقصودة فى الآية هنا ، قال تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ (٢) .

ويدخل فى التبذير أن ينفق الإنسان كل شئ عنده . ويجلس يتكفف الناس .

ويدخل فى التبذير والإسراف أن يشترى الإنسان من الطعام والشراب واللباس ما يحرم كالخمر وخواتيم الذهب للرجال .

ويدخل فى التبذير والإسراف مجاوزة حد مثله فى الأكل والشرب واللباس .

ويدخل فى التبذير والإسراف أن ينفق المال فى طريق حرام ، كأن يساعد به ظالماً ، أو حزباً كافراً .

ويدخل فى التبذير والإسراف أن ينفق على قرناء السوء ثمناً للهوهم وأدوات فسوقهم ، وهذا كله داخل فى عموم لفظ الإسراف والتبذير ..

روى أبو داود عن جابر : كنا عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل بمثل البيضة من ذهب فقال : يا رسول الله ، أصبتُ هذا من معدن فخذها فهى صدقة ما أملك غيرها ، فأعرض عنه ، ثم قال ذلك من قِبَلِ يمينه فأعرض عنه ، ثم من يساره فأعرض عنه ، ثم من خلفه فأخذها صلى الله عليه وسلم فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته – أو لعقرته – وقال : « يأتى أحدكم بجميع ما يملك فيقول : هذه صدقة، ثم يقعد يستكف الناس . خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنىً » .

---

(١) الشعراء : ١٥١ – ١٥٢ (٢) الإسراء : ٢٦ – ٢٧

٧ - « إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » :

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً ، إنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً ﴾ (١) .

﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً ، إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٢) .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ﴾ (٣) .

الاختيال والفخر لا يحب اللّه أصحابهما ، والخلاص من الاختيال أن يمشى الإنسان مشية رسول اللّه ﷺ « كأنما ينحط من صَبَب » (٤) ، فهذه المشية تجمع ما بين النشاط والقوة والتواضع .

والخلاص من الفخر إنما يكون بالتواضع ، يقول عليه السلام : « تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد » (٥) ... ولا تواضع إلا بنسيان أسباب الترفع من جاه ونسب ومال ، ولا تواضع إلا بزهد فى الدنيا إذ أن التفاخر من الدنيا : ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ ﴾ (٦) .

ومما ورد فى الفخر والخيلاء :

روى الترمذى عن أبى هريرة عن رسول اللّه ﷺ : « لينتهينَّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحم جهنم ، أو ليكوننَّ أهون على اللّه من الجعل الذى يدهده الخرء بأنفه ، إن اللّه تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء ، وإنما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خُلِقَ من تراب ».

---

(١) الإسراء : ٣٧ (٢) لقمان : ١٨ (٣) الفرقان : ٦٣

(٤) رواه الترمذى عن علىّ بن أبى طالب وقال : حسن صحيح ، وهو من مفرداته ، ومعنى : « كأنما ينحط من صَبَب » أى فى موضع منحدر .

(٥) رواه أبو داود فى كتاب « الأدب » باب « التواضع » . (٦) الحديد : ٢٠ .

وللبخاري والنسائي عن ابن عمر عن رسول الله : « بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء خُسِفَ به فهو يجلجل في الأرض إلى يوم القيامة »[1] .

ولمالك والشيخين - وهذا لفظ مسلم - عن أبي هريرة وقد رأى رجلاً يجر إزاره وجعل يضرب الأرض برجله وهو أمير البحرين فقال له : قال النبي ﷺ : « إنَّ اللّه لا ينظر يوم القيامة إلى مَن جَرَّ إزاره بطراً » .

قال : وكان أبو هريرة يُستخلف على المدينة ، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيشق السوق ويقول : طَرِّقوا للأمير .. حتى ينظر الناس إليه .

ولا تُباح الخيلاء ومشيتها إلا في شأن الحرب . فقد روى عنه عليه السلام قوله - وقد اختال أحد الصحابة في معركة : « إنَّ هذه مشية يبغضها اللّه في غير هذا الموطن » [2] ... أو كما يقال عليه السلام .

٨ - « إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ » :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ ﴾[3] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[4] ، « أدِّ الأمانة إلى مَن ائتمنك ولا تخن من خانك » [5] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[6] .

والخيانة لها معنيان : معنى خاص وهو أن تخون ما ائتمنك عليه الآخرون . ومعنى عام وهو أن تخون الأمانة التي من أجلها خلقك اللّه عَزَّ وجَلَّ .

فمن أمثلة الخيانة بالمعنى الخاص : أن يأتمنك إنسان على عِرضه فتخونه فيه ، أو على ماله فتخونه فيه ، أو على السلام فتغدر فيه ، أو على سر فتفشيه ،

---

(١) أي يغوص في الأرض حين يُخسف به ، والجلجلة : حركة مع صوت .

(٢) رواه ابن كثير في السيرة جـ ٣ ص ٣١

(٣) الأنفال : ٥٨ (٤) الحج : ٣٨

(٥) رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة ، وقال الترمذي : حسن غريب ، وأخرجه الدارمي والدارقطني والحاكم . (٦) الأنفال : ٢٧

أو على عمل فتستغله لصالحك ، أو على وظيفة عامة فتفرِّط فيها ، أو تحابى مَن لا يستحق على حساب مَن يستحق ، وفى ذلك يقول عليه السلام : « مَن استعمل رجلاً على عصابة وفيهم مَن هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين » ... أو كما قال عليه السلام .

وروى أبو داود والترمذى عن رسول الله ﷺ : « إذا حدَّث رجلٌ رجلاً بحديث ثم التفت فهو أمانة - أى إفشاؤه خيانة - المجالس بالأمانة إلا ثلاثة : سفك دم حرام ، وفرج حرام ، واقتطاع مال بغير حق » (١) .

ومن الخيانة : السرقة من أموال الأمة والدولة ، واستعمال ما يخصهما استعمالاً شخصياً ولو إبرة أو ورقة .

أما الأمانة بمعناها العام فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٣) .

فالأمانه هنا هى القيام بما كُلِّفَ به الإنسان ، وما كُلِّفَ به الإنسان هو عبادة الله ، ويدخل فى العبادة طاعة الله فى كل أمر ، فأى مخالفة لله عزَّ وجَلَّ خيانة ، ولا يتخلص الإنسان من صفة الخيانة حتى يتخلص من معنييها الخاص والعام ، عندئذ يتخلص من مقت الله جَلَّ جلاله .

٩ - « وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » (٤) :

وأعظم أنواع الفساد والكفر : الصد عن سبيل الله ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٦) .. لأنَّ كل فساد فى الدنيا منشؤه عن بُعد الإنسان

(١) رواه الحاكم فى « الأحكام » عن ابن عباس ، ورمز السيوطى لصحته .
(٢) الأحزاب : ٧٢ (٣) الذاريات : ٥٦ (٤) المائدة : ٦٤
(٥) النحل : ٨٨ (٦) الشعراء : ١٥١ - ١٥٢

عن اللّه ، وغفلته عن صراطه وانحرافه عن ذلك الصراط ، إذ أنّ اللّه عزّ وجلّ جعل الصلاح والإصلاح فى كتابه . قال جلّ جلاله : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١) .. فمَن سار فى الطريق الآخر - طريق الكفر والصد عن سبيل اللّه - كان لا شك من المفسدين.

وهناك نوع من المفسدين هم مثل مَن سبق فى بواطنهم ، ولكنهم يتظاهرون بخلاف هذا فى ظواهرهم ، وهم المنافقون . قال تعالى عنهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

وقد بيّن اللّه عزّ وجلّ أمر هؤلاء بياناً شاملاً فى أول سورة البقرة حتى لا يلتبس أمرهم على الناس فقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً ، وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٣) * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) الأعراف : ١٧٠.

(٢) البقرة : ١١ - ١٢

(٣) يعمهون : يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

(٤) البقرة : ٨ - ١٦

والسبب الرئيسى فى إفساد هؤلاء ، هو اتباع أهوائهم بدون هُدىً من الله . قال تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) .

لكل إنسان هوى يختلف عن هوى الآخر نوع اختلاف ، فلو أعطى كل إنسان على هواه لخرب الوجود ، بما فيه ، فمثلا حب السيطرة كامن فى كل نفس ، فلو أعطى لكل إنسان ما ينفذ به هذا الجانب من الهوى ماذا سيحدث ؟ وهذا جزء بسيط من الهوى ، فكيف بكل أنواع الأهواء إذا انطلقت من عقالها .

إنَّ الله عَزَّ وجَلَّ أنزل كتابه ليقيِّد أهواء البَشر فى القيود العادلة ، ومن ثَمَّ كان السير فى غير صراطه فساداً وإفساداً لأنه اتباع الهوى الأرعن المختل : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

وعلى هذا فإننا نعتبر كل طوائف الكافرين مفسدين : اليهود والنصارى والمجوس والبوذيين والشيوعيين والملحدين ، وكذلك كل طوائف المنافقين الذين وردت صفاتهم فى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، وقد مَرَّ معنا دليل ما قلناه . قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّه مَغْلُولَةٌ (٣) ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) المؤمنون : ٧١
(٢) المائدة : ٤٩
(٣) مغلولة : مقبوضة عن العطاء بخلاً .
(٤) المائدة : ٦٤

ومن الإفساد : محاربة المسلمين وتعكير أمنهم بقصد السلب والنهب أو القتل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ (١) أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

ومن الإفساد : عدم تطبيق أمر الله فى أى قضيه من القضايا :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ، وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ (٣)

ومن الإفساد الفظيع : إفساد ذات البين بين المسلمين بالوشاية والسعاية والنميمة ، وقد قالوا فى تعريف النميمة : هى نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد ، وفى الحديث الذى رواه الشيخان : « لا يدخل الجنة قتَّات » : أى نمَّام .

فمَن أراد أن يتخلص من صفة الإفساد التى يمقت الله أهلها فعليه أن يطهر ذاته من كل ما مرَّ ، ولأهمية ما فى النميمة من شر ننقل هذه الفقرة :

قال أبو حامد الغزالى رحمه الله : النميمة إنما تُطلق فى الغالب على مَن ينم قول الغير إلى المقول فيه كقوله : فلان يقول فيكَ كذا . وليست النميمة مخصوصة بذلك ، بل حدُّها كشف ما يُكره كشفه ، سواء أكرهه المنقول عنه ، أو المنقول إليه ، أو ثالث ، وسواء أكان الكشف بالقول ، أو الكتابة ، أو الرمز ، أو الإيماء أو نحوها ، وسواء أكان المنقول من الأقوال والأعمال ، وسواء أكان عيباً أو غيره ، فحقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يُكره كشفه ، وينبغى للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس إلا ما فى حكايته

---

(١) أى تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى .

(٢) المائدة : ٣٣ (٣) البقرة : ٢٢٠ .

فائدة لمسلم أو دفع معصية . وإذا رآه يُخفى حال نفسه فذكره فهو نميمة . قال : وكل مَن حُمِلَتْ إليه نميمة وقيل له : قال فلان كذا .. لزمه ستة أمور :

الأول : أن لا يصدقه ، لأن النمّام فاسق وهو مردود الخبر .

الثانى : أن ينهاه عن ذلك وينصحه ويُقبِّح فعله .

الثالث : أن يبغضه فى اللّه تعالى فإنه بغيض عند اللّه تعالى ، والبُغض فى اللّه تعالى واجب .

الرابع : أن لا يظن بالمنقول عنه السوء لقول اللّه تعالى : ﴿ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ ﴾ (١) .

الخامس : أن لا يحملك ما حُكِىَ لك على التجسس والبحث عن تحقيق ذلك ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ (١) .

السادس : أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكى نميمته .

وقد جاء أنَّ رجلاً ذكر لعمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه رجلاً بشئ ، فقال عمر : إن شئت نظرنا فى أمرك فإن كنتَ كاذباً فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ إن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ (٢) ، وإن كنتَ صادقاً فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ (٣) ، وإن شئتَ عفونا عنك . قال : العفو يا أمير المؤمنين ، لا أعودُ إليه أبداً .

ورفع انسانٌ رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم ، وكان مالاً كثيراً ، فكتب على ظهرها : النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة ، والميت رحمه اللّه ، واليتيم جبره اللّه ، والمال ثمّره اللّه ، والساعى لعنه اللّه .

١ - « إنَّ أبغض الرجال إلى اللّه الألدُّ (٤) الخَصِم » (٥) .

---

(١) الحجرات : ١٢ (٢) الحجرات : ٦ (٣) القلم : ١١

(٤) الألد : الشديد الخصومة . والخصم : المجادل .

(٥) رواه الشيخان والترمذى والنسائى عن عائشة عن رسول اللّه ﷺ .

هناك نوع من الناس عندهم ولع بمتابعة الخصومة مع الآخرين ، أو إشعالها إن لم تكن موجودة ، والاستمرار فيها حتى الغَلَبة بالحق وبالباطل .

والنوع الآخر من الناس عندهم ولع بالنقاش والجدال لتسفيه رأى الآخرين وغلبهم بالحق وبالباطل ، وعادة تتلازم هاتان الصفتان فى بعض الناس ، فمَن كانتا لديه - أو واحدة منهما - كان أبغض الخلق إلى الله .

إنَّ المؤمن قد يخاصم ويبقى هيِّناً ليِّناً ، وإذا خاصَم فلا يخاصِم إلا بحق ، وإذا وجد الحق عند خصمه وقف عنده ، ولا تدفعه الخصومة إلى عداء المسلمين المؤمنين ، بل يحتفظ بمودَّته لإخوانه المؤمنين مع قيام سبب الخصام .

والمؤمن لا يجادل ، بل يدلى بحُجَّته ويقول رأيه ، ولا يقول إلا بعلم وحق ، ولا يدفعه الجدال إلى رفض حُجَّة الآخرين إذا كانت حقاً ، ثم هو إذا رأى استمرار الآخرين فى منطقهم الضال بعد أن أقام عليهم الحُجَّة ، ووجد أنَّ كبرهم يمنعهم من قبول الحق الذى بيَّنه ، سكت ولم يستمر فى الجدال ، ثم هو لا يتصدى للجدال فى شئ لا يعلمه ، بل يحيله إلى مَن يعلمه ، وهو فى النقاش فيما له علاقة بالقرآن أكثر حذراً ، فلا يتكلم إلا بالعلم الذى لا ينتطح فيه عنزان ، وما عدا هذا لا يفعله المؤمن المسلم لأنه يجعله بغيضاً إلى الله عَزَّ وجَلَّ ، وهو علامة من علامات الضلال .

روى الترمذى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ : « مَن ترك المراء وهو مبطل بُنِىَ له بيت فى ربض [1] الجنة ، ومَن تركه وهو محق بُنِىَ له فى وسطها ، ومَن حسن خُلُقه بُنِىَ له فى أعلاها » .

وروى الترمذى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ : « ما ضَلَّ قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل » .

---

(١) ربض الجنة : ما حولها خارجاً عنها ، تشبيهاً بالأبنية التى تكون حول المدن وتحت القلاع .

وللطبرانى فى الكبير عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : « إنَّ عيسى عليه السلام قال : إنما الأمور ثلاثة : أمر تبيَّن لك رُشده فاتبعه ، وأمر تبيَّن لك غيُّه ، فاجتنبه ، وأمر اختُلِفَ فيه فردُّه إلى عالمه ».

ولأبى داود وابن حبان عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « المراء [1] فى القرآن كفر » .

ومن وصايا ابن عباس : « لا تُمار أخاكَ فإنَّ المراء لا تُفهم حكمته ولا تُؤمن غائلته ولا تعده وعداً فتخلفه » [2] .

١١ - « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » [3] :

هذا النص ورد فى سياق قصة قارون حيث يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [4] .

فسياق الآية يدل على أنَّ الفرح بالدنيا لا يحب الله أهله ، يؤيد هذا قول الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [5] .

وواضح من سياق الآيات أنَّ الفرح المذموم فى الدنيا يعقبه بطر وخيلاء وفخر مع بخل .

---

(١) المراء : الجدال . (٢) ذكره رزين . (٣) الفرحين : هم الفرحون بالدنيا .

(٤) القصص : ٧٦ (٥) الحديد : ٢٢ - ٢٤

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(١) ، وتفريق الدين : الاختلاف فيه حسب الهوى واتباع كل طائفة إماماً أضلها بهواه مع الفرح بما هى عليه رغم كونه باطلاً ، وفى قراءة : « فارقوا دينهم » .

فيكون المعنى : لا تكونوا من الذين تركوا دينهم ثم انقسموا بعد ذلك إلى أحزاب ، كل حزب فرح بما هو عليه من الهوى . فهذا نوع آخر من الفرح لا يحب الله أهله .

وهناك فرح واحد جائز ومحبوب عند الله هو فرح المؤمنين بما أنزل عليهم من الهدى ، وبما هُدوا إليه من الخير ، وبما أنعم الله عليهم فى ذلك ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٢) .

وهذا النوع من الفرح جائز وطيب لأنه فرح بما هو حق ودائم ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ . فإذا فرح أهل الدنيا بما يجمعونه فإن نعمة الهداية أعظم ، لذلك كان الفرح بها أجدر .

وبهذا نكون قد انتهينا من استعراض صفات مَن لا يحبهم الله ، لنتخلص منها باذن الله ونبدأ سيرنا فى طريق المحبة ، فقد قالوا : التخلية قبل التحلية ، أى تخلٍّ أولاً عن صفات النقص ، لتتحلى بعد بصفات الكمال ، ولا شك أننا اختصرنا واقتصرنا على أمهات من المعانى على اعتبار أنَّ ما سيأتى يوضح طريق المحبة الذى ينفى نقيضه ، وكوننا سنفصِّل فى ذلك ، فكأننا أطلنا فى هذا . والله نسأل أن يلهمنا رشدنا ويهدينا سواء السبيل ، ويرزقنا الجنة ويقينا عذاب النار .

* * *

---

(١) الروم : ٣١ - ٣٢ (٢) يونس : ٥٧ - ٥٨

(ب) مَنْ يحبهم الله

« يحبهم »

١ - « وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » :

لقد ذكر اللّه عزَّ وجَلَّ حبه لأهل هذه الصفة « الإحسان » فى أكثر من مكان فى كتابه ، وبعد أكثر من معنى ، فمثلاً : هى مذكورة فى آية البقرة بعد قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

ومذكورة فى آل عمران بعد قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

ومذكورة فى آل عمران كذلك بعد قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .

وقد فسَّر أبو أيوب الأنصارى « إلقاء النفس إلى التهلكة » بالركون إلى الدنيا وإصلاحها وترك الجهاد . وقد فسَّر رسول اللّه ﷺ « الإحسان » عندما سأله جبريل عنه بقوله : « أن تعبد اللّه كأنكَ تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(٤).

وقال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ، وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُواْ الْأَلْبَابِ ﴾ (٥) .

---

(١) البقرة : ١٩٥ (٢) آل عمران : ١٣٤ (٣) آل عمران : ١٤٧ - ١٤٨

(٤) قطعة من حديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه .

(٥) الزمر : ١٧ - ١٨

مما تقدم نعلم أنَّ الإحسان ذو جانبين :

١ - عمل الحسن أو الأحسن .

٢ - الشعور أثناء العمل بأنَّ الله يرانا أو كأننا نرى الله .

ولتوضيح هذين الجانبين نقول :

إنَّ معنى العبادة فى الإسلام واسع جداً . فالصلاة عبادة ، والزكاة عبادة ، والصوم عبادة ، والحج عبادة ، والسعى على العيال عبادة ، والجهاد عبادة ، ورحمة الأولاد عبادة ، وتأديبهم عبادة ، وإكرام المؤمن عبادة ، وملاعبة الزوجة وجماعها عبادة ، وكل مباح تعمله تنوى به وجه الله عبادة ، فإذا نمت بقصد الاستعانه على تقوى الله بنشاط ، أو أكلتَ بنيَّة شكر الله والتقوِّى على طاعته فإنَّ ذلك عبادة ، وعلى هذا فعندما قال لنا عليه السلام : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[١] ، فكأنه أراد منا أن نبقى فى حالة دائمة من هذا الشعور اليقظ إذا ما أردنا أن نتحقق بالإحسان .

وإنَّ الحسن فى الإسلام يقابله السئ والقبيح ، فقد حكم الله على أعمال وأخلاق بأنها سيئة ، وحكم على أعمال وأخلاق بأنها حسنة ، ولم يترك شيئا إلا وبيَّن حُسنه أو قبحه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [٢] .

والحسن نفسه قسمان : حسن وأحسن .. فمَن اعتدى علىَّ من المسلمين يجوز أن أرد عليه بمثل ما اعتدى على ، ولكن العفو والصبر أحسن ، ولذلك نجد أن آية آل عمران ذكرت المحسنين بعد الإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس .

فالمحسن مَن أخذ من كل شئ أحسنه ، أو بقى فى دائرة الحسن ، ولم يتجاوزه إلى القبيح ، وكان فى هذا كله شاعراً بأنه يرى الله أو أنَّ الله يراه ، وهذا لا يُحصِّله الإنسان إلا بمجاهدة النفس ، وإقبال على الله بالذكر ، والطاعة ، وفى كل ما سنذكره فى هذا البحث تمتين لهذين الجانبين .

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .   (٢) النحل : ٨٩

غير أنَّ هناك أموراً قد تنص على طلب الإحسان فيها ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ (١) وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ (٢) وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ (٣) ، ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ (٤) .

وقد مرَّ معنا أنَّ الإحسان فى عبادة الله : أن نعبد الله كأننا نراه ، فإن لم نكن نراه فإنه يرانا . وبقى أن نشير إلى الإحسان فيما بقى من هذه المذكورات ، ونبدأ « بالإحسان إلى الوالدين » .

قال تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً ﴾ (٥) .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً (٦) عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ (٧) فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) .

يُلاحَظ أنَّ النصين جعلا الإحسان إلى الوالدين قرين عبادة الله ، وقرين شكره .

وقد روى الترمذى عن ابن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ : « رضا الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد » .

---

(١) الجار الجنب : البعيد سكناً أو نسباً .

(٢) الصاحب بالجنب : الرفيق فى أمر حسن .

(٣) النساء : ٣٦

(٤) البقرة : ٨٣

(٥) الإسراء : ٢٣ - ٢٤

(٦) وهناً : ضعفاً .

(٧) فصاله : فطامه من الرضاع .

(٨) لقمان : ١٤ - ١٥

وروى مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « رَغِمَ أنفه ، رَغِمَ أنفه ، رَغِم أنفه » قيل : مَن ؟ قال : « مَن أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة » .

من هذه النصوص يتبيّن لنا أنَّ عبادة الله بلا بِرّ الوالدين غير مقبولة ، وبدون هذا البِرّ فلا تقوى ولا إيمان ولا إسلام ، على اعتبار أنَّ الوالدين هما مصدر الإنعام الظاهر والمباشر على الإنسان ، فما لم يشكرهما لا يشكر الله الذى لم يره ولم يشاهده ، ثم الوالدان لهما عليك دَيْن ، فقد كانا خادمين لك وأنت صغير ، وكنت سيدهما وأنت صغير ، وأنفقا عليك وأنت صغير ، كانا لا ينامان إلا بعد إذنك ، ولا يستريحان إلا بإذنك ، وتحملا كل إزعاجاتك فى صغرك ، وعليك أن تفى هذا الدَيْن كله ، فمهما أزعجاك فى الكِبَر فعليك أن تتحمل راضياً ، وعليك إذا كانا فقيرين أن تنفق عليهما راضياً ، وأن تعترف لهما بالسيادة راضياً ، فتطيعهما فى غير معصية الله ، ولا تُفضّل عليهما أحداً ، لأنهما لا يُفضّلان عليك أحداً . والأم تحملت فيك أكثر من الأب ، حملتك ، وأرضعتك ، ورعتك ، فحقها عليك أكثر من حق الأب ..

جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، مَن أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم مَن ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم مَن ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم مَن ؟ قال : « ثم أبوك » (١) .

وفى رواية : « أمك ثم أمك ، ثم أباك ، ثم أدناك فأدناك » .

ونحن اليوم فى جيل يعق أباه وأمه ، ويبر صديقه وزوجته ، وهذا من انتكاس القلوب والمفاهيم ، فالمسلم سيد زوجته : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾(٢) ، وأمه سيدته ، فهى سيدة زوجته كذلك ، فعندما يجعلها تابعة لزوجته فى كل شئ يكون قد قَلَبَ الأمر ، وصديقك ليس له من الحقوق عليك إلا بقدر ما لك عليه ، فى الغالب ، فنسيانك لحق أبيك من أجله ضلال ورعونة .

---

(١) رواه الشيخان.　　　(٢) النساء : ٣٤

إنَّ العاقل يستطيع أن يُرضى أبويه بالقليل ، بإشعارهما أنه يحبهما أكثر من كل شئ آخر ، من الزوجة والولد ، واستشارتهما فى أمر البيت قبل الزوجة والولد ، والبدء بهما فى الطعام والشراب والكسوة قبل أى أحد ، والدخول إلى بيتهما أولاً إذا كنتَ قادماً من سفر ، وبالكلام الليِّن والصمت حين غضبهما ، والرفق بهما وتنفيذ ما يريدان بقدر الاستطاعة ... وهكذا .

وهذه آثار فى البر بهما نذكرها واجين أن يفتح اللّه بها قلباً :

جاء رجل إلى النبى ﷺ فاستأذنه فى الجهاد فقال : « أحيٌّ والداك » ؟ قال : نعم . قال : « ففيهما فجاهد » [(١)] .

وفى رواية للنسائى : « جاء رجل فقال : جئتُ أبايعك على الهجرة وتركتُ أبوىَّ يبكيان ، قال : « فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما » .

« إن جاهمة قال : يا رسول اللّه ، أردتُ أن أغزو وقد جئتُ أستشيرك ، فقال : « هل لك من أم » ؟ قال : نعم . قال : « إلزمها فإنَّ الجنة عند رجليها » [(٢)] .

وللشيخين وأبى داود عن أسماء بنت أبى بكر : « قَدِمَتْ علىَّ أمى وهى مشركة ، فاستفتيتُ النبى ﷺ قلت : قَدِمتْ علىَّ أمى وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ قال : « نعم صِلى أمك » .

ولأبى داود عن أبى أسيد الساعدى أنَّ رجلاً قال : « يا رسول اللّه ، هل بقى من بِّر أبوىَّ شئ أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » .

---

(١) للستة إلا مالكاً .   (٢) للنسائى .

● « وَبِذِي الْقُرْبَىٰ » (١) :

الإحسان إلى ذوى القربى : صلتهم ، والله عزّ وجلّ جعل قطع الأرحام عديل الإفساد فى الأرض فقال : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢) .

وصلة الرحم مفتاح الوصول إلى رضوان الله ، إذ من أهم أسباب انقطاع العبد عن الله قطعه لأرحامة ، فمَن رأى نفسه فى حالة غير مرضية مع الله فليفتش عن صلة الرحم ، فإنه سيلج بها على الله .

روى الترمذى وأبو داود عن عبد الرحمٰن بن عوف عن رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « أنا الله ، وأنا الرحمٰن ، خلقتُ الرحم وشققتُ لها اسماً من اسمى ، فمَن وصلها وصلته ، ومَن قطعها بتّته » .

« إنّ الرحم شجنة من الرحمٰن ، فقال الله : مَن وصلك وصلته ، ومَن قطعك قطعته » (٣) .

« الرحم معلّقة بالعرش تقول : مَن وصلنى وصله الله ، ومَن قطعنى قطعه الله » (٤) .

« لا يدخل الجنة قاطع رحم » (٥) .

وللترمذى وأبى داود : « ما من ذنب أجدر من أن يُعجّل لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يُدخَّر له فى الآخرة : من البغى وقطيعة الرحم ».

ولأحمد عن رسول الله ﷺ : « إنّ أعمال بنى آدم تُعرض كل خميس ليلة الجمعة ، فلا يُقبل عمل قاطع رحم » .

---

(١) النساء : ٣٦ (٢) محمد : ٢٢ (٣) رواه الشيخان

(٤) رواه الشيخان . (٥) رواه الشيخان وأبو داود .

والصلة تكون بالهبة ، والهدية ، والزيارة والسلام والصدقة والرسالة فى كل الظروف :

روى البخارى وأبو داود والترمذى : « ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل مَن إذا قُطِعَت رحمه وصلها » .

وروى مسلم عن أبى هريرة : « أنَّ رجلاً قال : يا رسول الله ، إنَّ لى قرابة ، أصلهم ويقطعوننى ، وأحسن اليهم ويُسيئون إلىَّ ، وأحلم عنهم ويجهلون علىَّ ، قال : « لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تسفهم المل (١) ، ولن يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » .

وإذا كان الإحسان إلى كل الخلق مطلوباً ، ويؤجَر الإنسان عليه ، فإنَّ إحسانه إلى أقاربه وأرحامه تُضاعَف فيه الحسنات :

« الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة رحم » (٢) .

● « وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ » (٣) :

روى البخارى والترمذى وأبو داود عن رسول الله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » وأشار بالسبابة والوسطى ، وفرَّج بينهما شيئاً .

وللترمذى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ : « مَن قبض يتيماً من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة إلا أن يكون قد عمل ذنباً لا يُغفر » .

وللطبرانى فى « الأوسط » عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ : « ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم ، فيقرب قصعتهم الشيطان » .

---

(١) المل : الرماد الحار ، والمعنى أن عطاءك إياهم حرام عليهم ونار فى بطونهم .

(٢) رواه النسائى . (٣) النساء : ٣٦

ولأحمد عن أبى هريرة : أنَّ رجلاً شكا إلى النبى ﷺ قسوة قلبه فقال : « امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » . وصور الإحسان لليتامى والمساكين كثيرة .

● « وَالجَارِ ذِى القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بَالجَنبِ » [1] :

الجار ذى القُربى يحتمل الجار القريب نسباً ، ويحتمل الجار القريب داراً .

والجار الجُنُب يحتمل الجار البعيد داراً أو نسباً .

والصاحب بالجَنب مَن جمعتك وإياه حِرفة ، أو صناعة ، أو زمالة أو رِفقة فى مدرسة ، أو طريق ، أو معهد ، وهو نوع جوار .

والجار الكافر له حق الجوار ، والجار المسلم له حق الجوار والإسلام ، والجار المسلم القريب له حق الجوار والإسلام والقرابة .

لأحمد والبزار عن أبى هريرة قال : قال رجل : يا رسول اللّه ، إنَّ فلانة تُذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها ، غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها . قال : « هى فى النار » قال : يا رسول اللّه ، إنَّ فلانة تُذكر من قِلّة صيامها وصلاتها ، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذى بلسانها جيرانها . قال : « هى فى الجنة » .

وللطبرانى فى « الكبير » عن فضالة بن عبيد عن رسول اللّه ﷺ : « ثلاثة من الفواقر [2] : إمام إن أحسنتَ لم يشكر ، وإن أسأتَ لم يغفر ، وجار سوء إن رأى خيراً دفنه ، وإن رأى شراً أذاعه ، وامرأة إن حضرت آذتك ، وإن غبتَ عنها خانتك » .

وللشيخين وأبى داود والترمذى عن عائشة عن رسول اللّه ﷺ : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننتُ أنه سيُوَرِّثه » .

---

(١) النساء : ٣٦

(٢) الفواقر : أى الدواهى ، واحدتها فاقرة ، كأنها تحطم فقار الظهر ، كما يقال : قاصمة الظهر .

وللترمذى أنَّ ابن عمرو بن العاص ذُبِحَت له شاة فى أهله فلما جاء قال : أهديتم لجارنا اليهودى ؟ سمعتُ النبى ﷺ يقول : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننتُ أنه سيُوَرِّثه » .

وللشيخين عن رسول الله ﷺ : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » . قيل : مَن يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يأمن جاره بوائقه » .

وللطبرانى فى « الكبير » وللبزار كذلك عن أنس عن رسول الله ﷺ : « ما آمن بى مَن بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » .

وأدنى درجات الإحسان إلى الجار ألا يرى منك أى أذى

● « وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » (١) :

لأبى داود عن أبى كريمة عن رسول الله ﷺ : « ليلة الضيف حق على كل مسلم ، فمَن أصبح بفنائه فهو عليه دَيْن ، إن شاء اقتضى وإن شاء ترك » .

وفى رواية : « أيما رجل أضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً فإن نصره حق على كل مسلم ، حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله » .

وللستة إلا النسائى : « مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته » . قالوا : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال : « يومه وليلته ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه » .

ولأبى داود والترمذى عن ابن عمر : « جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟ فصمت ، ثم قال : يا رسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟ قال : « اعف عنه كل يوم سبعين مرة » .

وللشيخين وأبى داود والترمذى : « مَن لايمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون ، واكسوه مما تكتسون ، ومَن لا يلايمكم فبيعوه ولا تعذِّبوا خلق الله » .

---

(١) النساء : ٣٦

وللبخارى والترمذى وأبى داود : « إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه ثم جاء به ، وقد ولى حره ودخانه فليُقعده معه فليأكل ، فإن كان الطعام مشفوهاً [1] فليضع منه فى يده أكلة أو أكلتين » .

وختمت آيه الإحسان بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [2] إشارة إلى أنَّ من لا يُحسن إلى مَن مَرَّ فذلك أثر من آثار الخيلاء والفخر عنده ، وهما صفتان لا يحب اللّه أصحابهما ، وقد مَرَّ فى ذلك شئ .

● « وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً » [3] :

فى الصحيحين عن رسول اللّه ﷺ : « والكلمة الطيبة صدقة » ، « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » ، « مَن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وفى صحيح البخارى : « إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللّه تعالى ما يُلقى لها بالاً يرفعه اللّه تعالى بها درجات ، وإنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللّه تعالى لا يُلقى لها بالاً يهوى بها فى جهنم » ، « كل كلام ابن آدم عليه لا له ، إلا أمراً بمعروف ونهياً عن منكر أو ذكراً للّه تعالى » [4] .

وللترمذى عن ابن مسعود عن رسول اللّه ﷺ : « ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذئ » .

وللترمذى عن رسول اللّه ﷺ : « ما كان الفُحش فى شئ إلا شانه ، وما كان الحياء فى شئ إلا زانه » .

---

(١) المشفوه : القليل . وأصله الماء الذى كثرت عليه الشفاه حتى قَلّ . وقيل : أراد : فإن كان مكثوراً عليه : أى كثرت أكلته .

(٢) النساء : ٣٦ (٣) البقرة : ٨٣

(٤) رواه ابن ماجه فى كتاب « الفتن » . باب « كف اللسان فى الفتنة » عن أم حبيبة زوج النبى ﷺ .

وله عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ : « مَن لا يشكر الناسَ لا يشكر الله » .

ولمسلم وأبى داود عن رسول الله ﷺ : « إنَّ الله رفيق يحب الرفق ويُعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف ، وما لا يعطى على ما سواه » .

ولأحمد والطبرانى فى « الكبير » عن رسول الله ﷺ : « علِّموا ، ويسِّروا ، ولا تُعسِّروا ، وإذا غضب أحدكم فليسكت ، وإذا غضب أحدكم فليسكت ، وإذا غضب أحدكم فليسكت » .

ولأحمد عن النعمان بن مقرن : « سَبَّ رجلٌ رجلاً عند النبى ﷺ فجعل المسبوب يقول : عليك السلام . فقال صلى الله عليه وسلم : « أما إنَّ ملكاً بينكما يذبُّ عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت ، وأنت أحق به ، وإذا قلتَ له : عليك السلام : قال : لا بل أنت ، وأنت أحق به » .

هذه جوانب من الإحسان ذُكِرَت فى القرآن نصاً ، ووقفنا عندها لأهميتها ، ولكن الإحسان أشمل من هذا فالرسول عليه السلام يقول : « إنَّ الله كتب الإحسان على كل شئ ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدَّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » (١) .

فإذا ما أردتَ الإحسان فحقق فى نفسك شيئين :

(١) فعل الحسن .

(٢) مراقبة الله فى هذا الفعل بتمحيص النيَّة والإخلاص لله فيها مع استشعار وجود الله وصفاته .

٢ - ﴿ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ :

هذا النص وارد فى نهاية الآية (٢٢٢) من سورة البقرة بعد قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن .

(٢) البقرة : ٢٢٢

وفى سورة التوبة : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (١) .

ولنبدأ بذكر ما له علاقة بالشرط الأول من نص سورة البقرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ .

روى الترمذى عن رسول الله ﷺ : « كل ابن آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التوّابون » .

روى مسلم عن رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » . وذلك لأنّ الله لا يغفر للمشرك ، فإذا كان المسلمون لا يخطئون ولا يستغفرون فكيف يظهر اسم الله التوّاب الغفور .

وروى الترمذى عن رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى فى الحديث القدسى : يابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالى . يابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى لغفرتُ لك ما كان منك وما أبالى ، يابن آدم ، إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تُشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة ».

من هذه النصوص نعلم أنّ الإنسان لا بد أن يخطئ ، ولا معصوم إلا الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . وإنما يطالبنا الله بالتوبة علي المعصية مهما تكررت المعصية ، فقد روى الشيخان عن رسول الله ﷺ : « أذنب عبد ذنباً فقال : اللهم اغفر لى ذنبى ، فقال تعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أنّ له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب فقال : رب اغفر لى ذنبى ، فقال تعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أنّ له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك » .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ .. ﴾ (٢) .

---

(١) التوبة : ١٠٨ (٢) آل عمران : ١٣٥ - ١٣٦

ومهما عظم الجُرم فإنَّ فى التوبة منه سبيلا حتى ولو كان شركاً أو كفراً :
﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١) .

والتوبة إنما تكون بترك الذنب والندم عليه والعزم على عدم العودة إليه ، وإعطاء الحقوق لأصحابها إن كان الذنب فى العدوان على الناس ، أو الاستغفار لأصحاب الحقوق إن تعذر أداؤها .

والله عَزَّ وجَلَّ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره إن شاء إلا الشرك فقد قال فيه :
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (٢) .

أما ما عدا ذلك فالله إن شاء غفر ، والله أعظم من أن يفتات عليه بشئ :

روى أبو داود عن رسول الله ﷺ : « كان فى بنى إسرائيل رجلان متواخيان ، أحدهما مذنب والآخر فى العبادة مجتهد ، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول : أقصر . فوجده يوماً على ذنب فقال : أقصر فقال : خلنى وربى ، أبعثكَ علىَّ رقيباً ؟ فقال له : والله لا يغفر الله لك – أو قال لا : يدخلك الجنة – فقبض الله أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال تعالى للمجتهد : أكنتَ على ما فى يدى قادراً ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتى ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار » .

وقال أبو هريرة : تكلم والله بكلمة أوبقت دنياه وآخرته .

وروى مسلم عن رسول الله ﷺ : « أنَّ رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وأنَّ الله تعالى قال : مَن ذا الذى يتألى علىَّ أن لا أغفر لفلان ، فإنى غفرتُ له وأحبطتُ عملك » .

وللشيخين عن رسول الله ﷺ : « كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على راهب فأتاه فقال له : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا . فقتله ، فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على رجل عالِم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل

(١) آل عمران : ١٢٨ (٢) النساء : ٤٨

له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومَن يحول بينه وبين التوبة ؛ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإنَّ بها ناساً يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم مَلَك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد . فقبضته ملائكة الرحمة » .

وإن الله إذا أراد غفران ذنب إنسان أرضى خصمه يوم القيامة عنه .

وكما رأينا .. فإنَّ شرط التوبة العزم على عدم العود ، فإن عاد بعد ما عزم على عدم العود فللتوبة محل ، أما إذا كان يتوب بلسانه مع نيَّة العود إلى الذنب ، فليس ذلك توبة ، قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ من بَعْدهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكتَابِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلا الحَقَّ ﴾ (١) .

وإنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يحب من عبده أن يتوب إليه . وفى الحديث الذى رواه الشيخان والترمذى عن رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية (٢) مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها ، حتى إذا اشتد عليها الجوع والعطش قال : أرجع إلى مكانى الذى كنتُ فيه فأنام حتى أموت . فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده ، عليها زاده وشرابه ، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده » .

* * *

(١) الأعراف : ١٦٩

(٢) الدوية : الصحراء التى لا نبات فيها .

ومهما أصاب المؤمن من ذنب فلا يجوز أن يقنط من رحمة الله تحقيقا لأمر الله : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ (١) .

وقد وصف الله عزَّ وجَلَّ القانطين من رحمته بالضلال والكفر فقال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ ﴾ (٣) .

وإنما استحقوا هذا الوصف لأنهم جاهلون بصفات الله وأسمائه ، فمَن لم يعرف أنَّ الله رحيم كما هو شديد العقاب ، وأنه تواب غفور كما هو منتقم . فإنه شديد الجهل بالله عزَّ وجَلَّ .

ولكن كما أنَّ المؤمن لا يقنط من رحمة الله فهو كذلك دائم الخوف من الله ، دائم الشعّور بذنبه وتقصيره ، دائم الخوف من الزلل ، قال تعالى : ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٤) .

ومما رواه الشيخان عن عبد الله يصف حال المؤمن قال : « إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه فقال به هكذا فذبّه عنه » .

وذلك لأنَّ الذنوب كثيرة ، منها ظاهر ومنها باطن ، ومنها ما يفعله الإنسان فى حالة غفلة ومنها ما يفعله عمداً وبقصد ، وقد يكون العبد على ذنوب وهو لا يدرى ، ولذلك يبقى على هذه الحالة من الخوف والرجاء ..

فمثلاً يقول عليه السلام : « إنَّ العبد ليتكلم الكلمة من سخط الله لا يُلقى لها بالاً يهوى بها فى نار جهنم سبعين خريفاً » (٥) .

---

(١) الزمر : ٥٣ — (٢) يوسف : ٨٧

(٣) الحجر : ٥٦ — (٤) الأعراف ٩٩

(٥) رواه البخارى فى « الرقاق » ، ومسلم فى « الزهد » ، والترمذى ومالك وأحمد عن أبى هريرة .

والحسد ذنب ، والكِبْر ذنب ، والشرك الخفى ذنب ، وأن لا تحب للآخرين ما تحبه لنفسك ذنب ، وألا تناصح المسلمين ذنب ... ومَن الذى يقوم بأمر الله كله ظاهراً وباطناً ؟ ولهذا كله فقد سَنَّ لنا سُنَّتين دائمتين : محاسبة النفس ، والاستغفار .

وقبل أن نشرع فى ذكر هاتين السُنَّتين نحب أن نشير إلى أنَّ كلمة « توَّاب » مبالغة لاسم الفاعل : تائب . مما نفهم منه أنَّ الإنسان الذى يحبه الله هو الذى أصبحت مَلَكة التوبة عنده راسخة بحيث يكرر التوبة دائماً بعد الذنب ، وليس إلا المعصوم ينجو من ذنب ، ولا معصوم إلا رسل الله .

* * *

سُنَّتان : قال تعالى : ﴿ بَلِ الإنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (٣) .

فمحاسبة النفس النظر فيما عملت من شر ، أو فيما قصَّرت من خير ، أو فيما تُعِّدُ لما بعد . وما من إنسان إلا ويحتاج لاستغفار لتقصيره فى واحدة من هذه ، وكل على حسب مقامه حتى إنَّ رسول الله ﷺ ليقول : « إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر فى اليوم مائة مرة » .

وفى رواية : « توبوا إلى ربكم فوالله إنى لأتوب إلى ربى مائة مرة فى اليوم » (٤) .

بل يذكر ابن عمر أنه كان يُعد لرسول الله ﷺ وسلم فى المجلس الواحد مائة مرة : « رَبِّ اغفر لى وتُبْ علىَّ إنك أنت التواب الرحيم » ، لذلك ندبنا رسول الله ﷺ إلى ملازمة الاستغفار بشكل دائم ، ووعدنا عن الله أننا إذا فعلنا ،

---

(١) القيامة : ١٤ - ١٥
(٢) الحشر : ١٨
(٣) القيامة : ١ - ٢
(٤) لمسلم وأبى داود .

تحققت لنا معان . قال عليه السلام : « مَن لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ، ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (١) .

وإنما كان كذلك ، لأن الضيق والهم مصائب ، والمصائب كلها من المعاصى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٢) ، والمعاصى يمحوها الاستغفار بإذن الله ، والمعاصى - كما ذكرنا - ظاهرة وباطنة . وخفية وعلنية ، وعامة وخاصة ، والمحاسبة تشمل هذا كله ، والاستغفار يشمل ما علمناه منها ، وما لم نعلم ، ما شعرنا به وما لم نشعر .

ولقد ذكر أهل السلوك إلى الله ، وأهل التربية من ثقات علماء المسلمين أنَّ الذى يلازم المحاسبة والاستغفار فإنهما يوصلانه إلى المراقبة التى مَرَّ ذكرها فى البحث السابق . « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٣) ، وأفضل الاستغفار ما كان فى الأسحار قبل الفجر ، قال تعالى : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (٤) .

وقال عليه السلام : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : مَن يدعونى فأستجيب له ؟ مَن يسألنى فأعطيه ؟ مَن يستغفرنى فأغفر له » ؟ (٥) .

وعلى هذا فمَن أراد أن يسير فى طريق التوَّابين فعليه ملازمة الاستغفار . فإن لم يلازم ، فعليه بالاستغفار مائة مرة فى اليوم ، فإن لم يفعل فليطبق هذه السُّنَن :

١ - روى البخارى عن رسول الله ﷺ : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللّهم أنت ربى لا إلهَ إلّا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك

---

(١) رواه أبو داود وأحمد ، والحديث صحيح . (٢) الشورى : ٣٠ .
(٣) قطعة من حديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
(٤) آل عمران : ١٧ (٥) للستة إلا النسائى .

ما استطعتُ ، أعوذُ بكَ من شر ما صنعتُ ، أبوءُ لك بنعمتك علىَّ وأبوءُ بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، مَن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يُمسى فهو من أهل الجنة ، ومَن قالها من الليل وهو موقن بها قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنة » .

٢ - روى مسلم عن ثوبان : « كان النبى ﷺ إذا سلَّم يستغفر اللّه ثلاثاً ويقول : « اللّهم أنتَ السلام ومنك السلام تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام » ، قيل للأوزاعى كيف الاستغفار ؟ قال : يقول : أستغفر اللّه .. أستغفر اللّه .

٣ - وأخرج الترمذى عن أبى هريرة عن رسول اللّه ﷺ : « مَن جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللّهم وبحمدك ، أشهد أنَّ لا إلهَ إلَّا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غُفِرَ له ما كان فى مجلسه ذلك » .

* * *

ولننتقل إلى الصفة الثانية التى أشارت إليها تتمة آية سورة البقرة وهى قوله تعالى : ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (١) ، وآية سورة التوبة : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ، وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (٢) .

ومن سياق الآية الأولى ، والنصوص الموضحة للثانية ، نفهم أنَّ الطهارة فى مجموع النصين تشير إلى ثلاثة جوانب :

١ - الطهارة بمعنى التنزه عن وطء الزوجة فى الفرج وهى حائض .

٢ - الطهارة بمعنى التنزه عن إتيان المرأة فى دُبرها .

٣ - الطهارة من الحَدَث والخَبَث .

وذلك أنَّ الآية الأولى وردت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا

---

(١) البقرة : ٢٢٢ (٢) التوبة : ١٠٨

تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (١) .

وقد ورد حول الآية الثانية أنَّ النبى ﷺ قال لأهل قُباء : « إنَّ الله قد أحسن الثناء عليكم فى الطهور فما ذاك » ؟ قالوا : نجمع فى الاستنجاء بين الأحجار والماء (٢) .

فلا بد لمريد محبة الله من أن يحقق صفة الطهارة ، ولا طهارة إلا بالتنزه عن هذه الثلاثة ، وتفصيل ما يحتاج إلى تفصيل فيها إنما يكون عادة فى كتب الفقه ، وإنما نوصى الأخ بهذه المناسبة بشئ هو المحافظة الدائمة على ضوء إذ « لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » (٣) .

٣ - قال عليه السلام : « إنَّ الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا - أراه قال : أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود » (٤) .

فى هذا الحديث لمريد محبة الله ما يحرص عليه ، فمَن تحقق بصفة يحبها الله قارب أن يصل إلى محبة الله ، إن لم يكن مانع : (أ) « إنَّ الله طيب يحب الطيب » .

ومما ورد فى الطيب : قال عليه السلام : « ثلاثة لا تُرد : الوسادة والدهن والطيب » (٥)

---

(١) البقرة : ٢٢٢

(٢) رواه أحمد عن عويم بن ساعدة الأنصارى وخرَّجه ابن خزيمة فى صحيحه .

(٣) قطعة من حديث رواه ابن ماجه فى كتاب « الطهارة » باب « المحافظة على الوضوء » من حديث ثوبان رضى الله عنه . قال فى الزوائد : رجال إسناده ثقات أثبات إلا أنَّ فيه انقطاعاً بين سالم وثوبان ، ولكن أخرجه الدارمى وابن حبان فى صحيحه من طريق ثوبان متصلاً ، وأخرجه أحمد والحاكم والبيهقى ولفظ الحديث : « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

(٤) رواه الترمذى عن سعد والنسائى عن سعيد بن المسيب مرسلاً .   (٥) للترمذى .

« سُئلت عائشة : أكان النبى ﷺ يتطيب ؟ قالت : نعم بذكارة [1] الطيب : المسك والعنبر » [2] .

وقال عليه السلام : « طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه ، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه » [3] .

وروى مسلم عن نافع : « كان ابن عمر يستجمر بالألوة [4] غير مطراة ، وبكافور يطرحه مع الألوة ويقول : هكذا كان يستجمر رسول الله ﷺ » .

وللنسائى عن أنس عن رسول الله ﷺ : « حُبِّبَ إلى الطيب والنساء وجُعِلَ قرة عينى الصلاة » .

ولأصحاب السُنَن عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ : « كل عين زانية ، وإن المرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا ... » يعنى زانية .

ولأحمد : « إنَّ النبى ﷺ كان يعجبه الفاغية » [5] .

(ب) « نظيف يحب النظافة » :

« إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم ، وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة فى أعين الناس ، فإنَّ الله لا يحب الفُحش ولا التفحش » [6] .

ولمالك عن عطاء بن يسار قال : كان النبى ﷺ فى المسجد ، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية ، فأشار إليه ﷺ بيده كأنه يأمره بإصلاح شعره ولحيته ، ففعل ثم رجع ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أليس هذا خيراً من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان » ؟

---

(١) ما يصلح للرجال ، وهى جمع ذكر . (٢) للنسائى . (٣) للترمذى والنسائى .

(٤) الألوة : العود الذى يتبخر به . (٥) الفاغية : زهر الحناء .

(٦) رواه أحمد والحاكم فى « المستدرك » والبيهقى فى « الشعب » وأبو داود عن سهل بن الحنظلية ورمز السيوطى لصحته .

وللستة عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « الفِطرة خمس : الختان ، والاستحداد ، وقص الشارب ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط » .

ولمسلم وأصحاب السُنَن عن أنس : « وُقِّتَ لنا فى قص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة ألا نتوك أكثر من أربعين » أى يوماً .

وقد مَرَّ قوله عليه السلام : « فنظفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا باليهود » (٢) .

ولأبى داود والترمذى عن سلمان عن رسول الله ﷺ قال : « بركة الطعام الوضوء قبله وبعده » أى غسل الأيدى .

وللستة إلا مالكاً عن ابن عباس : « أنَّ النبى ﷺ شرب لبناً فدعا بماء فمضمض وقال : إنَّ له دسماً » .

ولمسلم عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كِبْر » فقال رجل : إنَّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، قال : « إنَّ الله جميل يحب الجمال : الكِبْر بطر الحق وغمط الناس » .

ولمسلم عن أبى مالك الأشعرى عن رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان » .

(جـ) « كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود » (٢) .

للشيخين عن جابر : « ما سُئِل النبى ﷺ شيئاً قط فقال : لا » .

ولأبى داود عن رسول الله ﷺ : « إياكم والشُّح ، فإنما هلك مَن كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا » .

وفارق كبير بين النظافة والعبودية للثوب الجميل والمظهر الأنيق .

---

(١) قطعة من حديث رواه الترمذى عن سعيد بن المسيب والنسائى عن سعيد بن المسيب مرسلاً .

(٢) قطعة من حديث رواه الترمذى عن سعيد بن المسيب والنسائى عنه أيضاً مرسلاً .

إنَّ المسلم لا يستعبده شئ ، يقول عليه السلام : « تعس عبدُ الدرهم ، تعس عبدُ الخميصة [1] ... » [2] .

ويقول : « إنَّ البذاذة [3] من الإيمان .. إنَّ البذاذة من الإيمان » [4] .

وإذن .. فإنَّ من أخلاق المسلم أن يتطيب وأن يقبل الطيب ، وليس للمرأة المسلمة أن تتطيب بما ظهر ريحه إذا أرادت الخروج من بيتها .

ومن أخلاق المسلم أن يكون نظيفاً ، والنظافة والطهارة قد يجتمعان ، وقد يُحكم بالطهاوة الشرعية ولا تكون نظافة ، وقد يكون الإنسان نظيفاً غير طاهر شرعاً ، والمسلم الكامل فى هذا الشأن مَن جمع بين النظافة والطهارة دائماً .

ومن أخلاق المسلم الكرم ، والكريم قريب من الجنة ، قريب من الله ، قريب من الناس ، والبخيل بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، بعيد من الله ، فلا يصح أن يكون المسلم متصفاً بالبخل ، فكيف إذا كان هذا المسلم داعية إلى الله ؟ إنَّ الدعوة إلى الله لا يصلح معها البخل أبداً .

٤ - ﴿ قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [5] .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [6] .

الآية الأولى ذكرت أنَّ طريق محبة الله هو اتباع رسول الله ﷺ ، والآية الثانية ذكرت أنه لا يتأسى برسول الله ﷺ إلا مَن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ، فكأنَّ الآية الثانية دلتنا على الطريق التى إن سلكناها تأسينا

---

(١) الخميصة : كساء أسود له أعلام .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب « الجهاد » باب « الحراسة » ، ورواه ابن ماجه .

(٣) البذاذة : التواضع فى اللباس وترك التبجح به .

(٤) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم من حديث صالح بن صالح ، ورواه أبو داود ورمز السيوطى لصحته .

(٥) آل عمران : ٣١

(٦) الأحزاب : ٢١

برسول الله ﷺ ، كما بيّنت لنا أنّ الغاية هى التأسى وليست شيئاً آخر ، فليس بعد السنة إلا الزيغ ، إذ الانحراف عنها ولو إلى خير مزعوم فإنه يؤدى إلى تضخيم جانب من الدين على حساب جانب فيتهدم البناء ، وإذن ما تذكره الآيتان :

١ - أنّ اتباع رسول الله ﷺ هو طريق محبة الله ، والاتباع يكون بالطاعة والتأسى .

٢ - وأنّ التأسى لا يكون بدون رجاء الله واليوم الآخر ، وبدون ذكر كثير لله.

فههنا غاية وطريق . الطريق رجاء الله واليوم الآخر والذكر الكثير ، والغاية التأسى ، وسنتحدث فيما يلى عن هذا كله :

١- رجاء الله واليوم الآخر :

(أ) ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ ...

(ب) وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ .

٢ - الذكر الكثير : ﴿ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ .

٣ - الاقتداء برسول الله ﷺ والتأسى به واتباعه .

* *

١ - ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ [١] .

(أ) رجاء الله :

اعلم أنه وإن أثبتنا أسباباً حسيّة فى هذا الكون كنتيجة من نتائج المشاهدة كرؤيتنا أنّ النار تحرق ، والطعام يشبع ، وأنه وإن أثبتنا أسباباً غيبية لبعض الحوادث الكونية لإخبار الشارع بذلك ، كاثباتنا التوفى للمَلَك ، فإننا نعتقد أنّ

---

(١) الأحزاب : ٢١

ذلك كله سواء أكان سبباً حسياً أو غيبياً إنما يكون بُقدرة الله عزّ وجلّ ابتداءً وانتهاءً . فلا شئ إلا به جلّ جلاله : ﴿ ألا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ (١) ، ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (٢) ، ﴿ وَالَّذى هُوَ يُطْعِمُنى وَيَسْقِينِ * وَإذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذى يُميتُنى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذى أَطْمَعُ أن يَغْفِرَ لى خَطيئَتى يَوْمَ الدِّين ﴾ (٣) ، ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (٤) ، ﴿ أفَرأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ إنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوٰاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ ، وَلَئِن زَالَتَا إنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِه ﴾ (٦) ، ﴿ إنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ ﴾ (٧) ، ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (٨)

وبكلمة واحدة : « لا حول ولا قوّة إلا بالله » (٩) .

فالمسلم إذن يثبت الأسباب كلها حسّية كانت أو غيبية بإثبات الله لها : ﴿ وَاللَّهُ الَّذى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ (١٠) ، ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوْتِ الَّذى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ (١١) .

ويستعمل الأسباب الحسيّة كلها : « تداووا عباد الله واخزوا الشيطان ، فإنّ الله لم يخلق داءً إلا وخلق له دواءً » (١٢) ، ولكن قلبه أبداً معلّق بالله عقيدة وشعوراً : « اللهم أنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك » (١٣) .

---

(١) الأعراف : ٥٤ — (٢) الزمر : ٦٢ — (٣) الشعراء : ٧٩ - ٨٢

(٤) الأنفال : ١٧ — (٥) الواقعة : ٥٨ - ٥٩ — (٦) فاطر : ٤١

(٧) الذاريات : ٥٨ — (٨) الزمر : ٤٢

(٩) رواه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى ورواه الطبرانى والترمذى وقال الترمذى : حسن صحيح . — (١٠) فاطر : ٩ — (١١) السجدة : ١١

(١٢) رواه أصحاب السنن فى كتاب « الطب » عن أسامة بن شريك التغلبى .

(١٣) قطعة من حديث رواه الطبرانى فى « الكبير » والترمذى فى « الجنائز » وابن ماجه فى « الطب » بألفاظ متقاربة .

فاللّه وحده هو الفاعل ، وعلى هذا فالمؤمن يشارك الكافر فى الأخذ بالأسباب ، ويفارقه فى الاعتماد على اللّه وحده ، وبدون هذا فلا إيمان : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، واعتماده على اللّه هو الأساس ، واعتماده على الأسباب وإن كان واقعاً عارض : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٢) ، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ (٣) ، وهذا أمرٌ أمرَ به المسلم كما أُمرَ بالصلاة والزكاة : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ (٤) ، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٦) .

وبفهمنا لهذه الحقيقة نفهم سر تلك المواقف العظيمة ، والطمأنينة التى لا حد لها ، التى يقف بها المسلم أمام الأحداث واثقاً أنّ اللّه معه : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٧) ، ﴿ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُواْ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ (٨) .

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (٩) .

وفى الحديث المتفق عليه عن جابر أنه غزا مع رسول اللّه ﷺ قبل نجد ، فلما قفل رسول اللّه ﷺ قفل معهم ، فأدركتم القائلة فى واد كثير العضاة ، فنزل رسول اللّه ﷺ وتفرّق الناس يستظلون بالشجر ، ونزل رسول اللّه ﷺ تحت شجرة فعلّق بها سيفه ونمنا نومة ، فإذا رسول اللّه ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابى فقال : « إنّ هذا اخترط عليّ سيفى وأنا نائم ، فاستيقظتُ وهو فى يده صلتاً قال : مَن يمنعك منى ؟ قلت : اللّه - ثلاثاً - يمنعك منى ؟ قال : اللّه . فسقط السيف من يده » . ولم يعاقبه وجلس .

---

(١) المائدة : ٢٣ (٢) الطلاق : ٣ (٣) الزمر : ٣٦
(٤) الفرقان : ٥٨ (٥) التوبة : ٥١ (٦) آل عمران : ١٥٩
(٧) التوبة : ٣٦ (٨) الأحزاب : ٢٢ (٩) آل عمران : ١٧٣ - ١٧٤

وفى رواية أبى بكر الإسماعيلى فى صحيحه فقال : مَن يمنعك منى ؟ قال : « اللّه » . فسقط السيف من يده، فأخذ رسول اللّه ﷺ السيف فقال : « مَن يمنعك منى » ؟ فقال : كن خير آخذ . فقال : « تشهد أنَّ لا إله إلاَّ اللّه ، وأنى رسول اللّه » ؟ قال : لا ، ولكنى أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فأتى أصحابه . فقال : جئتكم من عند خير الناس .

وفى حديث الهجرة المتفق عليه عن أبى بكر قال : نظرتُ إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رؤوسنا فقلت : يا رسول اللّه ، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين اللّه ثالثهما »؟

أخذ بالأسباب واعتماد مطلق على اللّه : « قَيِّدها وتوكَّلْ » (١) ، تلك سُنَّة المسلمين واضحة فى هذه الكلمة النبوية : ربط للناقة - وذلك أخذ بالأسباب ، وبعد ذلك اعتماد لا حد له على اللّه ، وكم أغنى اللّه عن المسلمين مع قلة الأسباب ، وكم لم تغن الكافرين أسبابهم شيئاً على كثرتها : ﴿ إن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنَ ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ﴾ (٢) .

وكما أنَّ المسلم فى أمر الدنيا يأخذ بالأسباب ، ويعتمد على اللّه وحده متوكلاً عليه ، راجياً إياه ، غير معلق قلبه بهذه الأسباب ، عالماً أنها بدون اللّه لا تعنى عنه شيئاً : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُم فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ (٣) .

فكذلك المسلم فى أمر الآخرة ، يقوم بكل ما افترضه اللّه عليه ، ويعمل جاهداً من أجل إرضاء اللّه : إقامة لحدوده ، وطاعة لأوامره ، واجتناباً لنواهيه ، ومع هذا كله فإنه يبقى معتمداً على اللّه وحده فى إدخاله جنته ، وإبعاده عن ناره .

---

(١) رواه البيهقى وأبو نعيم وابن أبى الدنيا عن أنس ، ورواه الطبرانى عن أبى هريرة .
(٢) آل عمران : ١٦٠.   (٣) التوبة : ٢٥ - ٢٦

روى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله : « قاربوا وسدِّدوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » . ولذلك كان دعاء يوسف عليه السلام : ﴿ أَنتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

وكلما ازداد الإنسان معرفة بالله ، ازداد رجاؤه فى أمر دنياه وآخرته .

روى الترمذى عن أنس قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : « يابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالى ، يابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى لغفرتُ لك ، يابن آدم ، إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » (٢) .

وروى مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قال الله عَزَّ وجَلَّ : أنا عند ظن عبدى وأنا معه حيث يذكرنى - والله للهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة.ومَن تقرَّب إلىَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، ومَن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلتُ إليه أهرول » .

« إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها . وأخَّر الله تعالى تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » (٣) .

ولأهمية هذه الناحية فى قضية الإيمان - رجاء الله بالتوكل عليه وحسن الظن به - نجد السيد الرسول ﷺ قد أكثر من تعليمنا صيغاً فى الذكر والدعاء نجدها فى كتب الأذكار لها علاقة بهذا الموضوع .

والتوكل طريق إلى المحبة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) يوسف : ١٠١ .
(٢) حديث حسن .
(٣) متفق عليه .
(٤) آل عمران : ١٥٩

(ب) رجاء اليوم الآخر: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾(1).

إنَّ قضية اليوم الآخر هى أهم قضية فى الوجود على الإطلاق بعد قضية الألوهية ، وهى ملازمة للإيمان بالله لا تنفصل عنها . فمَن عرف الله وآمن به ، ينبغى أن يؤمن باليوم الآخر الذى سيُثَابُ فيه المحسن على إحسانه ، ويُجازَى فيه المسئ على إساءته ، والذى بُعثَ الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم من أجل التبشير به والإنذار منه : ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (2) ، به نتبين نتيجة الامتحان الذى امتحن به الإنسَان : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (3) .

ولذلك كانت هذه القضية بالنسبة للمسلم محور عمله كله ومحور فكره كله ، وذلك أن الناس قسمان : كافر يريد دنيا وليس له هدف آخر ، ومسلم يريد آخرة وليس له هدف آخر . يقول الله تعالى :

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ، أُوْلَئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (4) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (5) .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ (6) .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ﴾ (7) .

---

(1) الأحزاب : 21 (2) النساء : 165 (3) الملك : 2

(4) إبراهيم : 2 - 3 (5) يونس : 7 - 8 (6) النجم : 29 - 30.

(7) الإسراء : 18

﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (١) .

فالآيات القرآنية إذن جازمة أنّ الكافرين هم الذين جعلوا الدنيا هدفهم ومرادهم واستحبوها على الآخرة .

أما المؤمنون ، فإنّ هدفهم الآخرة ولها يسعون : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ (٢) ، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ (٣) نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ (٤) ، ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (٥) ، فالآخرة هى الهدف، والدنيا طريق لهذا الهدف ، وعلى قدر ما يزداد علم الإنسان يتضح لديه أنّ الدنيا لا تساوى شيئاً بالنسبة للآخرة : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (٦) ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ (٧) .

وليس معنى كون الآخرة هى الهدف أنّ المسلم محرّم عليه أن ينال شيئاً من الدنيا ، إنّ اللّه علّمنا أن ندعو : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ (٨) ، بل المقصود أنّ الدنيا ليست هى الهدف ، وإنما ينبغى أن يمر بها المسلم وهو عالم أنه على الطريق إلى هدف آخر ، وأنّ كل ما يراه على هذا الطريق حقير بالنسبة لما سيراه بعد ، فلذلك يكون موقفه من كل ما يرى الزهد فيه ، لأن استيلاء عظمة الآخرة على قلبه يجعل كل شئ بالنسبة له فانياً شبيهاً بالعدم .

---

(١) الشورى : ٢٠ (٢) الإسراء : ١٩

(٣) حرث الآخرة : ثوابها الموعود ، أو العمل لها . (٤) الشورى : ٢٠

(٥) القصص : ٧٧ (٦) الأعلى : ١٦ - ١٩ (٧) القصص : ٨٠

(٨) البقرة : ٢٠١

وما لم يصل المسلم إلى هذه الحالة يكون بعيداً عن نور الاسلام : « سُئلَ رسول الله ﷺ عن معنى الشرح فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾ (١) وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قالَ : « إنَّ النور إذا دخل فى القلب انشرح له الصدر وانفسح » . قيل : يا رسول الله ، وهل لذلك من علامة ؟ قال : « نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » (٢) .

هذا مفترق طريق ، إما طالب دنيا ، وإما طالب آخرة ، ولا لقاء بين هذا وهذا :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٣) .

واللَّه عَزَّ وجَلَّ فرض على البَشر جميعاً أن يكونوا طُلاَّب آخرة : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ ﴾ (٤) ، فاختار الكافرون الدنيا على الآخرة ، واختار المسلمون الآخرة على الدنيا ، فمَن عَدلَ عُدِلَ به : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٥) .

ولعل رجلاً من ذرارى المسلمين اليوم – وهو يرى فقدان المسلمين للدنيا ، وغلبة الكافرين عليها – يطالبنا أن نغرق مع طُلاَّب الدنيا فى طلبها ، بحُجَّة استعادة مجد المسلمين ، فاللَّه اللَّه فى ذلك لا تنسينا دنيانا آخرتنا ، ولو كنا مسلمين حقاً فسيؤتينا الله الدنيا مع الآخرة : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ ﴾ (٦) ، أما إذا أوتينا الدنيا،

---

(١) الأنعام : ١٢٥

(٢) رواه عبد الرزاق فى مصنفه عن أبى جعفر وفى سنده انقطاع .

(٣) الأحزاب : ٢٨ – ٢٩ (٤) المؤمنون : ١١٥ – ١١٦

(٥) الفتح : ١٠ (٦) النور : ٥٥

وخسرنا الآخرة فبئس الناس نحن ، ذلك هو الخسران المبين ، ولن تكون الآخرة لنا حتى نُطهِّر أنفسنا من أدران هواها ، وحتى نسلك فى الأرض بسيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً ﴾ (١) .

إنَّ طالب الجاه والرئاسة والزعامة والعلو لنفسه ليس من أهل الآخرة ، وإنَّ المفسدين فى الأرض السائرين بها على غير منهج الأنبياء ليسوا من أهل الآخرة ، وطلاَّب الآخرة براء من هؤلاء وهؤلاء .

إنَّ الله لا يحب عبداً إذا لم يمتلئ قلبه بالزهد فى الدنيا : « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » (٢) .

ومن سُنَن الإسلام التى سُنَّت كى يبقى المسلم متذكراً بالآخرة راجياً لها ما فى الآثار التالية :

روى النسائى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » يعنى الموت .

وروى مالك وابن ماجه : « أنَّ رجلاً من الأنصار قال : يا رسول الله ، أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خُلقاً » . قال : أى المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم لما بعده استعداداً ، أولئك الأكياس » .

وروى الترمزى أنَّ رسول الله ﷺ قال : « أكثروا من ذِكر هاذم اللّذات فإنه يمحص الذنوب ويُزَهِّد فى الدنيا » .

وروى مسلم عن رسول الله ﷺ : « فزوروا القبور فإنها تُذكِّر الموت » .

وروى ابن ماجه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تُزَهِّد الدنيا وتُذكِّر الآخرة » .

---

(١) القصص : ٨٣

(٢) رواه النووى فى أربعينه وقال : حديث حسن . وابن ماجه وجماعة آخرون عن سهل بن سعد الساعدى .

وفى الحديث : « الكيِّسُ [1] مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والعاجز مَن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » [2] .

فمَن ذكرَ الموت وذكرَ ما بعده ، وأكثر من هذا الذكر مع الإيمان والمحاسبة وإصلاح العمل رُجِىَ له أن يخلص لله تعالى . قال تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى الأَيْدِى وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ [3] ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ [4] .

فتأمل كلمة : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ [5] تجد الطريق إلى الله ، وإلى خلوص نفسك وخلاصها واضحاً هو أن تتذكر الدار الآخرة .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُواْ اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [6] .

وفى الحديث : « أُتِىَ رسول الله ﷺ بقدح فيه لبن وعسل فقال : « شربتين فى شربة ، وأدمين فى قدح ، لا حاجة لى به ، أما إنى لا أزعم أنه حرام ، ولكن أكره أن يسألنى الله عزَّ وجَلَّ عن فضول الدنيا يوم القيامة ، أتواضع لله فمن تواضع لله رفعه الله ، ومَن تكبَّر وضعه الله ، ومَن اقتصد أغناه الله ، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله » [7] .

وعلى هذا فلا بد من أوقات للتأمل ، نتذكر فيها موتنا ثم السؤال فى القبر ، ثم حياة البرزخ ، ثم البعث ، ثم الحشر ، ثم الموقف والحساب والميزان والورود

---

(١) الكيِّسُ : العاقل .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم والترمذى وقال : هذا حديث حسن عن شداد بن أوس .

(٣) أخلصناهم بخالصة : خصصناهم بخصلة لا شوب فيها .

(٤) سورة ص : ٤٥ - ٤٧ (٥) سورة ص : ٤٦ (٦) الحشر : ١٨

(٧) رواه الطبرانى فى الأوسط عن عائشة رضى الله عنها ، وفيه نعيم بن مودع العنبرى وثَّقه ابن حبان ، وقال النسائى : ليس بثقة ، وضعَّفه غير واحد ، وبقية رجاله ثقات .

على النار ، ثم الجنة والنار ، وكلما زدنا هذه الأوقات والتأملات كنا أقرب إلى الله ، ولا بد أن يرافق هذا كله محاسبة لأنفسنا على يومنا وأمسنا وغدنا ، واستغفار على ما فرّطنا وقصّرنا ، وتجديد عزم وهمة مع الله .

ولكى تصبح هذه القضايا مَلَكة عند المسلم ، فليخصص فى بداية أمره وقتاً لمثل هذه التأملات ، وكل إنسان أدرى بنفسه ووقته ، والغفلة عن المسير هى الشر المستطير : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) .. وهذا كله من أجل إحياء رجاء اليوم الآخر فى أنفسنا إذ هو المقصود هنا .

* *

٢ - ﴿ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (٣) . ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ (٤) .

وفى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ : « سبق المفردون » . قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » .

قال النووى فى بيان الذكر الكثير : « قال الإمام أبو الحسن الواحدى : قال ابن عباس : المراد : يذكرون الله فى أدبار الصلوات ، وغدواً وعشياً وفى المضاجع ، وكلما استيقظ من نومه ، وكلما غدا أو راح منزله ذكر الله تعالى » .

وقال مجاهد : لا يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً .

وقال عطاء : مَن صلّى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل فى قول الله تعالى : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ (٥) .. هذا نقل الواحدى .

---

(١) الحشر : ١٩ (٢) الأحزاب : ٢١ (٣) الأحزاب : ٤١ - ٤٢
(٤) الأحزاب : ٣٥ (٥) الأحزاب : ٣٥

وقد جاء فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا أو صلّى ركعتين جميعاً ، كُتبا فى الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » (١) .

وسئل الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله عن القدر الذى يصير به من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات فقال : « إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحاً ومساءً فى الأوقات والأحوال المختلفة ليلاً ونهاراً وهى مبّينة فى كتاب « عمل اليوم والليلة » كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، والله أعلم » (انتهى كلام النووى) .

ومَن تتبَّع الكتاب والسُنَّة وجد عملياً ما يلى :

أنَّ الذكر يتمثل بثلاثة نواح :

١ - ناحية عامة وهى استحضار نيّة العمل لوجه الله فى كل ما يفعله المسلم .. وذلك ذكر .

٢ - ناحيةٌ أساسية هى الصلاة فروضها وسُنَنها وبدونها لا يكون الإنسان ذاكراً ، وبإكمالها يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

٣ - ناحية متممة وهى الأذكار المأثورة باختلاف الأحوال والحالات والأوقات والمناسبات .

أما الناحية الأولى فقد مرَّت معنا أثناء بحث الإحسان .

وأما الناحية الثانية فنقول فيها :

الصلاة ذكر كلها لذلك قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا البَيْعَ ﴾ (٣) .

---

(١) هذا الحديث مشهور رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه فى سننهم .

(٢) طه : ١٤

(٣) الجمعة : ٩

وبمقدار ما يُحسن الإنسان فيها يكون ذاكراً ، وبمقدار ما يُسئ أو يُقصِّر يكون غافلاً :

قال تعالى فى وصف المنافقين : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

ومَن تأمل الصلاة وجد أن دعاء الافتتاح فيها ذِكر ، وفى القيام ذِكر ، وقراءة قرآن ذِكر ، وفى الركوع ذِكر ، وفى القيام منه ذِكر . وفى السجود ذِكر ، وفى القعدتين ذِكر ، وأورادها الراتبة بعدها ذِكر .

فإذا ما أدى الإنسان الصلوات كلها ، فرائضها وسننها ، وما سُنَّ له فيها وبعدها وقبلها ، فإنَّ ذلك وحده يجعله من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، وقد مَرَّ فيما نقلناه عن النووى ما يشير إلى ذلك . فإذا ما أقام فريضة الصبح ونافلتها بين الفجر والشمس ، وأقام سُنَّة الضحى بين الشمس والزوال ، وأقام سُنَّة الظهر القبلية ، وفريضة الظهر وسُنَّتها البَعدية بين الزوال والعصر ، وأقام العصر فى وقتها ، والمغرب وسُنَّتها كذلك ، والعشاء وسُنَّته ، ثم القيام والتهجد والوتر كان لا شك من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

قال عليه السلام : « مَن قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ، ومَن قام بمئة آية كُتِبَ من القانتين ، ومن قام بألف آية كُتِبَ من المقنطرين » (٢) .

* * *

فإذا ما أقام الناحية الثالثة وهى ذِكر أوراد ما خُصِّص لبعض هذه الأوقات ، وذِكر ما سُنَّ للمناسبات التى يتلبس بها ، فقد أوفى واستوفى .

ومَن أراد استيعاب هذه الجوانب كلها ، فإنَّ كتاب « الأذكار » للنووى قد أتى بما أجاد به وأحسن وأوعى ، فليكن الكتاب الذى لا يفارقه المسلم فى

---

(١) النساء : ١٤٢

(٢) رواه أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، وقوله : « من المقنطرين » : أى ممن كُتب له قنطار من الأجر .

حلّه وترحاله ، غير أنّ الأستاذ البنا جمع رسالة هى « المأثورات » جمع فيها الطيِّب المبارك السهل التطبيق وقد أحاطت بالأمهات .

ونحب بعد ما تقدم أن نلفت النظر إلى بعض المعانى :

١ - سُنَّ للمسلم بشكل دائم أن يلازم الذكر فى كل حال بشكل مطلق : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله » (١) ، « كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحواله » (٢) ، « جَدِّدوا إيمانكم » . قيل : يا رسول الله ، كيف نجدِّد إيماننا ؟ قال : « أكثروا من ذِكر لا إله إلاَّ الله » (٣) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٤) .

٢ - الأذكار كلها نافعة ، ولكن الناس أحياناً يقعون فى إفراط وتفريط بالنسبة لهذه القضية . فإنَّ بعض الناس يستغرق فى الأذكار وهى نافلة على حساب الفروض لدرجة أنه يترك أحياناً فرض عين من أجل نافلة ، والمسألة تحتاج إلى فقه عميق يعرف به المسلم ماذا عليه ، فيقوم بالفرض مقدِّماً إياه على غيره . فمثلاً : إنَّ تعليم الناس الإسلام فرض كفاية ، وهو مقدَّم على النافلة ، فعندما يكون المسلم باستطاعته أن يعلم ويوجد من يتعلم منه ، فإنه فى هذه الحالة لا ينبغى أن يترك عملية التعليم من أجل أن يتفرغ لذِكر مندوب ، وعلى هذا يقاس ، مع ملاحظة أنَّ الذِكر يستطيعه الإنسان وهو يقوم بكثير من الواجبات .

---

(١) رواه الترمذى عن عبد الله بن بسر ، وقال الترمذى : حديث حسن .

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن عائشة .

(٣) رواه أحمد والحاكم والنسائى والطبرانى بسند حسن عن أُبَىٍّ بن كعب .

(٤) آل عمران : ١٩٠ - ١٩١

وبعض الناس يُضيِّع وقته فى غير طائل ، ولا يذكر اللّه إلا قليلاً ، بحُجّة أنّ هذا نفل وليس مفروضاً ، صحيح أنّ الذكر نفل وليس فريضة ، ولكن بالذكر تحيا فروض لا تقوم بدونه إلا قياماً مريضاً ، فبالذكر يحيا القلب ، وتحيا العقيدة ، وتنمو معانى الإيمان ، ويطمئن القلب باليقين ، وكلها لو حقّق الإنسان فرائض :

« مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كمثل الحى والميت » (١) ، ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢) .

« ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا اللّه فيه ولم يُصلُّوا على النبى (ﷺ) إلاَّ كان عليهم حسرة يوم القيامة ، فإن شاء عذّبهم وإن شاء غَفَرَ لهم » (٣) .

« ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا اللّه تعالى فيه إلا كان عليهم تِرَةٌ (٤) ، وما من رجل يمشى طريقاً فلم يذكر اللّه تعالى إلا كان عليه تِرَةٌ ، وما من رجل أوى إلى فراشه فلم يذكر اللّه عَزَّ وجَلَّ إلا كان عليه تِرَةٌ » (٥) .

٣ – قد لا يُتاح لإنسان فى بعض الظروف أن يقوم بالأوراد الواردة ، أو بما التزمه منها ، ، أو يكسل عن القيام ببعض الرواتب . وفى مثل هذه الأحوال إما أن يقضى ، وإما أن يطبق صيغة جامعة ورد فيها شئ خاص يغنى عن التطويل .. فمثلاً :

عن جويرية أم المؤمنين رضى اللّه عنها أنّ النبى ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلّى الصبح وهى فى مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة فقال : « ما زلتِ اليوم على الحال التى فارقتك عليها » ؟ قالت : نعم ، فقال النبى ﷺ : « لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وُزِنت بما قلتِ منذ اليوم

(١) رواه البخارى عن أبى موسى الأشعرى فى كتاب « الدعوات » باب « فضل ذِكر اللّه عَزَّ وجَلَّ » ، ورواه مسلم بمعناه . (٢) الرعد : ٢٨

(٣) رواه أحمد بإسناد صحيح ، وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة .

(٤) الترة : النقص ، وقيل : التبعة . (٥) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » [1] .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال : « مَن قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّه حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَات وَالأَرْضِ وَعَشيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّت وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ وَيُحْيِى الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [2] أدرك ما فاته فى يومه ذلك ، ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته » [3] .

٤ – قد يتعذر على بعض المسلمين حفظ الصيغ الكثيرة المأثورة ، فنرى فى هذه الحالة تسهيلاً واختصاراً أن يُطبِّق السُّنَن التالية :

(أ) الاستغفار مائة مرة ، وقد مَرَّ معنا بحثه ودليله .

(ب) أن يقول مائة مرة : « لا إلهَ إلا اللّهُ وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ».. فقد ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم : « مَن قال لا إلهَ إلاَّ اللّهُ وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير – فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكُتِبت له مائة حسنة ، ومُحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ».

(جـ) أن يلازم بعد ذلك صيغة مما ورد فيه الذكر المطلق كالصلاة على الرسول ﷺ ، أو « لا إلهَ إلا اللّهُ » ، أو الاستغفار أو « سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » ، أو « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، أو « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلّا اللّهُ ، والله أكبر » . وقد وردت آثار فى كل هذا تندب بإطلاق إلى الذكر بهذه الصيغ ، وبعض الآثار تذكر عدداً ، وفى ذلك كله خير .

---

(١) رواه مسلم . (٢) الروم : ١٧ – ١٩ (٣) رواه أبو داود .

والمهم أن يكون الإنسان فى حالة ذِكر دائم ، فى قعوده وممشاه ومنامه وعمله .

٥ - وللصلاة على الرسول ﷺ أثر خاص نحب أن نتحدث عنه مع ما له نفس الخاصية من الأعمال :

إنَّ عصرنا مليئ بظلمات الشهوة والشُبهة والغفلة .

واللّه عَزَّ وجَلَّ بفضله يُخرج مَن شاء من الظلمات كلها إلى النور ، قال تعالى :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٣) .

وعلى هذا فإننا نفهم أنَّ الإنسان الذى تصيبه صلاة اللّه وملائكته يخرج إلى النور ، وبقدر ما يصيبه من هذه الصلاة يصيبه من النور ويتخلص من الظلمة . وقد بيَّن اللّه عَزَّ وجَلَّ لنا أموراً إذا فعلناها أو تحققنا بها صلَّى علينا هو وملائكته أو ملائكته وحدهم ، وباستعراضنا لهذه الأمور نكون قد استعرضنا الطريق الذى نسلكه لنتخلص من ظلمة الشُبهة أو الشهوة أو الغفلة .

(أ) قال عليه السلام : « مَن صلَّى علىَّ صلاة واحدة صلَّى اللّه عليه عشر صلوات وحُطَّت عنه عشر خطيئات ورُفعت له عشر درجات » (٤) .

---

(١) البقرة : ٢٥٧ (٢) الزمر : ٢٢ (٣) الأحزاب : ٤٣

(٤) رواه النسائى وأحمد وابن حبان والحاكم ، ومعنى القسم الأول من الحديث - ويكاد يكون لفظه - رواه مسلم .

روى النسائى عن أبى طلحة أنَّ النبى ﷺ جاء ذات يوم والبُشرى فى وجهه فقلنا : إنَّا لنرى البُشرى فى وجهك ، قال : « إنه أتانى الملك فقال : يا محمد ، إنَّ ربك يقول : أما يرضيك أنه لا يُصلِّى عليك أحد إلا صلَّيتُ عليه عشراً ، ولا سلَّم عليك أحد إلا سلَّمتُ عليه عشراً » .

وللطبرانى فى « الكبير » بإسناد حسن عن محمد بن يحيى بن حبان عن أبيه عن جده أنَّ رجلاً قال : يا رسول اللّه ، أجعل ثُلث صلاتى عليك ؟ قال : « نعم ، إن شئتَ » ، قال : الثلثين ؟ قال : « نعم » ، قال : فصلاتى كلها ؟ قال : « إذن يكفيك اللّه ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » .

من هذه الآثار يتبيَّن لنا أن ملازمة الصلاة على الرسول ﷺ سُنَّة . وأنها الطريق إلى الخلاص فى الدنيا والآخرة . فإذا أحس المسلم بظلمة شهوة أو شُبهة أو غفلة ، فليبدأ بالصلاة على الرسول ﷺ لتزول ، تحقيقاً لوعد اللّه ، وإذا أراد المسلم أن يبقى فى النور الدائم فعليه أن يُكثر من الصلاة على رسول اللّه ﷺ .

وقد وردت للصلاة على النبى ﷺ فى السُنَّة أكثر من صيغة ، والأمر فيه سعة ، فمَن قال : « اللّهم صَلِّ على محمد وآله وسلم » لم يبعد عن الإحاطة فى الموضوع كله ، وتتأكد المطالبة بالصلاة على الرسول ﷺ إذا ذكر . فللترمذى عن علىّ بإسناد حسن : « البخيل الذى مَن ذكرتُ عنده فلم يُصَلِّ علىّ » .

(ب) للستة إلا النسائى عن رسول اللّه ﷺ :« صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وسوقه خمسا وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رُفِعت له بها درجة ، وحُطَّت عنه خطيئة ، فإذا صلَّى لم تزل الملائكة تُصلِّى عليه ما دام فى مصلاَّه : اللّهم صَلِّ عليه ، اللّهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة » .

(جـ) للترمذى عن أبى أمامة : « ذُكِرَ للنبى ﷺ رجلان : عالِم وعابد . فقال : « فضل العالِم على العابد كفضلى على أدناكم . إنَّ اللّه وملائكته وأهل

السموات والأرض - حتى النملة فى جحرها والحيتان فى البحر - يُصَلُّون على معلِّم الناس الخير » .

(د) وللطبراني فى « الأوسط » و « الكبير » عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن قرأ السورة التى يُذكر فيها آل عمران يوم الجمعة ، صَلَّى عليه الله وملائكته حتى تغيب الشمس » .

(هـ) قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ، إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (١) ، فمن فهم هذه الآية وتحقق بها ، نال من بركات الله ما لم ينله غيره : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) .

٦ - إنَّ أعلى أنواع الذكر وأرقاها ، وأكثرها أجراً وأفضلها : قراءة القرآن ، ولكنَّا لم نتعرض لها هنا لأنها ستأتى ، والشئ الذى نحب أن نؤكده هنا هو ما يلى :

إذا خُيِّرنا بين القرآن والذكر ، فإننا نختار القرآن ، وإذا خُيِّرنا بين الذكر والغفلة ، فإننا نختار الذكر ، وإذا اجتمع لنا الذكر والقرآن فذلك جيد ، لأنَّ القرآن يأمرنا بالذكر . وإذا خصصنا وقتاً للقرآن ووقتا للذكر فذلك طيب ، وهناك أحوال الوضع العادى فيها هو الذكر أثناء السير ، وبعد الصلوات ، وما ورد عنده أذكار مخصوصة .

---

(١) البقرة : ١٥٣ - ١٥٧

(٢) الزمر : ١٠ .

ولنحذر الشيطان أن يتلاعب بنا ، فإنَّ الشيطان يأتى أحدنا وهو فى عمل خير فيُذكِّره بعمل خير آخر ليصرفه عن الأول ، ثم يشغله عن الثانى ، فمن كان ذا لب أكمل الأول ثم فعل الثانى .

٣ - الاقتداء برسول الله ﷺ والتأسى باتباعه :

رأينا أنَّ طريق المحبة اتباع رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (١) ، ورأينا أنَّ الاتباع لا يتم إلا لمن تحقق بصفتين : رجاء الله واليوم الآخر ، والذكر الكثير : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ (٢) .. وشرحنا فيما مرَّ ما له علاقة بتلك الصفتين ، والآن نريد أن نذكر ما له علاقة بالاقتداء والاتباع والتأسى فنقول :

١ - إنَّ الصفات الأساسية للرسول ﷺ وكل رسول كما يذكرها علماء التوحيد أربع هى : الصدق ، والأمانة ، والفطانة ، والتبليغ .

والمقصود بالصدق : واضح ، هو ألا يكذب أبداً ، لأن مبنى الرسالة الصدق ، وبدونه يُتهَم الرسول فلا يصدق فى شئ .

والمقصود بالأمانه هنا : القيام بحق التكاليف قياماً كاملاً ، وهذا معناها فى الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (٣) ، ومظهر التكليف طاعة الأمر ، واجتناب النهى . فالرسول إذن صورة طبق الأصل عن دعوته ، فإنه لا يخالف لله أمراً ، ولا يعصى الله فى نهى ، وإذا كان الإسلام هو دين الله ، فالرسول إذن هو الصورة العملية للإسلام .

والمقصود بالفطانة : العقل الراجح ، والذكاء الخارق ، والحُجَّة التى لا تُدحض ، فإنَّ مهمة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، إقامة الحُجَّة على مَن أرسلَ

---

(١) آل عمران : ٣١ (٢) الأحزاب : ٢١ (٣) الأحزاب : ٧٢

إليهم ، ولن يقيم الحُجَّة إنسان عادى : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) ، وفى رسالة للبَشر عامة ، كرسالة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشاملة لكل شئون الحياة ، فإنها تحتاج إلى عقل لا مثيل له ، إذ على صاحبها أن يقيم الحُجَّة على كل إنسان ، كبر هذا الإنسان أو صغر ، فيلسوفاً كان أو عادياً ، ولا يخاطِب صاحب العقل الكبير بما يخاطِب به الغبى .

والمقصود بالتبليغ : أن يبلغ كل ما أُمِرَ بتبليغه ، أى يُبلِّغ مضمون رسالته للآخرين مهما كان هذا المضمون ، خالف هوى الناس أو وافق ، سخط الناس أم رضوا ، أكرموه أم آذوه : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ﴾ (٢) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (٣) .

فإذا ما استجاب له مَن بلغهم ، تكون مهمته تربيتهم ، وتعليمهم الكتاب ، وشرح هذا الكتاب لهم : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ﴾ (٤) ، ﴿ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ﴾ (٥) .

واذن مهمته مع مَن استجاب له تطهيرهم من أهواء الأنفس وشهواتها وأخلاقها السيئة ، وتعليمهم الكتاب والسنة التى هى الشارحة للكتاب .

وعليه أن يقوم مع من استجاب له بعملية الصراع ضد الجاهلية علي أمر الله، حتى تكون كلمة الله هى العليا : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ (٦) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ ،

---

(١) النساء : ١٦٥
(٢) الأحزاب : ٣٩
(٣) المائدة : ٦٧
(٤) الجمعة : ٢
(٥) البقرة : ١٥١
(٦) ربِّيون : علماء فقهاء أو جموع كثيرة .

وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ (١) .

وهذا كله داخل فى التبليغ .

ولا يقوم إنسان بحق الاقتداء إلا إذا أخذ هذا كله :

فكان صادقاً ، وكان أميناً ، وكان فطناً ، وكان مُبلِّغاً عن الله ورسوله ﷺ ، ومن التأسى بصفة الأمانة أن يتأسى برسول الله ﷺ بإقامة الفرائض ، والواجبات ، والسُنَن بقسميها ، سُنَن الهدى ، وسُنَن العبادة ، وأن يتأسى برسول الله ﷺ بترك المحرَّمات والمكروهات التحريمية والتنزيهية ، ويحدث أحياناً أن نجد إنساناً حريصاً على اتباع سُنَّة مُفرِّطاً فى فريضة أو واجب ، ونجد أحياناً إنساناً يُفضِّل إقامة سُنَّة على فريضة ، إنَّ مثل هذا يحتاج إلى إعادة نظر ، وليست إعادة النظر أن يترك السُنَّة ويقيم الفريضة ، بل أن يقيمهما معاً ، مع الحرص على الفريضة أكثر .

والمشكلة التى نعانيها ، أننا نفرِّط أحياناً بصفة أساسية كاملة ، إذ قد نجد إنساناً مسلماً لا يلتزم الصدق الدائم مزاحاً وجداً فى كل الظروف ، وهذا تفريط خطير .

أو قد نجد مسلماً لا يلتزم بالأمانة كاملة فيفرِّط بفروض ، أو يقع بمحرَّمات ، أو يتساهل بواجبات ومكروهات ، أو ينسى سُنَناً كثيرة ، وهذا تفريط خطير .

أو قد نجد مسلماً قَصَّر فى تكوين مَلَكة الفطانة عنده فلا يستطيع أن يقيم الحُجَّة بالحق على الناس ، فيضعف الخير ، وهذا تفريط كثير وكبير .

أو قد نجد مسلماً لا يفكر بالتبليغ أصلاً ، وهذا تقصير عظيم جداً ، أو قد نجد مسلماً قد فرَّط بهذا كله وحتى بالآلات التى يُحصِّل بها هذا ، كالعلم مثلاً ، فأى اتباع واقتداء يكون مع هذا ؟ وأين نحن من طريق المحبة وقتذاك ؟

---

(١) آل عمران : ١٤٦ - ١٤٨

٢ - مَرَّ معنا في مبحث « الرسول » في الفصل الأول منه كيف أنَّ الرسول ﷺ هو المثل الأعلى في كل شئ ، وأنَّ اللّه قد آتاه الكمالات في كل شئ ، وعلى هذا فنحن نعتقد أن رسول اللّه ﷺ في كل جانب من جوانب الحياة قد أعطاه اللّه أعلى المقامات والأحوال وأعدلها . وينتج عن هذا أنَّ هيئة رسول اللّه ﷺ ولباسه هي الأكمل والأعدل ، وكذلك طريقته في طعامه وشرابه وتنعله وترجله ، وكذلك تجملة وتنظفه ، وكذلك هديه مع أولاده وبناته وزوجاته وجيرانه وأسرته والناس أجمعين . وبمقتضى هذا فلا يصح لمسلم أن يُفضِّل حالاً من الأحوال على أي حال من أحواله عليه السلام . فمثلاً كان رسول اللّه ﷺ يحف شاربه ، ويعفى لحيته ، فمَن تصوَّر الكمال في غير ذلك فقد ضَلَّ ضلالاً بعيداً ، وهكذا في كل شأن .

إننا لا نبلغ حد التأسي حتى نُقلِّد رسول اللّه ﷺ تقليداً تذوب معه شخصيتنا في شخصية رسول اللّه ﷺ ذوباناً كاملاً مطلقاً .

عن مجاهد : « كنا مع ابن عمر في سفر ، فمَرَّ بمكان فحاد عنه ، فسُئِلَ لِمَ فعلتَ ؟ قال : رأيتُ رسول اللّه ﷺ فعل هذا ففعلته » (١) .

إنَّ الذي يُفضِّل زي الكافرين على زِيِّ رسول اللّه ﷺ ، أو هيئتهم على هيئته ، أو طريقتهم على طريقته هو كما وصفه رسول اللّه ﷺ : « قلوبهم قلوب الأعاجِم وألسنتهم ألسنة العرب » (٢) .

لقد تحدثنا في غير هذ الكتاب عن السُنَّة وعلومها ، وما ينبغي أن يدرسه المسلم من هذه النصوص ، ونزيد هنا فنقول : إننا لا نبلغ العلم حق العلم ، حتى لا نجاوز ما قرأناه حتى نعمل به ، وينبغي أن نكون شجعاناً ، فما علينا في سبيل إحياء سُنَّة رسول اللّه ﷺ لو جابهنا الدنيا ؟ وإيانا وفلسفة الشيطان التي يريد بها أعداء اللّه أن يمسخوا شخصياتنا بالتقاليد ، حتى نصبح وكأننا قطعة من مجتمع الكافرين ، في زِيِّنا وهيئتنا وطرق معاشنا وآدابنا وأخلاقنا .

---

(١) رواه أحمد والبزار .

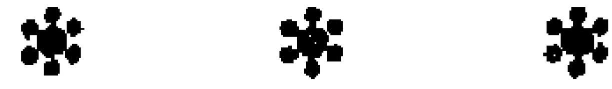
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده .

٣ - إنَّ كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية عليه أن يكون نسخة طبق الأصل عن رسول الله ﷺ ، بياناً ، وجهاداً ، وحكمة ، وحنكة ، ودراية ، وعبادة ، وزهداً ، وإقداماً ، وثباتاً ، وكرماً ، ورجولة ، ولطفاً ، ورحمة ، وحزماً ، و .... وإذا ما استطاع كل فرد من أفراد هذه الأمة أن يرتفع هذا الارتفاع ، فإننا نؤكد أنه وقتذاك يحس بطعم إنسانيته تميزاً وارتقاءاً .

٤ - وبعد ... إنَّ الهدف الأعلى هو محبة الله ، والطريق إليها هو الاتباع لرسوله ، والذكر ورجاء اليوم الآخر وسيلتا الاتباع وأداتاه .

وكم مستعمل أداة فى غير طريق ، وكم سالك طريقاً يضعف . وكم ناسٍ هدفاً أُمِر بالوصول إليه ، ولذلك لم يحقق مقام المحبة من الناس إلا قليل ، ولذلك كان : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (١) .

نسأل الله أن يجعل رضوانه غايتنا ، وأن يجعل رسوله قدوتنا فى كل شأن من شئوننا .



٥ - قال تعالى فى الحديث القدسى : « وجبت محبتى للمتحابين فىَّ والمتزاورين فىَّ والمتباذلين فىَّ » (٢) .

(أ) « إنَّ من عباد الله ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله » قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا مَن هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح الله ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إنَّ وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس . وقرأ : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ » (٣) .

---

(١) سبأ : ١٣ (٢) رواه مالك .
(٣) رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ - والآية من سورة يونس : ٦٢

(ب) عن أنس عن رسول الله ﷺ : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان : مَن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومَن أحب عبداً لا يحبه إلا لله ، ومَن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى فى النار » [١] .

(جـ) وللترمذى عن معاذ عن رسول الله ﷺ فى الحديث القدسى : « المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » .

(د) وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين المتحابون لجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى ، لا ظل إلا ظلى » [٢] .

(هـ) عن أبى ذر قال : يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم ، قال : « أنت يا أبا ذر مع مَن أحببت » ، قال : فإنى أحب الله ورسوله ، قال : « فإنك مع مَن أحببت » فأعادها أبو ذر فأعادها صلى الله عليه وسلم [٣] .

(و) « عن يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغشى بياض وجوههم نظر الناظرين ، يغبطهم النبيون والشهداء بمقعدهم وقربهم من الله عَزَّ وجَلَّ » . قيل : مَن هم يا رسول الله ؟ قال : « جماع من نوازع القبائل - أى أخلاط من أغراب القبائل - يجتمعون على ذِكر الله فينتقون أطايب الكلام كما ينتقى آكل التمر أطايبه » [٤] .

---

(١) رواه الشيخان والترمذى والنسائى ، وله فى رواية بدل الثانية : « أن يحب فى الله ويبغض فى الله » .

(٢) لمالك ومسلم .

(٣) رواه الدارمى وأبو داود عن أبى ذر مرفوعاً .

(٤) الحديث مؤلف من شطرين ، الشطر الأول : « عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين » رواه مسلم فى كتاب « الإمارة » عن أبى بكر رضى الله عنه ، وبقية الحديث عند النسائى فى السُّنَن عن أبى هريرة ورجاله ثقات كما قال الحافظ العراقى مع اختلاف فى بعض الألفاظ بسيط .

(ز) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى ، فأرصد الله على مدرجته مَلَكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية . قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ [1] قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله ، قال : فإنى رسول الله إليك بأنّ الله قد أحبك كما أحببته فيه » [2] .

(ح) وعن أبى أمامة عن رسول ﷺ بإسناد ضعيف : « مَن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » [3] .

(ط) عن المقدام عن رسول الله ﷺ : « إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه » [4] .

* * *

ملاحظات

١ - ندرك مما مَرّ أنّ من طُرق الوصول إلى محبة الله :

(أ) الحب فى الله . (ب) والتزاور فى الله . (جـ) والبذل فى الله ، وهى كما ترى طرق سهلة ، نتائجها كثيرة وكبيرة عند الله .

٢ - هذه المحبة فى الله ، لا تتحقق إلا إذا كانت خالية من الغرض ، إيجابية فى الخير ، فإذا أحببتَ أخاك لجمال أو مال أو متعة فليست هذه محبة فى الله ، وإذا أدّت هذه المحبة للتعاون على معصية أو لوصول إليها ، فليست محبة فى الله . أما إذا كان الحب لمجرد كون المحبوب مسلماً صالحاً وأدّى بالمتحابين إلى النهوض ببعضهم إلى الله ، والتواصى بالحق والصبر ، والتعاون على الخير والذكر والدعوة والعلم ، فتلك محبة فى الله .

---

(١) تحفظها وتراعيها .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أبو داود .

(٤) رواه أبو داود والترمذى .

قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ ثم بيَّن الهدف من تعاونه مع أخيه فقال : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ (١) ، فالتسبيح الكثير ، والذكر الكثير ، هو الهدف من التآخي في الله .

وقال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٢) ، فأخوة لا تحقق هذه المقاصد لا يكون أصحابها من الناجحين .

وقد مرَّ معنا قوله عليه السلام في وصف المتحابين في الله : « يجتمعون على ذكر الله فينتقون أطايب الكلام كما ينتقى آكل التمر أطايبه » .

فهم يحققون في اجتماعهم سُنَن الاجتماع على الخير :

« إنَّ رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : « ما أجلسكم » ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا ، قال : « آلله ما أجلسكم إلا ذاك » ؟، قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال: « أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أنَّ الله يباهي بكم الملائكة » (٣) .

وعن أنس بن مالك قال : « كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : تعال نؤمن بربنا ساعة . فقال ذلك ذات يوم

---

(١) طه : ٢٥ - ٣٥ (٢) سورة العصر كاملة .

(٣) رواه مسلم في كتاب « الذكر » باب « فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر » والنسائي في كتاب « أدب القاضي » باب « كيف يستحلف الحاكم » كلاهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال معاوية رضي الله عنه : « إنَّ رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ... » .

لرجل فغضب الرجل فجاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة ! فقال النبى ﷺ : « يرحم الله ابن رواحة ، إنه يحب المجالس التى تتباهى بها الملائكة » [1] .

« إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله ، تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا . فيسألهم ربهم وهو أعلم : ما يقول عبادى ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبّرونك ويحمدونك ويمجدونك . فيقول : هل رأونى ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك ، فيقول : كيف لو رأونى ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً . فيقول : فماذا يسألون ؟ قال: يقولون : يسألونك الجنة ، قال : يقول : وهل رأوها : قال : يقولون : لا والله يا ربى ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً . وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة . قال: فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون : يتعوذون من النار . قال : فيقول : فهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله ما رأوها ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة . قال : فيقول : فأشهدكم أنى غفرتُ لهم . قال : يقول مَلَك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » .

وفى رواية : « وله غفرتُ ، هم القوم لا يشقى جليسهم » [2] .



٣ - والأخوة فى الله لا تستمر إلا إذا كانت على تقوى وأدب : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [3] ، والخليل الصديق . ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [4] ،

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك به مرفوعاً .

(٢) متفق عليه عن أبى هريرة . (٣) الزخرف : ٦٧ (٤) الإسراء : ٥٣

« لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه » [١] ، « ألا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم » [٢] ، « تبسمك فى وجه أخيك صدقة » [٣] .

* *

٤ - والأخوة فى الله لا تستمر إلا إذا حفظت لأخيك سره ، وحفظته فى غيبته ، وأديت حقه ..

روى أبو داود عن جابر عن رسول الله ﷺ : « المجالس بالأمانة إلا ثلاثة : سفك دم حرام ، أو فرج حرام ، وانقطاع مال بغير حق » .

وللترمذى وأبى داود عن رسول الله ﷺ : « إذا حدَّث رجلٌ رجلاً بحديث ثم التفت فهو أمانة » .

وروى أبو داود عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ : « مَن حمى مؤمناً من منافق بعث الله له مَلَكاً يحمى لحمه يوم القيامة على جسر من جسور جهنم حتى يخرج مما قال » .

وروى أبو هريرة عن رسول ﷺ : « إياكم والظن ، فإنَّ الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم .. المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره - حسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعِرضه ، وماله ، إنَّ الله لا ينظر إلى أجسادكم ، ولا إلى صوركم وأعمالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » [٤] .

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب « السير » عن ابن عباس ، وقال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ورمز السيوطى لصحته .

(٢) رواه مسلم وابن ماجه وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة ، قال الترمذى : حسن صحيح .

(٣) رواه الترمذى عن أبى ذر وله تتمة .

(٤) رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

وروى أنس عن رسول الله ﷺ : « لا تقاطعوا ، ولا تدابروا ، ولا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » (١) .

وللستة إلا مالكاً - وهذا لفظ النسائى - عن رسول الله ﷺ : « للمؤمن على المؤمن ست خصال : يعوده إذا مرض ، ويشهده إذا مات ، ويجيبه إذا دعاه ، ويُسلّم عليه إذا لقيه ، ويُشمّته إذا عطس ، وينصح له إذا غاب أو شهد » .

* *

٥ - وإنّ من طبيعة المؤمن حرصه على كسب الإخوان فى الله ، واستمراره فى هذه الأخوة :

روى أحمد والطبرانى فى « الكبير » عن رسول الله ﷺ قوله : « المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » .

وروى الترمذى عن جابر عن رسول الله ﷺ : « إنّ من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً » .

وفى حديث آخر : « الموطئون أكنافاً (٢) الذين يألفون ويؤلفون » (٣) .

هذه الطبيعة الليّنة السهلة اللطيفة ، تجعل المؤمن مع إخوانه فى وضع لا تنفصم فيه أخوتهم .

* *

---

(١) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود والترمذى عن أنس .

(٢) هذا مثل ، وحقيقته من التوطئة وهى التمهيد والتذليل . وفراش وطئ : لا يؤذى جنب النائم . والأكناف : الجوانب ، أراد الذين جوانبهم وطيئة ، يتمكن فيها مَن يصاحبهم ولا يتأذى .

(٣) رواه الطبرانى فى « مكارم الأخلاق » من حديث جابر بن عبد الله بسند ضعيف .

٦ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (١) .

روى الترمذى عن عبد الله بن سلام قال : « كنتُ جالساً فى نفر من أصحاب النبى ﷺ نتذاكر تقول : لو كنا نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه فنزل: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ (٢) مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣) ، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقرأها علينا » وبعد هذه الآيات الآية التى صدَّرنا بها هذا البحث وهى جواب تساؤلهم.

فالآية تذكر طريقاً من طرق الوصول إلى محبة الله . هذا الطريق يقوم على :

(أ) القتال .

(ب) وعلى كونه فى سبيل الله .

(جـ) وعلى رص الصفوف .

ولنشر إلى كل جانب من هذه الجوانب إشارة :

(أ) القتال :

إنَّ القتال يحتاج إلى آلة وتدريب عليها ، كما يحتاج إلى جسم تدرب عليه ، كما يحتاج إلى معرفة بفن القتال ، ومَن استكمل هذا ولم تكن له جرأة أو شجاعة فليس من أهل القتال ، ومَن فرَّط بواحدة من هذه لم يصلح أن يكون مقاتلاً بالمعنى الصحيح ، والمسلم نُدِبَ إلى هذا كله ، بل أُوجِبَ عليه هذا كله ، فى حدود استطاعته .

فعليه أن يعد دائماً عُدَّة القتال ، وعليه أن يكون ماهراً فى استعمالها ، وعليه أن يراعى جسمه ويجعله فى وضع يساعده على القتال ، وعليه أن يتعرف على فن القتال بأنواعه ، وعليه أن يكون جريئاً شجاعاً لا يخاف إلا الله .

---

(١) الصف : ٤ (٢) أى : عظم . (٣) الصف : ١ - ٣

ونقصد بـ « عُدَّة القتال » السلاح الفردى ، وقد كان قديماً السيف والسهم ، وهو حديثاً المسدس والبندقية والقنبلة ، وكلما كان السلاح أطيب ، كان ذلك أجود ، ولعل أعظم ما أساء إلى المسلمين فى العصور المتأخرة ، نزع السلاح الفردى منهم ، مما جعلهم كالأغنام سواء فى ذلك أمام حكوماتهم الظالمة ، أو المستعمرة ، أو أمام العدو الخارجى ، وهذا ما سهَّل على اليهود الاستقرار فى فلسطين ، وعلى الدول الكافرة البقاء مستعمرة لشعوب المسلمين .

إنَّ تملك السلاح الفردى واجب إسلامى على الفرد ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولكن بشرط الاستطاعة ، ولا يعنى هذا أننا نعفى الدولة مما يجب عليها ، بل هذا سنذكره فى محله ، ولكن كلامنا هذا كله مقتصر على الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الفرد .



ونقصد بأنَّ عليه أن يكون ماهراً فى استعمالها ، ومعرفة استعمالها ، واصابة الهدف بها ، والنصوص التى حضَّت المسلم على إحسان إصابة الهدف كثيرة .. نذكر منها :

روى مسلم عن فقيم اللخمى : قلتُ لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير ويشق عليك ؟ فقال : لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه ، قلت : وما ذاك ؟ قال سمعته يقول : « مَن تعلَّم الرمى ثم تركه فليس منى » .. أو : « قد عصى » .

وروى البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : خرج النبى ﷺ على نفر من « أسلم » ينتضلون بالسوق فقال : « ارموا بنى إسماعيل فإنَّ أباكم كان رامياً » .

ولأصحاب السُنَن عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ : « إنَّ الله تعالى ليُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، والممد به ، فارموا واركبوا ، وأحبُّ إلىَّ أن ترموا من أن تركبوا ، كل لهو باطل ، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ،

وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فإنهن من الحق ، ومَن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها » .. أو قال : « كفرها » .

وروى مسلم والترمذى وأبو داود عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [1] : « ألا إنَّ القوة الرمى .. ألا إنَّ القوة الرمى .. ألا إنَّ القوة الرمى » . ولا شك أنَّ هذا يكلف مالاً ولكن رسول الله ﷺ يقول : « مَن أنفق نفقة فى سبيل الله كُتبتْ له بسبعمائة ضعف » [2] .



ونقصد بمراعاه جسمه وجعله قادراً على القتال :

أن يواصل العناية بجسمه وتدريبه بحيث يبقى على لياقة كاملة تساعده على القتال . وفى الحديث الصحيح : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير » [3] .

ولذلك نجد الآثار عن الصحابة تأمرنا برعاية الأبناء : « علّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل ومروهم أن يثبوا على الخيل وثباً » [4] .

ولا شك أنَّ هناك رياضات سهلة يستطيعها كل إنسان . ورياضات صعبة قد لا يستطيعها الكثير ، والمهم أن يختار الإنسان لنفسه طريقاً يجعل جسمه فيه دائماً بوضع يُمكِّنه من القتال . ولعل هذه القائمة من الرياضات ضرورية :

١ - المشى الطويل . ٢ - الركض الطويل .

٣ - ركوب دراجة طويل . ٤ - تعلم ركوب دراجة نارية وسيارة .

---

(١) الأنفال : ٦٠. (٢) رواه الترمذى والنسائى .

(٣) قطعة من حديث رواه مسلم عن أبى هريرة ، وابن ماجه .

(٤) رواه البيهقى فى « الشعب » عن ابن عمر رضى الله عنهما بلفظ : « عَلّموا أبناءكم السباحة والرماية ، والمرأة المغزل » ، قال السخاوى : سنده ضعيف ولكن له شواهد .

٥ - ركوب الخيل إن أمكن . ٦ - تسلق الجبال .

٧ - السباحة .

٨ - الملاكمة والمصارعة بأنواعها والقتال القريب .

٩ - طرق التنقل فى الحرب - الزحف بأنواعه - القفز .

* *

ونقصد بالتعرف على فن القتال ، أن يكون ملماً بالقتال الفردى إلماماً تاماً ، فيعرف كيف يقاتل فى شارع ، أو غابة ، أو فى سهل ، أو أمام دبابة ؛ أو مدفع ، أو مجموعة ، أو طريقة حرب العصابات ، وكلنا يعرف أنَّ وضعنا مع اليهود وغيرهم من أعداء اللّه يقتضى الفرد منا خبرة بفن القتال والدفاع كبيرة وعالية .

* *

ونقصد بالجرأة والشجاعة أن يملك الإنسان الشجاعة التى تجعله يثبت فى المعركة حتى النهاية ، ويدخلها بكامل تصميم ، ويستعمل كل إمكانياته فيها بكل حزم ، مع المحافظة على ثبات أعصابه وقُدرته على العمل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١) * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفاً (٢) لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) .

هذه أشياء أساسية فى القتال ..

(ب) كونه فى سبيل اللّه :

﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ... ﴾ (٤) ولا يكون فى سبيل اللّه إلا إذا قصد به وجهه ، والتزم فيه طريقه .

---

(١) فلا تولوهم الأدبار : أى فلا تنهزموا أمامهم ، والدُّبُر معناه الخلف - جمعه : أدبار .

(٢) متحرفاً : مظهراً الانهزام خدعة ثم يكر .

(٣) الأنفال : ١٥ - ١٦ (٤) الصف : ٤

فالقتال من أجل الدنيا ليس فى سبيل الله ، والقتال من أجل الحياة ليس فى سبيل الله ، والقتال من أجل العلو فى الأرض ليس فى سبيل الله ، والقتال من أجل الجنس والمجد ليس فى سبيل الله ، والقتال اعتداءً على المسلمين ليس فى سبيل الله ، والقتال مع نقض العهد ليس فى سبيل الله ، وقتال مَن لا يجوز قتاله ليس فى سبيل الله ، وقتل مَن حرم قتله ليس فى سبيل الله .

فلا بد إذن من اجتماع شرطين حتى يكون القتال فى سبيل الله :

١ - أن يقصد به وجه الله .

٢ - أن يكون بما شرع وعلى ما شرع ، وكما شرع ، ولما شرع .

لقد أذن الله لى أن أقاتل دون مالى ، ودون عرضى ، ودون وطنى المسلم ، بل فرض علىَّ أن أقاتل فى بعض هذه الحالات . فلو قاتلت أكون قد حققتُ أحد الشرطين ، وعلىَّ أن أحقق الثانى بأن أنوى بقتالى وجه الله . فلو لم أفعل ، بل كان قصدى شيئاً آخر من فخر أو مجد أو رياء فليس ذلك فى سبيل الله . وإذن لا بد من اجتماع الشرطين ، فإذا فُقِدَ أحدهما خرج القتال عن كونه فى سبيل الله .

وهناك حالة نحب أن نشير إليها وهى : أنَّ إنساناً قد يقاتل قتالاً مشروعاً ناسياً النيِّة ، ولكن ليس عنده قصد أو هدف غير جائز ، فهذا قريب أن يكون فى سبيل الله . فالمسلم يذبح على اسم الله سمَّى أو لم يسم كما هو مذهب الشافعية :

١ - للستة إلا مالكاً عن أبى موسى : « سُئِل النبى ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءً . أىُّ ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : « مَن يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

٢ - وللنسائى عن أبى أمامة : « جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ، ما له ؟ فقال : « لا شئ له » ، فأعادها ثلاث مرات يقول : « لا شئ له » . ثم قال : « إنَّ الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغِىَ به وجهه » .

(جـ) رص الصفوف :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (١) .

إنَّ نقل حجر من مكان إلى مكان ودحرجته شئ سهل مهما كان الحجر كبيراً ، ولكن رفع حجر من بناء يحتاج إلى أضعاف أضعاف ما يحتاجه الأول ، هذه نقطة ينبغى أن نفهمها . أن نكون يداً واحدة فى المعركة فى سبيل الله ، فلا يخذل بعضنا بعضاً ، ولا يتخلى بعضنا عن بعض ، ولا نختلف ولا نتنازع : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٢) .

لأبى داود عن سمرة قال : « أما بعد .. فإنَّ النبى ﷺ سمَّى خيلنا : خيل الله إذا فزعنا ، وكان يأمرنا إذا فزعنا : بالجماعة ، والصبر والسكينة إذا قاتلنا » .

● ولا جماعة إلا بثبات :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) .

● ولا ثبات إلا بجماعة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (٤) ، وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا (٥) وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٦) .

---

(١) الصف : ٤ (٢) الأنفال : ٤٦ (٣) الأنفال : ١٥ - ١٦
(٤) تذهب ريحكم : تتلاشى قوتكم . (٥) بطراً : طغياناً .
(٦) الأنفال : ٤٥ - ٤٧

● لا جماعة إلا بقيادة وطاعة وانضباط :

﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ (١) .

وعلامة صدق الله : الموت فى سبيله أو انتظار هذا الموت .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ (٢)

ومن اجتمع له ما فى هذه الفقرات كلها فهو على طريق المحبة سائر .. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *

٧ - « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » :

هذا طريق للمحبة ولعله أجمعها، ولذلك فقد أكثر الله من ذكره وخبره ، وتبيان قيمته والحض عليه والترغيب فيه ، كما بيّن - جَلَّ جلاله - ماهيته والطُرق التى تؤدى إليه ، واعتبرته الأمة أعظم اعتبار ، وقدّرت أهله أعظم تقدير . غير أنّ ناساً جهلوا حقيقته ، وقصّروا فى التحقق به ، فهان فى أعين قوم وصلوا بذلك إلى حد الكفر لجهلهم بما يعنيه هذا المقام ، وزاد الطين بلّة أن غمض هذا المقام غموضاً كبيراً عند العامة والخاصة ، مما يجعلنا نضطر للإطالة فيه .

ولئن أطلنا فيه فلا غرابة ، لأننا كما سنرى يتوقف خير الدنيا والآخرة عليه . وسنكتب فيه فقرات :

---

(١) محمد : ٢٠ - ٢١ (٢) الأحزاب : ٢٣

١ - الفقرة الأولى : مكانة التقوى فى دين اللّه .

٢ - الفقرة الثانية : ماهية التقوى وحقيقتها .

٣ - الفقرة الثالثة : طرق الوصول إلى التقوى .

ولنبدأ بالفقرة الأولى :

١ - مكانة التقوى وأهميتها فى دين اللّه

يقول اللّه جَلَّ جلاله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ [١] ، فهى إذن وصية اللّه لكل أمة بعث لها رسول ...

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ القَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلا يَتَّقُونَ ﴾ [٢] .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [٣] .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [٤] .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [٥] .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ [٦] المُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ [٧] .

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [٨] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٩] .

---

(١) النساء : ١٣١

(٢) الشعراء : ١٠ - ١١

(٣) الشعراء : ١٠٥ - ١٠٦

(٤) الشعراء : ١٢٣ - ١٢٤

(٥) الشعراء : ١٦٠ - ١٦١

(٦) أصحاب الأيكة : هم قوم شعيب ، والأيكة : غيضة تنبت ناعم الشجر ، والمراد غيضة كانت تنبت بقرب مدين .

(٧) الشعراء : ١٧٦ - ١٧٧

(٨) الصافات : ١٢٣ - ١٢٤

(٩) البقرة : ٢١

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

وإذن هدف عام بُعثَ من أجله الرسل ، وكانت من أجله التشريعات والأوامر والوصايا هو التقوى التى إن وُجِدَت فى قلب بَشر لم يحتج بعدها إلى رقيب أو حسيب ، فتقواه حاجز له عن كل شر ، دافعة له لكل خير ، ولذلك نجد أنَّ أوامر الرسل كلهم منصبة عليها وعلى طاعتهم ، إذ لا تُعرف التقوى بدونها .

فنوح عليه السلام يقول : ﴿ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٤) ، وهود : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٥) ، وصالح : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٦) ، وشعيب : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٧) ، وعيسى : ﴿ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٨) . ومحمد ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٩) .

٢ - وقد جعل اللّه مقياس القُرب والبُعد عنه هذه التقوى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١٠) .

وجعل خير زاد يتزوَّده الإنسان فى هذه الدنيا هو التقوى : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ (١١) .

---

(١) البقرة : ١٨٣ — (٢) البقرة : ١٧٩ — (٣) البقرة : ١٨٧

(٤) الشعراء : ١٠٨ — (٥) الشعراء : ١٢٦ — (٦) الشعراء : ١٤٤

(٧) الشعراء : ١٧٩ — (٨) آل عمران : ٥٠ — (٩) آل عمران : ١٠٢

(١٠) الحجرات : ١٣ — (١١) البقرة : ١٩٧

وجعل خير لباس يُزيِّن الإنسان فى هذه الدنيا هذه التقوى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (١) .

وجعل أولياءه المتقين : ﴿ إنْ أوْلِيَاؤُهُ إلاَّ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ ألاَ إنَّ أوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

ولا يقبل عملاً إلا من المتقين : ﴿ إنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) ، والقرآن لا يهتدى بهديه إلا المتقون : ﴿ وَإنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) ، ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٦) ، ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٧) ، وإنما يسلم الإنسان من كيد الشيطان إذا كان تقياً : ﴿ إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (٨) .

وكل تأسيس على غير تقوى ينهار بصاحبه فى نار جهنم : ﴿ أفَمَنْ أسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أم مَّنْ أسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (٩) .

والرخاء الاقتصادى معلّق على هذا الأصل : ﴿ وَلَوْ أنَّ أهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أنَّهُمْ أقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أرْجُلِهِم ، مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٠) .

---

(١) الأعراف : ٢٦ (٢) الأنفال : ٣٤ (٣) يونس : ٦٢ - ٦٣
(٤) المائدة : ٢٧ (٥) الحاقة : ٤٨ (٦) آل عمران : ١٣٨
(٧) البقرة : ٢ (٨) الأعراف : ٢٠١ (٩) التوبة : ١٠٩
(١٠) المائدة : ٦٥ - ٦٦

ونُصرة الله وتأييده ومحبته إنما يعطيها للمتقين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (١) ، ﴿ واعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ والعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٤) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) .

والرزق الحسن والخروج من كل ضيق موعود بهما المتقون : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٦) .

والفرقان الذى يعرف به الإنسان الحق فلا يلتبس عليه ، والباطل فلا يخدع به ، وُعِدَ به من يتقى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّآتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (٧) ، وإصلاح العمل يعطاه كذلك هؤلاء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (٨) ، ومع هذا يتيسر كلّ أمر : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ (٩) .

وأخيراً فإنه بالتقوى ينال وجه الله : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (١٠) .

٣ – وننتقل إلى عالَم الآخرة لنرى أنَّ الجنة التى عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين :

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١١) .

---

(١) النحل : ١٢٨ (٢) التوبة : ٣٦ (٣) الأعراف : ١٢٨

(٤) طه : ١٣٢ (٥) التوبة : ٧ (٦) الطلاق : ٢ – ٣

(٧) الأنفال : ٢٩ (٨) الأحزاب : ٧٠ – ٧١ (٩) الطلاق : ٤

(١٠) الحج : ٣٧ (١١) البقرة : ٢١٢

﴿ إنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ إنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ (٢) ، ﴿ إنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٣) ، ﴿ إنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ (٤) ، ﴿ إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً* حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ﴾ (٥) ، ﴿ إنَّ المُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ (٦) .

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَا إلَّا الأَشْقَىٰ * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾ (٧) ، ﴿ الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلَّا المُتَّقِينَ ﴾ (٨) .

٤ – ويقول الذين لا يعلمون إنَّا نرى المتقين من المسلمين مستضعفين مستذلين ، وغيرهم أقوى وأغنى وأعز فى هذه المرحلة من التاريخ ، ونقول للذين لا يعلمون :

– إذ نرى المتقين اليوم مستضعفين فإنما ذلك لأنهم اليوم فى مرحلة الامتحان التى جرت سُنَّة الله عليها : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٩) ، ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾ (١٠) .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١١) ، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا المُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ (١٢) .

---

(١) الذاريات : ١٥ – ١٦ (٢) الدخان : ٥١ (٣) الحجر : ٤٥
(٤) القمر : ٥٤ (٥) النبأ : ٣١ – ٣٢ (٦) المرسلات : ٤١
(٧) الليل : ١٤ – ١٨ (٨) الزخرف : ٦٧ (٩) محمد : ٣١
(١٠) العنكبوت : ٢ – ٣ (١١) آل عمران : ١٤٢
(١٢) وليجة : بطانة وأصحاب سر – والآية من سورة التوبة : ١٦

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ، مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١) .

وإذ نرى غير المتقين اليوم أغنى وأقوى وأعز فإنما هى سُنَّة الله بالباطل يمده ، حتى إذا ظن أنه سبق لم يفلته : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢) ، ويكون هذا الإمداد كثيراً متزايداً : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٣) * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .. انظر أى مدى يعطيك مفهوم:﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥) ، بل أكثر من هذا كان يمكن أن يعطى رب العزة للكافرين لو شاء : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً ، وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٦) .

إذن لولا ما علم الله من ضعف البَشر لأعطى الكافرين طيِّبات هذه الحياة كلها ، إذ أنَّ الدنيا وطيِّباتها تافهة حقيرة أمام ما أعدَّ الله للمؤمنين من نعيم وللكافرين من جحيم .

ولكن النتيجة أنَّ مرحلة الامتحان للمؤمنين ستمر ، ومرحلة الإمداد للكافرين ستنتهى إذا شاء الله ، وستكون العاقبة للمؤمنين ، وسيكونون هم

(١) البقرة : ٢١٤
(٢) البقرة : ١٥
(٣) مبلسون : آيسون من الرحمة أو مكتئبون .
(٤) الأنعام : ٤٢ - ٤٥
(٥) الأنعام : ٤٤
(٦) الزخرف : ٣٣ - ٣٥

المنتصرون بإذن الله ، والوارثين ، والتاريخ شاهد : ﴿ وَالعَاقبَةُ للْمُتَّقِينَ ﴾ (١) ، و ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُور من بَعْد الذِّكْرِ (٢) أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِى هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ ، كَذَلِكَ حَقاً عَلَيْنَا نُنجِ المُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) ، ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ (٨) .

فمهما رأينا من عز وقوة وغَلَبة للكافرين على المتقين فإنما هى مرحلة : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (٩) .

٥ – ويقول الذين لا يعلمون : لقد وجدنا كثيراً من المسلمين دخلوا معارك وخُذِلوا فيها ، ومصلحين إسلاميين لم تكن لهم الجولة الأخيرة ، ونقول : إن لم يكن للمؤمنين إلا الجنة فذلك أعظم انتصار ، ونقول كذلك : إنَّ الله لا يغيِّر سُنَّته فسُنَن الله لا تتغير : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (١٠) ، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (١١) .. فقد

---

(١) الأعراف : ١٢٨ (٢) الذكر : اللوح المحفوظ . (٣) الأنبياء : ١٠٥ – ١٠٦
(٤) القصص : ٥ – ٦ (٥) الصافات : ١٧١ – ١٧٣ (٦) يونس : ١٠٣
(٧) الروم : ٤٧ (٨) النور : ٥٥ (٩) آل عمران : ١٧٩
(١٠) الفتح : ٢٣ (١١) فاطر : ٤٣

يكون أحياناً سبب تأخر النصر أو عدمه عدم استكمال شروط النصر وأسبابه ، وهى من التقوى ، أو عدم تحقق العاملين بأوصاف المتقين .

فمن شروط النصر الاتحاد : ﴿ وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ (١) ، ومن شروطه الاعتماد على الله وحده : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً ﴾ (٢) ، ومن شروطه الالتفاف حول القائد وطاعته فى الخير : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ (٣) ، ومن شروطه أن يُراد بالعمل وجه الله وحده ونُصرة دينه ﴿ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ (٤) ، ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِى الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) ومن شروطه أن تحقق الجماعة المؤمنة حال انتصارها الأهداف العامة للإسلام : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَآتَواْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (٦) .

ومن الشروط أن يكون أفراد المؤمنين متكتلين ، وكل واحد منهم متصف بصفات شخصية معينة ، كما رأينا فى آيات المائدة : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ... الآيات (٧) .

هذه شروط من الشروط ، فعدم استكمالها فى جماعة إسلامية هو الذى يجعل سُنّة الله لا تظهر فى نُصرة المؤمنين على الكافرين : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٨) .

ومن ثَمَّ تظهر أهمية هذا البحث وعلاقته بفقه الحركة والتنفيذ زيادة على أهميته التربوية .

* * *

---

(١) الأنفال : ٤٦ (٢) التوبة : ٢٥ (٣) آل عمران : ١٥٢
(٤) محمد : ٧ (٥) القصص : ٨٣ (٦) الحج : ٤٠ - ٤١
(٧) المائدة : ٥٤ (٨) البقرة : ٢٤٩

٢ – الفقرة الثانية : ماهية التقوى وحقيقتها

١ – لقد رأينا فى كتابنا عن « الإسلام » شمول الإسلام ، وكيف أنَّ كل حادث من حوادث الحياة للّه فيه حكم .

هذا الإسلام تطالَب به البشرية كلها ، أفرادها وجماعاتها . ولا شك أنَّ هناك أحكاماً من الإسلام يطالَب بتنفيذها أفراد دون أفراد ، كإقامة القصاص والحدود . فبِمَ يُطالَب كل فرد من هذا الإسلام الواسع ؟

إنَّ ما يطالَب به كل مسلم من الإسلام أن يكون تقياً ، فالتقوى إذن هى مطلب اللّه من الإنسان ، فإذا ما كان المسلمون أتقياء جميعاً ، هنالك يقوم الإسلام كله ، ولا يختل الإسلام إلا إذا اختلت التقوى عند الأفراد ، وسنرى أنَّ تقوى كل فرد على حسب مسئوليته . فالإخلال بجزء من التقوى التى يطالَب بها فرد من الأفراد إخلال بالإسلام عامة ، ونكتفى بهذه الإشارة هنا لأننا سنوضح هذا المعنى فيما بعد .

٢ – هذه التقوى مَلَكة ينبع عنها سلوك . يقول عليه السلام : « التقوى ههنا » [١] – وأشار إلى صدره ، ولا تكون هذه المَلَكة إلا بتحقيق معان معيَّنة. وتزداد هذه المَلَكة بوسائل معيَّنة ، فللتقوى طريق تُحصَّل به ، ولها آثار سلوكية تنبع عنها ، وهى بحد ذاتها مَلَكة ، وتترابط المَلَكة والطريق والآثار ترابطاً محكما .. « إنَّ فى الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » [٢] ، فالطريق إلى التقوى يصلح القلب ، وصلاح القلب تصلح به الأعمال ، وكلما صلحت الأعمال ازداد القلب صلاحاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [٣] .

---

(١) قطعة من حديث رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

(٢) قطعة من حديث رواه البخارى ومسلم عن أبى عبد اللّه النعمان بن بشير .

(٣) الأحزاب : ٧٠ – ٧١

ولهذا فإنَّ موضوع التقوى متشابك الأصول والفروع ، ومختلط السمات والمعالم للترابط الكامل ما بين أحوالها عامة .

ولكنَّا سنلجأ إلى طريقة واضحة تتكشف بها فى النهاية التقوى بإذن اللّه ، هذه الطريقة هى :

(أ) استقصاء ما عرَّف اللّه المتقين من صفات مع شرح هذه التعاريف .

(ب) استقصاء ما ذكره اللّه من طرق تتحقق بها التقوى .

وقد يكون ما هو من الطريق مذكور من جملة الصفات المذكورة فى التعاريف ، والتعاريف يرتبط بعضها ببعض ، ولكن التوسع فى الموضوع ، وذكر الجميع كل فى محله يوصلنا إلى صورة واضحة للتقوى بشكل عام ، على أنَّ الطريق سنذكرها فى الفقرة الثالثة ، أما فى هذه الفقرة فنكتفى بذكر تعاريف المتقين وشرحها .

٣ – لقد عرَّف اللّه عزَّ وجَلَّ المتقين وبيَّن صفاتهم فى مواطن من كتابه : فى موطنين من البقرة ، وفى موطنين من آل عمران ، وفى موطن من الأنبياء ، وفى موطن من الذاريات ، وهناك تعريفات أخرى داخلة ضمن تعريف من التعريفات السابقة .

وهذه هى على الترتيب نذكرها ، ثم نُقَفّى بشرحها على الترتيب وباختصار :

(أ) ﴿ آلَمَ * ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ١ – ٥

(ب) ﴿ لَيْسَ البرَّ (١) أن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قبلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللَّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ والمَلائكَة وَالكتَاب وَالنَّبِيِّنَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّه ذَوِى القُرْبَىٰ وَاليَتَامَىٰ وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائلينَ وَفى الرِّقَابِ (٢) وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بعَهْدهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ ، وَالصَّابِرِينَ فى البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ (٣) .

(جـ) ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلكُمْ ، للَّذينَ اتَّقَوْاْ عندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى من تَحْتهَا الأَنْهَارُ خَالِدينَ فيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّه ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالعِبَاد * الَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ وَالمُنفِقِينَ وَالمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (٤) .

(د) ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾ (٥) .

(هـ) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) البر : هو جميع الطاعات وأعمال الخير .

(٢) فى الرقاب : فى تحريرها من الرق أو الأسر .

(٣) البقرة : ١٧٧

(٤) آل عمران : ١٥ - ١٧

(٥) آل عمران : ١٣٣ - ١٣٦

(٦) الأنبياء : ٤٨ - ٤٩

(و) ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١) .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (٢) .

فهذه تعاريف ستة عرَّفت المتقين فى القرآن ، ولعل دراستها توضِّح لنا بعض مضامين التقوى إن شاء الله .

(أ) شرح التعريف الأول :

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

هنا أربع صفات :

١ - الإيمان بالغيب . ٢ - الصلاة .

٣ - الإنفاق . ٤ - إتباع القرآن .

أما آية : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (٤) ... فهى مفصِّلة لبعض مضامين الإيمان بالغيب ، والصفات الثلاث الأولى داخلة تحت معنى الإيمان بمعناه الاصطلاحى الواسع ، فللإيمان معان أحدها هذا ، فقد عرَّف الرسول عليه الصلاة والسلام الإيمان تعريفات كثيرة :

---

(١) الزمر : ٣٣ (٢) الذاريات : ١٥ - ١٩

(٣) البقرة : ٢ - ٥ (٤) البقرة : ٤

(أ) في حديث جبريل عندما سأله عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » [١] ، فهذا تعريف الإيمان بالغيب .

(ب) وفي حديث أبي فراس الذي رواه البيهقي قال : « ... فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإخلاص » ، فهذا تعريف للإيمان بلازم من لوازمه .

(جـ) وفي حديث أبي رزين العقيلي قال : « يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحبُّ إليك مما سواهما » [٢] ، فهذا كذلك تعريف للإيمان بلازم من لوازمه .

(د) وفي حديث أبي رزين العقيلي قال : « يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « مَن أحبَّ لله وأبغضَ لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » [٣] ، وهذا كذلك تعريف للإيمان ببعض لوازمه .

(هـ) ومثله حديث أبي هريرة : « الإيمان بضع وسبعون شُعبة أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شُعبة من الإيمان » [٤] .

(و) وهناك آثار وآيات عرَّفت الإيمان بما يشمل الإيمان بالغيب والصلاة والإنفاق :

١ - ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾ [٥] .

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن عمر .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بلفظ : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون ... » .

(٣) رواه أبو داود والبيهقي عن أبي أمامة ، والترمذي وأحمد عن معاذ بن جبل ، ورمز السيوطي لصحته .

(٤) أخرجه الستة .

(٥) الأنفال : ٢ - ٤

٢ - وفى حديث ابن عباس عن وفد ربيعة : « قال - أى رسول الله ﷺ - : « هل تدرور ما الإيمان بالله وحده » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « شهادة أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخُمس » (١) .

٣ - وفى حديث ابن ماجه : « الإيمان عقد بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان » .

والأركان ذُكِرت فى حديث ابن عمر : « بُنِىَ الإسلام على خمس وهى : الشهادتان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج » (٢) .

فإذا أخذنا بعين الاعتبار هذا المعنى للإيمان فى هذه النصوص الثلاثة يكون الإيمان بالغيب والصلاة والإنفاق تساوى الإيمان بهذا المعنى ، وعلى هذا تكون التقوى فى التعريف القرآنى : « إيمان واتباع كتاب » .

والسؤال الآن : ما الصلة بين الإيمان بالغيب والصلاة والإنفاق حتى كان المجموع هو الإيمان ؟

نقول : إنَّ علاقة الصلاة بالإيمان بالغيب أنها المظهر العملى له ، فالصلاة بها يستشعر الإنسان صفات الله ، ويتذكر القرآن والرسل والملائكة واليوم الآخر ، فالصلاة مُذكِرة بهذه المعانى كلها ..

وأما علاقة الإنفاق بالإيمان بالغيب .. فذلك كما قال رسول الله ﷺ : « والصدقة برهان » ، فالإنسان الذى يُنفق ماله مع حبه له وحرصه عليه لا لشئ وبدون مقابل سوى ابتغاء وجه الله ، فذلك دليل على إيمان بالله واليوم الآخر بشكل عملى ودقيق .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب « الإيمان » باب « أداء الخمس من الإيمان » ، وورواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

(٢) متفق عليه عن ابن عمر مرفوعاً .

وإذا عرفنا أنَّ التقوى فى هذا التعريف الذى ندرسه : « إيمان وإتباع كتاب » فأيهما أولاً . الإيمان أو إتباع الكتاب ؟ يوضح هذه القضية هذه الآثار :

١ - عن ابن عمر قال : « لقد عشت برهة من دهرى وإنَّ أحدنا يُؤتى الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغى أن يقف عنده منها . ولقد رأيتُ رجالاً يُؤتَى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما آمره وما زاجره وما ينبغى أن يقف عنده .. ينثره نثر الدقل » (١) .

٢ - وعن جندب كما رواه الغزالى فى « الإحياء » مختصراً مع اختلاف كما ذكر العراقى :

« كنا أصحاب رسول اللّه أوتينا الإيمان قبل القرآن ، وسيأتى بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان ، يُقيمون حروفه ويُضيِّعون حدوده وحقوقه ، يقولون : قرأنا فمن أقرأ منا ؟ وعلمنا فمَن أعلم منا ؟ فذلك حظهم » .

وفى لفظ آخر : « أولئك شرار هذه الأمة ... » .

وإذن فالإيمان أولاً ..

ولئن قلنا بأنَّ الإيمان أولاً ثم القرآن ، فلا بد أن نؤكد أنَّ أحدهما لا يُغنى عن الآخرة ، فالتقى هو من جمع بينهما : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ✽ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (٣) ، وواضح أنَّ المقصود بالتقوى هنا فى هاتين الآيتين أحد جزئيها وهو إتباع الكتاب بدليل قوله : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤)

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عمر .

(٢) يونس : ٦٢ - ٦٣ (٣) الأعراف : ٩٦ (٤) يونس : ٦٢

التى توضحها الآية : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

ونذكر لزيادة توضيح اتصال الإيمان بالقرآن والترتيب بينهما هذه المعانى الثلاثة :

١ - لا يكون الإيمان إيماناً إلا بالنزول على حكم الله والإسلام له ، وحكم الله يُعرف من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (٣) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (٤) . والشاهد عند قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

٢ - إنه على قدر ما يكون الإيمان يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعليهما تدور أبحاث القرآن الكريم . قال عليه الصلاة والسلام : « مَن رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » (٥) ، فكلمة « أضعف الإيمان » تدل على أنَّ شدتنا على المنكر أو ضعفنا أمامه أثر من آثار قوة الإيمان أو ضعفه ، وقال عليه السلام : « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُنَّته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من

---

(١) البقرة : ٣٨ — (٢) النساء : ٦٥

(٣) النور : ٥١ — (٤) النساء : ٥٩

(٥) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى .

الإيمان حبة خردل » (١) . فلا إيمان إذن ما لم يكن موقف معيَّن من المنكر وأهله ، ولا إنكار ما لم يكن إيمان .

٣ - إنَّ القرآن لا ينتفع به إلا قلب مؤمن ، فانتفاع القلب بالقرآن وفقهه له لا بد أن يكون مسبوقاً بالإيمان قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً (٣) أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ (٦) ، ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (٧) ، ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) ، ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٩) .

ومن هذه الآيات يتضح اتضاحاً كاملاً أنَّ القرآن وتطبيقه وفهمه والتذكر به يرتبط ارتباطاً كاملاً بالإيمان ، ومن هنا ندرك جهل مَن يتصور أنَّ إنساناً لا تظهر عليه آثار الإيمان العملية يمكن أن يُطبِّق القرآن أو يخضع لحكمه أو يخلص له .

والآن وقد وصلنا إلى النتيجة التي تقول : إنَّ التعريف الأول للمتقين فيه : أنَّ التقوى إيمان يدخل فيه التصديق بالغيوب والصلاة والإنفاق ثم إتباع كتاب ، وأنَّ الإنسان لا يكون من المتقين إلا بجمع هذين الجانبين .

(١) رواه مسلم في كتاب « الإيمان » باب « وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » عن عبد الله بن مسعود به مرفوعاً .

(٢) محمد : ٢٤ (٣) أكنَّة : أغطية كثيرة .

(٤) وقراً : صمماً وثقلاً في السمع - والآية من سورة الأنعام : ٢٥

(٥) التوبة : ١٢٤ - ١٢٥ (٦) فصلت : ٤٤ (٧) البقرة : ٢٦

(٨) يونس : ٥٧ (٩) سورة ق : ٤٥

ولما كان الشطر الأول من الموضوع هو أساس التقوى ، والشطر الثانى هو البناء فيه ، فإنه يتضح أنه لا بناء إلا بأساس ولا أساس إلا ببناء ، وإلا كان ناقصاً .

ولما كان هذا الأساس قد كتبنا عنه فصلاً كاملاً فى كتابنا عن « الإسلام » ، فإننا لا نرى حاجة للإعادة فيه .

ولذا فسننتقل مباشرة إلى الشطر الثانى من تعريف المتقين وهو كونهم يهتدون بهدى القرآن . فإلى الشطر الثانى : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] وهو ما جعلناه تحت عنوان : « إتباع كتاب » .

كنا تحدثنا فى كتابنا عن الثقافة الإسلامية الأساسية للمسلم المعاصر عما لهذا القرآن من مكانة وهداية ، وما يجب على الناس جميعاً من التزام ، لذلك فسيكون بحثنا هنا مقصوراً على ما يطالَب به كل فرد منه ليحقق مَلَكة التقوى فى ذاته فنقول :

قد عرفنا أنَّ كل قضية من قضايا الوجود لله فيها حكم يُعرف من كتابه أو سُنَّة نبيه ، أو يستنبطه المجتهدون منهما ، والمرجع هو الكتاب ، فماذا يطالَب به كل فرد من المسلمين ليكون القرآن هُداه ، فيكون تقياً ؟

فى الحقيقة أنَّ كل مسلم مطالَب جزماً وبالتساوى مع بقية المسلمين بالالتزام بكتاب الله ، غير أنَّ المسلمين يتفاوتون فى كثرة ما يطالَبون به من أحكام على قدر مسئوليتهم ، وعلى قدر استطاعتهم ، والقاعدة : « كلٌّ على قدر مسئوليته وفى حدود استطاعته » .

ولتوضيح المسألة نقول : عندما يبلغ إنسان يصبح مكلَّفاً باتباع كتاب الله ، أما قبل ذلك فلا يكون مكَلَّفاً ، ولكن ما يطالب به بعد التكليف يختلف بإختلاف كونه ذكراً أو أنثى ، غنياً ، أو فقيراً ، له أرحام أو ليس له أرحام .

---

(١) البقرة : ٢

فالأنثى مثلاً تطالَب بالستر أكثر من الرجل ، وغيرها مسئول عن نفقتها ، بينما هو أصبح مسئولاً عن نفقته ، والغنى مثلاً يطالَب بالزكاة وبالحج ، أما الفقير فلا . وإذا كان له أرحام تجب عليه صلتهم ، أما إذا كان منقطعاً لا قرابة له فليس عليه هذا ، وإذا ما كان له جوار فإنَّ وضعه يختلف عما إذا كان منفرداً ، ففى حالة وجود الجوار يطالَب بحقوقهم ، إذا ما كان جواره ذميين أو مسلمين فإنَّ الوضع كذلك يختلف ، والتكليف يختلف ، وإذا ما كان له عمل فإنَّ وضعه يختلف عن العاطل عن العمل ، والتكليف يختلف .

فإذا ما تزوَّج طُولِبَ بتكاليف أكثر . أن يكون زواجه وزفافه على مقتضى كتاب الله ، وأن يعطى زوجه حقوقها ، والزوجة حقوق زوجها ، فإذا ما أصبح له أولاد كُلِّفَ بأوامر أكثر ، وطُولِبَ أن يربى أولاده وبناته على أدب القرآن ، فإذا ما كان موظفاً فى وظيفة من وظائف الدولة طُولِبَ بتكاليف تنسجم مع مسئوليته ، وعلى قدر ارتفاع الوظيفة ونوعها يطالب بتكاليف تختلف كثرة أو قِلّة ، فإذا ما كان رئيساً لدولة فإنه عندئذ يُكلَّف بإقامة القرآن كله فى جوانبه كلها على نفسه وعلى أفراد أمته وعلى دولته منهاجاً وسلوكاً . وبقيام كل فرد بما عليه من كتاب الله يكون القرآن مطبَّقاً كله ، أما إذا كانت كل وزارة وكل وزير ، وكل وظيفة وكل موظف ، وكل مؤسسة ومستخدميها ، لا يقيمون كتاب الله منهاجاً وتطبيقاً ، وإذا كان المسلم يقوم ببعض ويتخلى عن بعض ، يُطبِّق بعض جوانب القرآن ويتخلى عن بعضه ، ففى هذه الحالة لا يكون المسلم تقياً ولا المجتمع تقياً ولا الدولة تقية ، ولا يكون الإسلام قائماً .

ويمكن أن نصوِّر الموضوع بشكل آخر ..

إنَّ الإنسان يعيش فى دوائر : دائرة الأسرة ، دائرة الجوار ، دائرة النقابة ، دائرة الدولة ، دائرة الأمة الإسلامية ودولتها الكبيرة ، دائرة الإنسانية ، والقرآن الكريم منهاج كامل للحياة البَشرية فى كل دوائرها ، فهو منهاج الأمة الإسلامية : فى نظامها وتنظيمها ، وصِلاتها بغيرها فى الخارج ، وبغير المسلمين فى الداخل ، وكيف ينبغى أن تسير هذه الأمّة ومجموع أقطارها ،

وما هى المناهج التي ينبغى أن تسير عليها كل شُعبة من شُعبها . وهو منهاج لكل قُطر فى علاقته ببقية الأقطار ، وما ينبغى أن يكون عليه شعبه ووزراؤه وحكّامه ، وهو منهاج لكل نقابة فى سيرها وسلوكها وحدودها . وماذا لها وماذا عليها ، وهو منهاج لعلاقات الجوار والسلوك بين الناس ، وهو منهاج للأسرة حُدِّدَ فيه واجبات كل ، وحقوق كل وكذلك للفرد ، وهذا المنهاج الكامل المتكامل لا يقوم إلا :

١ - بمعرفته .

٢ - بالاستسلام والخضوع لأحكامه .

٣ - بالرجال الذين ينفذونه عملياً على أى مستوى كانوا ، وفى أى دائرة عاشوا ، وقد يكون للفرد مسئولية فى أكثر من دائرة ، فعليه إقامة حكم اللّه فى الكل ، فإذا ما عرف المسلمون المنهاج واستسلموا له ، وقام كل بواجبه فيه على أى مستوى ، عندئذ يقوم كتاب اللّه كله ، ويكون كُلُّ فرد قد حصّل التقوى.

فلا إسلام إلا برجال ، ولا إسلام بلا استسلام للّه عَزَّ وجَلَّ ، ولا استسلام إلا بمعرفة .

والانحراف عن كتاب اللّه يبدأ بالجهل أو الفسوق ، أو بالردّة ، والمآل فى كُلٍّ نبذ كتاب اللّه ، وعندئذ يكون منهاج الطاغوت هو المُحَكَّم فى كل شئ ، وتُرسم الحياة على أساسه ، فإذا استطاع المسلم أن يُطبِّق الإسلام فى دائرة ما ، يجد نفسه عاجزاً عن تطبيق كتاب اللّه فى الدائرة الثانية ، وعندئذ تجده بشكل عملى غير تقى .

ومن هنا كان لا بد من جهاد حتى تكون كلمة اللّه هي العليا ، ليوجد الإنسان الوضع الذى يساعده على التقوى بتطبيق شطرها الذى نتكلم عنه (الذى هو إتباع الكتاب) .

وبهذا اتضح معنى القاعدة ما يطالَب به الناس من كتاب اللّه : « كل على قدر مسئوليته وفى حدود استطاعته » ، فإذا ما قام كل فرد من المسلمين على اختلاف مسئوليتهم بهذا يقوم كتاب اللّه عَزَّ وجَلَّ ويقوم الإسلام ، ويكون المجتمع تقياً .

وهذا لا يكون ما لم تكن كلمة الله هى العليا ، والمسلمون هم الأعلون ، والإسلام هو المُحَكَّم ، والسُلطة بيد المسلمين ، عندئذ يمكن أن يُقام كتاب الله

أما إذا كانت السُلطة بيد غير المسلمين ، والمُحَكَّم هو الطاغوت ، فعندئذ لا تُقام حدود الله ، ولا تحكَّم شريعة الله ، ويكون المسلم فى هذه الحالة مسلماً عبادة وعقيدة بعيداً عن الإسلام فى كثير من الأمور . ولا يعنى هذا أنه إذا ما حدث أن أصبحت السُلطة بيد غير المسملين أن يُعفَى المسلم من إتباع كتاب الله ، لا بل الله تعالى يقول : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .. (٢) ، ولكن عليه فى هذه الحالة أن يبذل وسعه لتكون السُلطة للمسلمين . لأنه إذا كان المسلمون يتفاوتون فى مقدار ما يطالَب به كل فرد منهم من كتاب الله ، كل على قدر مسئوليته ، وفى حدود استطاعته ، فإنَّ بجانب هذا قاعدة ثانية وهى :

« المسلمون مسئولون بالتضامن عن إقامة كتاب الله كله فيما بينهم وعلى غيرهم » . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (٤) .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا ، اتقِّ الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » (٥) ،

---

(١) التغابن : ١٦ — (٢) البقرة : ٢٨٦

(٣) الأنفال : ٢٥ — (٤) المائدة : ٧٨ - ٧٩

(٥) رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود كما فى تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٢٣٥ مع اختلاف فى بعض الألفاظ يسير .

ثم قال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ من بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ فَاسِقُونَ ﴾ (١) ، ثم قال : « كلا والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذنّ على يد الظالم ولتأطُرنّه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربنّ الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم » .

وقال عليه السلام : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » (٢) ، وقال عليه السلام : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاهم وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على مَن فوقهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ مَن فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » (٣) .

وهذا أبلغ مثل على تضامن المسلمين ومسئوليتهم فى إقامة كتاب الله ، والآثار فى ذلك مشهورة معروفة :

« مَن رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » (٤) ، « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُنَّته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » (٥) .

---

(١) المائدة : ٧٨ - ٨١

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً . (٣) رواه البخارى .

(٤) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى .

(٥) رواه مسلم فى كتاب « الإيمان » باب « وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » عن عبد الله بن مسعود به مرفوعاً .

فأى مؤمن رأى الانحراف عن كتاب الله فعليه تقويمه وتعديله ، يستعدى الأمير على العامة ، والعامة على الأمير ، حتى يستقيم الأمر .

أخرج ابن عساكر وأبو ذر الهروى فى « الجامع » عن النعمان بن بشير : « أنَّ عمر بن الخطاب قال فى مجلس وحوله المهاجرين والأنصار : أرأيتم لو ترخَّصتُ فى بعض الأمور ما كنتم فاعلين ؟ فسكتوا ، فقال ذلك مرتين وثلاثاً ، فقال بشر بن سعد : لو فعلتَ ذلك قوَّمناك تقويم القدح ، فقال عمر : أنتم إذن .. أنتم إذن » (١) .

وعن ابن المبارك عن موسى بن أبى عيسى قال : أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مشربة بنى حارثة فوجد محمد بن مسلمة فقال عمر : كيف ترانى يامحمد ؟ قال : أراك والله كما أحب وكما يحب مَن يحب لك الخير ، أراك قوياً على جمع الأموال ، عفيفاً عنه ، عدلاً فى قسمه ، ولو مِلْتَ عدلناك كما يعدل السهم فى الثقاب ، فقال عمر رضى الله عنه : هاه . قال : لو ملت عدلناك كما يعدل السهم فى الثقاب . فقال : الحمد لله الذى جعلنى فى قوم إذا مِلْتُ عدلونى » (٢) .

وأخرج ابن أبى عاصم والبغوى عن خالد بن حكيم بن حزام قال : كان أبو عبيدة أميراً بالشام ، فتناول بعض أهل الأرض فقام إليه خالد فكلّمه فقالوا : أغضبتَ الأمير ، فقال : أما إنى لم أرد أن أغضبه ولكنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة أشدهم عذاباً للناس فى الدنيا ».

ومن مظاهر هذا التضامن فى المسئولية من أجل إقامة كتاب الله :

(أ) التضامن فى الأسرة : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (٣) ، ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (٤) ،

---

(١) رواه فى الكنز .

(٢) رواه فى منتخب كنز العمال .

(٣) طه : ١٣٢

(٤) مريم : ٥٥

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِه وَهُوَ يَعظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّه ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِه عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمٰوَاتِ أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (١) .

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيه وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (٣) ، ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ (٤) ، ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيه يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً * يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ (٥) .

(ب) ومن مظاهر التضامن فى العشيرة : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (٦) .

---

(١) لقمان : ١٣ - ١٩ (٢) البقرة : ١٣٢ (٣) البقرة : ١٢٨

(٤) الفرقان : ٧٤ (٥) مريم : ٤٢ - ٤٥ (٦) الشعراء : ٢١٤

(جـ) ومن مظاهر التضامن تجاه الدولة : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (١) .

(د) ومن مظاهر التضامن العام : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ (٣) .

(هـ) ومن مظاهر التضامن فى الدولة : « إنَّ اللّه ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » (٤) .

وبهذه المسئولية المشتركة فيما بين المسلمين من أجل إقامة كتاب اللّه ، وقيامهم بها ، فضَّلهم اللّه على غيرهم : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٥) .

وأظننا بعد هذا عرفنا متى نحقق الشطر الثانى المذكور فى التعريف الأول للمتقين :

١ - أن نؤمن بالقرآن جزماً وأننا ملزمون به .

٢ - أن نُطبِّق من القرآن بقدر مسئوليتنا وحسب استطاعتنا .

٣ - أن نعمل على حمل الآخرين على تطبيقه .

وأى إخلال بواحدة من هذه الثلاثة خروج عن التقوى يستحق به عذاب اللّه .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (٦) ، ولا يكونون

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً .

(٢) آل عمران : ١٠٤ (٣) التوبة : ٧١ (٤) قول لعثمان بن عفان .

(٥) آل عمران : ١١٠ (٦) هود : ١١٧

مصلحين أبداً إلا بشيئين : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ ﴾ (١) .

فالمصلحون من أقاموا الصلاة ، ومسكوا أنفسهم والناس بكتاب الله ، وبدون هذا يستحق أهل القرى الهلاك .

(ب) التعريف الثانى :

﴿ لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ

١ - مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلَائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ

٢ - وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَىٰ وَاليَتَامَىٰ وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ

٣ - وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ

٤ - وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ ،

٥ - وَالصَّابِرِينَ فِى البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ (٢) .

هذا التعريف داخل ضمناً فى التعريف الأول ، فما لم يدخل فى شطره الأول دخل فى شطره الثانى . إلا أنه أبرز صفات أساسية ضرورية لا تكون التقوى إلا بها ، وقسم كبير مما هو داخل فى التعريف مَرَّ معنا بمناسبات سابقة . كالمقطع الأول ، إذ مَرَّ معنا فى الفصل الأول من كتاب « الإسلام » تحت عنوان « نظرة تحليلية للشهادتين » ، وكالمقطع الثالث إذ مَرَّ معنا فى نفس الكتاب عند الكلام عن الركن الثانى والثالث « الصلاة والزكاة » ، وبقى فى التعريف ثلاث مقاطع هى الثانى والرابع والخامس . نبدأ بذكر معانيها على الترتيب :

---

(١) الأعراف : ١٧٠ (٢) البقرة : ١٧٧

١ - ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ (١) .

روى الترمذى عن فاطمة بنت قيس قال : « سُئل - أو سألتُ - رسول الله ﷺ عن الزكاة فقال : « إنَّ فى المال حقاً سوى الزكاة » ، ثم تلا : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ ... ﴾ ... الآية .

ومع أنَّ فى بعض رواة الحديث ضعفاً فإنَّ ظاهر الآية تؤيده ، إذ أنَّ الآية ذكرت الزكاة مع النص المتقدم ، مما يدل على أنَّ هذا النوع من الإنفاق منفصل عن الزكاة ، ولعل هذا التفريق لأنَّ الزكاة واجبة ويجبيها الإمام ، وهذا متروك لصاحبه . وقد أشار المقطع إلى صفة المعطى وصفة الآخذ .

فأما المعطى التقى فأن يؤتى هذه الأصناف من المال على محبته لهذا المال ، وأما الآخذون المستحقون فهم مَن ذُكِرتَ صفاتهم ، وهذه النصوص تبيِّن لنا مضمون هذا المقطع :

للستة عن أنس : « كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بير حاء . وكانت مستقبلة المسجد ويدخلها رسول الله ﷺ ويشرب من ماء فيها طيب فلما نزل : ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (٢) قال أبو طلحة : يا رسول الله ، إنَّ الله يقول : ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإنَّ أحب مالى إلىَّ بير حاء ، وإنها صدقة لله أرجو برَّها وذخرها عند الله ، فضعها حيث أراك الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « بخ بخ .. ذلك مال رابح ، وقد سمعتُ ما قلتَ وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين » ، فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسَّمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه » .

---

(١) البقرة : ١٧٧ (٢) آل عمران : ٩٢

وللشيخين والنسائى عن زينب امرأة ابن مسعود : « أنَّ النبى ﷺ لما قال : « تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن » ، قالت لابن مسعود : إنك خفيف ذات اليد ، وإنَّ النبى ﷺ أمرنا بالصدقة فاسأله فإن كان يجزئ عنى وإلا صرفتها إلى غيركم . فقال عبد اللّه : بل ائتيه أنتِ . فانطلقتُ فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول اللّه ﷺ حاجتى حاجتها ، وكان صَلى اللّه عليه وسلم قد ألقيت عليه المهابة ، فخرج علينا بلال فقلنا له : ائت رسول اللّه ﷺ فأخبره أنَّ امرأتين بالباب تسألانك : أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام فى حجورهما ؟ ولا تخبره مَن نحن ، فسأله بلال فقال له رسول اللّه ﷺ : « مَن هما » ؟ فقال : امرأة من الأنصار وزينب ، فقال له : « أى الزيانب » ؟ قال : امرأة عبد اللّه ، فقال : « لهما أجران .. أجر القرابة وأجر الصدقة » .

ولمسلم عن أبى هريرة عن رسول اللّه ﷺ : « دينار أنفقتَه فى سبيلِ اللّه ، ودينار أنفقتَه فى رقبة ، ودينار تصدقتَ به على مسكين ، ودينار أنفقتَه على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقتَه على أهلك » .

ولأحمد عن المقدام بن معد يكرب عن رسول اللّه ﷺ : « ما أطعمتَ نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمتَ ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمتَ زوجك فهو لك صدقة ، وما أطعمتَ خادمك فهو لك صدقة » .

وللطبرانى فى «الأوسط» بلين عن أبى هريرة عن رسول اللّه ﷺ : « والذى بعثنى بالحق لا يُعذِّب اللّه يوم القيامة مَن رحم اليتيم ، وألان له فى الكلام ، ورحم يُتمه وضعفه ، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه اللّه . يا أمة محمد ، والذى بعثنى بالحق لا يقبل اللّه صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلة ويصرفها إلى غيرهم ، والذى نفسى بيده لا ينظر اللّه إليه يوم القيامة » .

وللستة إلا الترمذى عن أبى هِريرة عن رسول اللّه ﷺ : « ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنىً يغنيه ، ولا يُفطن به فيتُصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس » .

ولمسلم والنسائى عن جابر : « أتى النبى ﷺ قوم عراة مجتابى النمار والعباء ، متقلدى السيوف ، عامتهم من مضر بل كلهم من مُضَر ، فتمعَّر [1] وجه النبى ﷺ لمَا رأى بهم من الفاقة . فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فنادى وأقام فصلّى ثم خطبَ فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ... إلى : ﴿ رَقِيباً ﴾ [2] . والآية التى فى الحشر : ﴿ اتَّقُواْ اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [3] . تصدَّق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بُرِّه ، من صَاعِ تمره ... حتى قال : ولو بشق تمرة » . فجاء الناس حتى رأيتُ كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذْهبة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَن سَنَّ فى الإسلام سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شئ ، ومَن سَنَّ فى الإسلام سُنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر مَن عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شئ » .

وللطبرانى فى « الكبير » عن رسول الله ﷺ : « ملعون مَن سأل الناس بوجه الله ، وملعون مَن سُئِلَ بوجه الله ثم منع سائله ما لم يسأل هجراً » .

وللترمذى عن ابن عباس : « جاء سائل فقال له ابن عباس : أتشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسول الله ؟ فقال : نعم . قال : وتصوم رمضان ؟ قال : نعم . قال : سألت وللسائل حق ، إنه لحق علينا أن نصلك ، فأعطاه ثوباً ثم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً إلا وكان فى حفظ الله ما دام عليه منه خرقة » .

وللستة إلا النسائى عن رسول الله ﷺ : « مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته » . قالوا : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال : « يومه وليلته ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه » .

---

(١) تمعَّر وجهه : تغيَّرَ وعلته صُفرة .

(٢) النساء : ١ (٣) الحشر : ١٨

ولأبى داود عن أبى كريمة عن رسول الله ﷺ : « ليلة الضيف حق على كل مسلم ، فمَن أصبح بفنائه فهو عليه دَيْن ، إن شاء اقتضى وإن شاء ترك » .

وللترمذى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ : « أيما امرئٍ مسلم أعتق امرءاً مسلماً كان فكاكه من النار ، يجزئ كل عضو منه عضواً منه ، وأيما امرئ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكاكه من النار ، يجزئ كل عضو منهما عضواً منه ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة كانت فكاكها من النار ، يجزئ كل عضو منها عضواً منها » [1] .

وللستة إلا أبا داود عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « ما تصدَّق أحد بصدقة من طيِّب - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه . وإن كانت تمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه [2] أو فصيله » .

وللشيخين وللترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « أنفق أُنفق عليك » .

ولأبى داود عن رسول الله ﷺ : « إياكم والشُّح ، فإنما هلك مَن كان قبلكم بالشُّح ، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا » .

وللشيخين والنسائى عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ : « ... وإنَّ هذا المال خضر حلو ونِعْمَ صاحب المال هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل » ... أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

ولعل هذه النصوص عرَّفتنا على حقيقة إتيان المال على حبنا له لأهله إذا أردنا أن نكون من المتقين .

﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ ﴾ [3] .

---

(١) حسن صحيح .

(٢) الفلو : المهر الصغير ، وقيل : هو العظيم من أولاد ذوات الحوافر .

(٣) البقرة : ١٧٧

العهود نوعان : عهود مع اللّه عَزَّ وجَلَّ ، وعهود مع خلقه ، والعهود التى مع خلقه نوعان : عهود مع المسلمين ، وعهود مع غير المسلمين ، وهذا استعراض موجز لأهم أنواع العهود التى مَن التزم بها وأدّى حقها يكون قد تحقق بصفة من صفات المتقين :

(أ) أول عهد يطالَب الإنسان بالوفاء به عهده مع اللّه عَزَّ وجَلَّ بالإقرار له بالربوبية ، وعلى نفسه بالعبودية ، يقول اللّه تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَىٰ ﴾(١) .

ولا يفى الإنسان بهذا العهد حتى يعتقد – علماً وعملاً – أنَّ اللّه وحده له حق الأمر والنهى ، والتحليل والتحريم ، فعنه يتلقى ، وله يطيع .

ومتى أعطى المسلم حق الطاعة المطلقة ، أو حق التشريع والتحليل والتحريم لأحد غيره – من هيئة ، أو جماعة ، أو فرد ، أو مجلس – فقد نكث بعهد اللّه وميثاقه . يقول اللّه عَزَّ وجَلَّ عن أهل الكتاب : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

قال عدى بن حاتم للرسول ﷺ : « إنهم لم يعبدوهم .. فقال صلى اللّه عليه وسلم : « بلى ، إنهم حرَّموا عليهم الحلال ، وأحلُّوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » (٣) .

فالذين يعطون حق التشريع المطلق لحزب أو مجلس نيابى أو ... ، أو ينتخبون رجلاً ليمثلهم وهو لا يرى أنَّ حق التشريع للّه ، هؤلاء جميعاً ناكثون فى هذا العهد .

---

(١) الأعراف : ١٧٢ (٢) التوبة : ٣١

(٣) قال ابن عبد البر فى « الاستيعاب » : قال الترمذى : قدم عدى بن حاتم على النبى ﷺ فى شعبان سنة عشر ، وخبره فى قدومه على النبى ﷺ خبر عجيب فى حديث حسن صحيح .

(ب) العهد الثانى هو الالتزام العملى والنظرى بالشريعة الإسلامية ، يقول الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (١) . إنَّ المسلم كما وصفه الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ، وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (٢) .

فالمسلم إذن موقفه من الوحى السمع والطاعة ، وهذا منه عهد وميثاق ، فإذا انحرف أو عصى أو قصر فذلك نقض للميثاق . فمن أجل ذلك كانت التوبة ، فالتوبة معناها الرجعة .. الرجعة التى الدخول فى الميثاق والالتزام به بعد الخروج منه .

(جـ) ويدخل فى الوفاء بالعهود الوفاء بالالتزامات العقدية التى يجريها الإنسان فى معاملاته اليومية ، فى زواجه وبيعه وشرائه وشركته ومزارعته ما دامت عقوده جائزة شرعاً ، أما إذا كانت هذه العقود غير جائزة شرعاً ، فحرام عليه الوفاء والاستمرار فى تنفيذها ، كعقد ربا مثلاً . وفى الحديث : « مَن اشترط شرطاً ليس فى كتاب الله فليس له وإن اشترط مائة شرط . شرط الله تعالى أحق وأوثق » (٣) .

(د) ويدخل فى الوفاء بالعهد الوفاء ببيعة الأمير الحق ، أى الخليفة الراشد إذا كانت بيعته معتبرة شرعاً ، فلا يبايع غيره : « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » (٤) ، « مَن أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يُفرِّق جماعتكم فاقتلوه » (٥) .

---

(١) المائدة : ٧ (٢) البقرة : ٢٨٥

(٣) رواه البزار فى مسنده والطبرانى كلاهما بسند إلى ابن عباس رضى الله عنه بلفظ : « كل شرط ليس فى كتاب الله تعالى فهو باطل وإن كان مائة شرط » ورمز السيوطى لصحته .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه مسلم فى كتاب « الإمارة » باب « حكم مَن فرَّق أمر المسلمين وهو مجتمع » بسنده إلى عرفجة واللفظ له ، وكذا النسائى فى كتاب « التحريم » ، وأبو داود فى كتاب « السنة » باب « فى قتل الخوارج » بسندهما إلى عرفجة رضى الله عنه .

ويُطاع ولا يُعصَى هو أو نوابه : « مَن أطاعنى فقد أطاع اللّه ، ومَن عصانى فقد عصى اللّه ، ومَن يُطع الأمير فقد أطاعنى ، ومَن يعص الأمير فقد عصانى » [1] .

(هـ) ويدخل بالوفاء بالعهود وفاؤنا بعهودنا مع غير المسلمين سواء أكانوا محاربين . أو ذميين ، أو معاهدين : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [2] .

« ومَن خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى بعهد ذى عهدها فليس منى ولست منه » [3] . ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [4] .

(و) وهناك وهم موجود عند بعض طبقات الصوفية ، منشؤه أنَّ مشايخ الطُرق الصوفية يأخذون على مريديهم ما يسمى بالعهد أو البيعة ، وتَعطَى لهم بشكل مطلق دون معرفة المضمون ، فيتصور بعضهم أنَّ هذه البيعة لها نفس أحكام بيعة الخلافة المعروفة فى نظام الحكم . من وجوب الطاعة وحُرمة خلع اليد وهكذا . وينتج عن هذا فساد كبير ، إذ بهذا التصور يصبح كل شيخ فى العالم الإسلامى له حكم خليفة عند أتباعه نظرياً وعملياً . والحقيقة أنَّ هذه البيعة فى أصل نشأتها عند الصوفية كان القصد منها البيعة على تقوى اللّه ، وكان أثناءها نظام الخلافة موجودا على انحرافه ، فكان واضحاً عند الصوفى الفارق

---

(١) رواه البخارى فى باب « فضل الجهاد والسير » باب « السمع والطاعة للإمام » . ومسلم فى كتاب « وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية » ، والنسائى فى كتاب « البيعة » باب « الترغيب فى طاعة الإمام » ، ثلاثتهم بسندهم إلى أبى هريرة رضى اللّه عنه ، ورواه أحمد فى مسنده ، وابن ماجه فى المقدمة .

(٢) النحل : ٩١

(٣) قطعة من حديث رواه مسلم فى كتاب « الإمارة » باب « وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن » ، والنسائى فى كتاب « التحريم » باب « التغليظ فيمن قاتل تحت راية عمية » كلاهما بسنده إلى أبى هريرة .

(٤) التوبة : ٦

بين بيعته لأمير المؤمنين ، وعهده مع شيخه على تقوى اللّه ، ولكن بمرور الزمن واندراس نظام الحكم الإسلامى ، تغيّر الوضع . فكان لا بد من الإشارة لهذا الموضوع ، وقد أفتى فقهاء المسلمين فى هذا الموضوع بما يلى :

« رجل أعطى العهد لشيخ ثم أعطاه لآخر ، أى العهدين يلزمه ؟ . يقول : لا هذا ولا ذاك ولا أصل لذلك » (انتهى عن تنقيح الفتاوى الحامدية) .

وإذن لا يعتبر فقهاء المسلمين من العهود الملزمة الالتزام بشيخ ومعاهدته . نعم .. ما دعانا إليه الشيخ مما هو من الكتاب والسُنّة فالتزامنا به التزام بالكتاب والسُنّة .

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [(١)] :

قال الضحّاك : البأساء : الفقر ، والضّراء : المرض ، وحين البأس : القتال ، فالتقى صابر حال فقره ، صابر حال مرضه ، صابر أثناء القتال ، وإنّه لمبتلى بهذا : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [(٢)] .

وإنَّ الذى لا يصبر مكانه فى التقوى الأقل ، لأنَّ الصبر نصف الإيمان ، وهذه أمثلة على صبر السَلَف الأول :

١ - الصبر على الفقر :

(أ) أخرج مسلم عن عتبة بن غزوان رضى اللّه عنه قال : « لقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول اللّه ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الحبلة [(٣)] حتى قرحت أشداقنا » .

---

(١) البقرة : ١٧٧ (٢) البقرة : ١٥٥ - ١٥٧

(٣) الحبلة : ثمر السمر ، وقيل : هى ثمرة تشبه اللوبياء .

(ب) أخرج الترمذى وصحّحه عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة وأهله طاوياً لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم الشعير » .

(جـ) وأخرج مسلم عن عمر : « لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يظل اليوم يتلوى من الجوع ما يجد من الدقل [1] ما يملأ به بطنه » .

(د) أخرج الترمذى عن أبى طلحة : « شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين » .

(هـ) وأخرج الترمذى عن فضالة بن عبيد قال : « كان رسول الله ﷺ إذا صلّى بالناس يخر رجال من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة ، وهم أصحاب الصفة ، حتى تقول الأعراب : هؤلاء مجانين . فإذا صلى انصرف إليهم فقال : « لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فقراً وحاجة » .

(و) وعن علىٍّ رضى الله عنه : « بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ طلع علينا مصعب بن عمير ما عليه إلا بُردة مرقعة بفرو ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم بكى للذى كان فيه من النعمة » [2] .

(ز) وعن علىٍّ رضى الله عنه قال : « لقد خرجتُ من بيتى شات وإلى لشديد الجوع ألتمس شيئاً ، فمررت بيهودى فى مال له يسقى ببكرة فاطلعت عليه من ثلمة الحائط فقال : ما لك يا أعرابى .. هل لك فى دلو بتمرة ؟ قلت : نعم ، فافتح الباب حتى أدخل ، فدخلت فأعطانى دلوا فكلما نزعت دلواً أعطانى تمرة حتى إذا امتلأت كفى أرسلتُ دلوه وقلت : حسبى ، فأكلتها ثم جرعت من الماء ثم جئت المسجد » .

---

(١) الدقل : ردئ التمر .　　(٢) أخرجه الترمذى .

٢ - الصبر على المرض والبلاء :

(أ) أخرج مالك عن عطاء بن يسار رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مرض العبد بعث الله تعالى مَلَكين فقال : انظروا ماذا يقول لعوّاده ، فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول : لعبدى علىّ إن توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وأن أكفِّر عنه سيئاته » .

(ب) أخرج البخارى وأبو داود والنسائى عن خباب بن الأرت رضى الله عنه قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُردة فى ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض فيُجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين ، ويمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليُتِمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

(جـ) وعن أبى مسعود رضى الله عنه قال : « دخلتُ على النبى ﷺ وهو يوعك فقلت : يا رسول الله ، إنك توعك وعكاً شديداً قال : « إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم » ، قلت : ذلك أنَّ لك أجرين ، قال : « أجل ذلك كذلك ، ما من مسلم يصيبه أذىً ، شوكة فما فوقها ، إلا كفَّر الله بها سيئاته ، وحُطَّت عنه ذنوبه كما تحط الشجر ورقها » [١] .

٣ - الصبر فى مواطن القتال :

(أ) عن أنس رضى الله عنه قال : غاب عمى أنس بن النضر - رضى الله عنه - عن قتال بدر فقال : غبتُ عن أول قتال النبى ﷺ المشركين ، لئن أشهدنى الله مع النبى ﷺ قتال المشركين ليرينَّ الله ما أصنع ، فلما كان يوم أُحد

---

(١) متفق عليه .

انكشف المسلمون فقال : اللّهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المسلمين - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدّم بسيفه فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر ، إنى لأجد ريحها من دون أحد . قال سعد : فما استطعتُ يا رسول اللّه ما صنع ثم تقدّم ، قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بسهم ؛ ووجدناه وقد مَثَّل به المشركون فما عرفه إلا أخته بشامة أو ببنانه ، قال أنس : كنا نرى أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ (١) .

(ب) عن أبى موسى قال : « خرجنا مع رسول اللّه ﷺ فى غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ونقبت قدماى وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا » (٢) .

(جـ) عن ابن عمر رضى اللّه عنه قال : أمَّرَ رسول اللّه ﷺ فى غزوة « مؤتة » زيد بن حارثة فقال رسول اللّه ﷺ : « إن قُتِلَ زيد فجعفر ، وإن قُتِلَ جعفر فعبد اللّه بن رواحة . قال عبد اللّه : كنتُ فى تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبى طالب رضى اللّه عنه فوجدناه فى القتلى ، ووجدنا فيما أقبل من جسده بضعاً وتسعين ما بين رمية وطعنة . زاد فى رواية : « ليس فيها شئ فى دبره » (٣) .

وعن قيس بن أبى حازم قال : سمعتُ خالداً يقول : « لقد انقطع فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية » (٤) .

وبشكل مطلق : الصبر صفة من صفات المتقين .

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذى - والآية من سورة الأحزاب : ٢٣

(٢) أخرجه الشيخان . (٣) أخرجه البخارى . (٤) أخرجه البخارى .

● يصبرون على الإسلام وثبتون عليه ولو انحرف الناس ..

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : « والذى نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحش وسوء الجوار ، وقطيعة الأرحام ، وحتى يُخوَّن الأمين ، ويُؤتمن الخائن » . قيل : يا رسول الله ، كيف المؤمن يومئذ ؟ قال : « كالنحلة وقعت فلم تفسد ، وأكلت ولم تكسر ، ووضعت طيباً ، ومثل المؤمن كمثل قطعة الذهب الأحمر دخلت النار فنُفِخَ عليها فلم تتغير ووُزِنت فلم تنقص » (١) .

وسأل أبو ثعلبة الخشنى رسول الله عن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (٢) فقالَ : « بل ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتَ شُحاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنياً مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه . فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإنّ من ورائكم أياماً الصابر فيها كالقابض على الجمر ، للعامل فيهنّ مثل أجر خمسين رجلاً يعملون بعملكم » (٣) .

● ويصبرون على الأمر الأول منهما افتتن الناس كما أوصى رسول الله ﷺ ..

روى الطبرانى فى « الأوسط » و « الكبير » من حديث أبى واقد الليثى أنّ رسول الله ﷺ ذكر لأصحابه يوماً : « إنها ستكون فتنة » ، فقالوا : كيف لنا يا رسول الله وكيف نصنع ؟ قال : « ترجعون إلى أمركم الأول » .

فيبقون مظاهر للسُنَّة النبوية على صعوبة الاستمساك طمعاً فى ثواب الله وخوفاً من عقابه ..

وروى الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » عن رسول الله ﷺ : « يأتى على الناس زمان المتمسك بسُنَّتى عند اختلاف أمتى كالقابض على الجمر » .

---

(١) رواه البزار والحاكم وصححه . (٢) المائدة : ١٠٥

(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح .

وروى الطبرانى من حديث عتبة بن غزوان قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ من ورائكم أيام الصبر ، المتمسك فيها يومئذ بمثل ما أنتم عليه له كأجر خمسين منكم » .

● لا يبالون بما يصيبهم من حرمان الدنيامن أجل « لَا إلهَ إلَّا اللهُ » ..

روى البزار من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال لا إلهَ إلَّا اللهُ تدفع عن قائلها ما بالى قائلوها ما أصابهم فى دنياهم إذا سلم لهم دينهم ، فإذا لم يبال قائلوها ما أصابهم فى دينهم بسلامة دنياهم فقالوا : لا إلهَ إلَّا اللهُ ، قيل لهم : كذبتم » .

وروى أبو نعيم فى « الحلية » من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوا العطاء ما دام عطاءً ، فإذا صار رشوة عن الدين فلا تأخذوه ولستم بتاركيه ، يمنعكم من ذلك الفقر والحاجة ، ألا إنَّ رحا الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار ، ألا إنَّ الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب ، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم ، إن عصيتموهم قتلوكم ، وإن أطعتموهم أضلوكم » . قالوا : يا رسول الله ، كيف نصنع ؟ قال : « كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم عليه السلام ، نُشِروا بالمناشير وحُمِلوا على الخُشُب .. موت فى طاعة الله خير من حياة فى معصية الله » .

● ويصبرون على فقد الأهل والولد ..

أخرج ابن سعد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : رأيتُ إبراهيم وهو يكيد بنفسه بين يدى رسول الله ﷺ فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا .. والله يا إبراهيم إنَّا بِكَ لمحزونون » .

وروى البخارى عن أنس قال : « كان ابن لأبى طلحة رضى الله عنه يشتكى ، فخرج أبو طلحة فقُبِضَ الصبى ، فلما رجع أبو طلحة قال : ما فعل ابنى ؟ قالت

أم سليم : هو أسكن ما كان ، فقربت إليه العشاء فتعشى ثم أصاب منها ، فلما فرغ قالت : واروا الصبى ، فلما أصبح أبو طلحة إلى رسول الله فأخبره فقال : « أعرستم الليلة » ؟ قال : نعم ، قال : « اللهم بارك لهما » فولدت غلاماً قال لى أبو طلحة : احفظه حتى تأتى به النبى ﷺ ، فأتى به النبى ﷺ وأرسلت معه بتمرات فأخذه النبى فقال : « أمعه شئ » ؟ قالوا : نعم .. تمرات ، فأخذها النبى ﷺ فمضغها ثم أخذ من فيه فجعلها فى فىّ الصبى وحنّكه به وسمّاه عبد الله .

وفى رواية أخرى عنه : فقال رسول الله ﷺ : « لعل الله أن يبارك لهما فى ليلتهما » . قال سفيان : فقال رجل من الأنصار : « فرأيتُ تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن » .

ولما قُتِلَ حمزة يوم أُحد ، جاءت أخته صفية لتنظر إليه ، فلقيها الزبير فقال : « أى أمه ، إنّ رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعى ، قالت : ولِمَ ؟ وقد بلغنى أنه مُثِّلَ بأخى وذلك فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأصبرنّ وأحتسبنّ إن شاء الله . فجاء الزبير فأخبره فقال : « خلّ سبيلها » فأتت إليه واستغفرت له ثم أمر به فدفن [1] .

هذه نماذج من صبر المتقين ولا تُنال حقيقة التقوى إلا بالصبر كما صبروا .

وحسب هذا التعريف فإننا لا نكون متقين إلا إذا كنا :

(أ) مؤمنين بالغيب .

(ب) منفقين على رغم محبتنا للمال على مَن ذكر الله تعالى من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب .

(جـ) مقيمين الصلاة .

(د) مؤتين الزكاة .

---

(١) انظر الجزء الثالث من سيرة ابن إسحاق ص ١٠٣

(هـ) موفين بعهد الله إذا عاهدنا .

(و) صابرين فى البأساء والضراء وحين البأس .

عندئذ نكون صادقين فى إسلامنا ومتقين .

(جـ) التعريف الثالث :

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١) .

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢) .

﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ (٣) .

وهذا التعريف داخل فيما قبله إلا أنه كما قلنا فى التعريف الثانى : يُظهر بعض السمات المهمة للمتقين بشكل خاص ، وسنحاول أن نوضح هذه السمات التى لم يرد لها شرح فيما مضى .

يبدأ التعريف بذكر قول المؤمنين : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ ، وقد مَرَّ معنا الإيمان فنكتفى به ، ثم : ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ، إذن من صفات المتقين أنهم يستغفرون الله عما فرط منهم من ذنب ، والله عَزَّ وجَلَّ يحبهم لذلك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٤) .

ومهما كان المسلم أكثر تقوى كان أكثر استغفاراً لله ، وأكثر إحساساً بالذنب ، وقد مَرَّ معنا الحديث الذى يذكر أنه كان يُسمع من رسول الله ﷺ فى الجلسة الواحدة مائة مرة : « رَبِّ اغفر لى وتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم » ، وقد حَضَّ الرسول ﷺ المسلمين على التوبة :

---

(١) آل عمران : ١٥
(٢) آل عمران : ١٦
(٣) آل عمران : ١٧
(٤) البقرة : ٢٢٢

روى البخارى عن أبى هريرة قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وروى مسلم عن الأغر بن يسار المزنى قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » .

ثم يأتى بعد : ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

وإذن من صفات المتقين أنهم يخافون النار ، ويطلبون من الله عزّ وجَلّ الخلاص منها ، وقد علمنا القرآن أن نقول : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) ، وجعل رسول الله ﷺ من الأوراد اليومية للمسلم الاستعاذة من النار وما قبلها من محن اليوم الآخر وعالم البرزخ ، ومَن تتبع ما ورد فى الأذكار المطلقة ، والاستعاذات . رأى الآثار الكثيرة فى هذا الموضوع الذى ينبغى أن يكون الهم الأول للإنسان .

ويأتى بعد ذلك ذكرهم بصفة : ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ ، وقد مرّ معنا ، وبعد الصبر يأتى الصدق : ﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ .

الصدق صدقان : صدق مع الله ، وصدق باللسان .

وصدق اللسان معروف وفيه يقول رسول الله ﷺ : « والصدق يهدى إلى البر ، وإنَّ البر يهدى إلى الجنة ، وإنَّ الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقاً ، وإنَّ الكذب يهدى إلى الفجور ، وإنَّ الفجور يهدى إلى النار ، وإنَّ الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً » (٢) .

والصدق مع الله مظهره : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ (٣) ، فمن قُتِلَ فى سبيل الله ، أو تمنى أن يُقتل منتظراً دوره فهو الصادق ، وفى

---

(١) البقرة : ٢٠١ .

(٢) رواه الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه .

(٣) الأحزاب : ٢٣

الأخير يقول رسول الله ﷺ : « مَن سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » (١) .

وقد وصف الله الصادقين معه فى آية أخرى من القرآن :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) ، فلا صدقَ مع الله إلاّ إذا وُجِدَ إيمان وجهادٌ وتقوى ، ولعلك تذكرتَ أن التعريف الثانى من تعاريف المتقين خُتِمَ بما يلى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٣) .

وبعد الصدق يأتى القنوت : ﴿ وَالْقَانِتِينَ ﴾ (٤) ، والقنوت هو الطاعة مع الخضوع .

وبعد القنوت يأتى الإنفاق : ﴿ وَالْمُنفِقِينَ ﴾ (٥) ، وقد مرَّ معنا .

وأخيراً : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (٦) ، والسَحَر هو الوقت الذى يكون قبيل الفجر ، وفيه إشارةَ إلى أن المسلمَ التقى يكون قبل الفجر مستيقظاً . وقد ورد أنَّ وقت ما قبل الفجر وقت استجابة دعاء ، ووقت غفران ذنب لمن استغفر . ففى الحديث الصحيح : « ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عزَّ وجَلَّ : مَن يدعونى فأستجيب له ، مَن يسألنى فأعطيه ، مَن يستغفرنى فأغفر له » .

وسُئِلَ رسول الله ﷺ : أى الليل أفضل ؟ فقال : « نصف الليل الغابر » (٧) .. يعنى الباقى .

---

(١) رواه الترمذى والنسائى والحاكم عن سهل بن حنيف .

(٢) الحجرات : ١٥ (٣) البقرة : ١٧٧ (٤) آل عمران : ١٧

(٥) آل عمران : ١٧ (٦) آل عمران : ١٧

(٧) رواه ابن ماجه بسنده إلى عمرو بن عنبسة رضى الله عنه قال : أتيتُ رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، مَن أسلم معك ؟ قال : « حر وعبد » ، قلت : هل من ساعة أقرب إلى الله من أخرى ؟ قال : « نعم ، جوف الليل الأوسط » . قال ابن ماجه : فلذلك كانوا يستحبون صلاة آخر الليل على أوله . والحديث أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أبى ذر دون قوله : « الغابر » وهذه الإضافة فى بعض طرق حديث عمرو بن عنبسة .

وقد كان رسول الله ﷺ يدعو فى تهجده - والتهجد هو القيام بعد النوم - :
« اللّهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومَن فيهن ومَن عليهن ، أنت الحق ، ومنك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنشور حق ، والنبيون حق ، ومحمد (ﷺ) حق . اللّهم لك أسلمتُ ، وبك آمنتُ . وعليك توكلتُ ، وإليك أنبتُ . وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ، فاغفر لى ما قدّمتُ وأخّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ وأسرفتُ ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلاّ أنت » .

وكان عبد الله بن عمر يُصلّى من الليل ثم يقول : يا نافع ، هل جاء السَّحَر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يُصبح .

وقد فسَّر مجاهد وقتادة والضحّاك ومقاتل استغفارهم بالسَّحَر بأنهم يصلون تهجداً لأنّ فى الصلاة معنى طلب المغفرة . فما ينبغى لتقى أن يكون نائماً قبل الفجر : ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١) .

(د) التعريف الرابع :

﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الذاريات : ١٨ (٢) آل عمران : ١٣٣ - ١٣٦

١ - ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ ، وقد مَرَّ معنا الإنفاق ، وهنا معنى زائدَ وهو أنَّ إنفاقهم فى كل حال سواء أكانوا معسرين أو موسرين ، والدرهم فى حالة العُسر أفضل عند الله من كثير ، وفى الحديث : « سبق درهم مائة ألف درهم » ، قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « كان لرجل درهمان فتصدق بأجودهما ، وانطلق آخر إلى عرض ماله فأخرج منه مائة ألف درهم فتصدق بها » (١) .

٢ - ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ : الكظم هو الإمساك ، والغيظ هو الغضب ، ومن صفات الأنبياء أنهم ضابطون أنفسهم فى كل حال ابتغاء وجه الله ، روى ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى » (٢) .

وقد اعتبر رسول الله ﷺ مقياس القوة كظم الغيظ يقول : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » (٣) .

وجعل الله على كظم الغيظ الأجر الكبير ، قال عليه الصلاة والسلام : « مَن كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يُخيِّره من أى حور العين شاء » (٤) .

وقد ذكر لنا رسول الله ﷺ ما يعيننا على كظم الغيظ :

(أ) عن أبى وائل قال : دخلنا على عروة بن محمد السعدى ، فكلمه رجل فأغضبه ، فقام فتوضأ فقال : حدَّثنى أبى عن جدى عطية رضى الله عنه قال :

---

(١) رواه النسائى بسنده إلى أبى ذر ، وابن حبان والحاكم والنسائى بطريق آخر عن أبى هريرة ، وقال الحاكم : على شرط مسلم ، ورمز السيوطى لصحته .

(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمر ، ورمز السيوطى لحسنه .

(٣) متفق عليه عن أبى هريرة .

(٤) رواه أبو داود والترمذى من حديث معاذ بن أنس مرفوعاً بلفظ قريب ، وقال الترمذى : حسن .

قال رسول اللّه ﷺ : « إنَّ الغضب من الشيطان ، وإنَّ الشيطان خُلِقَ من النار ، وإنما تُطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » (١) .

(ب) وعن أبى ذر الغفارى رضى اللّه عنه قال : قال لنا رسول اللّه ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » (٢) .

(جـ) وعن معاذ بن جبل رضى اللّه عنه قال : استب رجلان عند النبى ﷺ حتى عرف الغضب فى وجه أحدهما ، فقال النبى ﷺ : « إنى لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب : أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم » (٣) .

ولأهمية هذا الموضوع كان الرسول ﷺ يفرده بالوصية :

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : « إنَّ رجلاً قال : يا رسول اللّه ، أوصنى ولا تُكثر علىَّ لعلى لا أنسى قال : « لا تغضب » (٤) .

٣ - ﴿ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ : أى من صفات المتقين أنهم يعفون عمَّن ظلمهم ، والآية الأخرى تقول : ﴿ خُذ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ (٥) ، وقد ضرب لنا رسولُ اللّه ﷺ المثل الأعلى فى سيرته على هذا الخُلُق وكل خُلُق .

عن أنس رضى اللّه عنه أنه قال : « كنتُ أمشى مع رسول اللّه ﷺ وعليه بُرد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجذبه بردائه جذبة شديدة ، فنظرتُ إلى صفحة عاتق النبى ﷺ وقد أثَّرت بها حاشية البُرد من شدة جذبته ثم قال : يا محمد ، مُر لى من مال اللّه الذى عندك ، فالتفتُ إليه فضحك ثم أمر له بعطاء » (٦) .

---

(١) أخرجه أبو داود .
(٢) أخرجه أبو داود .
(٣) أخرجه أبو داود والترمذى .
(٤) أخرجه البخارى ومالك والترمذى .
(٥) الأعراف : ١٩٩
(٦) متفق عليه .

وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه قال : كأنى أنظر إلى رسول اللّه ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : « اللّهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » (١) .

والعفو قوة .. عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أنَّ رجلاً قال : يا رسول اللّه ، إنَّ لى قرابة أصلهم ويقطعونى ، وأحسن إليهم ويسيئون إلىَّ ، وأحلم عنهم ويجهلون علىَّ . فقال : « لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تسفهم الملَّ ، ولا يزال معك من اللّه تعالى ظهير عليهم ما دمتَ على ذلك » (٢) .

وروى مسلم : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد اللّه عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد للّه إلا رفعه اللّه » .

ولا زالت مكارم الأخلاق كلها مجموعة بهذا النص : « أن تعفو عمَّن ظلمك ، وتصل مَن قطعك ، وتُحسن إلى مَن أساء إليك » .

٤ - ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) : والمحسنون مَن أحسنوا مع اللّه فى العبادة ، ومع خلق اللّه فى المعَامَلة ، والإحسان فى العبادة هو ما عُرِفَ فى الحديث : « قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٤) .

ولا يُحصِّل الإنسان هذا المقام إلا بدوام ذِكر اللّه ، والإحسان فى المعاملة إلتزام أدب الشريعة فى ذلك فى كل شئ : بيعاً وشراءً ؛ زواجاً وطلاقاً ... مع المسلم وغير المسلم ، مع الإنسان والحيوان والنبات .

« إنَّ اللّه كتب الإحسان على كل شئ ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحة . وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم فى كتاب « البر » باب « صلة الرحم وتحريم قطيعتها » بسنده إلى أبى هريرة .

(٣) آل عمران : ١٣٤

(٤) قطعة من حديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه .

وعن ابن عمر وقد مَرَّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه ، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا ، فقال ابن عمر : مَن فعل هذا ؟ لعن الله مَن فعل هذا . إنَّ رسول الله ﷺ لعن مَن اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً .

« رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى » (١) .

٥ - ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

والفاحشة : القبيحة ، وكل شئ جاوز قدره فهو فاحش ، والمراد بها هنا والله أعلم : كل كبيرة .

والظلم للنفس هو ارتكابها المنكرات ، وقيل : المقصود به هنا الصغائر .

﴿ وَذَكَرُواْ اللَّهَ ﴾ (٣) : إما أنهم ذكروه بلسانهم ، أو ذكروا عرضهم عليه ، أو سؤاله لهم ، أو وعيده على ما أتوا ، أو نهيه عما أتوا ، أو غفران الله لمن استغفر بعد ذنب .

والإصرار المقصود به الثبوت على الذنب من غير استغفار ، أما مَن كان يتوب كلما واقع ذنباً بشروط التوبة فإنه لا يعتبر مُصِرًّا ولو عاد إلى الذنب نفسه . ففي الحديث : « ما أصرَّ مَن استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » (٤) .. وشروط التوبة كما ذكرها النووى ما يلى نعيدها للعظة :

---

(١) رواه البخارى فى كتاب « البيوع » باب « السهولة والسماحة فى الشراء والبيع ومَن طلب حقاً فليطلبه فى عفاف » ، وابن ماجه فى كتاب « التجارات » باب « السماحة فى البيع » ، كلاهما بسنده إلى جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

(٢) آل عمران : ١٣٥ (٣) الشعراء : ٢٢٧

(٤) رواه أبو داود والترمذى وغيرهما عن أبى بكر مرفوعاً ، وقال الترمذى : غريب وليس إسناده عندى بالقوى ، لكن له شاهد عند الطبرانى فى الدعاء عن ابن عباس .

قال : « قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط ، أحدها : أن يقلع عن المعصية ، والثانى : أن يندم على فعلها ، والثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا . فإن فقد أحد الثلاثة ، لم تصح توبته ، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالاً أو نحوه ردَّه إليه . وإن كان حد قذف ونحوه مكّنه منه ، أو طلب عفوه . وإن كانت غيبة استحلّه منها ، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحَّت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، ويبقى عليه الباقى . وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسُنَّة وإجماع الأئمة على وجوب التوبة » .. (انتهى).

وإنَّ الإصرار على الذنب يجعل الصغيرة كبيرة ، إذ لا ذنب مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ، فمن تحقق بما مرَّ : ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... ﴾ (١) .

(هـ) التعريف الخامس :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٢) .

١ - ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ : إنَّ الله لم يحب للمسلم أن يرهب سواه أو يخشاه . يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (٣) ، فهو وحده الذى يستحق أن يرهب ويخاف ، ومن خاف غيره فإنما هو لجهله بالله . فإنَّ الله بيده ملكوت السموات والأرض ، بيده الموت والحياة ، والرزق ، والقبض ، والبسط ، والعطاء والمنع ، والضر والنفع ، وفى الحديث : « واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف » (٤) .

---

(١) آل عمران : ١٣٦ (٢) الأنبياء : ٤٨ - ٤٩ (٣) النحل : ٥١

(٤) قطعة من حديث رواه الترمذى عن ابن عباس وقال : حسن صحيح .

وفى الآية : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ (١) ، وفى الآية الأخرى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

فالمسلم خوفه كله من الله ، ولا نجد مسلماً يخشى غير الله وهو فى حالة إيمانية سليمة . يقول الله عزَّ وجَلَّ :

﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ، فإذا كان إيمان فالله أحق أن يُخشَى ، ولذلك ولأنَّ الرسل أعرف الخلق بالله فإنه قد تمحصت قلوبهم ، فليس فيها خشية إلا من الله . وفى ذلك تقول الآية : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٤) .

وقد وصف رسول الله ﷺ نفسه فقال : « والله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » (٥) . فالخشية منه جَلَّ جلاله على قدر العلم به وبصفاته وبأفعاله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٦) .

فمَن عرف صفات الجمال لله أحبه ورجاه ، ومَن عرف صفات الجلال له عزَّ وجَلَّ خشيه وهابه ، وكيف لا يُرهب عزَّ وجَلَّ وهو العزيز الجبار المنتقم المتكبر المهيمن القهار : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) الأنعام : ١٧ - ١٨ (٢) يونس : ١٠٧

(٣) التوبة : ١٣ (٤) الأحزاب : ٣٩

(٥) قطعة من حديث رواه البخارى فى كتاب « الأدب » باب « من لم يواجه الناس بالعتاب » ، ومسلم فى كتاب « الفضائل » ، كلاهما بسنده إلى عائشة رضى الله عنها .

(٦) فاطر : ٢٨ (٧) الأعراف : ٩٩

وميزان الخشية من الله كتاب الله . يقول عزّ وجلّ : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ (١) تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (٢) ، ويقول : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ (٥) ، فمَن كان كذلك فقد حصلت له خشية الله ، وإلا فإن معرفته بالله قليلة ، وقلبه مريض ، والدواء لهذا وهذا المداومة على قراءة كتاب الله ، فإنه كما قال الله : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) ، فهو شفاء الجهل بالله ، وشفاء القلب من أمراضه ، وهذا هو الطريق ، يقول أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى : « لقد تأملتُ الطُرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلاً ، ولا تروى غليلاً ، ورأيتُ أقرب الطرق القرآن ... » - إلى أن يقول : « ومَن جرَّب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى » ، والعلماء متفقون على أنّ القرآن طريق كامل إلى الله ، فالزم سلوك هذا الطريق تصل إلى خشية الله لتنال فضله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٧) .

يقول عليه السلام : « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » (٨) .

وذكر مع السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة : « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » (٩) .

---

(١) مثانى : مكرراً فيه الأحكام والمواعظ وغيرهما .
(٢) الزمر : ٢٣ (٣) الحشر : ٢١ (٤) الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩
(٥) مريم : ٥٨ (٦) يونس : ٥٧ . (٧) الملك : ١٢
(٨) رواه الترمذى . (٩) قطعة من حديث رواه الشيخان عن أبى هريرة .

وقال : « ليس شئ أحب إلى الله تعالى من قطرتين وأثرين : قطرة دمع من خشية الله ، وقطرة دم تهراق فى سبيل الله ، وأما الأثران فأثر فى سبيل الله ، وأثر فى فريضة من فرائض الله تعالى » (١) .

٢ - ﴿ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٢)

(أ) ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم (٣) مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُواْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

(ب) عن أنس رضى الله عنه قال : « خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعتُ مثلها قط فقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين » (٥) .

(جـ) وقال علىٌّ كرَّم الله وجهه وقد سلَّم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يُقلِّب يده : لقد رأيتُ أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم . لقد كانوا يصبحون شُعثاً صُفراً غُبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سُجَّداً وقياماً يتلون كتاب الله ، يراحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم .

---

(١) رواه الترمذى عن أبى أمامة .

(٢) الأنبياء : ٤٩

(٣) ألتناهم : نقصناهم .

(٤) الطور : ١٧ - ٢٨

(٥) متفق عليه ، والخنين هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف .

(د) أخرج أبو نعيم عن أبي صالح قال : دخل ضرار بن ضمرة الكنانى على معاوية فقال له : صف لى علياً ؟ فقال : أوَ تعفينى يا أمير المؤمنين ، قال : لا أعفيك ، قال : أما إذ لا بد فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظُلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يُقلِّب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قَصُر ، ومن الطعام ما جَشُب . كان والله كأحدنا ، يدنينا إذا أتيناه . ويجيبنا إذا سألناه ، وكان مع تقربه إلينا وقُربه منا لا نكلمه هيبة له ، فإن تبسَّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم . يُعظِّم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .. فأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يميل فى محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى أسمعه الآن وهو يقول : يا ربنا - يتضرع إليه ، ثم يقول للدنيا : « إلىَّ تغررتِ ؟ أم إلىَّ تشوفتِ ؟ هيهات هيهات غُرِّى غيرى ، قد بتتك ثلاثاً ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرتك يسير ، آه آه من قِلّة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق » . فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها ، وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء فقال : كذا كان أبو الحسن رضى الله عنه ، كيف وجدك عليه يا ضرار ؟ قال : وجد من ذُبِحَ واحدها فى حجرها لا ترقأ دمعتها ، ولا يسكن حزنها . ثم قام فخرج .

هذا هو الوضع السليم للمسلم فى إشفاقه من الساعة ، ومتى حصلت للمسلم خشية الله ، والإشفاق من الساعة فقد أصبح لديه الوازع الكامل للعمل بالإسلام كله ، وترك ما عداه . وعندئذ تتحقق التقوى بشكلها الكامل ، ولا تقوى بلا خوف من الله ، وإشفاق من الساعة ، إذ أنَّ التقوى عمادها هذان .

ولا ننسى ما مَرَّ معنا فى بحث الرجاء : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ (١) ، فإنَّ خوف الله لا يجوز أن يصل إلى درجة القنوط ، إذ الأمن من الله جهل به ، والقنوط من رحمته جهل به : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَا الْقَوْمُ الخَاسِرُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَا الضَّالُّونَ ﴾ (٣) .

وأخيراً نقول : لا يتم الإشفاق من الساعة إلا بتذكر دائم لها ولما بعدها ، ومحاسبة للنفس دائمة على ما قدَّمنا .

(و) التعريف السادس للمتقين :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (٤) .

١ - ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ ، مَرَّ معنا الإحسان فى التعريف الرابع ، وفى بداية هذا الكتاب .

٢ - ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ .

(أ) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبى ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر (٥) قدماه ، فقلتُ له : لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غُفِرَ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبدا شكوراً » (٦) .

(ب) وعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « نِعْمَ الرجل عبد الله لو كان يُصلِّى من الليل » . قال سالم : فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً (٧) .

---

(١) الأحزاب : ٢١ (٢) الأعراف : ٩٩ (٣) الحجر : ٥٦

(٤) الذاريات : ١٥ - ١٩ (٥) تتفطر : تتشقق . (٦) متفق عليه .

(٧) رواه البخارى عن حفصة أم المؤمنين .

(جـ) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « صلّيتُ مع النبى ﷺ ذات ليلة ، فافتتح البقرة فقلت : يركع عند المائة فمضى . فقلت : يصلى بها فى ركعة فمضى ، فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها . يقرأ مترسلاً . إذا مَرَّ بآية فيها تسبيح سبّح ، وإذا مَرَّ بسؤال سأل ، وإذا مَرَّ بتعوذ تعوَّذ . ثم ركع فجعل يقول : « سبحان ربى العظيم » ، فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال : « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد » ، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد فقال : « سبحان ربى الأعلى » فكان سجوده قريباً من قيامه » (١) .

هذا هو الحال الأكمل للمتقين فى قيامهم من الليل وتهجدهم ، وإذا لم يستطع الإنسان أن يحقق الحد الأعلى فليحقق الأدنى :

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلّيا أو صلّى ركعتين جميعاً كُتِبَ فى الذاكرين والذاكرات » (٢) .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن نام عن حِزبه أو عن شئ منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتِبَ له كأنما قرأه من الليل » (٣) .

أما ألا يكون للمسلم شئ من ليله فذلك هجران .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ذُكِرَ عند النبى ﷺ رجل نام ليله حتى أصبح ، قال : « ذلك رجل بال الشيطان فى أذنيه » ، أو قال : « فى أذنه » (٤) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد يضرب على كل عقدة : عليك ليل

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح .
(٣) رواه مسلم .
(٤) متفق عليه .

طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عُقدة ، فإن توضأ انحلت عُقدة ، فإن صلّى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » [1] .

٣ - ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، وفى ذكر قيام الليل والاستغفار بالأسحار إشارة إلى أنَّ التقى كونه يقوم الليل لا يُفرِّط فى السَحَر ، أو يُضيِّع صلاة فجر ، أو يكون نائما أثناء ذلك .

٤ - ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ، مَرَّ بنا بحث الإنفاق ، وفى هذا النص تأكيد على إعطاء السائل ، وإعطاء المحروم ، وصور الحرمان كثيرة .

بانتهاء استعراض معانى التعريف السابق ، نكون قد استعرضنا ست تعريفات للمتقين ، وهناك تعريفات ترد بشكل آخر ، نؤثر أن نشير إلى واحد منها :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [3] .

ونفهم من مجموع الآيتين أنَّ عباد الله : المتقون ، فإنَّ هؤلاء المتقين لا سلطان للشيطان عليهم . إذ أن العبودية لله التى هى أشرف مقامات الإنسان تتمثل بالتقوى ، إنَّ الله عزَّ وجَلَّ وصف رسوله بأشرف الصفات ، ومما وصفه به عبوديته لله فى كثير من الآيات : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ... ﴾ [4] ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [5] .. وقد مرَّ معنا قوله عليه السلام : « واللَّهِ إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له » ، لهذا الرباط ما بين العبودية والتقوى نؤثر أن نتحدث عن صفات

---

(١) متفق عليه . (٢) الأعراف : ٢٠١ (٣) الحجر : ٤٢
(٤) الكهف : ١ (٥) الإسراء : ١

عباد الله لتتمحص ذواتنا لله ، ولنفى بعهدنا لله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ ﴾ (١) ، ولا يتخلص الإنسان من عبودية الشيطان حتى يخرج من سلطانه ، بأن يكون من عباد الله ، وبأن يكون من المتقين كما رأينا فى الآيتين المذكورتين فى مقدمة هذا الكلام . ونؤثر أن نبدأ المسألة من بدايتها الأولى :

(١)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ (٢) مِّنْ حَمَإٍ (٣) مَّسْنُونٍ (٤) * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (٥) .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ (٦) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ

---

(١) يس : ٦٠ .   (٢) صلصال : طين يابس كالفخار .   (٣) حمأ : طين أسود متغير .

(٤) مسنون : مصوّر صورة إنسان أجوف .   (٥) الحجر : ٢٨ - ٤٤

(٦) لأحتنكن ذريته : لأستولين عليهم ، أو لأستأصلنهم بالإغواء .

وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ [1] وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [2] .

(٢)

إذن عباد الله وحدهم هم الذين تخلّصوا من سيطرة الشيطان وأساليب خداعه ، فمَن هم هؤلاء العباد ؟ يقول الله عزّ وجَلّ :

(أ) ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [3] ، فهذا تعريف لعباد الله : أنهم مؤمنون بآيات الله كلها ، سواء في ذلك معجزات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، أو كتاب الله ، وهو معجزة ، أو آياته في السموات والأرض مع استسلامهم له عزّ وجَلّ استسلاماً مطلقاً كاملاً بدون احتراز أو احتراس أو شك أو تردد ، ويظهر هذا الاستسلام باستسلامهم لنصوص شريعته التي بعث بها أنبيائه الذين خُتِموا بمحمد ﷺ ، فأصبح الاستسلام له متمثلاً باتباع شريعته ﷺ . فمَن لم يستسلم لنصوص الشريعة القطعية الصحيحة استسلاماً مطلقاً فليس ممن دخلوا تحت الآية : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [4] .

(ب) ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [5] ، التعريف الأول لعباد الله ذكر أنهم مؤمنون ومستسلمون لله . والتعريف الثاني ذكر أنهم دائماً يعملون بما أنزل إليهم من وحي ويتبعون الأفضل منه : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [6] ، فهم يحاولون أن يكونوا متحققين بذروة الإسلام لا بالحد الأدنى منه .

---

(١) بخيلك ورجلك : بكل راكب وماش في معاصي الله .
(٢) الإسراء : ٦١ - ٦٥ (٣) الزخرف : ٦٨ - ٦٩ (٤) الزمر : ٣٣
(٥) الزمر : ١٧ - ١٨ (٦) الأعراف : ٣

(جـ) ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

زاد هذا التعريف أنهم مع علمهم وإيمانهم ، فإنهم يعتمدون على الله وحده ، ويتوكلون عليه في أمر دنياهم وأخراهم : ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

(د) ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَاماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (٣) * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ آثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً * أُوْلَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ (٤) بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً * خَالِدِينَ فِيهَا ، حَسُنَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً * قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ (٥) .

---

(١) النحل : ٩٨ - ١٠٠ (٢) يوسف : ١٠١ (٣) غراماً : لازماً محتداً .
(٤) الغرفة : أعلى منازل الجنة . (٥) الفرقان : ٦٣ - ٧٧

١ - ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ﴾ .

قال ابن كثير : « وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءاً ، فقد كان سيد ولد آدم - صلى الله عليه وسلم - إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وكأنما الأرض تُطوَى له ، قال : وقد كرِه بعض السَلَف المشى بتضعف وتصنع . قال : وإنما المراد بـ « الهون » هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وائتوها وعليكم السكينة والوقار ، فما أدركتم منها فصلُّوا وما فاتكم فأتموا » [1] .

ويوضح كلمة « الهون » ما ورد عن علىّ رضى الله عنه : « أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغضيك يوماً ما ، وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » [2] ، والمعنى : أحبب حبيبك مقتصداً لا إفراط فيه ، أى لا تُسرف فى الحب والبغض . وإذن فكلمة « الهون » تعطينا معنى الاعتدال .

وقد نهى الله عزَّ وجَلَّ عن مشية ناس فقال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً ﴾ [3] ، وقال : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾ [4] .

فإذن مشية المسلم قصد لا اختيال فيها ولا بطر ولا كِبْر ، كما أنه لا موت فيها ولا ضعف . وكان عمر إذا مشى أسرع ، وأجود مشية تجمع بين هذا وهذا هى مشية رسول الله ﷺ : « كأنما ينحط من صبب » [5] . فهذه مشية تنفى الاختيال والضعف .

---

(١) متفق عليه .
(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد عن علىّ موقوفاً .
(٣) الإسراء : ٣٧
(٤) لقمان : ١٨ - ١٩
(٥) رواه الترمذى عن علىّ .

٢ - ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاماً ﴾ .

روى الإمام أحمد فى المسند (٥/٤٤٥) عن النعمان بن مقرن قال : قال رسول الله ﷺ وسب رجلٌ رجلاً عنده قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام ، قال : قال رسول الله : « أما إنَّ مَلَكاً بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له : بل أنت ، وأنت أحق به ، وإذا قال له : عليك السلام قال : لا بل لك أنت ، وأنت حق به » .. قال ابن كثير : وإسناده حسن .

وأخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما قدم عيينة ابن حصن نزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، كان القُرَّاء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً . فقال عيينة : يابن أخى ، استأذن لى على أمير المؤمنين ، فاستأذن له ، فلما دخل قال : هيه يابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل . فغضب عمر حتى هَمَّ أن يوقع به ، فقال الحر : يا أمير المؤمنين ، إنَّ الله تعالى يقول لنبيه : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ (١) ، وإنَّ هذا من الجاهلين ، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقَّافاً عند كتاب الله تعالى .

قال الحسن فى تفسير الآية : لا يجهلون على أحد وإن جهل عليهم حلموا .

وقال مقاتل بن حيان : « قالوا سلاماً » : أى قولاً يسلمون فيه من الإثم .

وقال ابن الجوزى : قالوا سلاماً : أى سداداً .

وقد وصف الله عزَّ وجلَّ قوماً مادحاً لهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِى الجَاهِلِينَ ﴾ (٢) ،

---

(١) الأعراف : ١٩٩　　　(٢) القصص : ٥٥

وفى معنى « لا نبتغى الجاهلين » ثلاثة أقوال ، أحدها : لا نبتغى دين الجاهلين ، والثانى : لا نطلب مجاورتهم . والثالث : لا نريد أن نكون جُهَّالاً .

٣ - ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً ﴾ ، مَرَّ مثلها فى التعريف الخامس عند : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١) .

٤ - ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً ﴾ ، مَرَّ معناها فى التعريف الثالث عند : ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢) ، ومعنى « غراماً » : دائماً ، أو موجعاً ، أو ملماً ، أو هلاكاً ، أو أشد العذاب .

٥ - ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ ، القوام بفتح القاف - الاستقامة والعدل ، وبكسرها : ما يدوم عليه الأمر ويستقر .

قال ابن جرير الطبرى فى شرح الآية : « والصواب من القول فى ذلك قول مَن قال : الإسراف فى النفقة الذى عناه الله فى هذا الموضع ما جاوز الحد الذى أباحه الله لعباده إلى ما فوقه ، والإقتار ما قصر عما أمر الله به ، والقوام بين ذلك ، وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك لأن المسرف والمقتر كذلك ، ولو كان الإسراف والإقتار فى النفقة مرَّخصاً فيهما ما كانا مذمومين ولا كان المسرف ولا المقتر مذموماً ، لأنَّ ما أذن الله فى فعله فغير مستحق فاعله الذم » (انتهى) .

ومن كلام عمر : « كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما اشتهى » .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج : الإسراف : الإنفاق فى معصية الله وإن قَلَّ ، والإقتار : منع حق الله .

---

(١) الذاريات : ١٧ (٢) البقرة : ٢٠١

ولعل الإسراف والإقتار نسبيان ، فشئ يفعله غنى وهو مباح لو فعل مثله الفقير قد يكون إسرافاً لما يترتب على فعل الفقير من تفريط فى ما يجب عليه لو فعل مثل الغنى ، وكذلك فى إقتار الفقر والغنى .

٦ - ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ آثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً ﴾ (١) .

الآثام : فسَّرها ابن عباس بالجزاء ، وفسَّرها مجاهد وعكرمة بأنها واد فى جهنم ، وفسَّرها ابن قتيبة : بأنها العقوبة .. وفى الآيات أحاديث تفسرها :

(أ) روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : سألتُ رسول اللّه ﷺ : أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل للّه نداً وهو خلقك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن ترانى حليلة جارك » فأنزل اللّه تصديقها : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ ... ﴾ .

(ب) وروى مسلم عن أبى ذر رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً وآخر أهل النار خروجاً منها : رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها ، فتُعرَض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملتَ يوم كذا وكذا كذا كذا ، وعملتَ يوم كذا وكذا كذا كذا فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه ، فيقال له : فإنَّ لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول : ربِّ قد عملتُ أشياءً لا أراها ههنا » ، فلقد رأيتُ رسول اللّه ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه .

---

(١) الفرقان : ٦٨ - ٧١

٧ - ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ .

فى معنى الزور أقوال : الغناء ، أو الشرك ، أو اللعب ، أو الكذب ، أو شهادة الزور ، أو أعياد المشركين ، أو مجالس الخنا .

وقال ابن جرير الطبرى : « وأصل الزور : تحسين الشئ ، ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل إلى مَن يسمعه أو يراه أنه خلاف ما هو به ، والشرك قد يدخل فى ذلك ، لأنه مُحسَّن لأهله حتى قد ظنوا أنه حق وهو باطل ، ويدخل فيه الغناء لأنه أيضاً مما يُحسِّنه ترجيع الصوت حتى يستحلى سامعه سماعه ، والكذب أيضاً قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه حتى يظن صاحبه أنه حق ، فكل ذلك مما قد يدخل فى معنى الزور ، قال : فإذا كان ذلك كذلك ، فأولى الأقوال بالصواب فى تأويله أن يقال : والذين لا يشهدون شيئاً من الباطل ، لا شِركاً ، ولا غناءً ، ولا كذباً ولا غيره ، وكل ما لزمه اسم الزور ، لأنَّ اللّه عَمَّ فى وصفه إياهم : لا يشهدون الزور ، فلا ينبغى أن يُخَص من ذلك شئ إلا بحُجَّة يجب التسليم لها من خبر وعقل » (انتهى) .

وروى البخارى ومسلم عن أبى بكرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ: « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ؟ - ثلاثاً - قلنا : بلى يا رسول اللّه ، قال : « الشِرك باللّه ، وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

٨ - ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً ﴾ .

وفى معنى اللغو أقوال : المعاصى ، أو أذى المشركين إياهم ، أو الباطل ، أو الشِرك ، أو ذكر ما له علاقة بالنكاح صراحة .

وقال ابن جرير الطبرى : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب عندى أن يقال : إنَّ اللّه أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مَرُّوا كراماً . واللغو فى كلام العرب هو كل كلام ، أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل ، أو ما يُستقبح . فسب الإنسانُ الإنسانَ بالباطل الذى لا حقيقة له من اللغو ،

وذكر النكاح بصريح اسمه مما يُستقبح فى بعض الأماكن فهو من اللغو ، وكذلك تعظيم المشركين آلهتهم من الباطل الذى لا حقيقة لما عظّموه على نحو ما عظّموه ، وسماع الغناء مما هو مستقبَح فى أهل الدين ، فكل ذلك يدخل فى معنى اللغو . فلا وجه إذا كان ذلك يلزمه اسم اللغو أن يقال : « عنى به بعض » ، إذا لم يكن لخصوص ذلك دلالة من خبر أو عقل » (انتهى) .

وفى معنى : ﴿ مَرُّواْ كِرَاماً ﴾ أقوال ، أحدها : مروا حلماء ، والثانى : مروا معرضين عنه . قال مقاتل : والثالث : أنّ المعنى : إذا مروا باللغو جاوزوه - قاله الفرّاء .

وقد مرّت معنا الآية : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

٩ - ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ .

معنى « ذُكِّروا » : وُعظوا . بـ « آيات ربهم » : القرآن . « صماً وعمياناً » قال ابن قتيبة : لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها . عمى لم يروها . وقال غيره فى معنى الآية : لم يثبتوا على حالتهم الأولى كأنهم لم يسمعوا ولم يروا ، وإن لم يكونوا خروا حقيقة . تقول العرب : شتمتُ فلاناً فقام يبكى ، وقعد يندب ، وأقبل يعتذر ، وظل يتحيرُ ، وإن لم يكن قام ولا قعد .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، فكان علامة الإيمان الانتفاع بالذكرىٰ ، وقال : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٣) فدلّ على أن الذى يتذكر هو الذى يخشى وعيد الله ، وهو المؤمن بالآخرة . وقال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٤) ، أما مَن لم يتذكر فهو إنسان لا قلب له ، أو غافل ، وقال :

---

(١) القصص : ٥٥

(٢) الذاريات : ٥٥

(٣) سورة ق : ٤٥

(٤) سورة ق : ٣٧

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ [1] فهذا هو الموقف الصحيح من كتاب الله وسماع آياته .

١٠ - ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ .

ومعنى الآية : هب لنا من الأزواج والذُرِّية مَن يعمل بطاعتك ، فتقر به أعيننا في الدنيا والآخرة . وسئل الحسن عن قوله : ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ في الدنيا أم في الآخرة ؟ قال : لا بل في الدنيا ، وأي شئ أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وولده يطيعون الله ، والله ما طلب القوم إلا أن يُطاع الله فتقر أعينهم .

وأصل القرة من البرد ، لأنَّ العرب تتأذى بالحر وتستروح إلى البرد .

ومن دعاء إبراهيم : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [2] .

١١ - ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ .

في معناها قولان ، أحدهما : اجعلنا أئمة يُقتدى بنا - قاله ابن عباس ، والثاني : اجعلنا مؤتمين بالمتقين مقتدين بهم - قاله مجاهد ، فعلى هذا الكلام يكون من المقلوب ، فيكون المعنى : واجعل المتقين إماماً لنا . قال ابن كثير على المعنى الأول : « اجعلنا هداة مهتدين دعاة إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذُرِّياتهم ، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً » (انتهى)

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً * خَالِدِينَ فِيهَا ، حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [3] .

---

(١) الأنفال : ٢ (٢) إبراهيم : ٤٠. (٣) الفرقان : ٧٥ - ٧٦

. ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ (١) ، أى لا وزن لكم ولا قدر عند الله لولا إيمانكم أو عبادتكم أو توحيدكم .

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ (٢) ، هذا خطاب للكافرين المكذّبين ، فإنّ تكذيبهم سيكون عذاباً لازماً فى الدنيا ، بأن تكون نهايتهم سيئة ، ويستمر العذاب فى الآخرة .

هذه صفات عباد الله كما وردت فى هذه التعاريف ، فمن تحقق بها كلها لم يكن للشيطان عليه سبيل ، وكان عبداً خالصاً لله .

ونختتم هذه الفقرة بذكر ما يعيننا على قهر الشيطان للوصول إلى مقام العبودية الكاملة لله ..

١ - الاستعاذة بالله منه ، قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ (٤) الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (٥) .

وعلّمنا رسول الله ﷺ إذا دخلنا الخلاء أن نقول : « أعوذ بالله من الخبث والخبائث » (٦) .

٢ - ذِكر الله الدائم ، فإنّ ذكر اللسان مطردة للشيطان ، وفى الحديث : « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإن ذكرالله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » (٧) .

---

(١) الفرقان : ٧٧ (٢) الفرقان : ٧٧ (٣) الأعراف : ٢٠٠

(٤) همزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم المغرية . (٥) المؤمنون : ٩٧ - ٩٨

(٦) رواه الشيخان عن أنس بن مالك .

(٧) رواه الحكيم الترمذى عن أنس رضى الله عنه وهو عند أبى نعيم فى الحلية والديلمى فى المسند ولفظه : « الشيطان يلتقم قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس عنده ، وإذا نسى الله التقم قلبه » ، ورمز السيوطى لصحته .

٣ – تمييز إلقائه ومعرفة وسوسته ، فلعلماء القلوب في ذلك كلام جيد .. يقول الشيخ أحمد الزروق :

« تمييز الخواطر من مهمات أهل المراقبة لنفى الصوارف عن القلوب ، فلزم الاهتمام بها لمن له في ذلك أدنى قدم . والخواطر أربعة : رباني بلا واسطة (أي الإلهام) ، ونفساني ، ومَلَكي ، وشيطاني ، وكل إنما يجرى بقدرة اللّه تعالى وإرادته وعلمه . فالرباني لا متزحزح ولا متزلزل كالنفساني ، ويجريان لمحبوب وغيره . فما كان في التوحيد الخالص فرباني ، وفي مجاري الشهوات فنفساني ، وما وافق أصلاً شرعياً لا يدخله رُخصة ولا هوىً فرباني ، وغيره نفساني ، ويعقب الرباني برودة وانشراح ، والنفساني يبس وانقباض ، والرباني كالفجر الساطع لا يزداد إلا وضوحاً ، والنفساني كعود قائم إن ينقص بقي على حاله . فأما المَلكي والشيطاني فمترددان ، ولا يأتي الملكي إلا بخير ، والشيطاني قد يأتي به فيشكل ، ويفرق بأنَّ المَلكي تعضده الأدلة ، ويصحبه الانشراح ، ويقوى بالذكر ، فأثره كغبش الصبح ، وله نفاذه ، بخلاف الشيطاني فإنه يضعف بالذكر ، ويعمى عن الدليل ، وتعقبه حرارة ، ويصحبه اشتعال وغبار وضيق وكزازة في الوقت ، وربما تبعه كسل ، فالشيطاني من يسار القلب ، والمَلكي من يمينه ، والنفساني من خلفه ، والرباني مواجه له ، ثم تحقيق هذا الأمر إنما يتم بالذوق . فقد قالوا : مَن عقل ما يدخل جوفه عرف ما يهجس في نفسه » (انتهى) .

وبهذا ننتهي من استعراض صفات المتقين كما وردت في تعريفهم في كتاب اللّه لننتقل إلى الفقرة الثالثة وهي الطريق إلى التقوى .

* * *

الفقرة الثالثة

طرق الوصول إلى التقوى

رأينا فيما سبق الخطوط العامة للتقوى ، ورأينا كيف أنها تبدأ من الإيمان بالغيب إلى حيث تكون سلوكاً في الحياة ، وتوجهاً إلى اللّه عَزّ وجَلّ . والحقيقة أنّ التقوى مَلَكة في القلب ، فإذا ما استقرت هذه المَلَكة في القلب نتج عنها سلوك الجسد على منهاج اللّه عَزّ وجَلّ : « إنّ في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » (١) . وإذن تحصيل هذه المَلَكة في القلب هو الأساس ، فإذا ما حصّلها الإنسان نبع عنها بشكل آلي لوازمها إذا كان هناك فقه صحيح . ومهمتنا في هذا البحث توضيح الطريق الذي يحقق به الإنسان هذه التقوى في ذاته ، وسنحاول أن نبقى مقيدين أنفسنا تقيداً تاماً بالنصوص القرآنية والحديثية . فإنّ اللّه عَزّ وجَلّ إذا جعل التقوى مناط نجاة الإنسان عنده ، فقد بيّنها وفصّلها بما لا يزيد عليه . وقد يكون في البحث شئ من التداخل ، وذلك يعود إلى ارتباط بعضها ببعض ، إلا أننا نسأل اللّه أن يلهمنا رشدنا ، بحيث يكون بحثاً كافياً لمن أراد اللّه غايته بتقديم التقوى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (٢) .

---

(١) قطعة من حديث رواه البخاري ومسلم عن أبي عبد اللّه النعمان بن بشير .

(٢) الحج : ٣٧

الطريق الأول

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) والشاهد فيها عند قوله : ﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ إذ ما فى الصدور هو القلوب ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٣) ، ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٤) ، ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٥) ، ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٦) .

ومن هذه الآيات نرى أنَّ تلاوة كتاب الله عزَّ وجَلَّ مع التدبر طريق يوصل إلى التقوى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ مع الإيمان أولاً . إذ مَرَّ معنا فى أول بحث التقوى علاقة الإيمان بالقرآن : « كنا نؤتى الإيمان قبل القرآن » (٧) ، فإذا وُجِدَ أصل الإيمان وكان فى القلب شئ من مرض ، فإن فى كتاب الله شفاءه ، وإذا سلم القلب تحققت التقوى ، والكلام فى إنسان وُجِدَ عنده أصل الإيمان ، أما الكافر والمنافق الخالص ، فقد مَرَّ معنا أنهما لا يستفيدان من كتاب الله . وبعض الصوفية من غير المحققين يرون أنَّ كتاب الله ليس شافياً من أمراض القلوب ، وهذا إغراق فى البُعد عن التحقيق ولكن المحققين منهم يقولون : إنَّ كتاب الله طريق كامل للوصول إلى الله .

ولذلك كان من أوراد المسلمين اليومية الراتبة قراءة القرآن .

---

(١) طه : ١١٣ (٢) يونس : ٥٧ (٣) الحج : ٤٦

(٤) سورة ص : ٢٩ (٥) محمد : ٢٤ (٦) البقرة : ١٨٧

(٧) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عمر .

• مقدار الورد :

يقول الأستاذ البنا : « تختلف ظروف الناس وأحوالهم ولهذا لم يحدد مقدار الورد ، وترك ذلك لظروف كل شخص ومقدرته ، والمهم ألا يمر به يوم بغير أن يقرأ شيئاً من كتاب الله تعالى . وسنورد هنا أوجه تقسيم الورد القرآنى عند سَلَفنا الصالح رضوان الله عليهم على سبيل المثال والتوضيح فنقول :

١ - أقل مدة للختمة ثلاثة أيام وقد كرهوا أن يختم الإنسان فى أقل من ثلاث ، وفى أكثر من شهر . وقالوا : إنّ فى الختم فى أقل من ثلاث إسراعاً لا يُعين على التفهم والتدبر ، وفى الختم فى أكثر من شهر إسرافاً فى هجر التلاوة.
عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «لم يفقه مَن قرأ القرآن فى أقل من ثلاث » [١] .

٢ - الحد الأوسط أن يختم كل أسبوع مرة ، وكذلك كان جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم يفعلون كعثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأُبّى بن كعب رضى الله عنهم ، وكان عثمان رضى الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنفال إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، ويوم الإثنين بـ « طه » إلى طسم موسى وفرعون - يعنى القصص - وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى « ص » ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ، وليلة الجمعة يختم الختمة .

وكان لابن مسعود رضى الله عنه تقسيم آخر يختلف فى عدد السور ولكنه يتفق فى الختم كل أسبوع ، وقد ورد فى التقسيم فى الأسبوع أخبار كثيرة . وليس هذا التقسيم بمتعيّن بل هو على سبيل الاتباع والأفضلية ، وللأخ أن يقرأ حسب مقدرته بحيث لا يمضى يوم بغير تلاوة ، فإن لم يكن من أهل القراءة فليجتهد فى الاستماع أو فى حفظ بعض السور يتلوها كلما سنحت له الفرصة ..

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

● آداب التلاوة :

إنّ من آداب التلاوة الاجتهاد كل الإجتهاد فى التدبر والتفكر ، فذلك هو المقصود الأول منها . والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُواْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (١) ، ولا سيما إذا لاحظ أنّ فى ذلك خطاب ربّ العالمين العزيز الحكيم . كما أنّ من آداب التلاوة كذلك مراعاة أحكام التجويد ، فيُخرج الحروف من مخارجها ، ويُؤديها على قواعدها ، ويمد الممدود ، ويغنّ ما يستحق الغنة ، ويفخّم المفخّم ، ويرقّق المرقق ... وهكذا .

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : « إنّ هذا القرآن نزل بحزن ، فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، وتغنوا به فمَن لم يتغنّ بالقرآن فليس منا » (٢) .

والمراد بالتغنى هنا التحزن وإظهار الخشوع مع تجويد القراءة .. فقد جاء فى حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ من أحس الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله » (٣) .

● مجلس الاستماع :

ومن الأوراد القرآنية ، الاجتماع لسماع كتاب الله تبارك وتعالى ممن يُحسن تلاوته ، وعلى القارئ فى مجلس الاستماع أن يقرأ قراءة مرسلة يلاحظ فيها الآداب السابقة ، وعلى المستمعين أن ينصتوا ويفكروا فى المعانى ، وأن يكونوا على غاية الخشوع والتوقير والتعظيم لكتاب الله تبارك وتعالى ، ويستحضروا الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤) ، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يستمعون القرآن وكأن على رؤوسهم الطير ، وكان مشيخة مكة من الصالحين إذا أرادوا التذكر أقبلوا على الشافعى رضى الله عنه - وكان حسن القراءة - فقرأ عليهم

---

(١) سورة ص : ٢٩

(٢) رواه ابن ماجه .

(٣) رواه ابن ماجه .

(٤) الأعراف : ٢٠٤

واستمعوا ، فلا يُرى الراءون أكثر بكاءً منهم في حالهم تلك ، أي حين الاستماع : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (١) ، ويستحب إتماما للفائدة إذا حضر مجلسهم هذا أهل العلم أن يُلخِّصوا لهم مقاصد ما تُلِىَ من آيات .

● ورد الحفظ :

ويُستحَب كذلك للأخ المسلم - وهو من الأوراد القرآنية - أن يجتهد ما استطاع فى حفظ ما يمكن من القرآن الكريم ، فيرتب على نفسه كل يوم آية أو آيات بقدر طاقته يحفظها حفظاً جيداً ، وبهذه الطريقة التدريجية يمكنه أن يحفظ الشئ الكثير من كتاب الله تبارك وتعالى ، وفى الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : « يا أبا ذر ، لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة » (٢) .

فاجتهد يا أخى أن تفوز بهذه الفضيلة ، والله نسأل أن يجعلنا وإياك من أهل القرآن فنكون بذلك من أهل الله وخاصته ، والله حسبنا ونعم الوكيل » (انتهى كلام الأستاذ البنا).

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ (٤) .

---

(١) المائدة : ٨٣

(٢) رواه ابن ماجه بإسناد حسن ، ويعضده حديث مسلم وأبى داود فى هذا المعنى .

(٣) الأنعام : ١٥٣ (٤) الأنعام : ١٥٥ - ١٥٧

إنَّ تلاوة القرآن ينبغى أن يكون وراءها اتباع صراطه ، وعندئذ تكون تقوى . أما إذا كان الإنسان يتلو القرآن والصراط الذى يمشى عليه غير صراط القرآن فمن أين له التقوى ؟

ومن أعجب العجب أنك تجد شيوعياً يسير فى طريق « ماركس » ويبقى الناس يعتبرونه مسلماً ، وأنَّى له الإسلام ولم يستسلم لحكم القرآن . وتجد الآخر يسير فى طريق رسمه نصرانى أو يهودى أو مستعمر أو ضال أو منافق أو فاسق فهذا ليس له من التقوى نصيب .

إنَّ الآية التى هى بداية الفقرة صريحة : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

فإذن لا يكون الإنسان تقياً ما لم يلتزم فى أمور حياته كلها بكتاب اللّه ، سواء فى ذلك عمله السياسى ، أو الاجتماعى ، أو العلمى ، أو الأخلاقى . وفى كل دائرة من دوائر الحياة مستسلماً فى ذلك للّه ، راغبا فيما عنده ، معرضا عن كل متاع أو شهوة أو لذة أو نزوة أو رغبة تخالف ذلك : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » (٢) ، فليحرر الإنسان عمله بهذا الميزان ليعرف أين هو من التقوى . يقول عليه السلام : « مَن أحب أن يحبه اللّه ورسوله فلينظر . فإن كان يحب القرآن فهو يحب اللّه ورسوله » .

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٣) ، وآيات اللّه هنا كتابه الواعظ الذى مَن لم يتعظ به ما بلغ فى الإسلام شيئاً : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) ، وفهم الكتاب أساس ، والتدبر عنوان استعداد

---

(١) الأنعام : ١٥٣

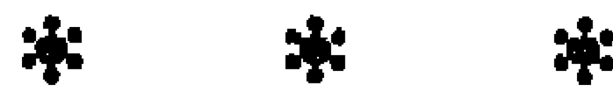
(٢) خرَّجه النووى فى الأربعين عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) البقرة : ١٨٧ (٤) آل عمران : ١٣٨

القلب للخير : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١) ، وتمكين الإيمان فى حالة عدم التدبر واجب : « كنا نُؤتَى الإيمان قبل القرآن » (٢) فإيمان أولاً ، ومعرفة بمعانى كتاب الله ثانياً ، واتعاظ به ثالثاً ، يحصل من ذلك مَلَكة التقوى وآثارها .

ومن هذه الفقرات الثلاث ، ندرك سبباً رئيسياً فى كون الصحابة رضى الله عنهم كانوا أتقياء ، بينما لا تجد التقى اليوم إلا قليلاً . إنَّ الصحابة كان القرآن شغلهم الشاغل ، بينما نحن ليس لنا اليوم من القرآن إلا قليل ، لقد شُغِلَ المسلمون علماءً وطُلاَّب علم عن القرآن فى الغالب .

وسرى ذلك إلى العامة أنفسهم ، فلا تلاوة ، ولا فهم ، ولا تدبر ، فماذا وراء ذلك إلا قسوة القلب ، وضعف اليقين ، وقلة التقوى ؟؟



الطريق الثانى

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَواْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (٣) .

هذه الآية تبيِّن أنَّ التقوى هبة من الله ، وزيادة الهداية كذلك ، ولا تكون التقوى وزيادة الهداية إلا بعد الهداية ، والهداية تحتاج إلى جهد شخصى . هذا الجهد الشخصى ذكرته الآية : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٤) . ولا تكون الهداية إلى السبيل إلا بإلتزام كتاب الله : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٥) .

---

(١) محمد : ٢٤

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عمر .

(٣) محمد : ١٧ (٤) العنكبوت : ٦٩ (٥) المائدة : ١٥ - ١٦

فالمجاهدة للوصول إلى الهداية مقيَّدة بكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ، وأى خروج بالمجاهدة عن هذا المفهوم خروج عنها نفسها : « فمن رغبَ عن سُنَّتى فليس منى » (١) .

وتبدأ الهداية من الإيمان بالله ، يقول عزَّ وجَلَّ : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (٢) ، والمجاهدة للوصول إلى هذا الإيمان تتلخص بالفكر وكثرة الذكر: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٣) .

ذِكر وفكر .. مَن لم يجمع بينهما فقلبه بعيد عن حقيقة الإيمان الحى اليقظ ، ولذلك فقد شبَّه رسول الله ﷺ الغافل عن الله بالميت : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كمثل الحى والميت » (٤) ، وأعظم عمل يجتمع فيه للإنسان الذكر والفكر قراءة القرآن مع التدبر . فالقرآن ذكر : ﴿ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ (٥) ، والقرآن لفت العقل البشرى إلى كل ما ينبغى أن يتفكر فيه ، وإلى ما ينبغى أن يصل إليه فكره ، وأجود ما تكون القراءة تأثيراً إذا كانت فى صلاة قيام الليل : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ (٦) هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً (٧) وَأَقْوَمُ قِيلاً (٨) ﴾ (٩) .

---

(١) قطعة من حديث رواه الشيخان والنسائى عن أنس .

(٢) التغابن : ١١ — (٣) آل عمران : ١٩٠ - ١٩١

(٤) رواه البخارى عن أبى موسى الأشعرى فى كتاب « الدعوات » باب « فضل ذكر الله عَزَّ وجَلَّ » ، ورواه مسلم بمعناه . — (٥) يس : ٦٩

(٦) ناشئة الليل : العبادة التى تنشأ به وتحدث .

(٧) أشد وطئاً : ثباتاً للقدم ورسوخاً فى العبادة .

(٨) أقوم قيلاً : أثبت قراءة لحضور القلب . — (٩) المزمل : ٦

وهدف المجاهدة - بشكل أعم - هو الوصول إلى حالة للقلب يسمى فيها سليماً : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (١) ، وعندئذ يصلح حال الإنسان كله : « إنَّ فى الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » (٢) ، ولا يصل القلب إلى هذه الحالة حتى يتخلص من الكفر والشقاق وشوائب النفاق . يقول الرسول ﷺ : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد ، فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره ، وأما القلب المنكوس ، فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح ، فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيِّب ، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يمدها القيح والدم ، فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » (٣) .

فالهدف من المجاهدة ، الوصول إلى أن يكون قلبنا هو القلب الأول ، وهذا لا يتم لنا إلا إذا قطعنا مدد القيح والدم عن قلوبنا ، والذى هو عبارة عن الآثار السيئة الظلامية التى يتركها الذنب فى القلب . يقول عليه السلام : « إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذى ذكر اللّه تعالى . » (٤) ، والمقصود بهذا آية سورة المطففين : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) الشعراء : ٨٨ - ٨٩

(٢) قطعة من حديث رواه البخارى ومسلم عن أبى عبد اللّه النعمان بن بشير .

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى به مرفوعاً .

(٤) رواه أحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة وصححه الترمذى وقال الذهبى فى المذهب : إسناده صحيح .

(٥) ران على قلوبهم : غلب وغطى عليها - والآية من سورة المطففين : ١٤

وقطع مدد القيح والدم ليس كافياً للوصول إلى القلب الأول إلا إذا رافقه مدد الماء الطيب لهذا القلب ، والمقصود بمدد الماء الطيب فى الحديث : الآثار النورانية التى تتركها الحسنات فى قلب الإنسان حتى يصبح هذا القلب منيراً أزهر .

يقول عليه السلام : « والمجاهد مَن جاهد نفسه فى ذات اللّه » (١) .

إنّ النفس تألف الراحة والكسل والشهوة واللذة والمتعة ، وهذه المعانى فى كثير من الأحوال تتنافى مع التكليف ، ولذلك كانت الجنة فى الطرف المقابل : « حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات » (٢) ، فلا بد من بذل الجهد للتغلب على هوى النفس حتى ينسجم مع التكليف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئتُ به » (٣) ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَىٰ * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَىٰ ﴾ (٤) .

وشغل النفس دائماً بالتكاليف أو الخير ، هو الذى يطهرها من أوزارها ، فإنّ النفس إذا لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر ، وقد حدَّد السيد الرسول ﷺ الأهم فيما يشغل به الإنسان نفسه . ويقول عليه السلام فى الحديث القدسى : « وما تقرَّب إلىَّ عبدى بشئ أحبُّ إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أُحبه » (٥) .

فالفرائض أولاً : من صلاة ، أو زكاة ، أو صلة رحم ، أو جهاد ، أو ترك حرام ، أو التزام بسلوك ، أو التخلى عن خُلُق ، أو التحقق به ، ثم النوافل من ذكر ، لعبادة ، لشهود جنازة ، لتحقق بسُنَن . إنّ الإقبال الكامل على اللّه هو المجاهدة .

---

(١) رواه الترمذى وابن حبان عن فضالة بن عبيد ورمز السيوطى لصحته .

(٢) متفق عليه عن أبى هريرة ، ولفظ البخارى : « حفت » فى الموضعين .

(٣) خرَّجه النووى فى الأربعين عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) النازعات : ٤٠ - ٤١ .

(٥) قطعة من حديث رواه البخارى عن أبى هريرة .

وهنا لا بد أن نُلفت النظر إلى قضية هى أنّ بعض الناس يستغرقون فى المجاهدة بتطبيق نوافل على حساب فروض فيُضيِّعون فرضاً أو فروضاً . وآخرون ينسون مجاهدة أنفسهم بتاتاً ، مستغرقين بجانب من جوانب الإسلام ، وليس هذا أو هذا سُنن الإسلام .

وشئ آخر نُلفت النظر إليه . هو أنّ ذكر الله ، أو تذكره هو روح القيام بالتكاليف كلها . سواء أكانت فرائض ، أو نوافل : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِيَ ﴾[1] ، ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾[2] ، ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾[3] ، فالعمل لله هو ما رافقه تذكر الله عزّ وجلّ بابتغاء وجهه .

وبتحققنا بهذا المعنى نكون قد وصلنا إلى حالة لا يكون للشيطان علينا بها سبيل بإذن الله . أخرج البخارى تعليقاً عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوَس » ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[4] .

وهذا من أهم الأشياء فى المجاهدة ، أن يتخلص الإنسان من كيد الشيطان : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[5] ، ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[6] ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[7] .

إنّ صلواتنا فى أوقاتها جماعة لا تنتظم إلا بمجاهدة ، وطاعتنا لأمراء الحق بالحق لا تسلمها النفس إلا بمجاهدة ، فمن أول الإسلام حتى آخره لا بد من

---

(١) طه : ١٤ (٢) الحج : ٢٨ (٣) البقرة : ١٨٥
(٤) الأعراف : ٢٠١ (٥) الحج : ٤ (٦) فاطر : ٦
(٧) النحل : ٩٨ - ٩٩

مجاهدة النفس ، ولا مجاهدة إلا بنيّة ، ولا نيّة إلا بتذكر الله ، ولا تذكر إلا بذِكر دائم . وعندئذ تكون تقوى .

وإذا أردنا تلخيص هذا الطريق نقول :

المجاهدة تورث الهداية : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (١) .

والهداية تورث التقوى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَواْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ ﴾ (٢) .

وأهم أنواع المجاهدة ما يُخرجنا به الله من الظلمات إلى النور ، ومن أهم ذلك : الصلاة جماعة ، وكثرة الصلاة على الرسول ﷺ ، والصبر ، ثم الذِكر الدائم لله ، والعمل بما أمر واجتناب ما نهى ، حتى ترسخ مَلَكة التقوى فيصبح العمل عادة ، والسلوك السليم عفواً ، كما يصبح القلب حياً .

وعلامة نجاح الإنسان فى تزكية نفسه - أى فى جهاده - لها تحققه بالآيات التى وردت فى أول سورة « المؤمنون » بدليل قوله تعالى فى بدايتها : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، مع أنه فى آية آخرى علق الفلاح على تزكية النفس فقال :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (٣) .

ولذلك نرى لزاماً علينا هنا أن نستعرض - ولو باختصار - معانى هذه الآيات : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *

١ - الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ *

٢ - وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ *

٣ - وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *

---

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) محمد : ١٧

(٣) مَن دسَّاها : نقصها وأخفاها وأخملها بالفجور - والآية من سورة الشمس : ٧ - ١٠ .

٤ - وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *

٥ - وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *

٦ - وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *

أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

فهذه صفات ست : إذا اختل أي واحد منها فذلك دليل على أنَّ النفس لم تُزك بعد ، ولم تصل إلى التقوى ، وهى بعد بحاجة إلى مجاهدة . فإذا لم تصل النفس إلى الخشوع فى الصلاة ، فإنها تحتاج إلى مجاهدة ، وإذا لم تصل إلى الإعراض عن اللغو فإنها تحتاج إلى مجاهدة ، وإذا لم تُزكِّ فإنها تحتاج إلى مجاهدة ، وإذا لم يُحفظ الفرج عن الزنا فإنها تحتاج إلى مجاهدة ، وإذا لم تحفظ العهد والأمانة فإنها تحتاج إلى مجاهدة ، وإذا لم تحافظ على الصلوات فإنها تحتاج إلى مجاهدة .

إنَّ ميزان زكاة النفس هذه الصفات ، فمتى أصبحت هذه الصفات للنفس خُلُقاً وطبعاً ، تأتيها بدون تكلف وبإخلاص ، وبلا غرور وعُجْب ورياء .

فيومذاك تكون هذه النفس قد تزكّت وطهرت ، ونجح الإنسان فى مجاهدتها ، وما دامت لم تصل إلى هذه الحالة ، فلا بد من مواصلة المجاهدة بالذكر والصوم وتلاوة القرآن وكل ما مَرَّ معنا من طُرق التقوى .

ولنستعرض حدود هذه الصفات الست ، لنعرف إلى أى حد وصلنا فى تزكية النفس ، ولنعرف إلى أى حد نجحنا فى مجاهدة أنفسنا :

١ - ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ .

لقد عرَّف الله الخاشعين بقوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) المؤمنون : ١ - ١١ (٢) البقرة : ٤٥ - ٤٦

فما لم يكن واضحاً لدى الإنسان رجوعه إلى ربه ولقياه له ، فإنه لا يكون خاشعاً ، ولننظر إلى أنفسنا لنرى مقدار وضوح هذا المعيار عندنا ..

أما مظاهر وآثار الخشوع فى الصلاة فهذه نصوص تشير إليها :

لأبى داود عن مطرف عن أبيه : « رأيتُ رسول الله ﷺ يُصلّى وفى صدره أزيز كأزيز الرحا من البكاء » .

وفى رواية النسائى : « ولجوفه أزيز كأزيز المرجل » .

وروى الطبرانى فى « الكبير » عن الأعمش قال : « كان عبد الله - أى ابن مسعود - إذا صلّى كأنه ثوب ملقى » .

وللترمذى عن الفضل بن عباس عن رسول الله ﷺ : « الصلاة مثنى مثنى وتقنع يديك - يقول : ترفعهما - إلى ربك مستقبلاً ببطونها وجهك وتقول : يارب يارب ، ومَن لم يفعل فهو كذا وكذا » .

وفى رواية : فهو خداج .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (٢) .

من هاتين الآيتين يتبيَّن لنا معنى الخشوع ، فإذا لم نجد من أنفسنا هذا الخشوع ، فإنَّ علينا أن نزداد فى مجاهدة أنفسنا فى الذكر والتذكر وتلاوه

---

(١) الزمر : ٩

(٢) يخرون للأذقان سُجَّداً : أى يسقطون على وجوههم ساجدين - والآيات من سورة الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩

القرآن والصوم و ... كما مَرَّ معنا فى الطريق إلى التقوى ، ولنحرص على ذلك فإنه الميزان الذى لا يخطئ فى نجاح المجاهدة ، وهذا العلم - علم الخشوع وحقيقته - أصبح الآن نادراً مفقوداً . فمَن حصَّله فقد حصَّل أعلى ما فى الإسلام .

روى الطبرانى فى « الكبير » عن أبى الدرداء عن رسول الله ﷺ : « إنَّ أول شئ يُرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا يُرى فيها خاشعاً » .

وأدنى درجات الخشوع : خشوع الجوارح ، وأعلاها : خشوع القلب ، ومن خشوع الجوارح فى الصلاة : عدم رفع البصر إلى السماء ، وعدم الالتفات ، وعدم الحركة إلا لضرورة ماسَّة .

للستة إلا الموطأ عن معيقيب : سئل النبى ﷺ عمَّن يُسوِّى التراب حيث يسجد قال : « إن كنتَ فاعلاً فواحدة » .

ولأبى داود والنسائى عن رسول الله ﷺ : « لا يزال الله تعالى مقبلاً على العبد وهو فى صلاته ما لم يلتفت ، فإذا التفت انصرف عنه » .

وللبخارى وأبى داود والنسائى عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « ما بالُ أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة » ؟ فاشتد قوله فى ذلك حتى قال : « لينتهن عن ذلك أو لتخطفنَّ أبصارهم » .

٢ - ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ .

مَرَّ معنا تعريف ابن جرير الطبرى للغو إذ يقول :

« واللغو فى كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل ، أو ما يُستقبح ، فسب الإنسانُ الإنسانَ بالباطل الذى لا حقيقة له من اللغو ، وذكر النكاح بصريح اسمه مما يُستقبح فى بعض الأماكن فهو من اللغو ، وكذلك تعظيم المشركين آلهتهم من الباطل الذى لا حقيقة لما عظَّموه على نحو ما عظَّموه ، وسماع الغناء مما هو مستقبح فى أهل الدين ، فكل ذلك يدخل فى معنى اللغو » (انتهى) .

وقد يكون جزء من اللغو مباحاً ، ولكن المجاهدة ارتفاع بالإنسان إلى ما فوق المباح ، ويدخل فى اللغو من عصرنا سماع الراديو ، ورؤية التليفزيون ، وقراءة الجرائد ، والمجلات ، وحضور المسارح والملاهى ، وحضور أكثر الحفلات ، وقراءة ما تنتجه الأقلام الكافرة فى الفلسفة والاجتماع والأخلاق والسلوك والأدب من قصص لشعر لحكايات ، ويدخل فى ذلك أكثر ما تنتجه دور النشر مما لا يُذكِّر بالله واليوم الآخر ودين الله وليس هو من العلم التجريبى الدنيوى إلا إذا اقتضى الأمر معرفة شئ من هذا كله للرد عليه أو مراقبته أو استخلاص ما يلزم منه .

٣ - ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ .

مَرَّ معنا مبحث الزكاة والقصد هنا أنَّ هؤلاء يؤدون زكاة أموالهم ويحاسبون أنفسهم على ما آتاهم الله من مال فيجعلون حقه فيما أمر الله .

٤ - ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ ﴾ .

والآيات واضحة أنَّ هؤلاء لا يزنون أبداً .

والسؤال الآن : ماذا أمام الإنسان الذى ثارت شهوته ؟ طبعاً ليس أمامه إلا الزواج أو استملاك أمة إن كان ، ورأينا فى فصل « السياسة الاقتصادية » فى الجزء الثالث من كتاب « الإسلام » كيف أنه يجب على أهل أمثال هذا تأمين زواجه إن كان لا يملك ، ومَرَّ معنا فى باب « الزكاة » من كتاب « الإسلام » كيف يؤمَّن بواسطة الزكاة لأمثال هذا زواجه ، ولكن نفرض أنه لم يؤمَّن له فهل هناك طريق آخر ؟ إن يكن هذا الطريق الزنا أو اللواط أو السحاق فهذا لا شك حرام .

وإذن ماذا يفعل إنسان ازداد شبقه ولم يجد زواجاً ؟ هل يلجأ إلى الاستمناء - أى ما يسمونه الآن : العادة السرية ؟؟

والجواب : يقول عليه السلام : « يا معشر الشباب ، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء » [(١)] .

إنَّ الشاب الذى يعتاد على الصوم وقِلّة الطعام ، وخاصة إذا رافق هذا تطبيق آداب الصيام ، من اشتغال بالطاعات ، كقراءة القرآن والذِكر ، فإنه لا يحس بهذه الرغبة إلى هذه الحاجات الجنسية ، وخاصة إذا عاش فى بيئة صالحة ، ومع إخوان صالحين ، فإنَّ الشيطان من الفرد قريب وهو من الاثنين أبعد .

ولكن نفرض أنه لم يستطع هذا ، أو بقى مع هذا على فورته الجنسية ، فهل يلجأ إلى الاستمناء ؟

إنَّ فقهاء المسلمين بالنسبة لهذا الموضوع مختلفون :

فبعضهم يُحرِّم الاستمناء مهما كانت الظروف .

وبعضهم - وهم الحنفية - قالوا : إذا كان هذا الإنسان قد وصل إلى حالة إما الزنا أو الاستمناء ، فلا شك أنه يُباح له فى هذه الحالة الاستمناء ، ولكن على نيَّة إذهاب الشهوة لا على نيَّة قضائها ، وبعضهم أجاز الاستمناء مطلقاً ، واعتبره كعملية إخراج المخاط والفضلات الأخرى ، ويذكر بعض هؤلاء أنَّ المسلمين الأوائل كانوا إذا طالت غُربتهم عن أهلهم أثناء الحرب لجأوا إلى أمثال هذا .

ويبدو أنَّ المسألة تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، والإنسان أدرى بنفسه ، وليحتط الإنسان لدينه ، وليحذر الإنسان من المرة الأولى فإنها البداية التى يصبح من العسير أن يكون لها علاج ، والأطباء مختلفون فى الأضرار التى تنشأ عن هذه العادة ، فمنهم مَن ضخَّم أضرارها ، ومنهم مَن أعدمه ، ولا شك أنه وضع غير عادى إذا استعمل للضرورة ، فلا ضرر ولا إثم . والله أعلم .

---

(١) رواه الخمسة عن عبد الله بن عمر .

٥ - ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ .

فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » ، وقد مَرَّ معنا ما له علاقة بالعهد . وفى الحديث الذى رواه الترمذى وأبو داود : « أدِّ الأمانة إلى مَن ائتمنك ولا تخن مَن خانك » .

والأمانة لها معنيان : معنى عام ، ومعنى خاص ..

أما الأمانة بمعناها العام فهى التى وردت فى الآية : ﴿ ... إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (١) ، فالأمانة هنا التكليف .. وعلى هذا لا يكون الإنسان أميناً إلا إذا قام بحق الله وحق رسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وعلى هذا المعنى مَن لم يُصَلِّ فهو خائن ، ومَن لم يُزَكِّ فهو خائن ، ومن لم يجاهد فهو خائن ، ومَن كشف أسرار المؤمنين فهو خائن ، ومَن زنى فهو خائن ، ومَن شرب الخمر فهو خائن .

وأما الأمانة بمعناها الخاص فتدخل فيها أحوال كثيرة تشير إليها هذه الآثار :

للشيخين وأبى داود والنسائى عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ : « إنَّ الخازن المسلم الأمين الذى يعطى ما أُمِرَ به فيعطيه كاملاً موفراً طيبة به نفسه فيدفعه إلى الذى أُمِرَ له به أحد المتصدِّقين » .

وللشيخين والترمذى عن حذيفة : حدَّثنا النبى ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ... حدثنا : « إنَّ الأمانة نزلت فى جَذْر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنَّة » ، ثم حدَّثنا عن رفع الأمانة فقال :

---

(١) الأحزاب : ٧٢ (٢) الأنفال : ٢٧

« ينام الرجل النومة فتنقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ، ثم ينام النومة فتنقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شئ - ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله - فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال : إنَّ فى بنى فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال : الرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من إيمان ، ولقد أتى علىَّ زمان وما أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً » .

وللترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « إذا اتُّخذَ الفئ دولاً ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً ، وتعلم العلم لغير الدين ، وأطاع الرجل امرأته وعقَّ أمه ، وأدنى صديقه وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات فى المسجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأُكْرِمَ الرجل مخافة شره ، وظهرت القيِّنات والمعازف وشُرِبت الخمور ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً ، وآيات تتابع كنظام تال انقطع سلكه فتتابع » .

« كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راعٍ وهو مسئول عن رعيته » (١) .

يقول ابن عمر : فسمعتُ هؤلاء من رسول الله ﷺ وأحسب النبى ﷺ قال : « والرجل فى مال أبيه راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته » (٢) .

---

(١) رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذى عن ابن عمر مرفوعاً .

(٢) رواه الشيخان والترمذى وأبو داود عن ابن عمر .

٦ - ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ .

روى الإمام أحمد والطبراني في « الكبير » عن حنظلة الكاتب عن رسول الله ﷺ : « مَن حافظ على الصلوات الخمس : ركوعهن وسجودهن ومواقيتهن ، وعلم أنهن حق من عند الله دخل الجنة » - أو قال : « وجبت له الجنة » - أو قال : « حُرِّم على النار » .

والحقيقة أنَّ المحافظة على الصلوات يستقيم بها أمر الإنسان كله ولا يتم هذا إلا بصلاة الجماعة في المسجد ، فمَن صلَّى الصلوات الخمس في المسجد استقامت صلواته ، واستقامت عبادته ، وانتظمت مجاهدته في الذكر والتلاوة والإقبال على الله .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

إنَّ نجاحنا في تحقيق هذه النواحي الست دليل على نجاح مجاهدتنا ، وما دامت واحدة منهن لم نصل إليها أو إلى الكمال فيها ، فذلك دليل على تقصيرنا . ويبدو أنَّ الإنسان عليه أن يبقى في عملية مجاهدة لنفسه حتى الموت .

إذ ما أكثر الشواغل والصوارف والغفلات ، وما أكثر ما نحتاج إلى استغفار دائم ، ونحن على حافة القبر أحوج منا إلى ذلك وأمثاله مما قبل ذلك ، والله المستعان .

* * *

الطريق الثالث

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ، وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ، إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ١٨٣ - ١٨٥

فالصيام طريق من طُرق التحقق بالتقوى ، وذلك لأنّ التقوى طريق الجنة ، والجنة محفوفة بالمكاره ، والشهوات طريق النار ، والصيام هو رمز السيطرة على الشهوة .

وفى الحديث الصحيح : « حُفّت النار بالشهوات وحُفّت الجنة بالمكاره » [1] ، وفى الحديث الصحيح الآخر : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف » ، قال الله تعالى فى الحديث القدسى : « ... إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى » [2] .

إنّ أصعب شهوات الإنسان شهوة البطن وشهوة الفرج ، فإذا ما سيطر الإنسان عليهما سهل عليه بعد أن يسيطر على شهوات نفسه كلها . والصوم هو أداة السيطرة على هاتين الشهوتين : « يدع شهوته وطعامه من أجلى » .

فالصوم مدرسة كفاح الشهوة ، ولذلك كان فى الميزان نصف الصبر ، يقول الرسول ﷺ فى الحديث الحسن : « الصوم نصف الصبر » ، والصبر فى ميزان الإسلام نصف الإيمان كما ورد فى الحديث الحسن : « الصبر نصف الإيمان » [3] ، ولقد كان الصوم نصف الصبر لأنه صبر عن أعظم الشهوات ، وكان الصبر نصف الإيمان لأنه لا يوجد مقام من مقامات الإيمان إلا وهو بحاجة إلى الصبر .

والهدف هو التقوى ، فمَن لم تظهر عليه ثمرة الصيام ، لم يحقق الحكمة منه . يقول عليه السلام : « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى صائم » [4] ، ويقول : « مَن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ، ولفظ البخارى : « حفت » فى الموضعين .

(٢) رواه الخمسة عن أبى هريرة .

(٣) رواه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود .

(٤) رواه البخارى واللفظ له ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

وأخرج النسائى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » (١) .

والصيام فريضة ونافلة ، أما فريضته العادية فرمضان - ورمضان وحده مدرسة كاملة لتخريج الأتقياء . إذ أن رسول الله ﷺ سَنَّ لنا فى رمضان سُنناً تعتبر من طُرق التقوى ، فمَن قام بها كلها أخذ من التقوى بذروتها ، سَنَّ لنا قراءة القرآن فيه ، وقراءة القرآن طريق من طُرق التقوى ، وسَنَّ الإنفاق فى سبيل الله ، والإنفاق طريق من طُرق التقوى ، وسَنَّ لنا فيه قيام الليل أو التراويح ، وهى طريق من طُرق التقوى ، وسَنَّ لنا الاعتكاف فى العشر الأواخر منه للتفرغ للعبادة بأنواعها ، وهذه من طُرق التقوى ، فمَن دخل مدرسة رمضان بحقها مقيماً آدابها تخرَّج منها حاملاً تقوى الله بقلبه مستقيماً بها سلوكه .

وأما نافلته فكصيام يومى الاثنين والخميس ، وثلاثة أيام من كل شهر ، وست من شوَّال ، ويوم عرفة وعاشوراء ، ويوم قبله .. وهذه آثار واردة فى الصوم فرضه ونفله :

١ - عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إنَّ فى الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم يقال لهم : أين الصائمون ؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد » (٢) .

٢ - وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يصوم يوماً فى سبيل الله إلا باعدَ الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً » (٣) .

---

(١) رواه البخارى والنسائى وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة .

(٢) متفق عليه .
(٣) متفق عليه .

٣ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « مَن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه » (١) .

٤ – وعنه رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء رمضان فُتِحَت أبواب الجنة وغُلِّقت أبواب النار وصُفِّدت الشياطين » (٢) .

٥ – وعن أبى هريرة رضى الله غنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرَّم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » (٣) .

٦ – عن عائشة رضى الله عنها قالت : « لم يكن النبى ﷺ يصوم من شهر أكثر من شعبان فإنه كان يصوم شعبان كله » – وفى رواية : « كان يصوم شهر شعبان إلا قليلاً » (٤) .

٧ – وعن مجيبة الباهلية عن أبيها عن عمها : أنه أتى رسول الله ﷺ ثم انطلق بعد سنة – وقد تغيرت حاله وهيئته – فقال : يا رسول الله ، أما تعرفنى ؟ قال : « من أنت » ؟ قال : أنا الباهلى الذى جئتك عام الأول . قال : « فما غيَّرك وقد كنتَ حسن الهيئة » ؟ قال : ما أكلتُ طعاماً منذ فارقتك إلا بليل . فقال صلى الله عليه وسلم : « عذَّبت نفسك » ! ثم قال : « صم شهر الصبر (٥) ويوماً من كل شهر » . قال : زدنى فإنّ بى قوة . قال : « صم يومين » قال زدنى . قال : « صم ثلاثة أيام » . قال زدنى : قال : « صم من الحرم واترك . صم من الحرم واترك . صم من الحرم واترك » ، وقال بأصابعه الثلاث فضمها ثم أرسلها » (٦) .

٨ – وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام » – يعنى أيام العشر .

---

(١) متفق عليه . (٢) متفق عليه . (٣) رواه مسلم .

(٤) متفق عليه . (٥) شهر الصبر : رمضان . (٦) رواه أبو داود .

قالوا : يا رسول اللّه ، ولا الجهاد فى سبيل اللّه ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل اللّه إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشئ » (١) .

٩ - وعن أبى قتادة رضى اللّه عنه قال : « سُئِلَ رسول اللّه ﷺ عن صوم يوم عرفة ؟ قال : « يُكَفِّر السنة الماضية والباقية » (٢) .

١٠ - وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : أنَّ رسول اللّه ﷺ صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه (٣) .

١١ - وعن أبى قتادة رضى اللّه عنه : أنَّ رسول اللّه ﷺ سُئِلَ عن صيام يوم عاشوراء فقال : « يُكَفِّر السنة الماضية » (٤) .

١٢ - وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لئن بقيتُ إلى قابل لأصومنَّ التاسع » (٥) .

١٣ - عن أبى أيوب رضى اللّه عنه : أنَّ رسول اللّه ﷺ قال : « مَن صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » (٦) .

١٤ - عن أبى قتادة رضى اللّه عنه : أنَّ رسول اللّه ﷺ سُئِلَ عن صوم يوم الاثنين فقال : « ذلك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت فيه - أو أُنزِل علىّ فيه » (٧) .

١٥ - وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن رسول اللّه ﷺ قال : « تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس فأحب أن يُعرض عملى وأنا صائم » (٨) .

١٦ - وعن عائشة رضى اللّه عنها قالت : « كان رسول اللّه ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس » (٩) .

---

(١) رواه البخارى . (٢) رواه مسلم . (٣) متفق عليه .
(٤) رواه مسلم . (٥) رواه مسلم . (٦) رواه مسلم .
(٧) رواه مسلم . (٨) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .
(٩) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

١٧ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بثلاث : صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام » (١) .

١٨ - وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : « أوصانى حبيبى صلى الله عليه وسلم بثلاث لن أدعهن ما عشت : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وصلاة الضحى ، وبأن لا أنام قبل أن أوتر » (٢) .

١٩ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « صوم ثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر كله » (٣) .

٢٠ - وعن معاذة العدوية أنها سألت عائشة رضى الله عنها : « أكان رسول الله ﷺ يصوم كل شهر ثلاثة أيام ؟ قالت : نعم . فقلت : من أى الشهر كان يصوم ؟ قالت : لم يكن يبالى من أى الشهر يصوم » (٤) .

٢١ - وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صمتَ من الشهر فصم ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة » (٥) .

٢٢ - وعن قتادة بن ملحان رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يأمرنا بصيام أيام البِيض : ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة » (٦) .

٢٣ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ لا يفطر أيام البِيض فى حضر ولا سفر » (٧) .

فمَن دخل مدرسة الصوم ولازمها كان من المتقين بإذن الله عَزَّ وجَلَّ .

* * *

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه مسلم . (٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم . (٥) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

(٦) رواه أبو داود . (٧) رواه النسائى بإسناد حسن .

الطريق الرابع

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

لا عبادة للَّه بلا معرفة له ، ولا عبادة إلا بما أمر .

فالنصارى اليوم ، واليهود والمجوس والمشركون ، كل يدعى أنه يعبد اللَّه ، ولكنهم عملياً فاتتهم معرفة اللَّه ، وفاتتهم عبادته بما أمر ، لذلك لم تفدهم عبادتهم للَّه شيئاً . وعلى هذا فلا يحقق الإنسان أمر العبادة إلا إذا عرف المعبود ، وعرف كيف يعبده ، ثم عبده ، فمَن حقق هذا كان من المتقين .

ومعرفة اللَّه لا تتحقق إلا بمعرفة ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى كما يدل عليها العقل ، ويثبتها النقل .

فما عرفَ اللَّه مَن لم يعرف وحدانيته . وحدانية الذات والصفات والأفعال ، فلا ذاتاً مثل ذاته ، وليست ذاته مؤلَّفة من أجزاء . ولا صفات مثل صفاته ، وكل صفة من صفاته واحدة ، ولا فاعل فى هذا الوجود غيره ابتداءً وانتهاءً ، إيجادا وإمدادا : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (٣) ، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ (٤) ، ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

وما عرفَ اللَّهَ مَن لم يعرف صمدانيته وغناه عن خلقه وافتقار خلقه إليه ، فلا العرش ولا الكرسى ولا السمٰوات ولا الأرض ولا الخلق أجمعون إلا واللَّه غنى عنهم ، وهم بحاجة إليه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولَا ، وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ (٧) .

---

(١) البقرة : ٢١ (٢) الزمر : ٦٢ (٣) الأنفال : ١٧
(٤) الرحمن : ٢٩ (٥) الصافات : ٩٦ (٦) العنكبوت : ٦
(٧) فاطر : ٤١

وما عرفَ اللّهَ مَن لم يعرف قدمه بلا بداية ، وبقاءه بلا نهاية ، ثم أثبت للخلق الحدوث ، وإمكانية الفناء ، ونفى عن اللّه الأبوة والبنوة ، وكيف تكون مع البقاء والقدم .

وما عرفَ اللّهَ مَن شبَّه اللّه بخلقه ، فلا ذاته تشبه الذوات ، ولا صفاته تشبه الصفات ، ولا أسماؤه تشبه الأسماء ، ولا أفعاله تشبه الأفعال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (١) ، فهو بصير وبصره ليس كمثله شئ ، وسميع وسمعه ليس كمثله شئ ، ومستو على عرشه واستواءه ليس كمثله شئ ، وينزل إلى السماء الدنيا ونزوله ليس كمثله شئ ، ويأتى يوم القيامة ومجيؤه ليس كمثله شئ ، وهو مع خلقه مَعيَّة ليس كمثلها شئ .

وهذا كله مقتضى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللّهُ أحَدٌ * اللّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أحَدٌ ﴾ (٢) .

وما عرفَ اللّهَ مَن لم يعرف له صفة العلم وأنه يعلم ما كان ، وما هو كائن ، وما لا يمكن أن يكون ، وما لم يرد كونه تفصيلاً وإجمالاً ، كليات وجزئيات ، وهذا الكون كله بفضائه وما فيه من حركات وسكنات ، وعالم الغيب بما فيه من موجودات كبيرة أو صغيرة ، كل هذا إنما هو بعض معلوماته جَلَّ جلاله . وهذا مقتضى قوله : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ (٣) ، ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ ، لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (٤) فعلم اللّه ليس قابلاً للخطأ ، ولا النسيان ، ولا السهو ولا الغفلة .

وما عرفَ اللّهَ مَن لم يعرف أنه فعَّال لما يريد ، وأن ما أراده كان ، وما لم يرده لم يكن ، وأنَّ كل شئ كان أو يكون فهو بإرادته ، لا يخرج عن هذه الإرادة شئ ، وأنَّ ما بالكون من خير وشر إنما هو بإرادته ، وكل شئ أراده فى حكمة : ﴿ إنَّمَا أمْرُهُ إذَا أرَادَ شَيْئاً أن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٥) .

---

(١) الشورى : ١١ (٢) سورة الإخلاص كاملة . (٣) الأنعام ٨٠ .
(٤) طه : ٥١ - ٥٢ (٥) يس : ٨٢

وما عرفَ اللّهَ مَن لم يعرف أنه على كل شئ قدير . فهذه السموات والأرض وما فيهما من حركة وسكون بدءاً واستمراراً إنما هو بقُدرته . حركاتنا وسكناتنا، وحوادث الوجود فى الحاضر والماضى والمستقبل كلها بفعله ، فهو خالق السبب والأسباب . والأحوال والآثار ، وهذا مقتضى قولنا : « لا حول ولا قوّة إلا بالله » .

وما عرفَ اللّهَ مَن لم يعرف أنه حى لا يموت ، ولا يطرأ عليه العدم . وهذا مقتضى قول الله عزّ وجَلّ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (١) .

وما عَرفَ اللّهَ مَن لم يعرف أنه سميع بصير ، يسمع كل شئ ، ويبصر كل شئ ، يسمع ذاته وصفاته ، ويسمع الموجودات كلها ، ويبصر ذاته وصفاته ، ويبصر الموجودات كلها ، وما يبصره يسمعه ، وبصره لا يغيب عنه شئ . وهذا مقتضى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢) .

وما عَرفَ اللّهَ مَن لم يعرف أنه متكلم ، وأنّ القرآن كلامه ، وكذلك التوراة والإنجيل والزبور ، وأنه يُكلّم مَن شاء من عباده فى الدنيا والآخرة ، وقد شاء أن يكلم موسى فى الدنيا : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (٣) ، ويكفر مَن يظن أنّ كلام الله يقتضى أن يكون له لسان وحنجرة .. تعالى الله عن أن يشبه خلقه فى شئ . فكلامه ليس كمثله شئ ، لكنه خاطبنا بما نفهم ونعقل من الأحرف والكلمات .

وما عَرفَ اللّهَ مَن لم يعرف أنّ ذاته وصفاته قديمة أزلية .

وما عَرفَ اللّهَ مَن لم يعرف أنّ الله يحب ويبغض ويكره ، ويمد وينتقم ويرحم ، ويعاقب ، مما وصف الله ذاته فى كتابه أو سُنّة رسوله ﷺ .. إلا أنّ هذه الصفات فى حق الله غيرها فى حق المخلوق ، فالحب عند المخلوق تفاعلات واضطرابات ، ولكن محبة الله ليس كمثلها شئ .

(١) البقرة : ٢٥٥ (٢) لقمان : ٢٨ (٣) النساء : ١٦٤

وما عَرفَ اللّهَ مَن لم يثبت له الأسماء الحسنى كما وردت فى الكتاب والسُنَّة ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّه الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِه ﴾ (١) .

فإذا عرفنا أنَّ كل شئ فى الكون هو فعل اللّه ، وعرفنا صفات اللّه ، وأثبتنا وجود اللّه ، نكون قد حققنا الشرط الأول للعبادة التى لا تتحقق العبادة بدونها .

وشرط العبادة الثانى : أن نعبد اللّه بما شرع كما أخبرنا عنه رسوله الصادق الأمين ﷺ ، وكل عمل نعمله نحقق فيه أمراً ، أو نجتنب نهياً ، أو نفعل مباحاً بنيَّة صالحة فذلك عبادة .

يقول عليه السلام - كما روى مسلم عن أبى ذر : « إنَّ ناساً من أصحاب النبى صلى اللّه عليه وسلم قالوا : يا رسول اللّه ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلُّون كما نُصلِّى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم . قال : « أوَ ليس قد جعل اللّه لكم ما تَصدَّقون به . إنَّ بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، وفى بُضْعِ أحدكم صدقة » ، قالوا : يا رسول اللّه ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها فى حرام كان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » .

غير أنَّ الأوامر والنواهى منها المفروض فرضاً ، ومنها المحرَّم تحريماً ، ومنها الواجب ، ومنها المكروه ، ومنها المندوب ، ومنها المباح .

وعملية العبادة تقتضى فقهاً أولاً ، لأنَّ غير الفقيه قد يرتكب الحرام وهو يظن أنه يفعل حسناً ، وقد يترك فرضاً من أجل نافلة ويظن نفسه أفضل خلق اللّه ، وغير الفقيه قد يقع فى المحرَّم من أجل تحقيق مندوب . كذلك الذى يجلس على مائدة الخمر بدعوى الدعوة إلى اللّه .

---

(١) الأعراف : ١٨٠.

أما الفقيه فإنه يضع الأمور في مواضعها . لذلك قال عليه السلام : « ما عُبِدَ اللّه بشئ أفضل من فقه في دين » [1] ، فهو يعرف أنَّ درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح . لقوله عليه السلام : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » [2] ، فيترك المحرمات الواضحات ، ويعرف حكم اللّه في المشتبهات ، ويتورع عما خفى عليه حكمه وقامت الشبهة فيه .

ثم مع ذلك يقيم الفرائض سواء أكانت فروض عين أو فروض كفاية إذا تعيَّن لفرض الكفاية ، أو غفل الناس عن شئ من ذلك .

ومع الفرائض يأتي بالواجبات ، ويأتي مع هذا وهذا بالمندوبات ، غير مضيِّع بسببها فريضة ، ولكنه يأتي بها وقد أقام الفرائض كلها ، وهو إذ يفعل هذا إنما يسير على طريق التقوى ، وطريق المحبة بآن واحد ، أما طريق التقوى فللآية التي صدَّرنا بها هذا البحث . وأما طريق المحبة فلقوله عليه السلام في الحديث القدسي : « مَن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشئ أحب إليَّ مما افترضتُه عليه ، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، ويده التي يبطش بها ، ورِجله التي يمشي عليها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه » [3] .

الصلاة عبادة ، والزكاة عبادة ، والصوم عبادة ، والحج عبادة ، والجهاد بأنواعه عبادة ، والأمر بالمعروف عبادة ، والنهي عن المنكر عبادة ، والكسب للإنفاق على النفس والعيال عبادة ، والزواج عبادة ، وتعليم الأولاد عبادة ، ورعاية الجار والأرحام عبادة ، ورعاية حقوق الوالدين عبادة ، والتخصص في علم ينفع المسلمين عبادة .

---

(١) رواه البيهقي في « الشُعَب » عن ابن عمر وقدح في سنده ورمز السيوطي لضعفه .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .	(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

وكل هذه منها ما هو الفرض ، ومنها ما هو النافلة ، والفريضة مقدَّمة دائماً ، سواء فيما ذكرناه ، أو لم نذكره ، ثم تأتى بعد ذلك النافلة ، والنوافل عدا ما ذُكِر كثير .

فقراءة القرآن نافلة ، وذِكر الله نافلة ، والدعاء نافلة ، و ...

ولعل أعلى نوافل العبادات بعد الفريضة : قراءة القرآن ، ثم الذِكر والدعاء . لأن رسول الله ﷺ يقول : « الدعاء مخ العبادة » (١) ، ويقول فى الذِكر : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم » ؟ قالوا : بلى ، قال : « ذِكر الله » (٢) .

ويقول فى الحديث القدسى عن القرآن : « مَن شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » (٣) ، وقد مَرَّ معنا ما فى هذه الثلاثة فيما مضى ، ونحيل على كتاب « الأذكار » لمن أراد استكمال الفضل فى هذه .

وهذه آثار تشير إلى نوافل أخرى نرجو من ذكرها بركة تطبيقها :

« إنَّ رجلا شكا إلى النبى ﷺ قسوة قلبه فقال : « امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » (٤) .

« بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخَّره فشكر الله له فغفر له » (٥) .

---

(١) رواه الترمذى عن أنس .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب « الدعوات » باب « خير الأعمال » عن أبى الدرداء ، وورواه أحمد بإسناد حسن ، وابن ماجه والبيهقى والحاكم وقال : صحيح .

(٣) قطعة من حديث رواه الترمذى والدارمى كلاهما فى كتاب « فضائل القرآن » عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

(٤) رواه أحمد . (٥) رواه مسلم .

« الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » - وأحسبه قال : « وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر » (١) .

« أربعون خصلة - أعلاها منيحة العنز - ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء نوال ثوابها ، وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة » . قال الراوى : «فعددنا ما دون منيحة العنز من رد السلام وتشميت العاطس وإماطة الأذى عن الطريق ونحوه ، فما استطعنا أن نصل إلى خمس عشرة خصلة » (٢) .

« على كل مسلم صدقة » ، قيل : أرأيتَ إن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » ، قال : أرأيتَ إن لم يستطع ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » ، قال : أرأيتَ إن لم يستطع ؟ قال : « يأمر بالمعروف - أو الخير » ، قال : أرأيتَ إن لم يفعل ؟ قال : « يمسك عن الشر فإنها صدقة » (٣) .

« لا تحقرن من المعروف شيئاً ، وإنَّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك » (٤) .

« كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » (٥) .

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) أبهم تلك الخصال لمعنى هو أنفع من ذكرها ، وذلك - والله أعلم - خشية أن يكون التعيين والترغيب فيها مزهداً فى غيرها من شُعب الخير ، وما أبهمه الرسول ﷺ لا يتعلق أمل الغير ببيانه ، والمنيحة : هى ذات الدر تعطيها غيرك يحتلبها ثم يردها عليك - والحديث رواه البخارى وأبو داود .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) رواه الشيخان والترمذى وهذا لفظه .

(٥) رواه أحمد والشيخان عن أبى هريرة بلفظ مقارب .

إنّ الذى يريد أن يسير إلى التقوى عليه أن يعرف الله ، ثم يُقبل عليه بعمل الفرائض والإكثار من النوافل . وليحاسِب نفسه حساباً متواصلاً ، فلعله مُفرِّط فى فريضة ظاهرة أو باطنة .

وأهم شئ يمكن أن يُلفت النظر إليه فى هذا الموضوع هو إحياء سُنَّة اعتكاف العشر الأواخر من رمضان فى المساجد ، فإنها أقرب طريق للتحقق بالتقوى . إذ يستطيع بذلك الإنسان أن يجمع كل طُرق التقوى ، مع قطع أى وارد سئ عن القلب بقطع أسبابه .

ومَن لم يتيسر له أن يعتكف العشر الأواخر ، فليعتكف غيرها فى أى أيام السنة فالرسول ﷺ كان إذا لم يعتكف فى رمضان اعتكف فى غيره .

إنّ المربين عليهم ألا يغفلوا عن هذا الموضوع لما يترتب عليه من صلاح وإصلاح ، خاصة إذا رافق الاعتكاف برنامج ملئ بالعلم والذِكر والعبادة والتفكر والتذكر .

والله حسبنا ونعم الوكيل .

ولننتقل بعد إلى الطريق الثامن من طُرق المحبة ..

٨ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ :

ورد هذا المعنى وراء أكثر من نص فى القرآن كلها تطالبنا بنوع من أنواع العدل ، وورد الأمر بالعدل والقِسط فى أكثر من نص نستعرضها جميعاً لنرى جوانب هذا القِسط الذى أُمرنا به ، والذى يحبنا الله من أجله .

(أ) قال الله تعالى فى معرض الحديث عن اليهود : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ (١) ، فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) السحت : هو المال الحرام .

(٢) المائدة : ٤٢

فهذه الآية أمرتنا بالعدل فى الحكم حتى مع اليهود على عدائهم ، وفساد أخلاقهم ، وسوء ما نعرفه عنهم ، ومع ذلك فلا نحكم بينهم إلا بالعدل ، حتى ولو كان الطرف الآخر مسلماً ، أو كان رئيس الدولة المسلمة ، كما حدث يوم حكم القاضى المسلم لليهودى على أمير المؤمنين علىّ ، وهذه ظاهرة فريدة فى التاريخ ، أن يكون العدل فوق القوة ، حتى ليحكم قاضى المسلمين لأهل سمرقند الكافرين على جيش المسلمين ، وينصاع الجيش ، ثم يرضى أهل المدينة بالواقع .

(ب) ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ، فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِئَ إِلَى أَمْرِ اللَّه ، فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (١) .

القتال بين المسلمين قد يقع بصور كثيرة : منها أن تختصم أسرتان أو قبيلتان ، ومنها أن يقع القتال بين بلدين أو قريتين ، ومنها أن يقع القتال بين قُطرين ، وفى كل حالة يقع فيها قتال يجب على بقية المسلمين أن يتدخلوا بالإصلاح . فإن رفض أحد الطرفين الصلح وقبول التحكيم ، وقف المسلمون كلهم فى الطرف المقابل ، فإن اتفقا على الصلح والتحكيم ، وجب أن يكون الحكم عادلاً ، والحاكمون عدولاً ، وأن يصدروا حكمهم غير مراعين فيه إلا صفة العدل ، وعلى الأطراف كلها القبول ، وعدم قبول طرف بالعدل يجعله باغياً يستأهل أن يُحارَب حتى يخضع للعدل والقسط . والمهم أننا إذا حكمنا فى مثل هذه الظروف أن تكون قلوبنا مع العدل لا مع الهوى .

(جـ) ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الحجرات : ٩ - ١٠ .
(٢) الممتحنة : ٨

بعض ما حملت عليه الآية ، أنها محكمة تتحدث عن كافرين نحن وإياهم على صلح لم ينقضوه ، أو بيننا وبينهم ذمة ما نقضوها ، أمثال هؤلاء أمرنا الله عزَّ وجَلَّ ببرهم ، والعدل إليهم ، ويدخل فى البر العطاء ، ويدخل فى العدل الوفاء لهم بما صالحناهم عليه ، فمن أعطى أمثال هؤلاء العدل ، أحبه الله عزَّ وجَلَّ .

(د) ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾ (١) فهذا أمر عام لنا إذا حكمنا ، سواء أكان التحكيم برضا المتخاصمين ، أو بتفويض من الدولة . والعدل هو حكم الله المعروف من كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ، إذ بدون ذلك لا يكون عدل : ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (٣) .

(هـ) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ، إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُواْ الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُواْ ، وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (٤) ، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُواْ ، اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (٥) .

روى الترمذى - وهذا لفظه - وأبو داود : عن أيمن بن خريم عن رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله تعالى » ، ثم قرأ النبى ﷺ : ﴿ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٦) .

ولمالك عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن : قدم رجل من العراق على عمر فقال : « والله جئتك لأمر ما له رأس ولا ذنب ، فقال عمر : وما ذاك ؟ قال : شهادة الزور ظهرت بأرضنا . قال : وقد كان ذلك ؟ قال : نعم . فقال عمر : والله لا يؤثر رجل فى الإسلام بغير العدول » .

---

(١) النساء : ٥٨ — (٢) النور : ٥٠ — (٣) الإسراء : ٩
(٤) النساء : ١٣٥ — (٥) المائدة : ٨ — (٦) الحج : ٣٠

ولمالك ومسلم وأبى داود والترمذى عن زيد بن خالد : « ألا أخبركم بخير الشهداء ؟ الذى يأتى بشهادة قبل أن يُسئلها » .

وفى صحيح البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ؟ - ثلاثاً - قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور . وشهادة الزور » . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

والآيتان اللتان صدَّرنا بهما هذه القطعة أشارتا إلى نقاط حساسة جداً :

١ - منها : من دواعى الهوى للانحراف عن الشهادة أن يكون المشهود عليه نفس الإنسان أو أقرباءه . والله عَزَّ وجَلَّ أمرنا أن نؤدى الشهادة على حقها ، ولو كان المشهود عليه النفس أو القريب.

٢ - ومنها : قد يكون المشهود عليه غنياً أو فقيراً . وفى حالة الغنى قد يحابيه الإنسان فيشهد زوراً ، وفى حالة الفقر قد يحابيه الإنسان رحمة به فيشهد له زوراً ، والله عَزَّ وجَلَّ أمرنا أن تكون فوق العاطفة فى كليهما فلا نشهد إلا حقاً .

٣ - اللَّىُّ بالشهادة بحرفها ، والإعراض عنها بعدم أدائها كل ذلك محرَّم .

٤ - من عوامل شهادة الزور بغض المشهود عليه ، ولذلك أمرنا الله عَزَّ وجَلَّ أنه مهما كان بغضنا لإنسان ألا نشهد عليه إلا بعدل .

٥ - كما أمرنا بالعدل بشكل مطلق فى الشهادة وغيرها على من نبغضه ، مهما كانت أسباب البغض ، لأن العدل أقرب إلى التقوى .

(و) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً ، فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ

أن يُملَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ ، فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُواْ ، وَلَا تَسْأَمُواْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَىٰ أَجَلِهِ ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُواْ ، إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

أراد الله عزّ وجلّ من المسلمين أن يقيموا معاملاتهم على أساس لا تفسد معه أخوتهم ، ولا يتنازعوا فيما بينهم ، وحيثما وُجدت مظنة فساد أو تنازع قطع الله دابرها ، ووجّه المسلمين إلى تركها ، ولما كانت قضايا المال مما يقع فيه التنازع ، فقد رتّب الله لنا أمرها ترتيباً يُخلّصنا من فسادها .

فهاتان الآيتان طلبتا منا استحبابا :

إذا تداينا أن نكتب الدَّيْن عند كاتب يعرف أحكام الله ، على أن يملى الوثيقة المدين إن كان مستطيعاً وإلا فنائبه ، وأن نُشهِد على ذلك شهوداً عدولاً ، رجلين أو رجلاً وامرأتين ، والحكمة فى جعل شهادة امرأتين برجل كون المرأة كثيرة النسيان فى الأمور العامة لأنها لا تهتم بها ، فمن أجل أن تُذكّرها الأخرى ، لأنّ صلة النساء بالنساء مشروعة وهى أوثق وأسهل على خلاف الرجال إن لم يكونوا محارم ، فقد يجدون صعوبة فى الوصول إلى المرأة لتذكيرها .

---

(١) البقرة : ٢٨٢ - ٢٨٣

كما أمرنا الله فى الآية أن نؤدى حق الشهادة ، وألا نسبب ضرراً للكاتب والشهيد بعدم ملاحظة وضعهما .... أثناء الطلب إليهما شهادة أو كتابة ، وقد وصف الله عَزَّ وجَلَّ هذا بأنه أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا ، فى الآية معان أخرى وإنما ذكرناها وأشرنا إلى بعض معانيها لكونها لها علاقة بالقسط الذى يحب الله أهله .

ونسأل الله أن يجعلنا من المقسطين .

٩ - « إن الله يحب العبد المحترف » [١] :

وللستة إلا أبا داود عن رسول الله ﷺ : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه » .

وكان عمر إذا أعجبه الرجل يسأل : هل له حِرفة ، فإذا قيل : لا ، سقط من عينه ، وهذا كله يشير إلى أنَّ جزءاً أساسياً من تربية المسلم أن يتعلم حرفة من الحِرف يكتسب بها ، وهذه قضية يجب أن يلاحظها الأب المسلم فى تربية أولاده ، فيعلمهم حِرفاً ، وتلاحقها الدولة المسلمة فى تربية أبناء المسلمين ، وتلاحقها الجماعات المسلمة فى الدول الكافرة ، فتفرض على كل مسلم أن يتابع اختصاصاً حتى نهايته ، ومع الاختصاص أن يتعلم صنعه حرة . كما تفرض على كل مسلم - ولو كان موظفاً فى الدولة - أن يتعلم حِرفة من الحِرف ، أو يشارك فيها حتى لا تكون الوظيفة أداة ضغط عليه ، تضطره للنفاق أو للممالأة أو لترك دينه .

كما ينبغى أن يتعاون المسلمون من أجل إيجاد حِرَف يتعلم بها أولاد المسلمين، كما ينبغى أن يتعاون المسلمون لتأمين المال اللازم لمن يريد أن يحترف من المسلمين ، والدولة الإسلامية حال وجودها تتبنى هذا كله فتنشؤه أو تساعده أو تنميه .

* * *

---

(١) رواه الطبرانى فى « الكبير » و « الأوسط » بضعف .

١٠ - وأخيراً :

لقد ذكرنا الآن تسع فقرات كل فقرة تشرح طريقاً للمحبة ، وهناك آيات أخرى ذكرت طُرقاً للمحبة كقوله تعالى فى وصف ذاته : ﴿ يُحبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) ، ﴿ يُحبُّ المُتَوكِّلِينَ ﴾ (٢) ، إلا أنها دخلت فى غيرها : صفة الصَبر دخلت فى صفاتَ المتقين ، وصفة التوكل دخلت فى أكثر من طريق .

ونحب هنا أن نشير إلى نقطة هى :

إنَّ هذه الطُرق متداخل بعضها ببعض ، حتى لو أراد الإنسان أن يدخلها فى واحدة لاستطاع . فمثلاً : صفة الصبر يدخل فيها الصبر عن الشهوات والشبهات ، والصبر على الطاعات ، والصبر على البلاء والابتلاء ، وهذه الثلاثة يمكن أن يدخل فيها كل ما مَرَّ . وصفة التوبة يدخل فيها ذكر الذنوب التى تكون إما أثراً عن مخالفة أمر .. أو ارتكاب نهى ، ويمكن أن يدخل فيها كل ما مَرَّ ، وصفة الإحسان والتقوى صفات جامعة يمكن أن تدخل فيها كل الصفات ، ولكن ذكرنا كل صفة على حدة لسهولة التطبيق العملى ، ولتوضيح الطريق ، ولنحاول أن نُحصِّل من كل طريق أعلاه ، فإن لم نستطع فعلى الأقل أن نُحصِّل حداً أدنى بحيث تنطبق علينا الصفة .

ومحبة اللّه ليس كمثلها شئ ، فليست كمحبتنا ، إنما هى محبة تليق بجلال اللّه وكماله وتنزيهه ، وقد حدَّثنا رسول اللّه ﷺ فى الحديث القدسى عن آثارها :

« فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجِله التى يمشى عليها ، ولئن سألنى لأعطينَّه ، وإن استعاذنى لأعيذنَّه » (٣) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٦ (٢) آل عمران : ١٥٩

(٣) قطعة من حديث قدسى رواه الشيخان عن أبى هريرة .

(ج) محبّة الإنسان للّه .. ويحبّونه

نكتفى فى هذه الفقرة بنقل أقوال بعض أهل السير إلى اللّه فى محبة اللّه والشوق إليه ، ننقلها بلفظها أو بمعناها - وكلٌ تحدّث ما أحس ، ولكلٌ تجربته ، والمسألة أكبر من العبارات ، ومَن سار على ما ذكرناه ذاق قلبه طعم المحبة . وإنما هذه عبارات يعرف الإنسان بها هل حصّل ما حصّله غيره من نتائج مجاهداته ، فأشرقت فى قلبه العواطف العليا التى لا يحسها إلا الصدّيقون ، وقد حجب اللّه عنها أكثر الخلق فهم عنها غافلون : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ (١) .

قالوا :

المحبة : هى الميل الدائم بالقلب الهائم .

المحبة : إيثار المحبوب على جميع المصحوب .

المحبة : موافقة الحبيب .

المحبة : مواطأة القلب لمرادات الرب .

المحبة : استكثار القليل منه ، واستقلال الكثير من نفسك .

الحب : معانقة الطاعة ومباينة المخالفة .

حقيقة المحبة : أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شئ .

المحبة : أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب .

---

(١) البقرة : ١٦٥

المحبة : إيثار المحبوب .

المحبة : سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب .

المحبة : ميلك إليه بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك فى حبه .

ولا بد هنا من الإشارة إلى ناحية هى : أنَّ محبة اللّه تقتضى منا أن نحب مَن أحبه اللّه ، ومَن أحبه اللّه أكثر نحبه أكثر ، ولا يكتمل الإيمان إلا بهذا . فاللّه عَزَّ وجَلَّ يحب رسوله محمداً ﷺ أكثر من كل خلقه ، فمقتضى محبتنا للّه أن نحب رسوله ﷺ أكثر من محبتنا لأى شئ آخر من المخلوقات . وفى ذلك يقول عليه السلام : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » (١) ، ولا نعرف محبة اللّه لإنسان إلا بنص أو دليل .

وهذه موازين دقيقة يجب أن تلاحظها قلوبنا :

فاللّه أحب إلينا من كل شئ : « واجعل حبك أحب إلينا من الماء البارد على الظمأ » (٢) .

ورسول اللّه ﷺ أحب إلينا من كل خلق اللّه . ورسل اللّه أحب إلينا من غيرهم . وأبو بكر أحب إلينا ممن سواه بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وعمر يأتى بعده ، وبعده عثمان ، وبعده علىّ .. وهكذا بنسبة محبة اللّه للإنسان نحبه إذا عرفنا ذلك ، ولا نعرفه إلا بنص .

والصحابة جميعاً نجلهم ونحترمهم لورود النصرص الكثيرة بفضلهم . وهل نحن إلا فى صحائفهم . فهم أفضل الأمة بعد رسولها ، ولا يلحقهم بالفضل

---

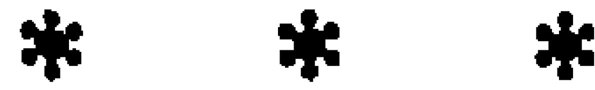
(١) رواه الشيخان عن أنس بن مالك .

(٢) رواه الترمذى من حديث أبى الدرداء بلفظ قريب وقال : حديث حسن غريب .

لاحق ... كيف ورسول الله ﷺ يقول : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُد أحدهم أو نصيفه » (١) .

والعشرة المبشّرون بالجنة منهم أحب إلينا من غيرهم لورود خصوصيتهم ، وأهل بدر منهم أحب إلينا من غيرهم ، ويأتى بعدهم أهل أُحد ، ويأتى بعدهم أهل بيعة الرضوان ، وجيل التابعين أحب إلينا من أى جيل آخر أتى بعدهم ، وجيل تابعى التابعين يأتى بعد التابعين فى المحبة و التقدير لورود النص فى ذلك .

ومسك الختام : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه ، وأحبونى لحب الله إياى ، وأحبوا آل بيتى لحبى » (٢) .



---

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) رواه الترمذى عن عبد الله بن عباس فى كتاب « مناقب أهل بيت النبى ﷺ » تحت رقم (٣٧٩٢) بلفظ : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه ، وأحبونى بحب الله ، وأحبوا أهل بيتى بحبى » أ هـ .

الفقرتان الثالثة والرابعة
فى الصفة الثالثة والرابعة
الذلة على المؤمنين والعزّة على الكافرين

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١) فسّرت هذه الآية آية أخرى هى قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) .

مما يدل على أنّ الذلّة على المؤمنين أثر من آثار الرحمة بهم ، والعزّة على الكافرين أثر من آثار الشدة عليهم ، ويؤكد أنّ الذلّة على المؤمنين أثر من آثار الرحمة بهم . قوله تعالى بالنسبة للوالدين : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (٣) .

فإذا جعل الله الذلّة على الوالدين أثراً من آثار الرحمة ، فكذلك بالنسبة للمؤمنين عامة فيما بينهم ، رحمتهم على بعضهم توجب ذلّتهم بعضهم لبعض ، وعلى هذا سنذكر فى هذا القسم فقرتين :

الفقرة الأولى : الذلّة على المؤمنين ومظاهرها .

الفقرة الثانى : العزّة على الكافرين ومظاهرها .

ونبدأ بالفقرة الأولى :

الفقرة الأولى : الذلة على المؤمنين ومظاهرها

قلنا إنّ الذلّة على المؤمنين من آثار الرحمة بهم ، وأعلى ما تمثلت به هذه الرحمة سلوك رسول الله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

---

(١) المائدة : ٥٤ — (٢) الفتح : ٢٩

(٣) الإسراء : ٢٤ — (٤) التوبة : ١٢٨

وهذا الرسول هو الأرحم ، لأنّ رسول الله ﷺ ما أمرَ أمراً إلا حقق غايته ، والله عزّ وجلّ قد أمر رسوله بقوله : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

والأمر بخفض الجناح أمر بالرحمة كما رأينا ، وقد شهد الله لرسوله ﷺ فقال : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ، والآن سنبدأ باستعراض مظاهر هذه الرحمة بالمؤمنين فى أوامر القرآن وفى توجيهات الرسول ﷺ القولية والعملية .

(أ) من مظاهر الرحمة بالمؤمنين ما أشار إليه الله جَلّ جلاله فى صفة رسوله : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ (٤) .

فالعفو عن المؤمنين والاستغفار لهم ، واستشارتهم ، كلها أخلاق أمرَ بها رسول الله ﷺ فى علاقته مع المؤمنين ، وهى تفسر الأمر بخفض الجناح لهم والله أعلم ، وقد مرّ معنا فى مبحث « الرسول » فى الفصل الأول منه أمثلة عملية من حياة الرسول ﷺ تبيّن لنا كيف كان فى الذروة العليا من تطبيقه لهذا الأمر .

(ب) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين التواضع لهم :

قال عليه السلام : « تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد » (٥) .

---

(١) الحجر : ٨٨ — (٢) الشعراء : ٢١٥ - ٢١٦

(٣) الأحزاب : ٦ — (٤) آل عمران : ١٥٩

(٥) رواه مسلم فى كتاب « الجنة » باب « الصفات التى يُعرف بها فى الدنيا أهل النار وأهل الجنة » ، وابن ماجه فى كتاب « الزهد » باب « البراءة من الكبر والتواضع » ، وأبو داود فى كتاب « الأدب » باب « فى التواضع » ، ثلاثتهم بأسانيدهم إلى عياض بن حمار رضى الله عنه .

فمَن افتخر على أحد من المؤمنين بنسب أو جاه أو مال أو ولد فقد صفة التواضع ، ومَن بغى على أحد من المؤمنين فى عرض أو مال أو نفس فقد صفة التواضع ، وبالتالى لا يكون متحققاً بمظهر من مظاهر الرحمة .

(جـ) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين إزالة ما يؤذيهم :

قال أبو برزة : قلت : يا نبى الله ، علّمنى شيئاً ينفعنى قال : « اعزل الأذى عن طريق المسلمين » (١) .

وقال عليه السلام : « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخّره فشكر الله تعالى له فغفر له » (٢) .

(د) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين أن نلقاهم بوجه طلق ، وأن نكلمهم بالكلام الطيب .

يقول عليه السلام : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » (٣) .

ويقول عليه السلام : « تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة » (٤) ،

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى برزة .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب « أبواب صلاة الجماعة » باب « فضل التهجير إلى الظهر » ، ورواه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب « الأدب » باب « فضل إزالة الأذى عن الطريق » ، ورواه الترمذى أيضاً عن أبى هريرة فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى إماطة الأذى عن الطريق » مع اختلاف بسيط .

(٣) رواه مسلم واللفظ له عن أبى ذر رضى الله عنه فى كتاب « البر والصلة والأدب » باب « استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء » ، والترمذى عن جابر بن عبد الله فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى طلاقة الوجه وحسن البشر » ، مع اختلافات فى اللفظ ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) قطعة من حديث رواه الترمذى عن أبى ذر رضى الله عنه فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى صنائع المعروف » ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، ورواه الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه عن أبى الدرداء .

« اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجد فبكلمة طيبة » [1] .

أما اللعن والسب والشتم ورفع الصوت على المؤمنين والمجادلة ، فكل ذلك ليس من أخلاقهم : ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذئ » [2] .

« لا تُمارِ أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه » [3] .

(هـ) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين : إنظار معسرهم ، وتفريج كربتهم ، وإجابة ملهوفهم .

يقول عليه السلام : « على كل مسلم صدقة » ، قيل : أرأيتَ إن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدقَ » . قال : أرأيتَ إن لم يستطع ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف » [4] .

---

(١) رواه البخارى واللفظ له عن عدى بن حاتم فى كتاب « الأدب » باب « أطيب الكلام » ، ورواه مسلم وأحمد فى مسنده .

(٢) رواه الترمذى واللفظ عن عبد الله بن مسعود فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى اللعنة » ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، ورواه البخارى فى « الأدب المفرد » باب « ليس المؤمن بالطعان » تحت رقم (٣١٢) ، ورواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه فى « الإيمان » ، وقال الدارقطنى : مرفوعاً وموقوفاً ، والوقف أصح .

(٣) رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء فى المراء » تحت رقم (١٩٩٦) ، قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، قال الحافظ العراقى : يعنى من حديث ليث بن أبى سليم ، وضعَّفه الجمهور قال الذهبى:فيه ضعف من جهة حفظه ، ورمز السيوطى لضعفه . أقول : ليث بن أبى سليم هذا قال أحمد : مضطرب الحديث ولكن حدَّث عنه الناس ، وقال ابن معين والنسائى : ضعيف ، وقال ابن حبان : اختلط فى آخر عمره ، وقال ابن معين أيضاً : لا بأس به . مات سنة ثمان وأربعون وهو من الطبقة السادسة » . أ . هـ . (المغنى . فى « الضعفاء » للذهبى بتحقيق الدكتور نور الدين عنتر ، تحت رقم ٥١٢٦) .

(٤) رواه أحمد والشيخان والنسائى عن أبى موسى الأشعرى بلفظ متقارب .

« مَن نفَّس عن مؤمن كُربة من كُرب الدنيا نَفَّس الله عنه كُربة من كُربِ يوم القيامة ، ومَن يسَّر على مُعسر يسَّرَ الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومَن سترَ مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » (١) .

« مَن كان معه فضل ظهر فليعد به على مَن لا ظهر له ، ومَن كان له فضل زاد فليعد به على مَن لا زاد له » ، فذكر أصنافاً من المال حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل .

(و) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين الرفق بهم :

يقول عليه السلام : « إنَّ الرفق ما كان فى شئ إلا زانه ، ولا نُزِعَ من شئ إلا شانه » (٢) .

« مَن يُحرم الرفق يُحرم الخير كله » (٣) .

« كان رسول الله ﷺ يتخلف فى السير فيزجى الضعيف ويردف ويدعو لهم » (٤) .

وقال عليه السلام : « إذا صلَّى أحدكم للناس فليخفف ، فإنَّ فيهم الضعيف والسقيم والمريض وذا الحاجة ، وإذا صلَّى لنفسه فليُطل ما شاء » (٥) .

وقال : « إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبى فأتجوَّز فى صلاتى لما أعلم من وَجْدِ أمه من بكائه » (٦) .

(ز) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين أن يحب لهم ما يحبه لنفسه من الخير :
« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٧) .

---

(١) قطعة من حديث رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة .
(٢) رواه مسلم . (٣) رواه مسلم .
(٤) رواه أبو داود . (٥) رواه الستة .
(٦) رواه أحمد والشيخان وابن ماجه عن أنس .
(٧) رواه أحمد والشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه . ورواية مسلم : « حتى يحب لأخيه ... » أو قال : « جاره » .

« لا يَؤُمُّ الرجلُ قوماً فيخص نفسه بالدعاء دونهم فإن فعل فقد خانهم » (١) .

(ح) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين ما أشير إليه بالأحاديث التالية :

« مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » (٢) .

« مَن أدخل السرور على أهل بيت منّ المسلمين لم ير الله له جزاءً دون الجنة » (٣) .

« لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعِرضه » (٤) .

« المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله » (٥) .

(ط) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين القيام بحقوقهم :

يقول عليه السلام : « حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسَلِّم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشَمِّته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » (٦) .

---

(١) قطعة من حديث رواه الترمذى عن ثوبان رضى الله عنه فى كتاب « الصلاة » باب « ما جاء فى كراهية أن يخص الإمام نفسه بالدعاء » بلفظ : « ... ولا يؤم قوماً فيخص نفسه بدعوة دونهم ، فإن فعل فقد خانهم ... » الحديث ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن ، ورواه الإمام أحمد وأبو داود فى كتاب « الطهارة » ، وابن ماجه قسماً منه فى كتاب « الإقامة » .

(٢) قطعة من حديث رواه أحمد والشيخان والترمذى عن أبى شريح عن أبى هريرة .

(٣) رواه الطبرانى عن عائشة رضى الله عنها بلفظ : « مَن أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرض الله له ثواباً دون الجنة » .

(٤) رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

(٥) رواه أبو داود فى كتاب « الأدب » من طريق سالم بن عمر عن أبيه بلفظ قريب .

(٦) رواه البخارى فى « الأدب » ، ومسلم فى « الصحيح » عن أبى هريرة .

« المستشار مؤتمن » (١) ، « مَن أشار على أخيه بأمر يعلم أنّ الرُشد فى غيره فقد خانه » (٢) . « الدين النصحية » ، قلنا : يا رسول الله ، لمن ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم » (٣) .

« والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » (٤) .

(ى) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين عدم ترويعهم وعدم الإضرار بهم أو المكر :

قال عليه السلام : « لا يأخذنّ أحدكم عصا أخيه لاعباً ولا جاداً ، فمن أخذ عصا أخيه فليردها إليه » (٥) .

حدثنا أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ فنام رجل منهم ، فانطلق بعضهم إلى حبل كان معه فأخذه ففزع . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يُرَوِّع مسلماً » (٦) .

« مَن أشار على أخيه بحديدة لعنته الملائكة حتى ينتهى » (٧) .

---

(١) رواه الطبرانى فى « الكبير » و « الأوسط » عن سمرة بن جندب ورمز السيوطى لصحته .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن تميم الدارى ، والترمذى والنسائى عن أبى هريرة .

(٤) رواه الترمذى واللفظ عن أبى هريرة فى كتاب « الاستئذان والآداب » باب « ما جاء فى إفشاء السلام » ، قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه مسلم فى كتاب « الإيمان » باب « بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمن » بلفظ : « لا تدخلوا الجنة ... » ، ورواه ابن ماجه فى كتاب « باب إفشاء السلام » ، وأبو داود فى « الأدب » ، والطبرانى عن ابن مسعود .

(٥) رواه أبو داود واللفظ له فى باب « مَن يأخذ الشئ على المزاح » ، ورواه الترمذى فى كتاب « الفتن » باب « ما جاء لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً » مع اختلاف فى اللفظ يسير .

(٦) رواه أحمد فى مسنده ، وأبو داود فى كتاب « الأدب » من حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى عن رجال من الصحابة ، قال الزين العراقى : حديث حسن .

(٧) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .

ومن أدب المسلم إذا قدّم سلاحاً لأخيه أن يُقدّمه إليه معكوساً : النصل بيد المعطى .

« إذا مَرَّ أحدكم فى مسجدنا أو سوقنا ومعه نبل فليمسك على نصالها بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشئ » - أو قال - : « ليقبض على نصالها » [1] .

« ملعون مَن ضار مؤمناً أو مكر به » [2] .

« مَن ضار مؤمناً ضار الله تعالى به ، ومَن شاق مؤمناً شاق الله تعالى عليه » [3] .

(ك) ومن الرحمة بالمؤمن عدم الشماتة به وعدم هجرانه :

« لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك » [4] .

« لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيُعرض هذا ويُعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » [5] .

(ل) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين الاهتمام بشأنهم والإحساس بما يصيبهم :

« مَن أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » [6] .

---

(١) رواه مسلم عن أبى موسى الأشعرى من كتاب « البر والصلة والأدب » باب « أمر مَن مَرَّ بسلاح فى مسجد أو سوق » .... وروى هذا الحديث غير واحد .

(٢) رواه الترمذى عن أبى هريرة عن أبى بكر الصديق .

(٣) رواه الترمذى .

(٤) رواه الترمذى عن واثلة وقال : حسن غريب .

(٥) قطعة من حديث رواه الشيخان وأحمد وأبو داود والترمذى عن أنس .

(٦) رواه البيهقى فى « الشُعب » عن أنس مرفوعاً ، وهو عند الطبرانى وأبى نعيم فى «الحلية» بلفظ : « مَن أصبح لا يهتم للمسلمين فليس منهم » .

« مَثَلُ المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (١) .

(م) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين إذا كانوا فى دار الحرب أن نحارب مَن يضطهدهم ، وأن ننصرهم إذا استنصرونا إلا على قوم بيننا وبينهم ميثاق :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً * الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ (٢) .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُمْ مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ، وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ (٣) .

(ن) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين نصرتهم والقتال دونهم ، كأن هاجم الكافرون بلاداً إسلامية فعلى أهلها ومَن جاورهم أن يحاربوا حتى يستنقذوهم ، وإذا كان لا يكفى لاستنقاذها إلا أن يقاتل المسلمون جميعاً ، فعلى المسلمين جميعاً أن يقاتلوا .

(س) ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين تخليصهم من الظالمين والكافرين إذا تسلّطوا عليهم بشكل من الأشكال ، سواء أكان ذلك فى بلد ، أو قُطر ، أو بشكل

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير ، وهو عند البخارى بلفظ قريب .

(٢) النساء : ٧٥ - ٧٦ (٣) الأنفال : ٧٢

عام : « المسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَن سواهم » (١) ، ومساعدتهم بكل الوسائل الجائزة والممكنة .

هذه فقرات عامة ومختصرة ، اقتصرنا فيها فى الغالب على ذكر النصوص . يتبين لنا كيف نتحقق بصفة الذلّة على المؤمنين ، والواقع أنَّ كل آية أو حديث أو حكم فقهى له علاقة بعلاقة المؤمنين بعضهم ببعض يدخل تحت هذا الأصل ، غير أنَّ هذا يقتضى دراسة شاملة موسَّعة للكتاب والسُنَّة ، وأقوال العلماء لسنا الآن بسبيلها ، وإنما نحن الآن بسبيل عرض أمهات المسائل لنتحقق بأمهات الأخلاق ، وإذا كان ما قدَّمناه هنا هدفنا فيه أن نتحقق بالذلّة على المؤمنين ، فإننا نحب أن نختمه بكلمة هى :

إنَّ أعلى ما تتمثل به الذلّة على المؤمنين خدمتهم ، فمَن صار إلى حالة طاوعته بها نفسه على خدمة المسلمين كباراً وصغاراً ، ونساءً ورجالاً ، عجزة وشيوخاً . أرامل وفقراء ، أى نوع من الخدمة ، فقد وصل إلى الذروة فى هذه الصفة ، حتى قال أهل السلوك إلى الله : إنَّ خدمة المؤمنين أقرب طريق إلى الله .

وقد خدم رسول الله ﷺ ، وما كان كبار الصحابة يستنكفون عن خدمة العجزة والشيوخ والأرامل بل كانوا يتسابقون إلى ذلك ، ويخدمون بعضهم بعضاً ، ولا يحسون بأدنى حَرَج .

---

(١) رواه الديلمى بلا سند عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا محدوداً فى قرية » ، وهو عند ابن أبى شيبة فى مصنفه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن ابن عمرو به ، روى موقوفاً من كلام سيدنا عمر رضى الله عنه فى رسالة بعثها إلى أبى موسى حين تولى له القضاء . وقد ذكر ابن إسحاق أنَّ النبى ﷺ لم تمض له مدة قليلة فى المدينة حتى اجتمع له إسلام عامة أهل المدينة من العرب ، فكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وقد ذكر ابن إسحاق هذا الكتاب بدون إسناد ، وذكره ابن خيثمة فأسنده ، وأخرجه أحمد فى مسنده مسنداً جاء فيه : « ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، والمؤمنون بعضهم موالى بعض دون الناس » أ هـ .

وليمرن الإنسان نفسه على خدمة المسلمين مهما كانوا ، فإنَّ ذلك يُطَهِّر نفسه من كل قسوة . ولا ننسى أنَّ إطعام الطعام للمسكين والمسح على رأس اليتيم ، يجعلان فى القلب رحمة بإذن الله .

وشئ أخير نشير إليه فى هذه الفقرة هو أنَّ بعض المؤمنين لا يعطون رحمتهم وذلتهم لكل المؤمنين . فمثلا تجد أحياناً مريدى شيخ يتراحمون فيما بينهم وهم غلاظ على غيرهم من المؤمنين ، وأتباع جمعية ما يتراحمون فيما بينهم ، وهم شداد على غيرهم ، وهذا من فساد التربية : ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (١) ، إنَّ المؤمن رحيم بكل المؤمنين ، ذليل على كل المؤمنين ، ولو لم يشاركوه فى بعض ما هو عليه .

* * *

الفقرة الثانية : العزة على الكافرين ومظاهرها

إنَّ العالم فى النظام الإسلام ينقسم إلى قسمين : دار حرب ، ودار إسلام ، ولنا من الكافرين فى دار الحرب موقف ، ومن الكافرين فى دار الإسلام موقف ، وكلا الموقفين تعبير عن شدتنا وعزتنا على الكافرين . وها نحن نستعرض مظاهر شدتنا وعزتنا على الكافرين فى دار الحرب ، ثم فى دار الإسلام ..

(أ) مظاهر شدتنا على الكافرين فى دار الحرب :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (٣) .

---

(١) الحشر : ١٤ (٢) التوبة : ١٢٣ (٣) محمد : ٤

وقال : ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١) .

فالعلاقة ما بيننا وبين الكافرين ، الأصل فيها الحرب حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية وهم صاغرون ، وأخطأ مَن تصوَّر أنَّ الأصل فى علاقتنا مع دار الحرب السلام ، والله يقول : ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ (٢) .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٣)، فالسلم هنا إما الإسلام أو الخضوع بالجزية ، أو السلم المؤقت بمعاهدة .

إنَّ الله عزَّ وجلَّ قال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (٤) .

هذا هو الأصل ، وما عدا ذلك فأحوال اضطرارية من معاهدات جانبية أو تعايش سلمى مؤقت .. ونفعله إما لمصلحة ، أو حتى لا ندخل حروباً متعددة ، أو لأننا ضعفاء ...

(ب) مظاهر عزَّتنا على الكافرين فى دار الإسلام :

إذا ما رضخ الكافرن للجزية جاز لنا أن نعقد لهم عقد ذمَّة ، والفقهاء مختلفون حول مَن يجوز أن نعقد له عقد الذمة ، ومَن لا يجوز ، والإمام يرى ما فيه المصلحة . فإذا ما عقدنا لكافر عقد الذمَّة شرطنا عليه شروطاً تضمن عزَّتنا ، وأعطيناه فى مقابل ذلك العدل الكامل . يقول فقهاء الحنابلة : « وعلى الإمام حفظ أهل الذمَّة ومنع مَن يقصدهم بأذى من المسلمين والكفار ، واستنقاذ مَن أُسِرَ منهم بعد استنقاذ أسارى المسلمين واسترجاع ما أُخِذَ منهم لأنهم بذلوا الجزية لحفظهم وحفظ أموالهم ، وإن أخذ منهم أهل الحرب مالاً ثم قدر عليه

---

(١) التوبة : ٢٩ — (٢) محمد : ٣٥

(٣) الأنفال : ٦١ — (٤) الأنفال : ٣٩

المسلمون رُدَّ إليهم إذا عُلِمَ به قبل القسمة كمال المسلم ، وحكم أموالهم فى الضمان حكم أموال المسلمين » .

ويقول فقهاء الحنفية : « مسلم أراق خمر ذمى أو قتل خنزيره وجب عليه الضمان ، أما إذا كان الخمر والخنزير ملك مسلم فلا ضمان عليه » .

أما شروطنا عليهم فتزداد أو تنقص تبعاً لرأى الإمام ، وكل هذه الشروط تكون لتأمين خضوعهم للمسلمين ، واعترافهم بسلطتهم عليهم ، وذِلَّتهم للمسلمين . غير أنَّ هناك مظاهر من العِزَّة على الكافرين أساسية لا يجوز الإخلال بها فى وضع إسلامى سليم :

(أ) فمن مظاهر هذه العِزَّة الأساسية دفعهم الجزية ، وهى أول وأعظم مظهر من مظاهر اعترافهم بالخضوع لسلطان الله على بساطتها ، والجزية عبارة عن ضريبة سنوية يؤديها كل كافر فى أرضنا ما لم يكن صغيراً أو امرأة أو راهباً معتزلاً الناس أو ... ممن استثناهم الفقهاء ، ومقدارها بسيط جداً يُعرف فى محله ، وتختلف باختلاف الغنى والفقر ، ولا تُقبل من الكافر إلا أن يدفعها بيده دون جلوس من قِبَله أو قيام من المسلم .

(ب) ومن مظاهر هذه العِزَّة الأساسية التزام أحكامنا ، وفى ذلك تفصيل ..

يقول فقهاء الحنابلة : « وعلى الإمام أخذهم بحكم الإسلام فى نفس ومال وعِرض ، وإقامة حد فيما يحرِّمونه كزنا وسرقة ، لا فيما يحلونه كخمر وأكل خنزير ونكاح ذات محرم ، وعقد فاسق ، وإن شاءوا فى القضايا التى تخصهم الاحتكام إلى بعضهم فلا حَرَج ، وإن احتكموا إلينا فلنا الحكم بشرعنا أو ترك الحكم » .

وهذا الكلام فى كافرين يعيشون فى أرض الإسلام قد عقدنا معهم عقد الذِمَّة ، فذلك مظهر عِزَّتنا وشدتنا عليهم ، ولكن يمكن أن يكون فى دار الإسلام كافرون غير ذميين ، كمرتدين عن الإسلام ، أو زنادقة ، أو مبتدعة كفروا ببدعتهم ، فما مظهر عِزَّتنا على هؤلاء وشدتنا عليهم ؟

الكافر فى أرض الإسلام ما لم يكن ذِمّياً فهو حربى أو مرتد ، والحربى إما مستأمناً أو لا ، فإن كان مستأمناً جرت عليه أحكام الاستئمان ، وإن كان حربياً فهو مباح الدم والمال ، وتجوز فيه أشياء أخرى تُعرف فى محلها من كتب الفقه .

أما المرتد .. فهو الراجع عن دين الإسلام بإجراء كلمة الكفر على لسانه بعد الإيمان ، وإنما ذكرنا الكلام ولم نذكر غيره - مع أنَّ الإنسان قد يرتد بأشياء أخرى - ذكرنا بعضها فى نواقض الشهادتين من كتاب « الإسلام » - لأنَّ كلام الإنسان هو السبيل الوحيد لمعرفته .

والحكم بالرِدَّة حكم خطير ، لذلك نجد الفقهاء يحتاطون فيه ، والمسألة فى أبسط صورها هكذا : هناك مسائل حكم العلماء بالإجماع على صاحبها بالرِدَّة، وهناك مسائل اختلفوا فى الحكم على صاحبها بالكفر . فما أُجمع عليه أنه رِدَّة يُقتل صاحبه بلا تردد إذا أصرَّ عليه ، وما لم يكن كذلك فالأمر متروك إلى الإمام ، إن شاء قتل ، وإن شاء عزَّر بغير القتل ، وها نحن ننقل بعض الأحكام فى هذه الشئون ، واخترنا أن ننقلها من مذهب الحنفية .

المرتدون فى رأى الحنفية أنواع ، ولكل نوع حكم :

(أ) النوع الأول : نوع وُجِدت عنده شُبهة مكفِّرة اعتقدها وآمن بها ، فمثل هذا يُحبس ثلاثة أيام ويناقَش خلالها من أهل العلم حتى تقوم عليه الحُجَّة ، فإن رجع عنها وتاب عُفِيَ عنه ، وإلا قُتِل . وهذا العرض والنقاش مستحَب استحباباً، حتى لو قُتِلَ بدونه فلا حَرَج ولا إثم ، ولكن لنفرض أنه تاب ثم بعد العفو عاد إلى ما قال . فكذلك يُسجن ويناقَش فإن تاب وإلا قُتِل ، ولكنه فى هذه المرة يُعزَّر ، فإن عاد ثالثة فقد قيل : بأنه فى الثالثة يُقتل بلا تردد ، وقيل : إن تاب لا يُقتل ، ولكن يُحبس حتى تظهر عليه آثار الصدق فى التوبة ، وهذا التفصيل فى كل مرتد تُقبل توبته .

(ب) النوع الثانى : نوع ارتد بسب رسول الله ﷺ أو ما يشبه ذلك كالاستهزاء ، فهذا ارتد وجمع مع الرِدَّة حق رسول الله ﷺ ، فهذا يُقتل بلا استتابة على القول الراجح ، واعتبر بعضهم ساب أبى بكر وعمر من هذا الباب ، والفرق واضح ، ولكن لا شك أنَّ للإمام أن يقتل ساب الشيخين ولا حَرَج.

(جـ) النوع الثالث : نوع ارتد ودعا إلى رِدَّته ، فهذا يُقتل هو وأتباعه إذا انتشر ما دعا إليه ، حتى يُستأصلوا ، هذا إذا كانت المسألة من نوع الرِدَّة ، أما إذا كانت بدعة لا توصل صاحبها إلى الكفر ، فإنَّ الرأس فيهم يُقتل ، أما الأتباع فلا يُقتلون ، ولكن يَعامَلون بحكمة .

(د) النوع الرابع : نوع إن تاب قبل أن نعرفه ونقبض عليه يمكن أن تُقبل توبته ، ولكن إن قُبِضَ عليه وهو على ما هو عليه أو لم نعرف له توبة سابقة ، فهذا يُقتل بلا تردد .. وقد عَدَّ الحنفية عشر حالات تنطبق عليها القاعدة الأخيرة ، منها الرِدَّة ، ومنها ذنب لا يجوز للإمام معه إلا القتل .

أصحاب هذه الحالات هم :

١ - الزنديق . ٢ - الكاهن . ٣ - الملحد . ٤ - الإباحى . ٥ - المنافق .
٦ - منكر بعض الضرورات باطناً . ٧ - قُطَّاع الطريق . ٨ - أهل الأهواء .
٩ - الساحر . ١٠ - الكافر بسب نبى وقد مَرَّ .

والزنديق هو الذى لا يتدين بدين ، والكاهن مَن يتعاطى الخبر عن الكائنات فى المستقبل ، ويدَّعى معرفة الأسرار ، وقال الخطابى : هو الذى يتعاطى معرفة مكان المسروق والضالة ، والملحد هو مَن مال عن الشرع القويم إلى جهة من جهات الكفر ، والإباحى هو الذى يعتقد إباحة المحرَّمات ، والمنافق هو الذى يُبطن عدم الاعتراف بنبوة سيدنا محمد ﷺ وينكر بعض الضرورات باطناً ، أى الذى يستحل شيئاً محرَّماً كالخمر ويتظاهر بتحريمه ، وأهل الأهواء - يعنى الباطنية - أهل البدع المكفِّرة كالغالية من الشيعة والقرامطة .

هذه هى الصفة الأساسية الرابعة للمسلم التى بدونها يكون إنساناً تافهاً لا قيمة له عند اللّه والصالحين من عباده ، ولا قيمة له فى ميزان الحياة ومقاييسها . إنَّ الجريمة كل الجريمة ألا يسير المربون فى الأمة الإسلامية على هذا الطريق الوحيد ، طريق إحياء الصفات الأساسية للمسلم بكمالها وتمامها ، على استقامة من كتاب اللّه وهَديه . إنَّ المسلمين مكلّفون من اللّه باستئصال الفساد ، وعليهم أن يفعلوا ، ولا يمكن أن تُعتبر حكومة إسلامية صالحة ، حكومة لا تستأصل المفسدين فى الأرض بلا شفقة ولا رحمة ، ولا يمكن أن يُعتبر المسلمون غير آثمين والمفسدون يعيشون فى أرض الإسلام فساداً .

* * *

الفقرة الخامسة - فى الصفة الخامسة
الجهاد فى سبيل الله دون خوفٍ من لوم اللائمين

(١)

سنتحدث فى هذه الفقرة عن الجهاد وأنواعه ، هذا الجهاد لا يقوم به حق القيام ولايتحقق بمقتضياته إلا إنسان لا تأخذه فى الله لومة لائم ، إذ المشاركة فى عملية الجهاد تقيم الدنيا على صاحبها وتقعدها ، وتتحرك كل القوى ضد أصحابها . فتبدأ التهم ، وتبدأ الإشاعات ، وتبدأ الحرب اللسانية ، والحرب الفكرية ، وتبدأ الانتقادات من كل جانب ، وتجد أصناف الكافرين يوجهون هذه المعارك كل حسب وجهة نظره وبطُرقه الخاصة ، ويتأثر من هذا كله الناس حول المجاهد ، فيقولون ما يقوله الآخرون ، وتبدأ عملية تثبيط رهيبة ، وعمليات تعنيف مصدرها القريب والبعيد ، الأب والزوجة ، والأخوات والأقارب ، والجيران والأرحام ، ويزيد الأمر ضراماً أنّ الجهاد له تكاليفه الجسمية والمادية . فالذين يقيسون الأمور بموازين الدنيا يدخلون فى المعركة ضد المجاهدين بكل لسان .

أمام هذا كله فإنه لا يستطيع أن يثبت على طريق الجهاد إلا الذى تحرر من لوم اللائمين فى ذات الله ، ومن أجل الله ، وفى سبيل الله .

فهو يجاهد بيده وبلسانه وبماله ، وبكل وسيلة مشروعة ، والناس لا يهضمون جهاده ، وهو لا يبالى ، يتحمل الضغوط كلها ، ضغط المجتمع الذى يستخف ولا يقبل الجهاد فى سبيل الله ، وضغط الفكر العالمى الذى يعتبر أنّ عمليه الجهاد فى سبيل الله فات دورها ، وضغط الضمير العالمى الكاذب الذى فَرَّ من الله . ولكنه لا يبالى بهذا كله فى سبيل الله .

وتوجه له الشيوعية ، والرأسمالية ، والصهيونية ، والماسونية ، والتبشير ، والصليبية ، والدول الكبرى والصغرى كل سهام فى جعبتها ، ولكنه يمضى فى جهاده الربانى ، لا يخاف لوم اللائمين ، وتبدأ المؤامرات عليه من كل جانب . على وظيفته ، وعلى تجارته ، وعلى أسرته ، وعلى مَن يلوذ به ، ويمضى حتى يستشهد فى سبيل الله : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ (١) .

مَنْ تحقق بهذا فذلك الذى يستطيع الجهاد ويقوم بشأنه ، وذلك الذى كان من أهل : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ (٢) .

(٢)

ولكن هذا الجهاد الخالص لا يتحقق لإنسان حتى يتحرر من حب الحياة ، ويتحقق بالعلم . أخرج البزار عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم على بيِّنة من ربكم ما لم تظهر فيكم سَكرتان : سَكرة الجهل وسكرة حب العيش ، وأنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون فى سبيل الله ، فإذا ظهر فيكم حب الدنيا فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون فى سبيل الله ، القائلون يومئذ بالكتاب والسُنَّة كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار » .

وبدون هذا تفقد الأمة الإسلامية خيريتها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٣) .

أخرج ابن عساكر عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : « إنَّ معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى ، وإنَّ منكركم اليوم معروف زمان يأتى ، وإنكم لن تبرحوا بخير ما دمتم تعرفون ما كنتم تنكرون ، ولا تنكرون ما كنتم تعرفون ، وما قام عالمكم يتكلم بينكم غير مستخف » .

---

(١) الأحزاب : ٢٣ (٢) المائدة : ٥٤ (٣) آل عمران : ١١٠ .

فلا بد من علم ، ولا بد من زهد فى الدنيا وجرأة على الموت فى سبيل الله حتى يتحقق الجهاد .

أخرج الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « دخل رسول الله ﷺ فقال : « يابن مسعود » فقلت : لبيك يا رسول الله - قالها ثلاثاً - قال : « تدرى أى الناس أفضل » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أفضل الناس أفضلهم عملاً إذا فقهوا فى دينهم » ثم قال : « يابن مسعود » . قلت : لبيك يا رسول الله قال : « تدرى أى الناس أعلم » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال : « إنَّ أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مُقصِّراً فى العمل وإن كان يزحف على إسته زحفاً . واختلف مَن كان قبلى على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاثة وهلك سائرهن ، فرقة وازت الملوك وقاتلوهم على دينهم ودين عيسى ابن مريم وأخذوهم وقتلوهم وقطعوهم بالمناشير ، وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرانيهم فيدعوهم إلى الله ودين عيسى ابن مريم فساحوا فى البلاد وترهبوا : قال : وهم الذين قال الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّه ﴾ (١) ، فقال النبى ﷺ : « مَن آمن بى وصدَّقنى واتبعنى فقد رعاها حق رعايتها ، ومَن لم يتبعنى فأولئك هم الهالكون » .

وفى رواية : « فرقة أقامت فى الملوك والجبابرة فدعت إلى دين عيسى فأُخذت وقُتلت بالمناشير وحُرِّقت بالنيران فصبرت حتى لحقت بالله » ... والباقى بنحوه .

(٣)

ويغلب على بعض الناس فى باب الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أوهام .

منها : أنَّ بعضهم يتصور أنه ما دام الإسلام دين الله ، فإنَّ الله ناصر دينه وليس عليهم أن يهتموا لهذا الأمر ، أو يضحوا من أجله ، وهذا ضلال فى

---

(١) الحديد : ٢٧

العقيدة ، وانحراف في التصور ، إنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (١) ، فالله قادر على الانتصار ، ولكنه أراد ابتلاءنا واختبارنا ، ففرض علينا الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا لم نقم بذلك ونصبر عليه نكون آثمين مستحقين عقوبة الله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ (٤) ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ (٥) .

ومنها : أنّ بعضهم يتصور أنه إذا أصلح نفسه فلا عليه من الناس ، ويستشهد على ذلك بالآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (٦) ، وهذا فهم خاطئ للآية إذ الآية لا تعنى ألا نأمر بالمعروف ، وننهى عن منكر ، ونجاهد ، بل الآية فيها إخبار أنّ ضلال الضالين لا يضرنا عند الله . إذ هم مسئولون عن أعمالهم أمامه . ونحن مسئولون عن أعمالنا ، وقد فسّرها الصحابة بغير ما فهمها هؤلاء الخاطئون .

عن قيس بن أبى حازم قال : لما ولى أبو بكر رضى الله عنه صعد المنبر فحمد الله ثم قال : يا أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾(٦) ، وإنكم تضعونها

---

(١) محمد : ٤ . (٢) محمد : ٣١ (٣) آل عمران : ١٠٤

(٤) التوبة : ١٤ - ١٥ (٥) النساء : ٧٧ (٦) المائدة : ١٠٥

على غير مواضعها ، وإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال :« قعد أبو بكر على منبر رسول الله ﷺ يوم سمى خليفة رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ ثم مد يديه ثم وضعهما على المجلس الذى كان النبى ﷺ يجلس عليه من منبره ثم قال : سمعتُ الحبيب وهو جالس على هذا المجلس يتأول هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (١) ، ثم فسَّرها ، فكان تفسيره لها أن قال : نعم ، ليس من قوم عُمِلَ فيهم بمنكر ويُفسد فيهم بقبيح فلم يغيروه ولم ينكروه إلا حق على الله أن يعمهم بالعقوبة جميعاً ثم لا يُستجاب لهم . ثم أدخل أصبعيه فى أذنيه فقال : أن لا أكون سمعته من الحبيب فصمتا » (٢) .

إنَّ مقتضى الإيمان الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما سنرى . فالله عزَّ وجَلَّ كونه أمرنا بأن نهتم بأنفسنا لا يعنى أنه أسقط عنا الجهاد ، ذلك وهم كبير . بل اهتمامنا بأنفسنا من جملته أن نحملها على تنفيذ أمر الله فى الجهاد وغيره . فالآية إذن لم تُسقط عنا الجهاد ، وإنما أخبرنا أننا إذا صلحنا فإنَّ الضالين لا يضروننا ، ومن صلاحنا أن نجاهد ، ونأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر ، ونستجيب لله والرسول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (٣) .

(٤)

إن الجهاد بالقلب الذى هو أدنى درجات الإيمان وأضعفها جعله الناس الجهاد الوحيد ثم أهملوه مع أنه لم يرخص فيه إلا بشروط كثيرة قال عليه السلام :

---

(١) المائدة : ١٠٥

(٢) رواه أحمد فى المسند عن أنس وابن ماجه فى « الفتن » عن قيس بن أبى حازم به مرفوعاً .

(٣) الأنفال : ٢٤

« مَن رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [(١)] .

« مَن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » [(٢)] .

إنَّ الفقهاء اعتبروا السكوت عن البدعة والمنكر رضا يشرك بالإثم فيه إلا إذا عجز عن الإزالة .

يقول فقهاء الحنفية : « والسكوت على البدعة والمنكر فإنه رضا - أى مع القدرة على الإزالة - وإلا كفاه الإنكار بالقلب » ، ولكن الأحسن لو فعل ويكون شهيدا لو قُتِلَ .

ومن الصور التى يذكرها ابن عابدين فى حاشيته : « لكن ذُكِر فى « شرح السير » أنه لا بأس أن يحمل الرجل وحده ، وإن ظن أنه يُقتل إذا كان يصنع شيئا بقتل أو بجرح أو يُهزم فقد فعل ذلك جماعة من الصحابة بين يدى رسول الله ﷺ يوم أحد ومدحهم على ذلك ، فأما إذا عَلِمَ أنه لا ينكى فيهم فإنه لا يحل له أن يحمل عليهم . لأنه لا يحصل بحملته شئ من إعزاز الدين بخلاف نهى فَسَقة المسلمين عن منكر إذا علم أنهم لا يمتنعون ، بل يقتلونه ، فإنه لا بأس بالإقدام ، وإن رُخِّص له السكوت ، لأن المسلمين يعتقدون ما يأمرهم به ، فلا بد أن يكون فعله مؤثراً فى باطنهم بخلاف الكفار » . فالرخصة إذن موجودة ضمن حدود ، ولكن العزيمة أن يفعل .

أخرج البزَّار عن ابن عمر رضى الله عنه قال : سمعتُ الحجَّاج يخطب فذكر كلاما أنكرته فأردتُ أن أغيِّر فذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا ينبغى للمؤمن

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) رواه مسلم فى كتاب « الإيمان » باب « وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه به مرفوعاً .

أن يذل نفسه » . قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يذل نفسه ؟ قال : « يتعرض من البلاء لما لا يطيق » .

ولكن هذه الرُخصة فهمها الناس فهماً ترخَّصوا فيه لدرجة أنه ما عاد يُؤمر بمعروف ويُنهى عن منكر ، لذلك كان لا بد من الكشف عن حدودها ولو بشكل مختصر .

إنه لا يجوز للإنسان أن يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا فى حالتين :

١ - أن يعلم علماً قطعياً يقينياً بأنَّ أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر لن يزال به الشر بحيث يكون أمره ونهيه أو سكوته سواءً .

٢ - أن يلحقه ضرر نتيجة أمره ونهيه بشكل قطعى .

والضرر المعتبر الذى يسقط به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كالضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به ، أو تُنهب داره ، ويُخرب بيته ، وتسلب ثيابه . أما التعرض له باللسان بالتجهيل والتحقير والتحميق والنسبة إلى الرياء والنفاق ، أو الرجعية والتأخر ، سواء أكان ذلك فى غيبته أو حضوره ، فإنه لا يُسقط الوجوب ، إذ لو تُرك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بلوم لائم ، أو باغتياب فاسق أو شتمه أو تعنيفه ، أو سقوط المنزلة عن قلبه وقلب أمثاله ما قام أمر ونهى أبداً . كيف وقد أمرنا الله إذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر أن نصبر ، وعلى ماذا يكون الصبر إلا على هذا : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١) .

إنه لا يسقط الوجوب إلا بشروط ، وإذا سقط الوجوب فالاستحباب باق .

(٥)

ثم ليس معنى الجهاد بالقلب أن يموت القلب فلا يغضب للمنكر ، بل الجهاد بالقلب معناه رفض كل معصية لله حضرها أو غاب عنها أو دُعِيَ إليها ،

(١) لقمان : ١٧

وسوسة أو أمراً ، وما لم تكن المسألة كذلك فإنها تكون خروجاً عن الإسلام بالكلية .. يقول عليه السلام : « إذا عُمِلت الخطيئة فى الأرض كان مَن شهدها فكرهها – قال مرة : أنكرها – كمن غاب عنها ، ومَن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » (١) .

« تُعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نُكِتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نُكِتت فيه نكتة بيضاء حتى يصير على قلبين : قلب أبيض مثل الصفا فلا يضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشرب من هواه » (٢) .

(٦)

أسرعنا فيما مضى بالإشارة إلى الجهاد بالقلب على اعتبار أنه الجانب السلبى فى الموضوع ، فلا بد من تعيين حدوده قبل الكلام عن الجانب الإيجابى .

وتحدثنا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد ، وكأنهما شئ واحد ، وذلك لأنهما فى الحقيقة متلازمان فى المعنى عندما يكونان على أرض الإسلام ، وهذا شئ سنراه فيما يلى أثناء الحديث عن أنواع الجهاد .

(٧)

بعد هذه المقدمة نقول :

إنَّ هناك خمسة أنواع من الجهاد أُشير إليها فى الكتاب أو فى السنّة :

---

(١) رواه أبو داوود فى كتاب « الملاحم » باب « فى الأمر والنهى » عن محمد بن العلاء بسنده إلى العرس بن عميرة الكندى .

(٢) رواه مسلم عن حذيفة ، رضى الله عنه – والأسود المرباد : شدة البياض فى سواد ، الكوز المجخى : المنكوس .

النوع الأول : الجهاد باللسان .

النوع الثانى : الجهاد التعليمى .

النوع الثالث : الجهاد باليد والنفس .

النوع الرابع : الجهاد السياسى .

النوع الخامس : الجهاد المالى .

والآثار التى أشارت إلى هذه الأنواع الخمسة هى :

١ - « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » (١) ، فهذه ثلاثة أنواع من الجهاد ذُكرت مرة واحدة .

٢ - « إنَّ أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » (٢) ، فهذا الجهاد هو الذى أسميناه الجهاد السياسى لأنه من أجل جعل نظام للحكم أجود وأعدل .

٣ - قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ، فَلَوْلَا نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَومَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٣) ، فهنا عبَّر بالنفر المستعمل عادة للجهاد من أجل طلب العلم وتعليمه .

فهذه النصوص الثلاثة أشارت إلى أنواع الجهاد الخمسة .

هذه الأنواع من الجهاد كلها عندما تكون على أرض الإسلام تسمى « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . والحقيقة أنَّ بين الجهاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تلازماً ، كل من الاثنين قد يُطلق على الآخر ، فى الداخل والخارج ، ولكن العملية أصبحت مشتهرة هكذا :

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم عن أنس .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً .   (٣) التوبة : ١٢٢

ما كان على أرض الإسلام كان أمراً بمعروف ونهياً عن منكر ، وما كان خارجه كان جهاداً ، والأمر فيه سعة ، ومَن تأمل هذه النصوص عرف ما أشرنا إليه :

قال عليٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه : « الجهاد ثلاثة : جهاد بيد ، وجهاد بلسان ، وجهاد بقلب ، فأول ما يغلب عليه من الجهاد جهاد اليد ، ثم جهاد اللسان ، ثم جهاد القلب ، فإذا كان القلب لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكراً نُكِسَ ، وجُعِل أعلاه أسفله » .

وفى رواية عنه : « أول ما تغلبون عليه من الجهاد : الجهاد بأيديكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ، فأى قلب لم يعرف المعروف ، ولم ينكر المنكر نُكِسَ أعلاه أسفله ، كما يُنكَس الجراب فيُنثر ما فيه » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَن رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (١) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أُمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسُنَّته ، ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمنون ، فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » (٢) .

ونحن نؤثر أن نشرح الجهاد على طريقة عرض أنواعه الخمسة التى مَرَّ ذكرها فنبدأ بالجهاد اللسانى ، ثم الجهاد التعليمى ، ثم الجهاد باليد والنفس ، ثم الجهاد السياسى ، ثم الجهاد المالى .

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) رواه مسلم فى كتاب « الإيمان » بابُ « وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » عن عبد الله بن مسعود به مرفوعاً .

أولاً : الجهاد باللسان

(أ) من أول ما يدخل فى باب الجهاد باللسان : تبليغ الإسلام وإقامة الحُجَّة به على الكافرين والمنافقين والفاسقين :

قال عليه السلام : « بَلِّغوا عنى ولو آية » (١) ، وقال الله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ (٢) - أى بالقرآن ، ومَرَّ معنا النصان اللذان أشارا إلى جهاد المشركين باللسان ، وإلى جهاد المنحرفين الذين تخالف أقوالهم أفعالهم ، وتخالف أفعالهم أوامر الله عَزَّ وجَلَّ . وعملية التبليغ وإقامة الحُجَّة هذه هى أعظم ذُرَى الإسلام ، إذ ذروة الإسلام الجهاد ، وهذه أعظم الجهاد . إذ لا يتحقق مقصود الجهاد باليد إلا بها ، ولا يستطيع القيام بها إلا إنسان تخلَّص من كل أنواع الخشية من البَشر على نفسه أو ماله أو جاهه ، وتخلَّص من ضغط المجتمع والرأى العام والدولة . ثم هى مهمة الرسل وواجبهم الأساسى ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾ (٣) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (٤) .

والمسلمون مكلَّفون أن يقوموا بها على كل مستوى حتى يعمموا دعوة الله فى الكون كله ليعرفها كل إنسان ، وتقوم الحُجَّة عليه بها فى أرض الإسلام ، وفى أرض الكفر . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) رواه أحمد والبخارى عن عبد الله بن عمرو ، ورواه الترمذى أيضا فى كتاب « العلم » عن عبد الله بن عمر ، وللحديث تتمة .
(٢) الفرقان : ٥٢
(٣) الأحزاب : ٣٩ (٤) المائدة : ٦٧ (٥) آل عمران : ١٨٧

هذا البلاغ ينبغى أن نؤديه على وجهه الأكمل ، ولا يكون على وجهه الأكمل إلا مبيناً واضح الحُجّة ، إن الله عزّ وجَلّ أمرنا بالبلاغ المبين البليغ فقال : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ (٣) .

والبلاغ المبين البليغ هو الذى تكون حُجّته واضحة بيِّنة ومقنعة مخرسة . وهذا لا يكون إلا بثقافة إسلامية عالية ، لأنّ الله عزّ وجَلّ يقول : ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٤) ، ففى إسلامنا لمن عقله كل بيان مقنع . ولا شك أنه لا بد مع هذه الثقافة من حكمة وخُلُق قريب ، ولسان بليغ . قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (٦) .

ولا شك أنّ عملية البلاغ المبين من أجلها تستتبع أن تكون الدنيا كلها ضدهم . وقد ذكر الله لنا نماذج مما جوبه به الرسل من قبل أعداء الله عندما قاموا بعملية البلاغ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَو أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (٧) ، ﴿ اقْتُلُواْ أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ وَاسْتَحْيُواْ نِسَاءَهُم ، وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ ﴾ (٨) .

---

(١) النحل : ٣٥ — (٢) المائدة : ٩٢ — (٣) النساء : ٦٣
(٤) يس : ١٧ — (٥) العنكبوت : ٤٦ — (٦) النحل : ١٢٥
(٧) غافر : ٢٦ — (٨) غافر : ٢٥

﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ من قومه إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ (٣) ، ﴿ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (٤) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (٥) .

﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (٦) .

هكذا تهديد ووعيد . وسب واستهزاء ، واتهامات للدعوة والداعية .

ولكن رسل الله صبروا وانتصروا : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٧) .

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُواْ بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ ، إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٨) .

(ب) ويدخل فى الجهاد اللسانى : الوعظ والتذكير ، وهذا المقام أليق أن يكون محله المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩) ، وقال : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (١٠) .

وفى هذا المقام يقول الغزالى :

« ... النهى بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى ، وذلك فيمَن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً ، أو فيمن أصرَّ عليه بعد أن عرف كونه منكراً ، كالذى يواظب على الشرب أو على الظلم ، أو على اغتياب المسلمين ،

---

(١) يتطهرون : يدعون الطهارة مما نأتى – والآية من سورة الأعراف : ٨٣

(٢) الأعراف : ٦٦ (٣) القمر : ٩ (٤) المؤمنون : ٨٣

(٥) إبراهيم : ١٣ (٦) هود : ٩١ (٧) إبراهيم : ١٢

(٨) الأعراف : ١٢٨ (٩) الذاريات : ٥٥ (١٠) سورة ق : ٤٥

أو ما يجرى مجراه . كأن يوالى الظالمين أو الكافرين ، أو المنافقين أو يصحب أمثال هؤلاء الفاسقين ، أو ينفذ أغراضهم أو يطيعهم فى معصية اللّه ، فينبغى أن يوعظ ويُخوَّف باللّه تعالى وتورَد عليه الأخبار الواردة بالوعيد فى ذلك وتحكى له سيرة السلَف ، وعبادة المتقين ، وكل ذلك بشفقة ولطف ، من غير عنف وغضب ، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه ، ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه ، إذ المسلمون كنفس واحدة ، وههنا آفة عظيمة ينبغى أن يتوقاها ، فإنها مهلكة ، وهى أنَّ العالِم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم ، وذل غيره بالجهل ، فربما يقصد بالتعريف الإذلال وإظهار التمييز بشرف العلم وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل ، فإن كان الباعث هذا ، فهذا المنكر أقبح فى نفسه من المنكر الذى يعترض عليه ، إذ مأتى هذا الكبْر والعُجب والغرور والفخر وإظهار النفس والرياء ، وكلها كبائر نعوذ باللّه من شر سيآت الأخلاق » .

(جـ) ويدخل فى الجهاد اللسانى : « السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن ، وذلك يُعدَل إليه عند العجز عن المنع باللطف ، وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنُصح ، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

ولسنا نعنى بالسب : الفُحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدماته ، ولا الكذب ، بل أن يخاطبه بما فيه مما لا يُعد من جملة الفُحش كقوله : « يا فاسق ، يا أحمق ، يا جاهل ، ألا تخاف اللّه » وقوله : « يا غبى » ومايجرى هذا المجرى ، فإنَّ كل فاسق فهو أحمق وجاهل ، ولولا حمقه لما عصى اللّه تعالى ، بل كان من ليس بكيِّسٍ فهو أحمق ، والكيِّسُ مَن شهد له رسول اللّه ﷺ بالكياسة حيث قال : « الكيِّسُ مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق مَن اتبع نفسه هواها وتمنى على اللّه الأمانى » (٢) .

---

(١) الأنبياء : ٦٧

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم والترمذى . وقال : هذا حديث حسن عن شداد بن أوس مرفوعاً .

ولهذه الرتبة أدبان ، أحدهما : أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف . والثانى : ألا ينطق إلا بالصدق ، ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه ، بل يقصر على قدر الحاجة ، فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره فلا ينبغى أن يطلقه ، بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له ، والازدراء بمحله ، لأجل معصيته ، وإن علم أنه لو تكلم ضُرِب ، ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يُضرب لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب ، بل يلزمه أن يقطب وجهه ويظهر الإنكار له » ... انتهى كلام الغزالى .

وإذن يتسلسل الجهاد اللسانى على الشكل التالى :

المرحلة الأولى : بلاغ وبيان وإقامة حُجَّة وتبيان حقائق .

المرحلة الثانية : موعظة وتذكير وتخويف من اللّه بلطف وشفقة .

المرحلة الثالثة : إن كان مسلما عنفناه ، وإن كان غير مسلم - كالذمى وأمثاله - بقينا فى حدود الجدال بالتى هى أحسن لأنَّ اللّه عَزَّ وجَلَّ قال : ﴿ وَلَا تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابَ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (١) .

ويلاحَظ أنَّ المرحلة الثالثة مرحلة فصام لا يصح أن تبقى لنا فيها مع أصحابها - ونعنى المسلمين - علاقة مخالطة ..

قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : « جاهِدوا المنافقين بأيديكم ، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا فى وجوههم فاكفهروا » .

قال رسول اللّه ﷺ : « لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى . نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب اللّه تعالى قلوب بعضهم

---

(١) العنكبوت : ٤٦

ببعض ولعنهم على لسان داود » الآية - ثم جلس وكان متكئا فقال : « لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » (١) .

وفى عملية الجهاد اللسانى نحب أن نلاحظ الملاحظات التالية :

● الملاحظة الأولى :

عندما نقوم بعملية التبليغ ، علينا أن نبدأ بالأهم فالمهم . نبدأ بالعقيدة قبل العبادة ، وبالعبادة قبل مناهج الحياة ، وبالكليات قبل الجزئيات ، وبالقريب قبل البعيد .

أخرج الستة إلا مالكاً عن ابن عباس : أنّ رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال : « إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا فأخبرهم أنّ الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا فأخبرهم أنّ الله فرض عليهم زكاة تُؤخذ من أموالهم وتُرد على فقرائهم ، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم ، واتقِّ دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب » .

وقال ابن مسعود : « ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » (٢) .

● الملاحظة الثانية :

جرت عادة أعداء الله أن يُشوِّهوا سمعة الدعاة إلى الله فى نظر المسلمين ، لأنهم يعلمون أنّ الهجوم على الإسلام مباشرة أمام المسلمين يُعرِّضهم لمواقف

---

(١) رواه ابن ماجه فى « الفتن » عن أبى عبيدة رضى الله عنه واللفظ له ، ورواه الترمذى عن عبد الله بن مسعود فى كتاب « التفسير » باب « ومن سورة المائدة » مع اختلاف فى بعض الألفاظ يسير ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، وأبو داود فى « الملاحم » عن عبد الله بن مسعود .

(٢) أخرجه مسلم .

سيئة ، فكانت خطتهم تشويه سمعة الدعاة إلى اللّه ليحطموا الإسلام بتحطيم أهله ، لذلك فعلى الداعية إلى اللّه أن ينقى نفسه ويكون دقيقاً بحيث يعرفه الناس – وفعلاً يكون كذلك – بأنه يقوم بهذا الواجب مخلصا للّه ، مجرداً عن كل غرض ، خالياً عن كل هدف إلا قياماً بأمر اللّه ، وشفقة على خلقه ، ورحمة بهم من أن تتخطفهم الشياطين من طريق اللّه عَزَّ وجَلَّ . ومهما حاول الآخرون أن يصرفوه عن عمله بجعل المعركة بينه وبينهم وكأنها معركة شخصية ، أو يصرفوه عن مهمته بحيث يجعلون الصراع بينهم وبينه وكأنه على حكم أو سلطان أو غرض ، فعليه دائماً أن يُفسد عليهم مخططاتهم ، بحيث تكون المسألة مسألة دعوة إلى اللّه وإلى الإسلام ، بصرف النظر عن أى موضوع آخر . إذ أنَّ أعداء الإسلام – كما أسلفنا – يعادون الإسلام بمعاداة أهله ، ويتظاهرون بأنهم لا يعادونه ، ويحاولون أن يقنعوا الناس بذلك . فعلى الداعية أن يكون من الوضوح بحيث يجعل الناس مقتنعين بأنَّ هؤلاء لا يعادونه إلا لإسلامه ، ويفسد عليهم كل حُجَّة عليه بأنه لا يريد شيئاً آخر إلا محض القيام بالواجب الذى كلّفه اللّه عَزَّ وجَلَّ به وفعلاً فإن المسلم كذلك .

● الملاحظة الثالثة :

إنَّ عملية الجهاد اللسانى تقتضى دراسة للمكان الذى يتم فيه ، وتقتضى معرفة بمراكز الضلال وجملة الانحرافات ، وتقتضى معرفة بكيفية العمل ، إذ لكل بلد انحرافاته الخاصة ، وضلالاته وكُفره ، وبُعده عن الإسلام ، ومعالجة كُلٍّ تحتاج إلى أسلوب يتفق معها .

فمثلاً بلد شيعة وسُنَّة ، وانتشرت فيه الشيوعية أو الوجودية أو الماسونية ، وجُهِلَ فيه الإسلام ، وأصبحت عند أهله انحرافات فكرية وخُلُقية ، مثل هذا البلد الكتب التى ينبغى أن تُنشر فيه ، ونوعية المحاضرات والخُطَب ومواضيع المناقشات والزيارات ، تختلف كلياً عن بلد فيه نصارى وفيه أفكار رأسمالية ، وفيه نزعة نحو التحرر الكلى ، والديموقراطية المطلقة .

لا بد إذن من دراسة لأنواع الانحراف .

ولا بد إذن من معرفة للمنحرفين .

ولا بد إذن من تخطيط شامل منسجم مع هذا وهذا .

ولا بد من عمل متواصل للوصول إلى إيصال الإسلام كاملاً للناس جميعاً .

وهذا يقتضى منا أن نعرف ما هى نواقص المسلمين فى البلد ، وكيف يمكن أن نرتفع بالمسلمين جميعاً إلى مستوى المشاركة العملية فى الجهاد اللسانى ، ولعل المسارعة إلى إصلاح عيوب المسلمين وتكميل نقصهم ، وتوحيدهم جهودهم، هى البداية الأولى فى كل جهاد لسانى .



● من وسائل الجهاد اللسانى :

إنَّ وسائل الجهاد اللسانى كثيرة ، أحياناً تتوفر جميعها وأحياناً لا يُستطاع بعضها ، والمهم ألا نترك الجهاد اللسانى بشكل من الأشكال . وها نحن نستعرض بعضاً من وسائل هذا الجهاد ليُقاس عليها ..

(أ) نشر الكتاب الإسلامى :

عملياً الكتاب لمن يقرأه أكثر فائدة من الكلام ، إذ مهما أحسن الإنسان فى عرض فكره ، فهو لا يبلغ مبلغ عرض هذه الفكرة فى كتاب كتبه عالِم من علماء المسلمين الكبار ، ولذلك كان نشر الكتاب الإسلامى أهم وسيلة من وسائل الجهاد اللسانى .

والكتب الإسلامية تختلف ، فمنها ما شرح جزءاً من الإسلام ، ومنها ما رَدَّ على أعداء الإسلام ، ومنها ما دافع عن الإسلام ككل ، ومنها عالى الأسلوب ، ومنها متوسطه ، ومنها سهله .

وكل إنسان من الناس يحتاج إلى نوع من الكتب يتناسب مع وضعه ، ومع لغته ، ومع نوع ضلاله ، أو انحرافه . وأحياناً قد تنتشر فكرة ضالة عند عامة

الناس ، فينبغى فى هذه الحالة تعميم الرد عليها فى كتاب . وعملنا فى هذا كله ينبغى أن يكون حكيماً ، أن نقدِّم الكتاب المناسب للشخص ، أو نعمم الكتاب المناسب على الناس بالبيع وبالهبة وبالتبرعات وبالإعارة ، وإقناع بعض الناس بطبع ما يلزم مجاناً ... وكله جهاد .

وإذا استطعنا أن نوجد فى كل بيت مكتبة إسلامية متكاملة فذلك نجاح لا يعدله نجاح . خاصة والبَشرية الآن تسير نحو ترك الأُمية حتى إنه سيصبح كل إنسان قارئاً – والله أعلم – وهذا سيكون لنا إن استطعنا إيصال الكتاب الإسلامى وأمثاله إلى الناس ، وسيكون علينا إن كان العكس ، وفى كتاب « الأساس فى الثقافة الإسلامية » – أى جند الله ثقافة – عرض مفصَّل لأمهات الكتب الإسلامية فى كل فن ، واستعراض للكتب التى تؤلف مكتبة إسلامية متكاملة .

(ب) المجلة والجريدة والنشرة :

لا شك أنَّ المجلة إذا كان لها سياسة جهادية مدروسة ، وكذلك الجريدة ، تستطيع أن تقوم بعمل عظيم فى الجهاد اللسانى . إذ أنها ترد مباشرة على الضلال بأسلوب وبآخر ، وتبقى على صلة أسبوعية أو يومية مع الأحداث ، فتبيِّن الضلالة فى مهدها ، وتكشف المنحرفين مباشرة ، وتنازل أصحاب الضلال مقارعة . ولكن ينبغى فى حالة وجود الجريدة والمجلة أن تكون على مستوى عال ، وأن تبذل كل الجهود لتعميم وصولها إلى أيدى الناس .

والمفروض أن تكون فى كل قُطر مجلة أو جريدة إن أمكن ، لأن لكل بلد وضعه الخاص .

وإذا لم يمكن إصدار جريدة أو مجلة ، فيمكن إصدار نشرة غير دورية . وإذا لم يتيسر هذا فيمكن إصدار بيانات توضح المفاهيم الأساسية ، وترد على الضلال ، وإذا لم يمكن هذا فيمكن إصدار رسائل صغيرة فى كل موضوع ، وإذا لم يتيسر هذا فيمكن الالتفات إلى المجلات الحائطية ، وإذا وُجِدَ هذا كله فذلك خير وأجود .

(جـ) الخطابة والمحاضرة والدرس العام فى المسجد والبيت :

وهما أخطر أداتين فى توجيه الإنسان ، إذا وُجِدَ الخطيب القوى ، والمحاضر الناجح ، ولذلك فإنَّ تخريج الخطباء والمحاضرين وتمرينهم وتقويتهم مع تربيتهم شئ أساسى ومهم ، إنَّ الخطيب الناجح والمحاضر الممتاز يكتسحان عواطف الناس اكتساحاً ويسيران بها حيث يريدان .

وقد جعل اللّه عَزَّ وجَلَّ خطبة الجمعة فريضة ، وسَنَّ لنا خطبتا العيدين ، وهذا شئ مهم جداً إذا استفيد منه فى الجهاد اللسانى ، بل ينبغى أن يُسخَّر لذلك لأنه من أجله وُجِد .

ومجال المحاضرات والخطب مجال رحيب ، فالمساجد مفتوحة ، والقلوب على استعداد ، وكثير من المراكز لا تبخل على أحد بمحاضرة ، كالنوادى والمدارس ، وعلينا أن نستفيد من هذه الفرص إلى منتهاها . ولا ننسى أنَّ الدعاية للمحاضرة أو للخطبة لها آثارها الكبيرة .

وطبعاً لا يمكن أن يكون كل واحد من المسلمين محاضِراً أو خطيباً ، ولكن إذا لم أكن محاضِراً فإننى أستطيع أن أدعو الناس لسماع محاضرة ، وعلى هذا فينبغى أن يكون دائماً تعاون عظيم بين المحاضر وإخوانه المسلمين ، كما أنَّ على المحاضِر أن يلاحظ ألا يكون مغروراً معجباً بنفسه ، إذ أنَّ ذلك يسقطه من ديوان المقرَّبين عند اللّه ، ويُسقطه من قلوب المؤمنين ، ولا يكون لكلامه أثر مفيد .

والدروس العامة فى المساجد والبيوت – سواء دورية أو غير دورية – أطيب أداة للدعوة ، وتصفية الأفكار من ضلالها .

(د) الدعوة الفردية والزيارات والرحلات والحلقات :

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ، مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [1] ، إثارة تفكيرَ الإنسان منفردا أكثر فائدة ، إذ لا يكون فيَ هذه الحالةَ متأثراً بالضغوط الأخرى .

لذلك كان شيئاً مهماً فى الجهاد اللسانى الاتصال المباشر بالأشخاص وفتح محاورة معهم ، أو دعوتهم إلى الخير ، أو إهداؤهم كتباً ، والزيارة فى البيوت أو فى محلات العمل ، تخدم هذا الموضوع بلا شك .

وتنظيم رحلة يدعى لها أفراد قليلون تكون بها نسبة المسلمين الصالحين كثيرة مع تنظيم الكلام والدعوة والنقاش ... يفيد كذلك كثيراً .

ودعوة إلى طعام تتهيأ فيها وسائل الاحتكاك لتبليغ الأفكار الطيبة بشكل جيد قد فعله الرسول ﷺ فهو سُنَّة .

والحلقات الراتبة فى البيوت وغيرها التى تعرض الإسلام ، وتصفى أفكار الناس نحوه إذا كانت مفتوحة ، ودُعِيَ إليها أفراد ، فيها كذلك خير كثير .

هذه نماذج على وسائل الجهاد اللسانى فى سبيل الله ، ولكن المسألة ليست منحصرة فيما ذكرناه ، فالرد على دعاة الضلال أينما كانوا ، وفى أى وضع.. جهاد ، وبالشعر الإسلامى يكون جهاد ، وفى كتابة الإعلانات جهاد ، والمدرس فى مدرسته ، والعامل بين زملائه ، والطبيب بين مرضاه ، كل هؤلاء وأمثالهم يمكن أن يقوموا بأكبر قسط من الجهاد اللسانى ، ومَن فكَّر انفتحت له أبواب ، وكل إنسان يعرف ذاته ، وله من وسائله ما يستطيع به أن يقوم بواجبه ، والمهم أن نفكر وأن نعمل وأن نخلص لله عَزَّ وجَلَّ فى هذا كله .

* * *

---

(١) معنى الآية هو : قل إنما أعظكم بخصلة واحدة أن تتفرقوا اثنين اثنين وواحداً واحداً ثم تتفكروا فى أمر محمد وما جاء به لتعلموا أنه ليس به جنون يحمله على ما يدعوكم إليه – والآية من سورة سبأ : ٤٦

ثانياً : الجهاد التعليمى

(١)

روى الطبرانى فى « الكبير » عن بكير بن معروف عن علقمة .. عن رسول اللّه ﷺ قال : « ما بال أقوام لا يُفقّهون جيرانهم ولا يُعلّمونهم ولا يعظونهم ، ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ، واللّه ليُعلّمن قوم جيرانهم ويُفقّهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون ، أو لأعاجلنهم العقوبة » ، ثم نزل ، فقال قوم : مَن ترونه عَنِىَ بهؤلاء ؟ قال : « الأشعريين هم قوم فقهاء ، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب » ، فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول اللّه ﷺ وقالوا : يا رسول اللّه ، ذكرتَ قوماً بخير وذكرتنا بشر ، فما بالنا ؟ فقال : ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم ، وليُتعلّمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون ، أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا » فقالوا : يا رسول اللّه ، أنعظنّ غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم : أنعظنّ غيرنا ؟ فقال ذلك أيضاً فقالوا : أمهلنا سنة ، فأمهلهم سنة يُفقّهونهم ويعلمونهم ويعظونهم ، ثم قرأ رسول اللّه ﷺ هذه الآية : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ (١) .

وفى الآية : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ، فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٢) .

ويقول الغزالى : « وواجب أن يكون فى كل مسجد أو محلة من البلد فقيه يُعلّم الناس دينهم ، وكذا فى كل قرية . وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرّغ لفرض الكفاية أن يخرج إلى مَن يجاور بلده من أهل السواد ومن

---

(١) المائدة : ٧٨ - ٧٩

(٢) التوبة : ١٢٢

العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ، ويستصحب مع نفسه زاداً يأكله ، ولا يأكل من أطعمتهم فإنّ أكثرها مغصوب » .

(٢)

ولا بد للمرء هنا أن يتساءل : ما الفارق بين الجهاد اللسانى ، والجهاد التعليمى ؟

نقول : إنّ الجهاد اللسانى هو بذل الجهد باللسان ضد الانحراف ، للعودة بأصحابه أو لإدخالهم من جديد فى الإسلام . وأما الجهاد التعليمى فهو بذل الجهد مع مَن استجاب للإسلام من أجل تعليمه وتثقيفه وتربيته ، وقد يتلازمان أحياناً لكن تبقى فوارق .

ومقياس النجاح فى الجهاد التعليمى هو أن نستطيع إعطاء كل مسلم ثقافة إسلامية كاملة وتربية إسلامية صحيحة وسليمة ومتكاملة .

ولعل دراستنا لهذه الفقرة - الأخلاق الأساسية فى الإسلام - أعطتنا صورة عن التربية السليمة الصحيحة ، ويبقى علينا أن نشرح ما هى الثقافة الإسلامية الكاملة .

١ - قال تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (١) ، فهذه الآيات بينّت بوضوح أنّ أساس التعليم عندنا فى الإسلام ، هو تعليم الكتاب ، وتعليم السنّة ، وهو مقام الربانيين ، قال تعالى : ﴿ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٢) .

والمسلم لا بد أن يأخذ حظه من الكتاب والسنّة ، وكلما كان حظه من ذلك أعلى كانت ثقافته الإسلامية أعلى .

---

(١) البقرة : ١٥١ (٢) آل عمران : ٧٩

٢ - ولما كان كل مسلم لا يستطيع أن يدرك أحكام الله من الكتاب والسُنّة مباشرة ، فقد نشأت علوم مهمتها تعريف المسلم على أحكام الكتاب والسُنّة : كعلم التوحيد ، وعلم الفقه ، وعلم الأخلاق ، وأصّل علماء المسلمين في كل علم من هذه العلوم أصولاً وقواعد وضوابط ، مما أصبح ضرورياً أن يأخذ المسلم حظه كذلك من هذه العلوم .

ولما كانت هذه الأحكام مصدرها الكتاب والسُنّة ، فقد وُجِدَ علم يشرح كيف تُستنبط الأحكام من الكتاب والسنة هو علم أصول الفقه ، وهذا العلم كذلك ينبغي أن يكون عند المسلم حظ منه ليطمئن إلى نتيجة الأحكام التى درسها .

٣ - ولما كان التاريخ الإسلامى هو صورة واقع المسلمين من الإسلام خلال العصور ، وهو مركز العبرة ، وكان من التاريخ الإسلامى حياة رسول الله ﷺ وأصحابه وذلك محل الأسوة ، كان لا بد للمسلم أن يأخذ حظه من دراسة ذلك .

٤ - ولما كان المسلم مطالباً بالاهتمام بأمر المسلمين : « مَن أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . ولا اهتمام بلا معرفة أولاً ، فإنَّ دراسة حاضر العالَم الإسلامى ، ومعرفة أحوال المسلمين ، لا بد أن يأخذ المسلم حظه منها .

٥ - ولما كان عصرنا حافلاً بالمؤامرات على الإسلام والمسلمين ، كان لا بد للمسلم أن يعرف أطراف هذه المؤامرات وأبعادها .. حتى يستطيع تجنب الوقوع فى شباكها ، وتخليص أمته منها .

٦ - ولما كانت اللغة العربية وعلومها مفتاح هذا الدين ، كان لا بد للمسلم أن يأخذ حظه من عامة علومها .

٧ - ولما كانت الدراسات الإسلامية الحديثة منها الغث والسمين ، ومن السمين ما يلائم عصرنا ويعرض الإسلام عرضاً صحيحاً يلائم طبيعة عصرنا ، كان لا بد من أخذ حظ من هذه الدراسات .

٨ - ولما كانت هذه العلوم كلها من أجل توضيح الأصول الثلاثة للمسلم - الله ، والرسول ، والإسلام - كان لابد من دراسة مفصّلة كاملة لهذه الأصول الثلاثة .

وإنما كان كتاب « جند الله » ثقافة من أجل أن يعرفنا على هذه الجوانب كلها ، ومن أجل أن يبيّن لنا الحد الأدنى الذى ينبغى أن نُحصّله من كل جانب .

ولا شك أنّ الناس يتفاوتون ذكاء وإمكانيات وأوقات فراغ ، فليس منطقياً أن يأخذ الجميع قدرا واحدا من هذه الجوانب كلها ، ولكن المفروض أن يكون هناك حد أدنى يُحصّله كل مسلم ، ويبقى المجال مفتوحاً لمن عنده إمكانية أكثر .

وحتى الحد الأدنى يختلف مستواه باختلاف الأشخاص ، فالحد الأدنى للعامل الذى ليس عنده فراغ يختلف عن الحد الأدنى للطالب كمّاً ونوعاً .

(٣)

من الفقرتين المارتين يتبيّن لنا وجوب العلم والتعليم ، ولا شك أنّ المسئولية تقع أولاً على مَن عنده علم كما رأينا فى الفقرة الأولى ، ولكن ذكر الفقهاء أنّ مَن تعلم مسألة فقد أصبح فقيهاً فيها ، وعليه تعليمها ، فالعملية ينبغى أن يتم تعاون تام فيها بين جميع الطبقات ، وبشكل لا ينقطع ، ليبقى المسلمون على الثقافة الطيبة العليا ، إذ هذا السبيل الوحيد لجعلهم بعيدين عن الفتن ، وفى الأثر : « تكون فتن لا ينجو منها إلا مَن أحيا الله قلبه بالعلم » (١) .

ولكن المسألة وإن كانت كما صوّرناها ، إلا أنه يُفهم من الآية المذكورة فى الفقرة الأولى أنه لا بد من متفرغين يتفرغون للعلم والتعلم فى كل فرقة من فرق المسلمين . فالعشيرة ، أو الحى ، أو البلدة ، أو القرية ، لا بد أن يكون فى كل دائرة منها ناس متفرغون من أجل هذا .

ولعل أعظم مشروع يخدم الإسلام هو أن يوجَد مسلمون متفرغين لهذا الموضوع على كل مستوى ، وعندهم الأهلية لذلك .

---

(١) لم أجد فيما رجعت إليه هذا الأثر فعدت إلى المؤلف فقال : لم أقرأه ولكن كنت أسمعه من فضيلة شيخنا محمد الحامد رحمه الله .

وهناك ناس لا يقدّرون العلم بالإسلام حق قدره ، ويرونه آخر الأمور ، وهؤلاء جُهّال وحمقى ، فبدون العلم لا يقوم الإسلام .

يقول عليه السلام : « فضل العلم خير من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع » (١) .

وقال : « فضل العالِم على العابد كفضلى على أدناكم ، إنّ الله وملائكته وأهل السموات والأرض - حتى النملة فى جحرها والحيتان فى البحر - يُصلُّون على معلم الناس الخير » (٢) .

وقال : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » (٣) .

وللترمذى عن أنس : « كان أخوان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما يحترف والآخر يلزم رسول الله ﷺ ويتعلم منه ، فشكى المحترف أخاه إلى رسول الله ﷺ فقال : « لعلك به تُرزق » وأسانيده صحيحة .

وقال عليه السلام : « مَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة » .

وهناك نوع من العلم خطر لا يُرضى أنواعاً من البَشر ، كالحكومات الطاغية ، والكافرين ، فهل نخفى هذا النوع من العلم ؟ إنّ الله عزّ وجلّ قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (٤) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (٥) .

---

(١) رواه الطبرانى فى « الأوسط » والبزار .
(٢) رواه الترمذى .
(٣) رواه الترمذى .
(٤) البقرة : ١٥٩
(٥) البقرة : ١٧٤ - ١٧٥

وقال عليه السلام : « مَن سُئِل علماً يعلمه فكتمه أُلجم بلجام من نار » [1] .

إنَّ علينا واجب تبيان الإسلام كله لكل مسلم ، بل لكل إنسان ، ولا يعنى هذا أن نترك الحكمة والحذر وأن يستطيع أعداؤنا توريطنا ، وأن نجيب على أسئلة لا يُقصد منها إلا إدخالنا فى مشاكل ، هذا كله يُلاحَظ ، ويُلاحَظ أيضاً أنَّ علينا واجب تعليم الإسلام كله ، بعقائده كلها ، وعباداته كلها ، ومناهجه كلها مهما كلَّفنا ذلك .

(٤)

● ووسائل الجهاد التعليمى كثيرة :

منها : فتح دورات تعليمية ، مدة الدورة تُقدَّر تبعاً لأحوال المشتركين فيها ، وأجود ذلك أربعون يوماً . قال عمر لرجل : أين كنت ؟ قال : كنت فى الرباط ، قال : كم رابطت ؟ قال : ثلاثين ، قال : فهَلاَّ أتممت أربعين ؟

والمسألة فيها سعة ، وفى حالة تقرير الدورة ينبغى أن تُعَد برامجها وأساتذتها وعباداتها وأعمالها بحيث يخرج الإنسان منها وقد أخذ الشئ الكثير تربوياً وروحياً ، وقد لا تكفى دورة واحدة لأخذ الثقافة الإسلامية فلتكن أكثر من دورة منها الحلقات العلمية فى البيت أو فى المسجد :

كأن يتفق مجموعة من الناس على أن تكون لهم حلقة علمية يتدارسون فيها الإسلام مرة فى الأسبوع أو مرتين أو ثلاثاً ، سواء فى ذلك أن يكون مقر الحلقة البيت أو المسجد .

قال ابن عباس : « حدِّث الناس مرة فى الجمعة ، فإن أبيتَ فمرتين ، وإن كثَّرت فثلاثاً ، ولا تمل الناس هذا القرآن ولا ألفينك تأتى القوم وهم فى الحديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم ، ولكن أنصت ، فإذا أمروك فحدِّثهم وهم يشتهون ، وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإنى عهدتُ رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك » .

---

(١) رواه الترمذى وأبو داود

ومنها المطالعة الشخصية ، فقد قالوا : واللبيب يكفى الكتاب فى ترقيه ، وقالوا : شيخ التعليم تكفى عنه الكتب للبيب حاذق يعرف موارد العلم .

ومنها المذاكرة الثنائية بين اثنين . فقد قالوا : مذاكرة سطرين أفضل من قراءة وقرين ، وقد كان جبريل يدارس رسول الله ﷺ القرآن .

ومنها فتح المدارس الدينية ، ولم تزل هذه سُنَّة متَّبعة خلال العصور لتخريج مسلمين علماء مختصين دعاة .

ومنها حلقات التعليم المفتوحة فى المساجد .

كان أبو الدرداء يُعلِّم القرآن فى كل يوم بجامع دمشق من طلوع الشمس ، إلى الظهر ، ويُقسِّم المتعلمين عشرة عشرة ويعيِّن لكل عشرة عرِّيفاً يُعلِّمهم القرآن ، وهو يشرف على الجميع يراجعونه إذا غلطوا . وكان أبو موسى يطوف فى مسجد البصرة فيقعدهم حلقاً حلقاً يقرئهم القرآن .

وللشيوخ فى حلقات العلم المسجدية طُرق ، فمنهم مَن يُدَرِّس يومياً فى مسجد معيَّن فى ساعة معيَّنة ، يقرأ ليلة تفسيراً ، وليلة حديثاً ، وليلة فقهاً ، وليلة سيرة ... وهكذا .

ومنهم مَن يُدَرِّس يوماً فيوماً دروساً متنوعة .

ومنهم مَن يختص بتدريس مادة واحدة .

ومنهم مَن ينشئ فى مسجده حلقات متنوعة يساعده فيها تلاميذه .

ومنهم مَن يُقيم فى مسجده مدرسة ذات مناهج ومراحل ، لكل مرحلة حلقتها ودراستها .

ومن وسائل الجهاد التعليمى : الرحلة التى تجمع بين العلم والدعوة والعمل وهى طريقة جيدة إذ يتفرغ فيها الإنسان للخير .

ومنها طريقة المخيمات : إذ يقام معسكر لمدة معينة تُعطَى أثناءه مواد كثيرة من الثقافة الإسلامية .

ومنها إيجاد نواد للثقافة الإسلامية تشترط على مَن ينتسب إليها أن يمر على منهاج ثقافى إسلامى كامل .

ومنها التعليم الدينى فى المدارس ، وهو أهم وسيلة لتعليم الناس الإسلام ، إذا اتقى اللّه صاحبه فيه إذ بواسطته يصل التعليم إلى كل طالب وطالبة .

والوسائل لإيصال الثقافة الإسلامية إلى الناس كثيرة ، والمهم فى هذا كله ملاحظة التكامل فى هذه الثقافة ، لأن أى نقص فى الثقافة الإسلامية يُعرِّض الإنسان لخطر الوقوع فى حبائل الضلال والضالين ، ويُبعده عن صراط اللّه والمسلمين .

ولا شئ يساعد على نشر العلم بالإسلام من أن نتخذ جميعاً هذه القاعدة شعاراً : « عَلِّم ما تعلمت » فإنك إن فعلت ثَبَّتَّ ما تعلَّمت ، وأفدت غيرك ، والقاعدة عند علمائنا أنَّ الذى لا يعلم حتى يتم تعليمه لن يتعلم أبداً .. وعلى اللّه قصد السبيل .

* * *

ثالثاً : الجهاد باليد والنفس

إذا أُطلقت كلمة الجهاد انصرفت إلى هذا النوع منه ، وإذا سمعته الأذن انصرف الذهن إلى جهاد الكافرين ابتداءً ، بأن نهاجمهم فى عُقر دارهم دار الحرب ، أو أن ندفعهم عنا إذا هاجمونا ، أو نجليهم إذا احتلوا أرضنا ، وهذا لا شك من الجهاد باليد ، وهو جهاد نحو الخارج . ولكن الجهاد باليد أوسع من ذلك إذ يدخل فيه كذلك جهاد المرتَدِّين والبغاة ، والظالمين ، والفاسقين ، والناكثين ، على الأرض الإسلامية ، فهو جهاد بالنفس داخلياً ، ولما كان شرط الخلاص من الذلَّة المضروبة على المسلمين اليوم العودة إلى الجهاد . فسنكتب فقرتين فى هذا الموضوع :

١ - الجهاد باليد داخلياً .   ٢ - الجهاد باليد خارجياً .

نفصِّل فى الأولى ما لا نُفصِّله فى الثانية لأنَّ الموضوع مفصَّل فى كتاب آخر .

١ - الجهاد بالنفس فى دار الإسلام (داخلياً) :

هذا أغمض أنواع الجهاد ، وأكثرها حراجة ، ولا يدرك صوره إلا القليل لذلك تركه العامة ، ونفض أيديهم منه أكثر العلماء ، وتورع عنه الكثير ، حتى تعطل بورع كاذب ، أو بجهل ساحق ، أو بجبن فاضح ، مع أنه أحياناً يكون فرض عين ، وأحياناً يكون فرض كفاية ، وأحياناً يكون مندوباً . وأدى تعطيله بالتالى إلى ضياع الإسلام فى أرضه ، وسيطرة أهل الفساد ، وغلبة أهل الأهواء ، حتى المرتدِّين على المسلمين فى كل مكان . لذلك كان لا بد من إحيائه علماً وعملاً إذا أريد للإسلام بقاء ، ونحن سنستعرض فى هذا البحث صوراً منه .

(أ) قال تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ (١) فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٣) .

والمنافقون ومرضى القلوب والمرجفون كانوا فى دار الإسلام ، ومع ذلك هُدِّدوا هذا التهديد بالقتل ، مما يدل على جوازه فيهم ، وقد يقول قائل : هذا للإمام ، نقول : هذا صحيح - وسترى ما فيه - فإن لم يكن للمسلمين إمام وأصبح هؤلاء بيدهم السلطان ، أيخضع المسلمون لهم ، أو يحاربونهم ويقتلونهم إذا كانوا يستطيعون ؟ وإن لم يكونوا يستطيعون ، أما عليهم أن يعدوا العُدَّة ،

---

(١) المرجفون : المشيعون للأخبار الكاذبة .

(٢) الأحزاب : ٦٠ - ٦٢   (٣) التوبة : ٧٣

ويستعدوا ويعملوا للاستطاعة ، خاصة والإسلام مُعرَّض للزوال ؟ لا شك أنَّ الواجب عليهم أن يستعدوا ويحاربوا إذا كانوا يستطيعون ، وأن يعملوا للاستطاعة إن كانوا لا يقدرون .

(ب) روى مسلم عن عبادة بن الصامت قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، فى العُسر واليُسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثره علينا - وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » .

وفى رواية : « دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعناه على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا ، وعُسرنا ويُسرنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله قال : « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان » .

وللبخارى عن أنس عن رسول الله ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا وإن استُعْمِلَ عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله » .

ولمسلم وأبى داود والترمذى عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ : « أنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمَن كره فقد برئ ، ومَن أنكر فقد سلم ، ولكن مَن رضى وتابع » ، قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : « لا .. ما صلوا » .

فإذا أصبح الحاكمون لا يُصلُّون ولا يقيمون فينا كتاب الله ، وأصبحوا دعاة إلى الكفر ، أو ساروا فى طريق تكفير الأمة ، فهل يجوز القتال أو لا ؟ إنَّ الأمر ظاهر والنصوص صريحة .

(جـ) وفى الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نبى بعثه الله تعالى فى أمة قبلى إلا كان له من أُمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُنَّته ، ويقتدون بأمره . ثمَّ إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

أباح رسول الله ﷺ إباحة عامة لكل المؤمنين أن يجاهدوهم بأيديهم ، كما أباح إزالة المنكر باليد لكل مؤمن : « مَن رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (١) .

(د) قال فقهاء الحنفية : « الأصل أنَّ كل شخص رأى مسلماً يزنى يحل له قتله .... وعلى هذا المكابر بالظلم ، وقُطَّاع الطريق ، وصاحب المكس ، وجميع الظلمة بأدنى شئ له قيمة ، وجميع الكبائر والأعونة والسعاة يُباح قتل الكل ويُثاب قاتلهم .. »

وأفتى الناصحون بوجوب قتل كل مؤذ .

وفى شرح الوهبانية : ويكون بالنفى عن البلد ، وبالهجوم على بيت المفسدين ، وبالإخراج من الدار وبهدمها ، وكسر دنان الخمر ...

ويقيمه كل مسلم حال مباشرة المعصية .

وقد شرح ابن عابدين بعض ما ورد آنفاً فقال فى الشرح : « المكابر : أى الآخذ علانية بطريق الغَلَبة والقهر .

وقُطَّاع الطريق : أى إذا كان مسافراً ورأى قاطع طريق ، له قتله . وإن لم يقطع عليه بل على غيره لما فيه من تخليص الناس من شره وأذاه .

وجميع الكبائر : أى أهلها .. فيشمل كل مَن كان من أهل الفساد كالساحر وقاطع الطريق واللص واللوطى والخنَّاق ممن عم ضرره ولا ينزجر بغير القتل

والأعونة : كأنه جمع معين أو عوان بمعناه - والمراد به الساعى إلى الحكام بالإفساد ، فعطف السعاة عليه عطف تفسير وفى رسالة « أحكام السياسة » جمع النسفى : سُئِل شيخ الإسلام عن قتل الأعونة والظلمة والسعاة فى أيام الفترة قال : « يباح قتلهم لأنهم ساعون فى الأرض بالفساد . فقيل : إنهم يمتنعون عن ذلك فى أيام الفترة ويختفون ، قال : ذلك امتناع ضرورة ، ولو رُدُّوا

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى .

لعادوا لما نُهوا عنه ، كما نشاهد ، قال : وسألنا الشيخ أبا شجاع عنه فقال : يُباح قتله ويُثاب قاتله » .

وقال ابن عابدين تعليقاً على فتوى الناصحى بوجوب قتل كل مؤذ : « لعل الوجوب بالنظر إلى الإمام ، ونائبه ، والإباحة بالنظر لغيرهم » .

وعلّق على كلمة : « وبالهجوم » قال فى « أحكام السياسة » وفى « المنتقى » : « وإذا سُمِعَ فى داره صوت المزامير فادخل عليه لأنه لما أسمع الصوت فقد أسقط حُرمة داره » .

وفى حدود البزازية .. ذكر الصدر الشهيد عن أصحابنا أنه يهدم البيت على مَن اعتاد الفسق وأنواع الفساد فى داره ، حتى لا بأس بالهجوم على بيت المفسدين .

وهجم عمر على نائحة فى منزلها وضربها بالدُرَّة حتى سقط خمارها ، فقيل له فيه فقال : لا حُرمة لها بعد اشتغالها بالمحرَّم والتحقت بالإماء ..

وعن عمر أنه أحرق بيت الخمَّار ، وعن الصفَّار الزاهد : الأمر بتخريب دار الفاسق » .

وقال فى التعليق على كلمة : « ويقيمه كل مسلم » : أى التعزير الواجب ، حقاً للّه تعالى لأنه من باب إزالة المنكر ، والشاعر ولى كل أحد ذلك ، حيث قال صلى اللّه عليه وسلم : « مَن رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه » (١) ... الحديث ، بخلاف الحدود لم يثبت توليتها إلا للولاة ، وبخلاف التعزير الذى يجب حقاً للعبد بالقذف ونحوه ، فإنه لتوقفه على الدعوى لا يقيمه إلا الحاكم إلا أن يحكما فيه » .

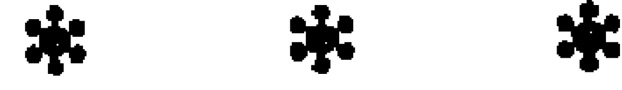
* * *

وهنا سؤال : لقد أجازوا فيما تقدم قتل جميع أصحاب الكبائر المتلبسين بها المصرين عليها ، والتبرج لا شك كبيرة وإفساد فى الأرض ، فهل يجوز قتل

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى .

صاحبته لكل أحد ؟ يبدو من كلام الحنفية فى جواز قتل الساحرة ، أنه يجوز قتلها إذا كانت متلبسة بذلك ودرجت عليه وأصرت ، والله أعلم .



وهناك مسألة ذكرها صاحب « الهداية » من كبار فقهاء الحنفية وهى : لو قتل مسلم مرتداً دون الرجوع إلى رأى الإمام هل يأثم عند الله ؟ أفتى: بأنه لا يأثم .

وهذه قضية مهمة جداً وهى أن مَن حكم الشرع بجواز قتله ممن ذكرناهم فى بحث « الشدة على الكافرين » كالزنادقة والملحدين ، يجوز لكل مسلم أن يقتلهم حتى مع وجود الإمام ، ولكن للإمام فى هذه الحالة تعزيره وعقوبته على ذلك ، فما يذكره فقهاء الحنفية من عدم التقدم على رأى الإمام لا بالنسبة للإثم عند الله ، ولكن بالنسبة لحق الإمام على المسلم فى ذلك . هذا فى حالة وجود الإمام ، أما فى حالة عدم وجوده فلا شك أنه لا حَرَج أبداً إذا قرر المسلم أن يتحمل مسئولية عمله » .

(هـ) قال صاحب « إحياء علوم الدين » - وهو شافعى - عند كلامه عن درجات الاحتساب ما يلى :

« الدرجة الخامسة : التغيير باليد ، وذلك ككسْر الملاهى وإراقة الخمر ، وخلع الحرير من رأسه ، وعن بدنه ، ومنعه من الجلوس عليه ، ودفعه عن الجلوس على مال غيره ، وإخراجه من الدار المغصوبة بالجر برجله ، وإخراجه من المسجد إذا كان جالساً وهو جُنُب ، وما يجرى مجراه ، ويُتصور ذلك فى بعض المعاصى دون بعض ، فأما معاصى اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها ، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصى وجوارحه الباطنة .

وفى هذه الدرجة أدبان ، أحدهما : ألا يباشر بيده التغيير ما لم يعجز عن تكليف المحتسب ، فلا ينبغى أن يدفعه أو يجره ، وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر ، وكسر الملاهى ، وحل دروز ثوب الحرير ، فلا ينبغى أن يباشر ذلك بنفسه ، فإنَّ فى الوقوف على حد الكسر نوع عُسر ، فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفى الاجتهاد فيه وتولاه مَن لا حجر عليه فى فعله .

الثانى : أن يقتصر فى طريق التغيير على القدر المحتاج إليه ، وهو أن لا يأخذ بلحيته فى الإخراج . ولا برجله إذا قدر على جره بيده ، فإنَّ زيادة الأذى فيه مستغنى عنه ، وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط ، ولا يحرق الملاهى والصليب الذى أظهره النصارى ، بل يُبطل صلاحيتها للفساد بالكسر . وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج فى استئناف إصلاحه إلى تعب يساوى تعب الاستئناف من الخشب ابتداء . وفى إراقة الخمور يتوقى كسر الأوانى إن وجد إليه سبيلاً ، فإن لم يقدر عليها إلا بأن يرمى ظروفها بحجر فله ذلك ، وسقطت قيمة الظروف وتقومه بسبب الخمر إذ صار حائلاً بينه وبين الوصول إلى إراقة الخمر ، ولو ستر الخمر ببدنه ، لكنَّا لا نقصد بدنه بالجرح والضرب لنتوصل إلى إراقة الخمر ، فإذن لا تزيد حُرمة ملكه للظروف على حُرمة نفسه ، ولو كان الخمر فى قوارير ضيقة الرؤوس ، ولو اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفُسَّاق ومنعوه ، فله كسرها ، فهذا عذر ، وإن كان لا يحذر ظفر الفُسَّاق به ومنعهم ، ولكن كان يضيع فى زمانه ، وتتعطل عليه أشغاله فله أن يكسرها فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله لأجل ظروف الخمر ، وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الضمان ..

الدرجة السادسة : التهديد والتخويف ، كقوله : دع عنك هذا ، أو لأكسرن رأسك ، أو لأضربن رقبتك ، أو لآمرن بك ... وما أشبهه . وهذا ينبغى أن يُقدَّم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه ، والأدب فى هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه ، كقوله : لأنهبن دارك ، ولأضربن ولدك ، أو لأسبين زوجتك ... وما جرى مجراه ، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام ، وإن قاله من غير عزم فهو كذب ، نعم إذا تعرَّض لوعيده بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال ، وله أن يزيد فى الوعيد على ما هو فى عزمه الباطنى إذا علم أنَّ ذلك يقمعه ويردعه ، وليس ذلك من الكذب المحظور ، بل المبالغة فى مثل ذلك معتادة ، وهو معنى مبالغة الرجل فى إصلاحه بين شخصين وتأليفه بين الضَرَّتين ، وذلك مما قد رُخِّص فيه للحاجة ، وهذا فى معناه فإنَّ القصد به إصلاح ذلك الشخص .

الدرجة السابعة : مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح ، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة فى الدفع ، فإذا اندفع المنكر فينبغى أن يكف ، والقاضى يرهق مَن ثبت عليه الحق إلى الأداء بالحبس ، فإن أصرَّ المحبوس وعلم القاضى قدرته على أداء الحق وكونه معانداً فله أن يلزمه الأداء بالضرب على التدريج كما يحتاج إليه . وكذلك المحتسِب يراعى التدريج ، فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالجرج ، فله أن يتعاطى ذلك ما لم تثر فتنة . كما لو قبض فاسق مثلاً على امرأة ، أو كان يضرب بمزمار معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيأخذ قوسه ويقول له : خل عنها أو لأرمينك . فإن لم يخل عنها فله أن يرمى وينبغى أن لا يقصد القتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعى فيه التدريج . وكذلك يسل سيفه ويقول : اترك هذا المنكر أو لأضربنك ، فكل ذلك دفع المنكر ، ودفعه واجب ، فكل ممكن ، ولا فرق فى ذلك بين ما يتعلق بخاص حق الله ، وما يتعلق بالآدميين .

الدرجة الثامنة : أن لا يقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح ، وربما يستعد الفاسق أيضاً بأعوانه ويؤدى ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا ، فهذا قد ظهر الاختلاف فى احتياجه إلى إذن الإمام . فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك لأنه يؤدى إلى تحريك الفتن ، وهيجان الفساد ، وخراب البلاد .

وقال آخرون : لا يحتاج إلى الإذن – وهو الأنيس – لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف وأوائل درجاته تجر إلى ثوان والثوانى إلى ثوالث وقد ينتهى لا محالة إلى التضارب ، والتضارب يدعو إلى التعاون فلا ينبغى أن يبالى بلوازم الأمر بالمعروف . ومنتهاه تجنيد الجنود فى رضا الله ودفع معاصيه ، ونحن نجوِّز للآحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا مَن أرادوا من فرق الكفار قمعاً لأهل الكفر ، فذلك قمع أهل الفساد جائز لأن الكافر لا بأس بقتله ، والمسلم إن قُتِلَ فهو شهيد ، فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله ، والمحتسب المحق إن قُتِلَ مظلوماً فهو شهيد ، وعلى الجملة فانتهاء الأمر إلى هذا من النوادر فى

الحسبة فلا يُغيِّر به قانون القياس ، بل يقال : كل مَن قدر على دفع المنكر فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه ، فالمسألة إذن محتملة كما ذكرناه » (انتهى) .

من هذه النقول كلها يتضح أنَّ إخلاء أرض الإسلام من الفساد والمفسدين واجب على المسلمين وحق لكل منهم ، وأنه يجوز لكل مسلم استعمال هذا الحق حتى لا يبقى فساد ولا ريبة ولا مفسدون ولا مؤذون فى أرض الإسلام .

وإذا كان إمام المسلمين موجوداً فإنه آثم إن لم يفعل ، وعلى المسلمين أن يفعلوا ، أما والإمام غير موجود فعلى المسلمين أنفسهم أن يقوموا بعملية التطهير هذه حتى تقوم دولة الإسلام وترجع الخلافة . إنَّ أكثر أقطار الإسلام اليوم قد سيطر عليها الكافرون والمرتَدُّون والزنادقة والملحدون والمنافقون والفاسدون والمفسدون على شكل أفراد أو هيئات أو منظمات أو أحزاب . فنشأت فى أرض الإسلام أحزاب ضالة كافرة ، وقامت جمعيات سرية توالى الكافرين ، وتأكد وجود الباطنيين والزنادقة وأهل الإلحاد . ونقض النصارى عهود ذمتهم ، وقامت حكومات أقطار العالَم الإسلامى على هذا المزيج الكافر ، وساعد هذه الحكومات أجهزة : مهمة رجالها تثبيت الفساد ، وجاهر الناس بالمعاصى والكبائر ، وأصروا عليها واستباحوها ، وفُقِدَت الخلافة والإمامة .

وأمام هذا كله فقد أصبح واجباً على المسلمين أن ينظموا عملية تطهير واسعة فى كل قُطر من أقطارهم ، يستأصلون بها مَن ذكرناهم فى باب الشدة على الكافرين ، ويستأصلون بها الفساد ، ويستلمون زمام الحكم فى كل قُطر ويعيدون الأمر إلى نصابه .

وهذا لا يتم إلا بتنظيم عملية الجهاد بالنفس على أرض الإسلام ، يستأصلون بها بلا شفقة ورحمة طوائف الباطنيين الكفرة والبهائيين والقاديانيين ، ويستأصلون بها الأحزاب الكافرة كالشيوعيين والقوميين الجاهليين ودعاة فصل الدين عن الدولة ، ويستأصلون بها رؤوس البدع وأهل الفساد والريب ، ويستأصلون بها

المرتدّين عامة ، ويستأصلون بها الماسونيين وأمثالهم ، حتى تصفو أرض الإسلام للمسلمين . إنّ هذا الآن واجب لا يسع تأخيره ، لأن تأخيره يعنى القضاء على البقية الباقية من الإسلام . وهذه العملية مُقدّمة على الجهاد فى دار الحرب لأنه لا يمكن أن يقوم جهاد على أرض الحرب بدون تصفية الكافرين ، وتوحيد المسلمين ، وإيجاد إمامهم ، ثم لأن جهاد العدو القريب أولى من جهاد العدو البعيد .

يقول ابن تيمية فى فتواه عن طائفة من الباطنيين وهى فتوى تنطبق على كل شبيه لهم فى أرض الإسلام : « ولا ريب أنّ جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات ، وأكبر الواجبات ، وهو أفضل من جهاد مَن لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب ، فإنّ جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدّين . والصدّيق وسائر الصحابة بدأوا بجهاد المرتدّين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب ، فإنّ جهاد هؤلاء حفظ لما فُتِحَ من بلاد المسلمين ، وأن يدخل فيه مَن أراد الخروج عنه ، وجهاد مَن لم يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين ، وحفظ رأس المال ، مقدّم على الربح ، وأيضاً فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك ، بل ضرر هؤلاء من جنس ضرر مَن يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب ، وضررهم فى الدين على كثير من الناس أشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب ، ويجب على كل مسلم أن يقوم فى ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب ، فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم ، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم ، ولا يحل لأحد أن ينهى عن القيام بما أمر الله به ورسوله ، فإنّ هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله تعالى ، وقد قال الله تعالى لنبيه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِد الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ ﴾ (1) ، والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى » . إنّ علينا أن نجاهد بيدنا فى أرض الإسلام على كل حال .

---

(1) التوبة : 73

إن كان إمام يقوم بذلك ساعدناه ، وإن قَصَّر الإمام نصحناه ، وعملنا مهما كلفنا ، وإن لم يكن إمام فعلى المسلمين أن يعملوا .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

إنَّ الله لم يُقَيِّد هذا بوجود إمام ، بل بوجود المسلمين ، والمسلمون فى كل مكان لا يعدمون أن يُؤَمِّروا عليهم أميراً منهم يختارونه ليكون أميراً محلياً عليهم ريثما يوجد الإمام .

وسيقول الناس عنا : إرهابيون ، قتلة سفاكو دماء ، وهذا كله من لوم اللائمين ليثنونا عن الجهاد فى سبيل الله ، وليضغطوا علينا نفسياً كى نتركه ، ولكن الله علَّمنا ألا نخاف لوم اللائمين فى ذاته : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (٢) .

وهناك تهمة أخرى يمكن أن يُتَهم بها المجاهدون فى هذا الباب وهى أنهم خوارج ، وهذه التهمة يلصقها عالمون مارقون ، أو حُكَّام مستغلون ، فلا بد من التفصيل فى هذا الباب ..

يقول فقهاء الحنفية : « الخوارج البُغاة الذين يجوز للإمام قتالهم ، ويجب على المسلمين أن يقاتلوهم مع الإمام هم الخارجون على الإمام الحق بغير الحق ، والإمام الحق هو مَن التزم أحكام الإسلام فى ذاته وألزم الأمة كتاب الله وسُنَّة رسوله ، فهذا مَن خرج عليه كان باغياً ظالماً خارجياً يجوز قتاله » . أما الصور الأخرى فليست من ذلك فى شئ .

فالكافر ليس إمام حق ، والمبتدع ليس إمام حق ، والداعى إلى الضلال ليس إمام حق ، والذى لا يُصلِّى ولا يلتزم أحكام الإسلام فى ذاته ليس إمام حق ، والذى يلغى أحكام الله ، ويعطل شريعته ، ويريد أن ينشر الفسوق والإباحية

---

(١) آل عمران : ١٠٤ (٢) المائدة : ٥٤

ليس إمام حق ، والذى يريد أن يُفرِّق بين المسلمين بالعصبية القومية والوطنية ليس إمام حق . فالخارجون عليه هُداة وليسوا بغاة .

وحتى الإمام الحق إذا خُرِج عليه بحق لا يعتبر الخارجون بغاة بل عليه فى هذه الصورة أن يرجع إلى الحق ، وفى مثل هذه الصورة يقول فقهاء الحنفية :

« يكون المسلمون هنا على الحياد ، فلا يكونون مع الخارجين كيلا يشقوا عصا الطاعة ، ولا يكونون مع الإمام كى لا يساعدوه على الظلم حتى يرجع عنه » .

هذا هو التحقيق فى هذه المسألة وما عداه كذب وافتراء وضلال ونفاق وممالأة للظالمين وركون إليهم .

٢ - الجهاد باليد والنفس على دار الحرب :

إنَّ هذا النوع من الجهاد باليد قد فُصِّل هو ولوازمه وظروفه وأحواله فى كتابنا عن « الإسلام » ويكفى هنا أن نذكر هذه القواعد والنتائج :

١ - أنَّ المسلمين مكلَّفون بإخضاع العالَم كله لسلطان الله .

٢ - ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

٣ - ولما كان هذا الإخضاع لا يتم إلا بوحدة الأمة الإسلامية ، وعودة الخلافة فيها ، وحشد القوى ، وإطلاق الطاقات ، وتعبئة الموارد ، وإيجاد الصناعات من أجل أن توازى قوة الأمة الإسلامية قوة العالَم . فإنَّ هذا كله واجب .

ولما كان هذا لا يكون حتى يعود السلطان فى كل قُطر إلى المسلمين وتصفى الأوضاع الكافرة فيه فإن هذا واجب .

ولما كان هذا لا يتم إلا بالجهاد بالنفس على أرض الإسلام أولاً ، كان ذلك هو الواجب الأعلى الآن .

٤ - وكل ما تحتاجه عملية إخضاع العالَمَ هو واجب على الأمة الإسلامية لا شك فيه . من اختصاص ، لتدريب ، لفن القتال .

٥ – ويكون الجهاد بالنفس فرض عين على كل إنسان قادر فى أرض الإسلام إذا اقتضت العملية مشاركة الجميع ، كما يكون فرض عين إذا هوجمت أرض الإسلام واحتيج إلى التعبئة العامة من أجل الدفاع ، كما يكون فرض عين إذا احتُلّ جزء من أرض الإسلام واحتيج لإنقاذه إلى التعبئة العامة ، أما إذا كانت الأقطار المجاورة تكفى لإنقاذه فيفترض فرض عين على أهلها فقط .

٦ – وأمر الحرب فى عصرنا مُعقَّد ، والمسألة تحتاج إلى موازنات كثيرة وإلى فتوى من أهلها ، والطريق لإخضاع العالَم لسلطان الله طويل ، وحيثما فتحت لنا آفاق الدعوة إلى الله فعلينا أن نلجها ، وقد يضطر المسلمون إلى رفع راية التعايش السلمى مع كثير من الدول بسبب اختلال موازين القوى ، ولكن لا بد من نِيَّة وعمل .

* * *

رابعاً : الجهاد السياسى

الحكومات ثلاث :

(أ) إسلامية عادلة : واجبنا معها الطاعة لها ، والإخلاص لها ، وبذل النصيحة ودعمها ، والمحافظة عليها ، قال عليه السلام : « الدين النصيحة » ، قلنا : يا رسول الله ، لمن ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » [١] .

(ب) وإسلامية جائرة : واجبنا معها نصحها وتقويمها : « إنَّ من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » [٢] ، « حتى تأطروهم على الحق أطراً » .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن تميم الدارى ، وللترمذى والنسائى عن أبى هريرة .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً .

(جـ) وكافرة : واجبنا فيها تغييرها وإنهاؤها : ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ (١) .. والمسلم لا يخلو أن يكون فى ظل واحدة من هذه الحكومات ، وعليه أن يجاهد جهاداً سياسياً فى سبيل الله على حسب نوع الحكم الذى يعيش فيه ، وهذه صور من أنواع هذا الجهاد ضمن كل نوع من أنواع الحكومات التى يعيش فى ظلها المسلم .

(أ) الجهاد السياسى فى دولة إسلامية عادلة :

الحكومات الإسلامية العادلة : هى التى يكون رؤساؤها ورجال أجهزتها مسلمين ملتزمين بالإسلام فى أنفسهم ، ومنهاجها ومنهاج أجهزتها كلها نابعاً عن الإسلام ، وتعمل على تحقيق الإسلام فى أرضها وخارج أرضها ، ومواقفها الداخلية والخارجية كلها إسلامية ، وتخضع لأحكام الله خضوعاً مطلقاً ، وأهدافها فى الداخل والخارج إسلامية خالصة ، شعارها إقامة دولة الله ، وتوحيد أمة الله ، وإحياء سُنّة رسول الله ﷺ ، ونُصرة شريعة الله ، والجهاد فى سبيل الله حتى تكون كلمة الله هى العليا فى العالَمين ، وتربى شعبها تربية إسلامية نموذجية حتى يكون كل فرد جندياً فى حزب الله الذى رأينا صفاته الأساسية فى هذا الباب . فهى مثل واضح للآية : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٢) .

مثل هذه الحكومة التى أميرها وأجهزتها التنفيذية ومجالس شوراها أحرص على الإسلام وتطبيقه من أى فرد آخر . يجب علينا تجاهها أن نخلص لها النصيحة والود ، وأن نقدّم لها كامل الولاء والطاعة فى المعروف. ندافع عنها ونحميها وندعمها ، ونكشف أعداءها ونبذل من أجل بقائها واستمرارها وتوسعها النفس والنفيس فى سبيل الله عزّ وجَلّ ،

(١) التوبة : ٧٣ (٢) الحج : ٤١

دون غرض آخر . قال الله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (١) .

وقال عليه السلام : « مَن خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية » (٢) .

وقال عليه السلام : « مَن أطاعنى فقد أطاع الله ، ومَن عصانى فقد عصى الله ، ومَن يطع الأمير فقد أطاعنى ، ومَن يعص الأمير فقد عصانى » (٣) .

وقال : « عليك بالسمع والطاعة فى عُسرك ويُسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك » (٤) .

وقال : « ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ... ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه منها ما يريد وفىَّ له وإن لم يعطه لم يف له » (٥) .

(ب) الجهاد السياسى فى دولة إسلامية منحرفة :

ومظاهر الانحراف فى الدولة الإسلامية كثيرة : أن يكون أميرها ظالماً ، أو فاسقاً ، أو يستعمل غير الأكفاء فى أجهزته ، أو غير المسلمين ، ولا يكون هناك التزام كامل فى الشريعة الإسلامية داخلياً وخارجياً ، ففى مثل هذه الحالة ننظر إن كان الأمير وحكومته لا يزالون يعترفون لله بالحاكمية ولا يعترفون بشريعة أخرى غير شريعته ، فهؤلاء فُسَّاق ، الحد الذى بيننا وبينهم الصلاة فإن كانوا يلتزمون بالصلاة فلا نقاتلهم ، وإن استطعنا عزلهم بالوسائل السلمية عزلناهم ، وإن كانوا لا يلتزمون الصلاة حاربناهم حتى نعزلهم ، ونقيم فيهم حد الله وحقه .

---

(١) النساء : ٥٩ (٢) رواه مسلم والنسائى عن أبى هريرة .

(٣) رواه البخارى فى كتاب « فضل الجهاد والسير » باب « السمع والطاعة للإمام » ، عن أبى هريرة رواه ومسلم والنسائى وأحمد وابن ماجه فى المقدمة .

(٤) رواه أحمد ومسلم والنسائى عن أبى هريرة . (٥) رواه الستة وأحمد عن أبى هريرة .

روى مسلم عن رسول الله ﷺ : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتُصلّون عليهم ويُصلّون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » . قلنا : يا رسول الله ، أفلا ننابذهم ؟ قال : « لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، إلا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزعنَّ يداً من طاعة » .

وفى حديث آخر رواه مسلم وأبو داود والترمذى : « قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : « لا ما صَلّوا » .

واجتهاد الحنفية : أنَّ الإمام إذا فسق يستحق العزل إذا أمكن عزله بالوسائل السلمية ، وفى الحديث : « أعجزتم إذ بعثتُ رجلاً فلم يمض لأمرى أن تجعلوا مكانه مَن يمضى لأمرى » (١) .

فإذا لم يمكن عزله بالوسائل السلمية وكان يصلى فكيف يكون جهادنا السياسى فى هذه الحالة ؟

١ - ينبغى أن يكون موقفنا منهم موقفاً سلبياً من حيث المودّة والمخالطة ، قال عليه السلام : « أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدى ، مَن غشى أبوابهم وصدّقهم فى كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولستُ منه ولا يرد على الحوض ، ومَن لم يغش أبوابهم ولم يصدقهم فى كذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه وسيرد على الحوض » (٢) .

٢ - الوقوف الدائم فى وجههم عند كل انحراف بالاحتجاج والنصيحة والاعتراض ، قال ابن مسعود : « ستكون عليكم أمراء يدعون من السُنّة مثل هذه ، فإن تركتموها جعلوها مثل هذه ، فإن تركتموها جاءوا بالطامة الكبرى » .

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) قطعة من حديث رواه الترمذى فى باب « ما ذكره فى فضل الصلاة » تحت رقم (٦١٤) مع اختلاف فى بعض الألفاظ يسير ، قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، ورواه النسائى أيضاً .

وقال عليه السلام : « إنَّ من أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » [١] .

وقال : « سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » [٢] .

٣ - تطويق الفساد بكل وسيلة صالحة بدراسته ومعرفته وتحذير الناس منه ومناصحة أهله والكيد بهم إن أمكن ، فمن المواطن التى أجاز فيها الفقهاء الغيبة ما يلى :

« ومنها - أى من المواطن التى تجوز فيها الغيبة - أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها إما بأن لا يكون صالحاً لها ، وإما بأن يكون فاسقاً أو مغفلاً ونحو ذلك ، فيجب ذِكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ويولى مَن يصلح ، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ، ولا يغتر به ، وأن يسعى فى أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به » [٣] .

٤ - وفى عصرنا هذا وقد تطوَّرت أجهزة الدولة ، وتطوَّرت وسائلها فعلى المسلمين أن ينظموا عملية تطويق الفساد والمناصحة داخل دولتهم المنحرفة . فبعضهم يأخذ على عاتقه مراقبة أجهزة الإعلام ومحاولة كف شرها ومناصحة أهلها ، ونقد أعمالهم ، وإيقافهم عند حدهم . وبعضهم يتولون أمر جهاز الداخلية ، وآخرون أمر جهاز التعليم ، وآخرون أمر جهاز الخارجية ، وآخرون أمر جهاز المالية ، وآخرون مناصحة الرئيس الأعلى ، وآخرون أمر الجيش ... كل ذلك بتنسيق وتفاهم وسلام لا مهادنة فيه على باطل .

٥ - أن ينشط المسلمون فى الجهاد اللسانى ، والجهاد التعليمى ، حتى يُوجِدوا رأياً عاماً يضطر فيه الحكم لمسايرته فى الإسلام . أما بدون ذلك فالحكم يقفز نحو الفساد مسايرة للرأى العام الفاسد .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً .

(٢) رواه الحاكم عن جابر بن عبد الله والطبرانى فى « الكبير » عن علىّ ، ورمز السيوطى لصحته .

(٣) رواه النووى فى الأذكار .

٦ - أن يأخذ ناس على عاتقهم تنظيم عملية الجهاد باليد دون الوصول إلى صدام مع الدولة وقتال معها وإنما لإنكار المنكر على الأفراد ، فيتتبعون آلات اللهو والصور العارية والخمر والتبرج و ... على أن لا يلجأوا إلى اليد إلا بعد استفراغ جهدهم .

٧ - الارتفاع شيئاً فشيئاً نحو الإسلام بخطوات متلاحقة منظمة قصيرة وناجحة ، حتى يعودوا بحكومتهم إلى حالة العدل الكامل .

والكلام هذا كله في دولة تعترف بالإسلام ، ويقيم رجالها الصلاة ولكن فيها شئ من الانحراف عنه .

هذا الكلام الذى مَرَّ إنما هو فى دولة إسلامية منحرفة لا يوجد غيرها ، ولكن لو أنَّ هذا الانحراف كان فى قُطر من أقطار المسلمين ، وبقية أقطار المسلمين خاضعة لسلطان خليفة حق ، فإنه فى هذه الحالة يجب على الإمام الحق أن يقوم هذا الانحراف ولو بالقوة والحرب .

وكذلك الحكم لو أنَّ الانحراف وُجِدَ فى قُطر فأصبح هذا القُطر دار فسوق ، وقامت دار عدل فى قُطر آخر يتمثل بها الإسلام تمثلاً تاماً ، فإن لدار العدل فى هذه الحالة أن تفرض العدل على الدولة الأخرى ولو بالحرب ، بل لدار العدل حق إخضاع كل خارج عليها كما مَرَّ معنا فى غير هذا الكتاب .

(جـ) الجهاد السياسى فى دولة كافرة :

ناقشنا فى كتاب « الأصول الثلاثة » موضوع الحكم الإسلامى وفرضيته وكونه لا بد للمسلمين منه . ونقول الآن : إنه ليس أمام المسلمين خيار فى حالة كونهم محكومين من قِبَل كافرين ، سواء أكانوا مرتَدِّين ، أو مستعمرين أو غير ذلك ، إلا أن يقاتلوا ليستأصلوا النظام الكافر الذى يحكمهم ، وإذا لم يكونوا يستطيعون القتال فعليهم أن يُعدوا عُدَّته ، وكل ما يلزم معه من لوازم الدولة المسلمة ، وما لم يفعلوا ذلك فإنهم آثمون آثمون آثمون :

لأن الفرائض العامة التى كلّفهم بها اللّه معطّلة ، ولأنهم يعطون طاعتهم وذلتهم لغيرهم ، ولأنهم يُعَرِّضون ذريتهم للتكفير ، ولأنهم بتقاعسهم يعم الكفر ويقوى سلطانه .

وهذه قضية لا يجوز أن تكون محل نقاش .

وقد رأينا النصوص الواردة فى هذا الموضوع ، فليراجعها مَن شاء فى مقدمة هذا الكتاب ، وفى هذه الفقرة منه وفى كتابنا عن « الإسلام » ، فمَن لم يقتنع بعد هذا بوجوب الجهاد السياسى لإسقَاط واستئصال النُظم الكافرة التى تحكمه فهو إما جاهل ، أو مستكبر ، أو جبان لا يرغب أن يتحمل مسئولية هذا الجهاد ، والذين يعملون للإسلام الآن غلبت عليهم وجهات نظر بعضها إيجابى قاصر وبعضها سلبى ، بعضها مفيد على ألا يُقتَصر عليه ، وبعضها مضر ، ونحن نرى أنفسنا مضطرين لمناقشة هذه الوجهات من النظر كلها على اعتبار أنَّ هذه المناقشة ضرورية ليخطو المسار الخطوة التى لا بد منها ، ولنضع هذه الوجهات فى الإطار الذى ينبغى أن توضع فيه كعمل لا بد منه لتصحيح مفاهيم العاملين ومقدمة لجهد سليم بدونه تبقى الجهود مبعثرة :

١ - يذهب بعض المسلمين إلى وجوب إقامة جمعيات خيرية إسلامية تقيم بعض جوانب الإسلام : كالزكاة فتقدِّم للمحتاج ، وتسد عوز المعوز ، وتحقق بهذا جانباً مهماً من مقاصد الإسلام . وهذا عمل لا شك مبارك وطيب ، وتلتزم عادة هذه الجمعيات بقانون الدولة الذى يُلزِم هذه الجمعيات بعدم القيام بنشاط سياسى ، وهذا شئ لا تستطيع الجمعيات القيام إلا بالالتزام به ، ولكن هل يعنى وجودى فى جمعية خيرية أنه لا يجوز لى أن أشارك فى أى عمل إسلامى آخر ؟ وهل قيامى ببعض الخدمات الإسلامية يعفينى من واجباتى الأخرى ؟ وهل القانون الذى حظر على الجمعيات الخيرية أن تشتغل فى نشاط سياسى يُحرِّم على أفرادها أن يشاركوا فى العمل العام للأمة ؟ يبدو أن الجواب بالنفى على هذه الأسئلة هو الجواب الصحيح . فإنَّ جابى الصدقات وموزعها يطالَب بالإسلام كله

كما يطالب غيره ، ويطالَب بالعمل الإسلامى كما يطالَب غيره . تصور مثلاً جابياً على عهد عمر أعطى لنفسه حق عدم الجهاد فى حالة فرضية الجهاد ، فماذا يكون جواب الخليفة على هذا ؟

إنَّ للقلب وظيفة توزيع الدم للجسم ولو عُزِلَ عن الجسم يموت ، وكذلك الفرد فى الجمعية الخيرية يقوم بواجبه فيها ، ولكن على أن يبقى جزءاً من الجسم الإسلامى العام ، يشارك فى حياته وحركته فيبقى جزءاً مرتبطاً فى الكل .

إنَّ من حق الجمعية أن تطالب أعضاءها داخل الجمعية أن يبقوا فى إطار القانون الذى قامت به الجمعية ، ولكن ليس من حق أحد أن يمنع أحداً يريد أن يشارك خارج حدود الجمعية بالعمل الإسلامى العام ، وحتى القانون لم يطلب هذا ، فكم من زعيم سياسى مثلاً منتسب إلى جمعية خيرية لم يمنعه انتسابه أن يبقى عاملاً فى المحيط العام ، ولم يمنع الجمعية من قبول مشاركته فى العمل السياسى وإن كان هو ملتزما بألا يجعل الجمعية مسرحاً لنشاطه السياسى أو يستغلها فى هذا الموضوع ، ولها الحق أن تطالبه بهذا إذا وجدت منه ذلك .

وإنى أسأل : لو كان هناك حزب منفرد فى الحكم ، فهل ترى الدولة وقتذاك ، أو الجمعية ، أنَّ القانون يُحرِّم على أفرادها خارجها أن يكونوا منتسبين لهذا الحزب ؟

إنَّ الجمعيات الخيرية الإسلامية التى تمنع أفرادها من المشاركة فى أى عمل إسلامى مع المسلمين خاطئة أكثر من مرة . خاطئة لأنها لم تفهم عموم الآية : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) . وخاطئة لأنها لم تفهم عموم الآية : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ (٢) . وخاطئة لأنها تطالب نفسها بما لا يطالبها به القانون الكافر نفسه .

---

(١) الحجرات : ١٠ .

(٢) المائدة : ٢

٢ - ويشبه هذا إلى حد كبير مع وجهة نظر أخرى ما يحدث عند طبقة العلماء وإخوانهم سواء أكانوا علماء فقه أو علماء طريق . ففى العادة أنَّ كل عالِم يكون قطباً لدائرة يلتف حوله فيها ناس يكثرون أو يقلون تبعاً لقوة شخصية العالِم أو تأثيره أو علمه أو بيانه أو ...

وكل مجموعة حول عالِم تشكل بشكل عفوى جماعة ، أو جمعية ، واجب العالِم فيها أن يُعلّم ، وواجب الفرد فيها أن يتعلم ، ونحن نعتقد أنه حيثما كان علم كان انتصار للإسلام ، وحيثما كان جهل كان ذاك انحساراً له ، وفى الأثر الذى معناه : « إنَّ لهذا الدين إقبالاً وإدباراً ، ومن إقباله أن تتفقه القبيلة بأسرها ، ومن إدباره أن يتفقه الرجل والرجلان » [١] . ما يؤيد هذا المعنى .

ولكن الشئ الذى يؤخذ على الجمعيات السابقة ، يؤخذ على هذه الجمعيات ، وهو عزل أفرادها عن بقية المسلمين . فإنَّ كل مجموعة التفت حول عالِم أصبحت تستشعر أخوتها العميقة فيما بينها ، وأنها تشكل جسداً واحداً ، والتحاب فى الله ، والأخوة فى الله شئ جميل وعظيم جداً ، ومَن لا يذكر الأحاديث الواردة فى الحث على ذلك ؟ ولكن أن يكون ذلك على حساب وحدة المسلمين جميعاً ، وأخوة المسلمين جميعاً ، فهذا شئ قبيح . ففى الأصل ينبغى أن يكون المسلمون جميعاً جسداً واحداً ، وأن يكونوا جميعاً إخواناً لهدف واحد . وطريق واحد ، وعمل متشرك . ولكن ما يجرى هو عكس هذا ، فعندما يكون فى بلد عشرة علماء ، تجد عشرة أجسام ، وبدلاً من أن تشكل الأجسام العشرة صفاً واحداً ، تجدها تتصارع أحياناً ، وبدلاً من أن ينفتح كل واحد من العلماء مع أتباعه على إخوانه من العلماء وأتباعهم ، تجده مغلقاً على ذاته هو وإخوانه ، وبالتالى تجد أنَّ كل مجموعة من هؤلاء قد انفصلت شعورياً أو لا شعورياً عن الجسم الإسلامى العام ، ولم تعد تتحرك بحركته ، بل أصبح لها كيانها المنفرد ، وحركتها الخاصة ، لدرجة أن يصل ببعضهم الأمر إلى حد تحريم المشاركة فى أى

---

(١) رواه الطبرانى عن أبى أمامة وفيه يزيد بن على : متروك .

عمل إسلامى خارج هذه الحركة المحدودة . ونستثنى طبعاً طبقة من العلماء يمثلون ذروة الوعى الإسلامى بانفتاحهم على العمل الإسلامى العام ، وعلى كل العاملين العاملين للإسلام ، ولا شك أن للكثير من المواقف أسبابها ، والأمر يحتاج إلى علاج .

٣ - ومن وجهات النظر التى يذهب إليها بعض العاملين للإسلام ، وجهة النظر التى تقول : إنّ علينا ألا نتدخل فى الشئون السياسية ، ثم ينقسمون . فمنهم مَن يصل إلى حد الترك المؤبد لأنّ السياسة تُلهى عن اللّه والدار الآخرة ، ومنهم مَن يقول : نتركها إلى أمد ، ومنهم مَن يقول ، إنّ ترك السياسة من السياسة ، والدولة الإسلامية ثمرة ، ستكون نتيجة لإيصال الإسلام إلى كل إنسان ، والتربية عليه وهكذا ... ونحن نُفرِّق فى هذا الموضوع بين حالتين ، الحالة الأولى : حالة ما إذا كنتُ داخل دولة غير دولتى التى أعيش فيها . كأن خرجت من قُطرى إلى قُطر آخر من أجل التبشير بالإسلام ، ففى هذه الحالة يبدو أننى مقيَّد بعدم التدخل فى السياسة الداخلية لهذا البلد لأننى بهذا الشرط دخلت ، وبدونه يبقى باب العمل الإسلامى فى هذا القُطر أمامى مغلقاً ، فإنه لن تسمح لى دولة أن أدخل بلادها لأنقد أوضاعها ، ولكنها تسمح لى أن أدخل عارضاً للإسلام ومبشراً به .. فهذه حالة .

والحالة الأخرى : حالة وجودى فى دولتى التى أعيش فيها .. فما الحكم ؟

يجب قبل الجواب على هذا السؤال أن نذكر بعض الأمور :

(أ) أصبحت الدولة فى العصر الحاضر بيدها مقاليد كل شئ : التربية ، والتعليم ، والاقتصاد ، والجيش ، والشئون الاجتماعية ، والسياسية ، والفكرية ، والثقافية .. فما من شئ له علاقة بالجنس البَشرى إلا وترى كل حكومة من الحكومات أنّ لها الحق فى الإشراف عليه ، وأصبح العمل السياسى نتيجة لهذا له علاقة بكل شئ يخص الإنسان .

(ب) وكل حكومة فى العالَم تقوم على أساس تكتل شعبى له صفة الحزب السياسى ، حتى الحكومات العسكرية والديكتاتورية تحاول مباشرة بعد الاستيلاء على الحكم أن تقيم لها تنظيماً حزبياً سياسياً على أساس فكرى .

(جـ) ونتيجة لهذا فقيام الأفكار والآراء الإصلاحية أو السياسية بشكل مطلق مرتبط تنفيذه بوجود الحكم والحزب . فلا حكم إلا بحزب ، والحزب ما لم يصل إلى الحكم تبقى نظرياته مجرد آراء لا قيمة عملية لها . والمسألة الآن فى العالَم الإسلامى على الشكل التالى :

فى كل قُطر من أقطار العالَم الإسلامى تقوم حكومة يدعمها تكتل ، هذه الحكومة مع تكتلها غير ملتزمة عملياً - وفى غالب الأحيان - ونظرياً بالإسلام. ونظراً لأن الدولة فى عصرنا الحاضر بيدها كل شئ فإنَّ النتيجة الطبيعية لهذا أن كل دولة من دول العالَم الإسلامى تصبغ شعبها الصبغة التى تريدها ، ودائماً تكون هذه الصبغة « اللاإسلام » ولو تظاهرت هذه الدولة بعدم معاداتها للإسلام كدين .

ونظرة واحدة إلى هذا الجيل الموجود الآن فى العالم الإسلامى تريك أنَّ هذا الجيل ليس للإسلام فيه نصيب إلا إذا كان الاسم يعتبر نصيباً ، وحدث كأثر عن هذا :

(أ) أنَّ الوحدة الإسلامية غير قائمة ، ولا تسعى إليها أى دولة فى العالَم الإسلامى ، بل تنفر منها ، وتحاربها ، مع العلم أنها فريضة على المسلمين .

(ب) أنَّ شعيرة الجهاد قد ماتت نظرياً وعملياً وتحقيقاً ، وهى فريضة على المسلمين .

(جـ) وأحكام الإسلام معطلّة فى كل قطر إسلامى وهى فريضة على المسلمين : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَىٰ ﴾ (١) ، ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ١٧٨ (٢) النور : ١

وأمام هذا الواقع فما حكم إقامة حكومة إسلامية فى كل قُطر من أقطار الإسلام ؟

إنَّ ما لا يتم الواجب إلا به فهو اجب . وما دامت أحكام الله لا تقوم ، والجهاد لا يقوم ، والوحدة الإسلامية لا تقوم إلا بوجود حكومة إسلامية فى كل قُطر إسلامى ، فقد أصبح قيام هذه الحكومة فريضة فى كل قُطر على المسلمين فى قُطرهم ، وعلى مَن يستطيع مساعدتهم من غيره .

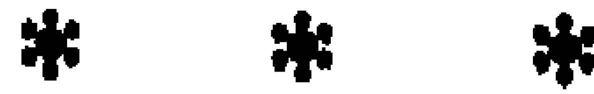
ويفهم بعض المسلمين أنَّ المشاركة فى العمل من أجل إقامة حكم الإسلام فى كل قُطر فرض كفاية إذا قام به بعض المسلمين سقط الإثم عن الباقين . وهذا صحيح إذا كان هذا البعض يكفى ، إذ كلمة « فرض كفاية » تعنى بشكل واضح أنه إذا قام به من المسلمين ما يكفى فقد سقط عنهم ، أما إذا لم يقم به من المسلمين ما يكفى فإنه يبقى مفروضاً على كل فرد ، وما دام حكم الإسلام غير قائم الآن ففرض على كل مسلم فرضاً عينياً العمل من أجل إقامته ، وإذا كانت الفوضى لا تقيم حكماً ، فالنظام فريضة ، وإذا كانت الفُرقة لا تقيم حكماً ، فوحدة المسلمين فريضة ، وإذا كان للحكم طريق ، ففريضة سلوك هذا الطريق فريضة ، وإذا كان الحكم يحتاج إلى نوع معيَّن من الإعداد والأجهزة ، ففريضة وجود هذا الإعداد وهذه الأجهزة . وهذا كله يُطلق عليه اسم العمل السياسى ، وبهذا يكون الجواب قد وضح بالنسبة للسؤال الذى أشرنا إليه عن حكم العمل السياسى بالنسبة لكل فرد مسلم فى كل قُطر .

بل الذى نقوله : إنَّ المسلم ينبغى أن يكون على درجة من الوعى السياسى لا مثيل لها فى العالَم ، وذلك ما دام كل قضية من قضايا الإنسان للّه فيها حكم ، والمسلم كمسلم يجب أن يتبنى هذا الحكم ويطبقه على نفسه ، ويسعى لتطبيقه على غيره ، وما دامت الدولة قد أصبح مجال عملها كل القضايا ، وما تفعله الدولة إما أن يكون موافقاً للإسلام أو مخالفاً له ، والمسلم كمسلم ينبغى أن يكون موقفه سلبياً أو إيجابياً تبعاً لذلك ، ولا يستطيع أن يتخذ موقفاً معيَّناً إلا إذا كان على وعى عظيم . فهو إذن غير مُخيَّر فى أن يتخذ موقفاً

سياسياً أو لا يتخذ ، بل كون الشريعة الإسلامية كاملة يفرض عليه أن يدور مع الكتاب حيث دار .

وهذا معنى آخر يجعل العمل السياسى بالنسبة للمسلم ضرورة من الضرورات فى كل الأحوال ، فى حال وجود الحكم الإسلامى أو عدمه ، ولعل عدم الوعى السياسى عند المسلمين كان من جملة العوامل التى أدت إلى كارثة العالم الإسلامى .

ومعنى ثالث يجعل العمل السياسى الإسلامى بديهة من البديهيات ، هو وجود أحزاب سياسية لا إسلامية فى العالم الإسلامى تسعى للوصول إلى الحكم ، أو هى فيه فعلاً ، فإنَّ هذا يقتضى مباشرة أن يشكل المسلمون حزباً سياسياً وجماعة تعمل على أساس العقيدة الإسلامية ، بتخطيط أدق ، وعمل أتم ، وفكر منظَّم ، كى لا تُبتلى الأمة بوصول الكافرين والمنافقين إلى الحكم ، فتقطع الطريق عليهم ، أو تحول دون استمرارهم فى حالة وصولهم إلى الحكم ، خاصة بعد أن أصبح الحكم - كما قلنا - لديه من وسائل القوة والدعاية والتعليم والضغط الاقتصادى ما يستطيع أن يجرف به أمة عن اتجاهها مهما كان نوع هذا الاتجاه ، وما حدث فى تركيا على يد القوميين الأتراك يجعل المسألة فى وضوح الشمس .



إنَّ البرتوكول الخامس من بروتوكولات حكماء صهيون يذكر أنَّ اليهود يحاولون أن يبلبلوا الرأى العام بما يُقدِّمون له من أفكار متناقضة متصارعة . حتى يكون أحسن شئ عند الرجل العادى ألا يتدخل فى الشئون السياسية .

ولعله ليس مصادفة أن نجد الاستعمار والصليبية والصهيونية والحكومات المماثلة لها داخل العالم الإسلامى يشجعون جميعاً الاتجاهات التى تفصل بين المسلم والعمل العام أو التى تُفرِّق المسلمين كى لا يتحد المسلمون على هدف واحد .

إنَّ المسلم الذى يطرح شعار : « لا أتدخل فى الشئون السياسية » . إما أنه لا يفهم الإسلام ، أو جبان لا يريد أن يقف بصلابة مع حكم الإسلام .

ولو سلكنا هذا الطريق لأخرجنا جيلاً سلبياً انهزامياً خائراً واهماً بعيداً عن مشاكل الحياة ، تاركاً الدنيا للمفسدين يعيثون فيها فساداً . وقد بُعثَ الرسل عليهم السلام لصلاحها : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (١) ، ونجعل المسلمين وقتذاك فيها عبيداً مستذلين ، وهم الآن كذلك ، وعندئذ فمصيرهم ومصير أبنائهم أن يكونوا كافرين . إنَّ طرح هذا الشعار إما عمالة ، أو جهالة ، إلا مَن طرحه مداراة أو خدعة للوصول إلى حق لا يمكن الوصول إليه إلا به .

إنه عندما تضطر طبيعة بعض الأعمال ، وضرورة الحركة بعض الناس أن يظهروا بمظهر العمل الإسلامى غير السياسى فيجب عليهم أن يفرقوا هم ومَن يتعاون معهم من المسلمين بين مظهرهم المضطرين للظهور به داخل هذا الإطار الذى يعملون فيه ، وبين واجب كل فرد منهم كمسلم أن يشارك كفرد خارج هذا الإطار فى العمل الإسلامى السياسى المشترك الذى يفترض على كل مسلم المشاركة فيه بنظام ووعى . أما أولئكم الذين يفرضون على أنفسهم ، وعلى مَن يسير معهم عدم المشاركة فى العمل الإسلامى السياسى العام مع بقية المسلمين ، فهم آثمون مرتين : مرة لأنهم لم يشاركوا ، ومرة لأنهم منعوا غيرهم من المشاركة فى فريضته ، وقد يكون الشئ الذى انفردوا فيه نافلة ضيَّعوا من أجلها فرائض .

٤ - ومن وجهات النظر فى العمل الإسلامى : وجهة النظر التى تقول بأنَّ على المسلمين أن يكون لهم تكتل سياسى ذو فكر واضح ، بأن يتبنى هذا التكتل آراء واضحة فى كل القضايا المطروحة ، حتى ولو كان الحكم فيها خلافياً بين أئمة الاجتهاد ، ويُفرض هذا الرأى المتبنى على كل فرد من أفراد

---

(١) الأعراف : ٨٥

التكتل ، بحيث لا يُقبل المسلم عضواً فى هذا التكتل إلا إذا التزم التزاماً كاملاً بكل الفكر المتبنى ، لدرجة أنه لو خالف فى قضية واحدة لم يعد عضواً معترفاً به .

مثل هذه الوجهة من النظر تحتاج إلى نقاش دقيق لما لظاهرها من البراقية التى تخدع عما فى باطنها من خطر كبير .

فأن يكون للمسلمين تكتل سياسى فريضة ، وأن تكون أفكارهم واضحة شئ أساسى ، ولكن التبنى وفرض هذا التبنى ، وعدم قبول الإنسان إلا به ، هنا يكمن موطن الخطر . ولفهم المسألة نصوغها على الشكل التالى :

(أ) إنَّ أحكام الإسلام بعضها واضح ، وبعضها لا يُتوصل إليه إلا باجتهاد ، والاجتهاد لا يستطيعه إلا إنسان توفرت فيه شروط كثيرة ، فإذا ما توفرت هذه الشروط لإنسان صار له حق إعطاء حكم اللّه . وقد تتوفر هذه الشروط لكثير من الناس ، وعندئذ يكون عندنا مجتهدون ، لا مجتهد واحد ، وفى العادة أنَّ كل مجتهد من هؤلاء المجتهدين يبذل قصارى جهده لاستخراج حكم اللّه ، وفى العادة لا تُعطى صفة الاجتهاد لمن لم يكن فى الذروة من التقوى ، وبهذا يطمئن المسلم إلى أنَّ الحكم الذى استخرجه هذا الإنسان منزَّه عن الهوى .

وقد يختلف هؤلاء المجتهدون فى حكم القضية الواحدة ، وفى العادة لا يختلفون حيث يكون دليل القضية واضحاً من الكتاب والسُنَّة ، إذ فى حالة الوضوح لا يسع مسلماً الخروج عن الكتاب والسُنَّة إلى غيرهما . وفى حالة اختلافهم فى قضية واحدة تُعتبر آراؤهم فى هذه القضية كلها آراء إسلامية ، وتدخل فى حيِّز الشريعة الإسلامية وقوانيها ، وبالتالى : المسلم الذى يأخذ بواحدة من هذه الاجتهادات يكون على إسلام . يقول الشافعى : أجمع العلماء على أنَّ اللّه لا يُعذِّب فيما اختلف فيه العلماء . ويذهب بعضهم إلى أنَّ فى الإسلام حداً أدنى وأعلى ، واختلافات المجتهدين كلها تدور بين هذين الحدين . فأرفق الأقوال فى القضية يمثل الحد الأدنى من الإسلام وأعلاها يمثل الحد

الأعلى ، وكلما ارتقى المسلم في تقواه كان أقرب إلى ذروة الإسلام . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [1] ، « لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس » [2] .

(ب) في هذه القضايا المختلف فيها بين المجتهدين لا يستطيع إنسان أن يفرض على الأمة كلها رأياً واحداً منها ، إلا إنسان واحد هو خليفة المسلمين أو نائبه في كل قُطر بتفويض من المسلمين ، وحرصاً على وحدة التشريع والقانون ، واختياره رأياً من الآراء لا يجوز أن يكون بدافع الهوى ، بل بدافع المصلحة ، حرصاً على الأقرب إلى الحق ، وبعد استشارة أهل الرأى ، وبقيود معيَّنة تُعطى حرية الاحتكام الشخصية لبعض الآراء المخالفة في القضايا الشخصية إذا اتفق المختصون على تحكيمها .

وقد سُئِلَ المودودى سؤالاً حول هذا الموضوع وأجاب عليه ، وفيما يلي نثبت السؤال والجواب توضيحاً للمسألة التي بين أيدينا :

س : ما زلتم إلى اليوم تقتصرون على بيان المبادئ الأساسية للدستور الإسلامي ، فلماذا لم تعدوا إلى الآن مسودة لهذا الدستور ؟ ولو أنكم فعلتم هذا لكان أنفع لكم وأجدى ، ولعلم الناس بكل سهولة نوع نظام الحكومة الذى تريدون إقامته في البلاد .

جـ : إنى لا أرى في الدنيا أشد خطأ وسفاهة من رجل أو جماعة يضع الدستور من غير سُلطة ولا صلاحية . وما وضع الدستور إلا من وظيفة جماعة تستند إلى قوة منفذة ، وما علينا اليوم إلا أن نعرض مبادئ الدستور الأساسية (انتهى).

أما إذا أعطى المسلمون السلطة لجماعة وأمير ، ففى هذه الحالة يحق للأمير والجماعة أن تضع الدستور الإسلامي وتختار ...

---

(١) الزمر : ١٨

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن عطية السعدى .

(جـ) وإذن فليس من حق فرد ولا جماعة أن يتبنى رأياً ويفرضه على المسلمين ، لأنَّ هذا ليس من حقه أولاً . وثانياً : لأن هذا التبنى الصلب خطر على وحدة المسلمين ، وبالتالى يكون حجر عثرة فى سبيل إقامة دولة الإسلام ، إذ بسببه تنشأ كيانات إسلامية كثيرة ، كل واحد منها يتبنى آراء كاملة ، ويفرضها على أتباعه ، ولا يقبل مَن لا يلتزم بها فى صفه ، ويعتبر الآخرين على خطأ ، وعندئذ تنشأ فى القُطر الإسلامى الواحد تكتلات لا حصر لها من المسلمين .

فمثلاً نفرض أنَّ فى قُطر ثلاثين عالِماً فى درجة واحدة من العلم . فهؤلاء قد يختلفون فى كثير من الأحكام ولِمَ لا ؟ فالمالكية والحنابلة والشافعية والحنفية مختلفون فى كثير من القضايا ، وكلهم يقول : إنَّ الدليل معى ، ولا يُتهَمون فى دين ولا تقوى . فإذا كان كل واحد من هؤلاء العلماء يصر على رأيه ، ويفرضه على جماعته ، ولا يقبل فى جماعته إلا مَن التزم بكامل آرائه الفقهية والعلمية ، ففى هذه الحالة تتشكل حتماً ثلاثون جماعة إسلامية ، لا تلتقى مع بعضها ، إذ لا يخلو إن اتفق هذا مع هذا فى بعض الأحكام والآراء فقد يختلفان فى حكم ورأى ، وهكذا لا بد أن ينفرد الواحد عن البقية برأى ، وهذا كاف ليبقى هذا بعيداً عن أخيه .

أما فى حالة عدم التبنى ، فالأمر يختلف ، إذ يمكن أن يكون الجميع يداً واحدة ، وذلك حكم الله : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (١) ، وتُعرض الآراء الاجتهادية فى القضية الواحدة كمذهب ، والعمل ينصب لإقامة الدولة الإسلامية ، فإذا ما قامت ، فمن أعطاه المسلمون سلطتهم يتبنى . وإذا كانت هناك قضايا تلجئنا إلى أن نتبنى فيها رأياً فيكون بالاتفاق مع التقيد بآراء أهل الاجتهاد .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

٥ - ومن وجهات النظر فى العمل الإسلامى وجه النظر التى تقول بتعدد الفئات الإسلامية بحُجَّة ملء كل ثغرة من ثغرات العمل الإسلامى . فهذا يملأ ثغرة التربية ، وهذا يملأ ثغرة العلم ، وهذا يملأ ثغرة التكافل الاجتماعى ، وهذا يملأ ثغرة الرد على أعداء الله .

وبحُجَّة أنه فى حال غياب فئة من الفئات الإسلامية عن مسرح العمل بسبب ضغط أو إكراه أو عداء ، فإنَّ الفئات الأخرى تبقى سادة مسد العلم بحيث لا يتعطل .

ونحب أثناء عرض هذه الوجهة من النظر أن نذكر بعض الحقائق :

(أ) يقول الله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ (١) لِمَ يكون لكم فى المنافقين وجهتا نظر تقسمكم ؟ فالمسلمون فى صراعهم مع العدو جبهة واحدة برأى موحد : « المسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » (٢) . ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (٣) ، ﴿ وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ (٤) .

(ب) عندما يُشكِّل المختصون بالتربية فئة مستقلة استقلالاً كاملاً عن غيرها ، أو فئات ، والمختصون بالعلم فئة مستقلة استقلالاً تاماً عن غيرها ، أو فئات ، والمختصون بالعمل السياسى فئة مستقلة استقلالاً كاملاً ، أو فئات ، والمختصون بالتكافل الاجتماعى فئة منفصلة عن غيرها ، أو فئات .. تكون النتيجة أن تبقى جماعة التربية فى حالة تكوين ناقص من بقية النواحى ، وكذلك أهل العلم ، وكذلك أهل السياسة ، وكذلك الآخرون .

---

(١) النساء : ٨٨

(٢) روى موقوفاً من كلام سيدنا عمر رضى الله عنه فى رسالة بعثها إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه حين تولى له القضاء ، وقد سبق تخريجه بشكل أوسع فى بحث « الذلة على المؤمنين ومظاهرها » فانظر هناك .

(٣) آل عمران : ١٠٣ (٤) الأنفال : ٤٦

وعندئذ فبدلاً من أن يكون الاختصاص مفيداً فى تكامل الجسم الإسلامى العام ، يكون الاختصاص أداة لتمزيق هذا الجسم والقضاء عليه . عندما وقعت الردّة كان للمسلمين قيادة واحدة متمثلة فى الخليفة ، وكانوا يُشكّلون صفاً واحداً مع وجود بعض المميزات لبعض الأشخاص فى بعض الجوانب ، وكانوا كلهم على درجة عظيمة من الوعى والعلم والتربية والعمل ، وهذا هو الوضع الصحيح للمسلمين ، قد يتظاهر المسلمون - لضرورة المعركة - أنه لا رابطة تربط بين فئاتهم ، ولا تنظيم يجمعهم ، ولا تخطيط يوحدهم ، ولا هدفاً مشتركاً يسعون إليه ، فهذا جائز ، ولكن على أن يكونوا متّحدين هدفاً ، متّحدين طريقاً ، متّحدين قيادة ، جسداً واحداً كل يعمل من أجل تكامله ، وغير هذا لا يجوز .

٦ - ومن وجهات النظر فى العمل الإسلامى وجهة النظر التى تقول : إننا اليوم فى مرحلة العهد المكى ، ويعنون بهذا أنّ هذه المرحلة مرحلة تكوين وليست مرحلة صراع ، مرحلة صبر وليست مرحلة جهاد ، ومثل هذا الرأى خاطئ مرتين : مرة فى تصوره للعهد المكى ، ومرة فى تصوره للإسلام .

فالعهد المكى ليس عهداً خالياً من الصراع ، وليس عهداً خالياً من الجهاد فى بعض صوره . والله يقول فيه : ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [1] ، بل على العكس من ذلك كانت أعنف مراحل الصراع الفكرى مرحلة العهد المكى ، به تميّز الفكر الإسلامى عن الفكر الجاهلى ، وتميّز المجتمع الإسلامى عن المجتمع غير الإسلامى ، ثم كان الصراع مع الباطل جزءاً من أجزاء التكوين للشخصية الإسلامية ، وكيف تتكوّن الشخصية الإسلامية بدون صراع مع الجاهلية ؟ ولم يكن الصبر إلا نتيجة من نتائج الجهاد الفكرى واللسانى ، ولم يكن أبداً الصبر الذى يتصوره بعض الناس أن يقف الموقف السلبى الانهزامى من الكفر والكافرين ، ويصبر بعد ذلك على سخريتهم وأذاهم . إنّ الأنبياء

(١) الفرقان : ٥٢

كانوا يصبرون ، ولكن بعد أن يُعَرُّوا الباطل ، ويبينوا الحق ، ويُسَفِّهوا عمل الآخرين ، ويتحملوا بعد ذلك موقف الآخرين منهم بصبر .

وأما أنه خطأ فى تصوره للإسلام ، فذلك لأنَّ الإسلام قد تم واكتمل ، والتشريع الإسلامى قد استقر ووضح ، وأحكام الله قد بُيِّنَت ، والمسلم الآن أصبح مطالباً بكل الإسلام - لقد فُرِضَ الحج فى المدينة ، أفيرى هؤلاء أنهم غير مطالَبين بالحج لأنهم فى مرحلة العهد المكى ؟! فكما أنه لا يسعهم أن يتركوا الحج ، كذلك لا يسعهم تناسى أى جزء من أجزاء الإسلام .

إننا لسنا فى مرحلة العهد المكى ، ولكننا فى مرحلة الرِدَّة عن الإسلام بعد الإسلام ، فنحن الآن إذن فى مرحلة العهد المدنى بعد انتقال الرسول ﷺ مباشرة مع بعض الفروق .

لقد أثَّرت فكرة العهد المكى على العمل الإسلامى كثيراً : يتبنى مسلم هذه الفكرة ويعمل على أساسها ، ويلتف حوله مجموعة من المسلمين ، ثم يأتى آخر بعد فترة ويمشى على نفس الطريق ، وآخر وآخر ، وهكذا يبقى المسلمون يعيشون بسبب هذه الفكرة فى العهد المكى طوال العصور ، ولو التقى المسلمون جميعاً على هذه الفكرة ، وحدَّدوا طريقهم على أساسها ، ثم ساروا إلى نهايتها وتجاوزوها ، لأمكن قبول مثل هذه الوجهة من النظر مع ملاحظة اكتمال الشريعة ومطالبتنا بها كلها . ولكن أن يكون هنا خمسون ، وهناك عشرة ، وهناك مئة ، وكل يعمل منفرداً بحجة العهد المكى ، وبعد سنة وخمس وعشر يأتى آخرون وعلى نفس الطريقة ، فهذا معناه الإبقاء على الوضع المتردى الذى وصل إليه الإسلام والمسلمون .

٧ - ومع وجهات النظر الإيجابية هذه فى العمل الإسلامى هناك وجهات نظر سلبية :

(أ) فمن وجهات النظر السلبية فى العمل الإسلامى وجهة النظر التى تقول : إنَّ المسلمين يفقدون القيادة الصالحة للعمل ، وما دامت القيادة غير موجودة فأى فائدة من العمل ؟

والحقيقة أنَّ هؤلاء أنفسهم ووحدهم هم الذين ضيَّعوا القيادة ، وضيَّعوا الطريق الذى يؤدى إلى ظهورها . فعندما يقول الرسول ﷺ : « إذا كانوا ثلاثة فليؤمروا أحدهم » (١) ندرك أنَّ قيادة المسلمين بأيديهم ، هم الذين يظهرونها ، ويخرجونها وعندما يقول : « مَن استعمل رجلاً على عصابة وفيهم مَن هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين » (٢) ندرك أنَّ الأحسن إسلاماً هو الذى ينبغى أن يُؤمَّر . وعندما يقول لأبى ذر وقد سأله الإمرة : « إنك ضعيف وإنها أمانة » (٣) ندرك أنَّ الأقوى هو الذى ينبغى أن يُعطاها .

والمسألة نسبية ، قائد المسلمين منهم ، فليس هناك حُجَّة لإنسان يدَّعى فقدان القيادة . فما دام هناك مسلمون فإنهم يستطيعون أن يُخرجوا من أنفسهم القيادة ، وإذا كان فى القيادة شئ من القصور ، فما من شئ إلا ويمكن اكتسابه .

أما أن يبقى المسلمون بدون قيادة فهذا لا يجوز ، أما أن نقعد بحُجَّة فقدان القيادة فهذا لا يجوز . يقول فقهاء الشافعية : « إذا فُقِدَ الخليفة تنتقل أحكام الخلافة إلى أعلم أهل زمانه » ، وهذا يعنى أنَّ المسلمين لا يصح أبداً أن يبقوا فى حالة من الحالات بلا نظام ولا إمرة .

نعم .. قد نجد أحياناً فقيهاً غير عليم بأحوال الزمان ، وغير بصير بأمور القيادة والتنظيم ، وقد نجد بصيراً بأمور القيادة والعمل والتنظيم ، غير فقيه ، وقد نجد العليم الذى لا يستطيع الوقوف فى وجه الخصوم ، وقد .. وقد ... ولكن كل هذا لا يعفينا من إيجاد القيادة ، ولا يعنى فقدانها ولا يعجزنا إن كنا

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب « الجهاد » ، وقال النووى : حديث حسن بلفظ : « إذا خرج ثلاثة فى سفر فلْيؤمِّروا أحدهم » .

(٢) رواه الحاكم بلفظة : « المؤمنين » عوضاً عن : « وجماعة المسلمين » عن ابن عباس ، ورمز السيوطى لصحته .

(٣) قطعة من حديث رواه مسلم عن أبى ذر فى كتاب « الإمارة » باب « كراهة الإمارة بغير ضرورة » .

مثة أن نُخرج أنسبنا لقيادتنا فى قضية معيَّنة . والشورى موجودة ، والتجربة محك وعامل على تكوين الشخصية . والنواقص يمكن استكمالها إذا صحَّت النيَّة وعُرف الكمال .

(ب) ومن وجهات النظر السلبية فى العمل الإسلامى وجهة النظر التى تقول : « وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهر » . إنَّ الإسلام تناقص بعد ثلاثين عاماً من انتقال الرسول ﷺ باغتيال نظام الخلافة الراشدة منه ، وبقى مستمراً فى تناقص حتى الآن ، وكل يوم يأتى شر من الذى قبله بالنسبة للإسلام ، ويستشهدون على ذلك بحديث رواه أنس بن مالك يقول : « اصبروا ، فإنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ، سمعتُ هذا من نبيكم صلى الله عليه وسلم » [(١)] . وإذن فما فائدة العمل لإقامة الإسلام كله ما دامت النتيجة معلومة ولا فائدة ، فلنقصر جوانب نشاطنا على بعض جوانب الإسلام . العقيدة والعبادة مثلاً ، وهذا وحده كاف فى هذا الزمان الفاسد ، ويأتى الملحدون ويضخمون هذا المعنى ليميتوا روح النضال عند المسلمين ، ومن أجل إقامة دينهم فيقولون : لقد اختلف الصحابة بعد سنوات من وفاة الرسول ﷺ ، وحدثت بينهم معارك طاحنة وهائلة ، وهذا دليل على أنَّ الإسلام - ككل - لا يحمل فى طياته عناصر استمراره .

وتقول طائفة أخرى منهم : إنَّ مثالية الإسلام تجعله غير صالح لعالمنا هذا ، بدليل أنه لم يُطبَّق عملياً إلا فترة الخلافة الراشدة ، وتقول طائفة أخرى منهم : إنَّ الإسلام ليس فيه مناهج حياة بل هو عقيدة وعبادة فقط ، وهؤلاء الذين يقولون : « إنَّ الإسلام فيه مناهج حياة » يخترعون إسلاماً من عند أنفسهم ، ويعملون لشئ لم يأمرهم به الله .

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب « الفتن » باب « ما جاء فى أشراط الساعة » عن أنس بن مالك بلفظ : « ما من عام إلا الذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ، سمعتُ هذا من نبيكم صلى الله عليه وسلم » ، قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وكل هذه الأفكار إنما تضرب على وتر واحد إذ هى من باب المغالطات التى لا يقبلها بصير بالإسلام . فالإسلام عقيدة وعبادة ، ومناهج حياة ، ولا يجهل هذا إنسان له صلة بالإسلام ، وقد مَرَّ معنا قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١) ، وحدوث معركة بين أبناء مذهب واحد ودين واحد يقع دائماً ويخرج منه الأتباع بعد ذلك بتجربة جديدة وعظة ، ولئن كان أحد المتخاصمين على خطأ ، فلا يطعن ذلك فى المذهب نفسه بل يطعن ذلك فى الإنسان المخطئ وحده .

أما أنَّ الإسلام لم يُطبَّق عملياً إلا ثلاثين عاماً ، فذلك كذب على الواقع والتاريخ . فالإسلام هو مضمون الحكم فى الدول الإسلامية حتى القرن التاسع عشر ، والمسلمون لم يكونوا يحتكمون إلا إلى الإسلام .

نعم .. وُجدَت أخطاء ، ووُجدَت انحرافات فى المفاهيم ، وتغيَّرت نفسية المسلم ، وكانت فتن وحوادث ، وفُرقة وخلاف ، وهذا الذى أدى إلى إنهيار المسلمين . وهذا شئ يُقدِّم لنا قوة وصلابة على العمل ، إذ شاهد التاريخ يخبرنا أنَّ إنحرافنا عن الإسلام خفضنا ، وإقبالنا عليه رفعنا . فلنقبل عليه إذن ولنترك الانحراف ، وأما ما يقوله السلبيون من المسلمين فالرد عليه ما يلى :

١ - إنَّ فهمكم للحديث الذى استشهدتم به خاطئ . فالحديث يخاطب الصحابة مبيِّناً لهم أنَّ الكمال ما كان عليه الإسلام فى عهده صلى الله عليه وسلم ، وأنهم سيرون النقصان يوماً بعد يوم - أى فى جيلهم - أما بالنسبة للأمة الإسلامية فالرسول ﷺ يقول : « أُمتى مثل المطر لا يُدرَى آخره خير أم أوله » (٢) ، بل على عكس ما فهموه فالآثار عن الرسول ﷺ تشهد أنَّ

---

(١) النحل : ٨٩ .

(٢) رواه ابن عساكر عن عمرو بن عثمان مرسلاً بلفظ : « أمتى أمة مباركة لا يُدرى أولها خير أو آخرها » ، ورمز السيوطى لحسنه ، قال صاحب الفيض المناوى : « تنبيه : الأمة جمع ، لهم جامع من دين أو زمان أو مكان أو غير ذلك فإنه مجمل يطلق تارة ويراد بها كل مَن كان مبعوثاً إليهم من نبى آمنوا به أو لم يؤمنوا ويسمون أمة الدعوة ، وأخرى ويراد بهم المؤمنون به المذعنون له وهم أمة إجابة وهذا المراد هنا » .

المستقبل للإسلام . يقول عليه الصلاة والسلام : « إنَّ اللّٰه زوى لى الأرض فرأيتُ مشرقها ومغربها ، وأن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها » [(١)] ، ويقول : « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك اللّٰه بيت مدر ولا وبر إلا أدخله اللّٰه هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز اللّٰه به الإسلام وذلاً يذل به الكفر » [(٢)] . وكلا الحديثين صحيح ، وفى كُلٍّ بشارة بقيام دولة الإسلام العالَمية ، إذ لا تكون الذِلَّة للكفر إلا إذا كانت السُلطة للمسلمين ، ويتوهم بعض الناس أنَّ ذلك كائن حين نزول المسيح إلى الأرض قبيل قيام الساعة ، وذلك خطأ لأنَّ بعض الروايات تذكر أنَّ مظهر العِزَّة أخذ الجِزية من الكافرين ، ويوم ينزل عيسى لا يقبل جِزية .

وفى حديث صحيح آخر يحدثنا الرسول ﷺ أنَّ لنا جولة غالبة مع روما ، يقول أبو قبيل : « كنا عند عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص وسُئِل أى المدينتين تُفتح أولاً - القسطنطينية أو رومية ؟ - فدعا عبد اللّٰه بصندوق له حلق قال : فأخرج منه كتاباً قال : فقال عبد اللّٰه : بينما نحن حول رسول اللّٰه ﷺ نكتب إذ سُئِل رسول اللّٰه ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً - القسطنطينية أو رومية ؟ - فقال رسول اللّٰه ﷺ : « مدينة هرقل تُفتح أولاً » يعنى : قسطنطينية [(٣)] . وقد نكون نحن فى نهاية عهد الانحراف عن الإسلام الذى سبب انكماشه انحطاط المسلمين ، وفى مرحلة المخاض لانطلاق عظيم ، فقد تحدُث الرسول عليه الصلاة والسلام عن

---

(١) قطعة من حديث رواه الترمذى عن ثوبان رضى اللّٰه عنه فى كتاب « الفتن » باب « ما جاء فى سؤال النبى ﷺ ثلاثاً من أمته » ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

(٢) رواه أحمد والطبرانى عن تميم الدارى ، وأخرج الطبرانى نحوه عن المقداد أيضاً ، قال الهيثمى : رجال أحمد رجال الصحيح ، والمدر : أهل القرى والأمصار ، واحدتها : مدرة ، والوبر : أهل البوادى والمدن والقرى .

(٣) أخرجه الدارمى فى « السنن » وأحمد فى « المسند » عن عد اللّٰه بن عمرو بن العاص مرفوعاً .

مراحل الحكم التى تمر بها الأمة الإسلامية ، والذى يبدو أننا الآن فى المرحلة السابقة على المرحلة الأخيرة ، وهذا يعنى أننا الآن فى أواخر عهد الانحراف .

يقول عليه السلام فى الحديث الصحيح : « إنَّ أول دينكم نبوة ورحمة ، وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله جَلَّ جلاله ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جَلَّ جلاله ، ثم تكون مُلكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله جَلَّ جلاله ، ثم يكون مُلكاً جبرية فتكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله جَلَّ جلاله ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل فى الناس بسُنَّة النبى ، ويلقى الإسلام بجرانه فى الأرض ، يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض ، لا تدع السماء من قَطْرٍ إلا صبَّته مدراراً ، ولا تدع الأرض من نباتها ولا بركاتها شيئاً إلا أخرجته » [(١)] .

فالذى يبدو أنَّ المُلك العاض قد انتهى بانتهاء السلطنة العثمانية ، ويبدأ المُلك الجبرى من ذلك الوقت حتى الآن وهو لا زال مستمراً ومظهره تلك الانقلابات الكثيرة التى بها توصل أصحابها إلى الحكم غصباً عن إرادة شعب ، وبدون رأى أمة . ديكتاتوريات بدأها « كمال » فى تركيا وتتابعت فى كل مكان ، ولكن اليقظة الإسلامية الحالية تُبشِّر بأنَّ ذلك لن يطول إن شاء الله . وعلى كلِّ حال سواء أطالت المدة أو قصرت فقضية العمل الإسلامى بشكل عام لا تعالَج بهذه الطريقة المتخاذلة التى ألمعنا إليها أول البحث ولا يعالجها بها إلا جاهل غير بصير بما كلَّف الله به عباده .

---

(١) رواه الدارمى فى « الأشربة » بسنده إلى أبى عبيدة بن الجراح قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أول دينكم نبوة ورحمة ، ثم مُلك ورحمة ، ثم ملك أعفر ، ثم ملك وجبروت يُستحَل فيها الخمور والحرير » ، ورواه أيضاً أبو يعلى والبزار بنحوه ، وأخرجه الطبرانى عن معاذ وأبى عبيدة ، ورواه أحمد فى مسنده واللفظ له .

إنَّ كل جيل من أجيال المسلمين مكلَّف بإقامة هذا الإسلام ، والجهاد من أجله حتى تكون كلمة الله هى العليا فى العالَمين ، وعلى كل جيل أن يحقق الإسلام فى ذاته تحقيقاً كاملاً ، وعلى كل جيل أن يهئ من الوسائل ما يساعده على ذلك ، وعلى كل فرد من أبناء كل جيل أن يقوم بدوره على قدر ما آتاه الله من مواهب فى هذا : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ (١) ، متناسياً ذاته جاعلاً كل شئ خلفه : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً ﴾ (٣) ، ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) .

فإذا ما كان كل جيل مكلَّفاً ، وإذا ما كان فرد فى الجيل مكلَّفاً ، فنحن أبناء هذا الجيل من المسلمين مكلَّفون بصرف النظر عن كوننا سنحقق كل شئ ، فنكون منصورين ، أو يتحقق ذلك على يد غيرنا ، فيكون لنا شرف المشاركة فى الطريق ، وإن لم نصل الغاية : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ (٥) ، إنَّ الله تعبدنا بالعمل ، ولم يتعبدنا بالنصر ، وإن كان النصر فى كثير من الأحيان دليلاً على استفراغ الجهد ، وصدق النيَّة ، وتحقيق السُنَنَ : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) .

(جـ) ومن وجهات النظر السلبية فى العمل الإسلامى : وجهة النظر اليائسة المتهالكة التى تقول : انتهى كل شئ وعجزنا ، وعلى الله أن ينصر دينه .

---

(١) الطلاق : ٧ (٢) التوبة : ٢٤ (٣) التوبة : ٣٩

(٤) القصص ٨٣ (٥) الأحزاب : ٢٣ (٦) الروم : ٤٧

ويستسلمون للواقع المر وينسون قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (٢) ، أو قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٣) ، أو قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ (٤)

وقد يصل الحال بأهل هذه الوجهة من النظر أنهم يُسلِّطون أشد ما عندهم من نقد علي الحركات الإسلامية الجهادية فيتقمصون بذلك شخصية المعوق من حيث يدرون أو لا يدرون : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ (٥) إِلَّا قَلِيلاً # أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم (٦) بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٧) .

إنَّ هذه الطائفة عندما تتبنى هذه الوجهة من النظر إنما تدلل على هلاكها قبل كل شئ ، وليس على هلاك المسلمين . يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح : « مَن قال : هلك المسلمون ، فهو أهلكهم » (٨) - بضم الكاف أو فتحها - إنَّ المسلم متفائل أبداً ، وكيف لا يكون كذلك والله يأمره : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٩) ، وإذا كان الله مع الإنسان فكيف

---

(١) الرعد :١١ (٢) محمد : ٤ (٣) محمد : ٣١

(٤) التوبة : ١٤ - ١٥ (٥) البأس : الحرب والقتال .

(٦) سلقوكم : آذوكم ورموكم (٧) الأحزاب : ١٨ - ١٩

(٨) رواه مالك وأحمد ومسلم وأبو داود والبخارى فى « التاريخ » عن أبى هريرة به مرفوعاً ، وهو عند أبى نعيم فى الحلية بلفظ : « فهو من أهلكهم » ، وبهذا تترجم رواية الرفع على غيرها كما قال فى « الفيض » . (٩) التوبة : ٣٦

يُغلب ؟ : ﴿ إن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٢) .

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُواْ بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ ، إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ (٤) ، ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٥) ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ ﴾ (٦) ، ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٧) .

وهناك وجهات نظر أخرى هى فى حقيقتها وجهات نظر بررها الشيطان وسوّل لأصحابها كى يسيروا فى طريقه مساعدين داعمين عاملين على إقامة الجاهلية من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

فمن هؤلاء مَن أعطى ولاءه لنظام غير ملتزم بالإسلام بحُجَّة أنَّ هذا النظام لا يتعارض مع الإسلام ، ومسألة عدم التعارض بين الأنظمة والإسلام مسألة يدّعيها كل زعيم فى العالَم الإسلامى ، وكل حكم وهيهات أن يكون كذلك ، ومع هذا - وحتى لو كان ذلك كذلك - فإنَّ المسألة ليست كما يتصوَّرون . إنه لا يجوز للمسلم أن يؤيد نظاماً سياسياً إلا بشرطين :

١ - عدم تعاوض هذا النظام مع الإسلام .

٢ - أن يحقق هذا النظام الإسلام .

---

(١) آل عمران : ١٦٠ . (٢) آل عمران : ١٤٠ . (٣) الأعراف : ١٢٨

(٤) الأعراف : ١٣٧ (٥) القصص : ٥ (٦) النور : ٥٥

(٧) التوبة : ٣٣

فقد يوجد نوع من الأفكار السياسية لا يتعارض مع الإسلام ولكنه فى نفس الوقت لا يحقق فى حال انتصاره شيئاً من أنظمة الإسلام ، وفى حال عدم تحقيقه شيئاً من أنظمة الإسلام فإنه يحقق شيئاً آخر ، وذلك هو الكفر والظلم والفسوق، وكم التبس على المسلمين هذا المعنى ، فترى بعضهم يناقشون ليل نهار دفاعاً عن حزبهم أو الحكم الذى يؤيدونه ، أو الأفكار السياسية التى يحملونها بأنها لا تتنافى مع الإسلام ، وكأن هذا هو كل شئ ، نعم .. فى حال صدقهم قد يكونون أقل خطراً من غيرهم ، ولكنهم مع هذا خطرون ، فما لم يكن إلتزاماً بالمضمون الإسلامى كله كما ألزم اللّٰه فلا إسلام ، وقد يحتجون بوجود أقليات غير مسلمة ، وهذه حُجَّة عليهم لا لهم ، فليس هناك عقل فى العالَم يقول إنَّ على الأكثرية أن تتخلى عن عقيدتها ونظامها وفكرها الذى تراه صحيحاً من أجل الأقلية ، وإنما يُقال إنَّ على الأقلية أن تخضع للنظام الذى ترتأيه الأكثرية وتطبقه على نفسها بروح العدل الذى لا يُظلم فيه أحد ، ولم تُرحم أقليه فى العالَم كما تُرحم أقليه غير مسلمة فى أرض إسلامية . فإنَّ فقهاء المسلمين يذكرون أنَّ ظلم غير المسلم المقيم فى أرض الإسلام بعقد بينه وبين المسلمين ، أشد من ظلم المسلم ، ثم إنَّ هذه الأقليات لم تبق فى أرض المسلمين إلا بالتزامها الرضا بحكم الإسلام .

- ومن هؤلاء مَن يعجب بزعيم سياسى فى أرض الإسلام فيعطيه ولاءه بحُجَّة أنَّ هذا الإنسان يعمل لخدمة وطنه ، أو بحجة أنه عبقرى وذكى ، أو بحجة أنه بطل عظيم ، أو بغير ذلك من الحُجَج .

تُرى بالنسبة للمسلم : هل الوطن هو الهدف مهما كان نوع هذا الهدف ، أو الهدف هو عقيدة هذا الوطن ؟

ولِمَ هاجر الرسول ﷺ من مكة ؟ ولِمَ لا يتحد المسلم دار الحرب إذن وطناً ؟ يقول اللّه تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ (١) .

فليست خدمة الوطن هى الهدف ، بل خدمة الإسلام فى الوطن هى الهدف ، وعندما يخدم الإسلام يخدم الوطن .

وهذا هو الفارق بين الزعامة المسلمة والزعامة الكافرة ، فإذا كان الهدف هو خدمة الوطن على أى نظام وبأى طريقة ، فكل زعامة كافرة فى العالَم تفعل هذا والأرض أرض كلها ، أفيُعطَى ولاء المسلم لمن يخدم وطنه أكثر من بين هذه الزعامات ، ولو كان عدواً لدينه ووطنه ؟ والشيطان عبقرى وذكى أفنعطيه ولاءنا ؟

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً ، إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢) .

إنَّ الشرط الأساسى كى نعطى ولاءنا لإنسان هو الإسلام ، ولا يعنى هذا ألا نشترط بقية الشروط التى تُشترط فى القيادة الإسلامية ، كالبطولة ، وحدَّة الذكاء ، وخدمة الوطن ، ولن يعقم المسلمون عن إخراج هذا منهم ، لقد حدَّد اللّه لنا مَن يجوز أن نعطيه ولاءنا ومَن لا يجوز :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ # وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الغَالِبُونَ ﴾ (٣) .

﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ باللّه وَاليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ

(١) النساء ٦٦ (٢) فاطر : ٦ (٣) المائدة : ٥٥ - ٥٦

كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمْ الإيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّات تَجْرِى من تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالدينَ فيهَا ، رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ، أُوْلَئكَ حِزْبُ اللَّه ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّه هُمُ المُفْلحُونَ ﴾ (١) ، ﴿ بَشِّرِ المُنَافقينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَليماً # الَّذينَ يَتَّخذُونَ الكَافرينَ أَوْلِيَاءَ من دُون المُؤْمنينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزَّةَ فَإِنَّ العزَّةَ للَّه جَميعاً ﴾ (٢) ، وقد حكم الله على من لم يحكم بكتابه بأنه كافر ، ونحن نعلم الخلاف فى ذلك . إذ يقول بعضهم : هذا فى حالة الجحود ، لكن النتيجة واحدة من الناحية العملية ، فكيف يعطى المسلم ولاءه لنظام كافر خاصة إذا تحقق صاحبه بصفات المنافقين : ﴿ المُنَافقُونَ وَالمُنَافقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بالمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَن المَعْرُوف وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إنَّ المُنَافقينَ هُمُ الفَاسقُونَ ﴾ (٣) .

ويحتج بعض هؤلاء بقولهم : إنَّ هذا الذى أعطيناه ولاءنا أقل شراً من غيره ، وبهذه الحُجَّة يبقى أكثر المسلمين غير موالين لله ، ويبقى الزعماء المنحرفون متمادين فى غيهم ، إذ يرون حولهم أنصاراً ، تُرى لو كان كل مسلم لا يعطى ولاءه إلا لمسلم ملتزم بالإسلام ، أفلا يجعل هذا هؤلاء الزعماء الفاسدين يلتزمون بالإسلام ولو نفاقاً ، أو يقوم الإسلام والزعامة الإسلامية الراشدة بالأمر والمسلمون أكثرية ؟؟

لقد رأينا ناساً مسلمين أعطوا ولاءهم السياسى لزعماء أعداء للإسلام ، وبعضهم بقى فى الحكم سنين طويلة كان من أثرها أنَّ الجيل الذى تخرَّج خلالها لا يعرف إسلاماً ، ولا يشم منه ريحه ، فهل كان هؤلاء مسلمين وهم يؤيدون زعماء وأنظمة تقتل الإسلام قتلاً ، سواء أكان القتل قتلاً سريعاً أو بطيئاً ؟

وهناك وجهة نظر يطرحها اثنان : الأول فاسق لا شك فى فسوقه أو ردَّته ويصوغ المسألة كما يلى : إنَّ القوَى التى تحارب الإسلام قوية وخطيرة ،

---

(١) المجادلة : ٢٢ (٢) النساء : ١٣٨ - ١٣٩ (٣) التوبة : ٦٧

ولذلك فعلينا أن نترك الجهر بالإسلام الآن حتى تأتى لحظة يُتاح لنا فيها أن نفعل ما نريد ، يقول هذا لخداع المسلمين العاديين الطيبين ، ومن ناحية أخرى يلاحق كل نشاط إسلامي ، ويفتح باب العمل على مصراعيه للكافرين . وقد تولى القرآن الرد على أمثال هؤلاء فقال : ﴿ وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١)

إنَّ الذى يقول هذا الكلام ما عرف الله ، ولا عرف الواقع ، لقد رسخت فى العالَم أنظمة مختلفة متباينة رغم كثرة أعدائها عندما صمم أتباعها على تبنيها وكان صفهم منيعاً .

فلماذا لا نستطيع نحن المسلمين أن نتبنى إسلامنا فى أرضنا . أليس كلامهم هذا دليلاً على أنهم لم يتحرروا ولم يستقلوا بعد ؟

إنَّ الحاكم أو الحزب الذى يطرح هذه الفكرة ويتبناها ، هو الذى يجعلنا طمعاً للطامعين لأنه بتنحيته للإسلام سيتبنى غيره ، وغيره سيتبنى غيره ، وسينتج عن هذا صراع فى الداخل تدعمه جهات فى الخارج يكون من آثار هذا ضياع العباد والبلاد ، أما لو حدث العكس ، فإنَّ الداخل سيكون منيعاً لأنَّ النظام السياسى فى الإسلام لا يسمح بأن يكون هناك تخلخل داخلى ، وإذا ما كان الصف الداخلى متيناً عسر على الآخرين تحطيم النظام ، وعندئذ يصبح العالَم أمام الأمر الواقع ، وعندئذ تكون المصالح وحدها هى أداة الاتصال والافتراق . هذا إذا نظرنا إلى المسألة فى حدود قُطر واحد ، أما إذا نظرنا إليها على مستوى العالَم الإسلامى ، فإنَّ المسألة وقتذاك تتغير ، إننا لا نحتاج فى هذه الصورة للغير إلا ضمن حدود ، ولكن الآخرين يحتاجون إلينا بلا حدود ، فلا مبرر للخوف .

* * *

ويطرحها الثانى بشكل آخر فيصوغها كما يلى : إننا نحن المسلمين الذين فهمنا الإسلام فى كل قُطر إسلامى قليلون ، والقُوَى التى تحاربنا أقوى منا ، وعلينا نتيجة لهذا أن نستتر إسلامنا أو أهدافنا أو أعمالنا .

---

(١) القصص : ٥٧

والحقيقة أنَّ المسألة فى شقها الأول صحيحة تماماً ، ولكنها فى شقها الثانى تحتاج إلى نقاش ، إنَّ ستر إسلامنا يعنى إنهاءه ، ويعنى الجمود فى عملية تبليغه ، ويعنى الخوف منه ، وهذا لا يجوز أبداً أن نفكر فيه .

إنَّه لا يجوز للمسلم أن يستر إسلامه وهو يستطيع إظهاره إلا فى حدود ضيقة تُقدَّر بقدرها ، ويُقدِّرها العلماء الفقهاء ..

إنَّ الذى ينبغى أن يكون هو الأساس ، هو الجهر بالإسلام ، والقيام بتبليغه ، والعكس عارض ، وهذا وحده ضمان استمرار إسلامنا ، أما ستر أهدافنا البعيدة ، أو ستر تنظيماتنا خاصة فى البلاد التى فقد المسلمون فيها حقهم السياسى فى العمل ، فهذه تحتمل وتحتمل ، وبعضهم لا يراها .

* * *

والآن وقد ناقشنا وجهات النظر الموجودة عند طبقات من المسلمين والتى تؤخر المسلم عن الجهاد السياسى ، ورأينا خطأها . نقول :

إنَّ على المسلمين فى كل قُطر أن يكونوا يداً واحدة ، وهذه فريضة ، وأن تكون لهم قيادة واحدة ، وهذه فريضة ، وأن يعدوا العُدَّة كاملة لقيام حكم إسلامى ، ولاستئصال كل ما عداه ، وهذه فريضة ، وأن يمدوا أيديهم لإخوانهم فى الأقطار الأخرى ، وهذه فريضة ، وأن يقيموا وحدتهم ، وهذه فريضة ، وأن يوجدوا خليفتهم ، وهذه فريضة ، وأن يعبئوا طاقتهم ، وهذه فريضة ، وأن ينشروا الإسلام فى العالَم كله ، وهذه فريضة .

وليضع كل منا هواه جانباً ، وليمد يده إلى إخوانه المسلمين ليتعاونوا من أجل وضع الأسس الصحيحة لتحقيق هذه الفرائض ، ولنترك الجدال فى أمر هو معلوم من الدين بالضرورة . فقد كفانا ما نالنا من ذلّة لترك الجهاد حين يجب الجهاد ، ومَن أراد اللّه لم يُحرم أجراً أو نصراً .

* * *

خامساً - الجهاد المالى

هذا خامس أنواع الجهاد ، وهو كالشرط للأنواع الأربعة السابقة فى العمل العام ، ولا يقوم نوع من أنواع الجهاد إلا به ..

الجهاد التعليمى يحتاج إلى مال من أجل الكتب ومن أجل تفرغ المعلمين .

والجهاد اللسانى يحتاج إلى مال من أجل الكتب والنشرات والجرائد والمجلات و .....

والجهاد باليد بأنواعه كلها يحتاج إلى المال للسلاح والعتاد والإنفاق على أسر الشهداء .

والجهاد السياسى يحتاج إلى مال للمتفرغين والاختصاصين ولإيجاد وسائل القوة .

إنَّ الجهاد بدون مال يتعطل ، لذلك قرن اللّٰه الجهاد بالمال بالجهاد بالنفس فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (١) .

وقد مرَّ معنا الحديث الذى يأمرنا به عليه الصلاة والسلام أن نجاهد المشركين بالمال والنفس واللسان .

والمسلمون درجات ، فمنهم مَن يستطيع أن يجاهد بماله فقط ، ومنهم مَن يستطيع أن يجاهد بنفسه فقط ، ومنهم مَن يستطيع أن يجاهد بعلمه فقط ، ومنهم مَن يستطيع أن يجاهد بلسانه فقط ، ومنهم مَن يستطيع أن يجاهد سياسياً فقط ، ومنهم مَن يستطيع أن يجاهد كل أنواع الجهاد ، ولا يكلّف اللّهُ نفساً إلا وسعها .

---

(١) التوبة : ١١١

ومَن جرَّب المسلمين عرف أنَّ المسلمين لا يبخلون بالمال إذا اقتنعوا ووُجِدَ المشروع المناسب ، ولذلك فعلى القائمين بأمر الجهاد أن يحددوا مشروعاتهم الجهادية التى تحتاج إلى مال ويجزئها ، ثم فليطرحوا المشروع بشكل لبق ، ولن يعدموا فى هذه الحالة مسلمين يحملون المشروع بأموالهم .

فمثلاً نجد كثيراً من المسلمين عندهم استعداد للمساهمة فى نشر كتاب ، أو إنشاء مجلة ، أو الإنفاق على متفرغ للتعليم أو .... فعلى القائمين بأمر الجهاد أن يعرفوا كيف يؤمِّنون المال اللازم لمشاريعهم .

والجهاد بالمال غير الزكاة ، ولكن بالإمكان أن ننفق الزكاة على بعض طُرق الجهاد . فمثلاً لو كان إنسان فقيراً وأردنا أن نُفَرِّغه للعلم والتعليم ، يمكن أن ندفع له راتبه من الزكاة ، وكذلك لو أردنا أن نُسلِّح إنساناً فقيراً أو ننفق عليه وهو يجاهد فى سبيل الله ، وقد تفرَّغ لهذا الشأن ، وليس لديه فائض مال . أو عليه ديون ولو مهر زوجته ، فكل هؤلاء يمكن أن يُدفع لهم من الزكاة ، وإذن فبالإمكان أن يُستفاد من الزكاة لإقامة كثير من مشاريع الجهاد .

والمال الذى يُنفق فى سبيل الله لصاحبه أجره العظيم عند الله ..

روى الترمذى والنسائى عن رسول الله ﷺ : « مَن أنفق فى سبيل الله كتبت له بسبعمائة ضعف » .

وروى مسلم والنسائى عن أبى سعيد قال : « جاء رجل بناقة مخطومة إلى النبى ﷺ فقال : هذه فى سبيل الله ، قال ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة » .

وللستة إلا مالكاً عن رسول الله ﷺ : « مَن جهَّز غازياً فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا » .

* * *

وأخيراً :

هذه أنواع خمسة من الجهاد مَن استطاع أن يتحقق بها فقد تحقق بالصفة الخامسة من الأخلاق الأساسية في الإسلام وبذلك يكون من حزب الله .

إنَّ اللّه عَزَّ وجَلَّ قد جعل حزب اللّه قوّاماً على البَشرية ، ووصياً عليها ، وأعطاه الصلاحيات الكثيرة ، ومنحه إخضاع العالَم لسلطان ربه ، وحزب اللّه لا يستحق هذا إلا بتحققه بهذه الصفات الخمس التى رأيناها .

- قد جرر أفراده ولاءهم للّه والرسول والمؤمنين .
- قد أحب افراده اللّه من كل قلوبهم وعملوا لذلك وأحبهم اللّه .
- قد أصبحت الذِلّة على المؤمنين طبعاً لهم .
- وأصبحت العزّة على الكافرين طبعاً لهم .
- وجاهدوا بألسنتهم ، وجاهدوا بأنفسهم ، وجاهدوا بأموالهم فى سبيل اللّه ، لم يصرفهم عن ذلك حوف لائم .

بذلك استحق حزب اللّه ما استحق فى الدنيا والآخرة .

وعلى ذلك وُعِدَ النصر والغَلَبة والفلاح.

ولأنَّ أصحاب رسول اللّه ﷺ كانوا كذلك رزقهم اللّه النصر تلو النصر .

وإذا وُجِدَ حزب اللّه من جديد فاللّه عَزَّ وجَلَّ وعده النصر .

* * *

اقتراحان :

١ - ونقترح من أجل تربية المسلمين على هذه الصفات الخمس أن يدرسوا هذا الكتاب بالذات دراسة متواصلة خلال دورة تستغرق فترة من الزمان ، يترافق فى هذه الدورة العلم والتطبيق والعمل .

٢ - نقترح أن تتفق كل مجموعة من المسلمين بعد تحصيلها هذه التربية العالية أن يكون لها مؤتمر كل شهر أو كل أربعين يوماً أو كل أسبوع ، تتفق فيه على ماذا ستفعله من الجهاد خلال هذه الفترة من :

(أ) أعمال الجهاد اللسانى .

(ب) أعمال الجهاد التعليمى .

(جـ) أعمال الجهاد باليد .

(د) أعمال الجهاد السياسى .

(هـ) التبرع للجهاد المالى .

فإذا انتهت المدة تدارست هذه المجموعة ماذا حققته مما التزمت به ثم رسمت خطتها للأيام التالية .

* * *

وبعد ......

هذه الصفات الأساسية الخمس لحزب الله يجمعها شيئان : العبودية لله ، والبأس الشديد .

وما كتبنا ما كتبناه من شرح لهذه الصفات الخمس إلا ليخرج معنا الجيل المتحقق بالعبودية لله والبأس الشديد ، لأنه الجيل الوحيد الذى سيكون بيده حل مشاكل الأمة الاسلامية كلها ومن جملتها قيام دولة لليهود فى فلسطين .

قال تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيراً # فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ [١] خِلاَلَ الدِّيَارِ [٢] ، وَكَانَ وَعْداً

(١) فجاسوا : ترددوا لطلبكم باستقصاء .

(٢) خلال الديار : وسطها .

مَّفْعُولاً # ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً # إِنْ أَحْسَنتُم أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ، وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُؤُواْ [١] وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ [٢] مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً # عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ [٣] .

إن عدتم إلى العلو فى الأرض والإفساد والاستيلاء على بيت المقدس والمسجد ، عدنا بتسليط عباد لنا أُولى بأس شديد عليكم فجاسوا خلال الديار ودخلوا المسجد الأقصى . ومَن تأمل ما قبل : ﴿ وَإِن عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [٤] يمكن أن يفهم الآن هذه الآيات فهماً آخر غير ما فسَّره به المفسرون قديماً . إنَّ المفسِّرين لم يكونوا أمام واقعنا الحاضر من علو بنى إسرائيل فى الأرض وإفسادهم واستيلائهم على بيت المقدس . ففسَّروا الآيات بأنها قد وقعت ، ولكن نظرة إلى الآيات من جديد ترينا ما يلى :

١ - أنَّ الآيات أشارت إلى علو رافقه فساد ، وفى الماضى لم يجتمع لبنى إسرائيل علو وفساد ، بل كان علوهم عندما كان يحكمهم رسلهم ، وذلك علو وصلاح ، أما فى عصرنا فقد رافق علوهم فساد ، يدرك هذا مَن قرأ بروتوكلات حكماء صهيون وأمثاله .

٢ - الآيات أشارت إلى « عباد اللّه ومسجد » ، فالأولى أن نفهم ذلك بالعبودية الخاصة المرتبطة بالمسجد ، وهذه لم تكن للفرس الوثنيين الذين سُلِّطوا علي اليهود أكثر من مرة .

---

(١) ليسؤوا وجوهكم : ليحزنوكم حزناً فى وجوهكم .

(٢) ليتبروا : ليهلكوا أو يدمروا .

(٣) الإسراء : ٤ - ٨ (٤) الإسراء : ٨

٣ - الآيات أشارت إلى أنَّ اليهود يصبحون أكثر نفيراً ، وما كان اليهود أكثر نفيراً من الفُرس ، أما الآن فقد استطاعوا أن يستنفروا أُمم الأرض .

٤ - الآيات أشارت إلى إمداد اليهود بالأولاد والأموال ، واليهود الآن يملكون من المال ما لا يملكه غيرهم .

كل هذه المعانى تجعلنا نُرجِّح أنَّ الآيات نبوءة قرآنية تحققت بعض معانيها فى عصرنا ، ويكون الذين سيُجلون اليهود هذه المرة ناساً جمعوا بين صفة العبودية لله ، والبأس الشديد ، ولا يكون هذا إلا للمسلمين ، ولن يتم هذا للمسلمين إلا إذا طهَّروا أرض الإسلام ، وأعادوا بناء وحدتهم ودولتهم وقوتهم بحيث يستطيعون معها أن يجابهوا كل مَن تستطيع دولة اليهود استنفاره ، وهذا لا يتم بشيوعية ، ولا قومية ولا غيرها ، لأنَّ الشيوعية لا توافق على زوال اليهود ، ولأن القومية لا تستطيع مجابهة مَن وراء إسرائيل ، فالإسلام وحده هو الحل بقوة المسلمين جميعاً وإمكانياتهم جميعاً ، ولما كانت المسألة هى واقعة عصرنا ، ومدار تفكيرنا ، وحلها لا يكون إلا بإعادة صياغة جيلنا تربية وسلوكاً ، ذكرناها هنا لأنه جزء مما على حزب الله أن يعمله ، ونسأل الله أن يتقبل ويرضى ويغفر وينصر ويوفق ، ويجعلنا من أهل الجنة ، ويقينا عذاب النار بفضله وكرمه .... آمين .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

القسم الأول : جند الله ثقافة

(٥٩ - ١٨٨)

القسم الثانى : جند الله أخلاقاً

(١٨٩ - ٣٠٥)

الصفحة

الصفحة

* * *

كتب للمؤلف

١ - اللّٰه .. جَلّ جلاله .

٢ - الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم (جزآن معاً) .

٣ - الإسلام (أربعة أجزاء معاً) .

٤ - من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك .

٥ - جند اللّٰه .. ثقافة وأخلاقاً .

٦ - جند اللّٰه .. تخطيطاً .

٧ - تربيتنا الروحية .

٨ - فى آفاق التعاليم .

٩ - جولات فى الفقهين .. الكبير والأكبر وأصولهما.

١٠ - المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين

١١ - هذه تجربتى .. وهذه شهادتى .

* * *

رقم الإيداع
٩١/٨٦٠٩
I. S.B. N
977-00-2320-5

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

للمؤلف

١ ـ الله جل جلاله .
٢ ـ الرسول صلى الله عليه وسلم (جزآن معاً) .
٣ ـ الإسلام (أربعة أجزاء معاً) .
٤ ـ جند الله ثقافة وأخلاقاً .
٥ ـ من أجل خطوة إلى الأمام
على طريق الجهاد المبارك .
٦ ـ تربيتنا الروحية .
٧ ـ ن آفاق التعاليم .
٨ ـ جولات فى الفقهين الكبير والأكبر .
٩ ـ المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين .
١٠ ـ هذه تجربتى .. وهذه شهادتى .
١١ ـ جند الله .. تخطيطاً